

« تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةٍ »

المجمل الحميم

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الحادي عشر

تحقيق وتعليق

الشيخ محمد بن عبد الرحمن السبكي

عبد بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : ٥٦١
رقم التصنيف :

« تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةٍ »

المحضر الوحي

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الحادي عشر

تحقيق وتعليق

السيد محمد الوحي السيراني

عبد بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

٢١٢
٢٢٤

١٧٥

الطبعة الأولى

الدوحة : ربيع ثاني ١٤٠٦ هـ
ديسمبر ١٩٨٥ م

«تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلاً
وبحثاً ، وأبعد عن البدع بل هو خير منه بكثير ، بل
لعله أرجح هذه التفاسير» .

(ابن تيمية)

«لَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمْحِصِ ، وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ
عَبْدُ الْحَقِّ بِنِ عَطِيَّةٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ ، فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ
كُلَّهَا ، وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا» .

(ابن خلدون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الحادي عشر

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَتَّخِذُ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة الفرقان

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقال الضحاك : هي مدنية ،
وفيهما آيات مكية ، قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾
الآيات (١) .

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة : هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ،
وهي : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ
 مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ
 كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
 وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

[تَبَارَكَ] وزنه تفاعل ، وهو فعل مضارع (بَارَكَ) ، من البركة ،
 و (بَارَكَ) فاعل من واحد، ومعناه : زاد، و [تَبَارَكَ] فعل مختص بالله
 تعالى ، لم يستعمل في غيره ، ولذلك لم يصرف منه مستقبل ،
 ولا اسم فاعل ، وهو صفة فعل (١) ، أي : كثرت بركاته ، ومن جملتها
 إنزال كتابه الذي هو الفرقان بين الحق والباطل ، وصدر هذه الآية
 إنما هو ردُّ على مقالات كانت لقريش ، فمن جملتها قولهم : « إن
 القرآن افتراه محمد ، وإنه ليس من عند الله » ، فهو ردُّ على هذه
 المقالات .

(١) هو صفة فعل على التأويل الذي ذكره ابن عطية ، وقد يكون صفة ذات ولكن
 على التأويلات الأخرى التي ذكرها المفسرون ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : تبارك :
 لم يزل ولا يزول ، وقال الخليل : تمجّد ، وقال الضحاك : تعظّم .

وقرأ الجمهور : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ ، وقرأ عبد الله بن الزبير : ﴿ عَلَى عِبَادِهِ ﴾ ، والضمير في قوله : [لِيَكُونَ] يحتمل أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عبده المذكور ، وهذا تأويل ابن زيد ، ويحتمل أن يكون للقرآن ، وأما على قراءة ابن الزبير فهو للقرآن ، لا يحتمل غير ذلك إِلَّا بِكُرْهِه ، وقوله تعالى : [لِلْعَالَمِينَ] عام في كل إنسي وجني ، عاصره أو جاء بعده ، وهذا مؤيد من غير ما موضع من الحديث المتواتر وظاهر الآيات ، و «الندير» : المَحْذَرُّ من الشرِّ ، والرسول من عند الله نذير ، وقد يكون النذير ليس برسول ، كما روي في ذي القرنين ، وكما ورد في رُسُل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجن ، فإنهم نذر وليسوا برسل .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية ، هي من الرَّدِّ على قريش في قولهم : «إن لله شريكاً» ، وفي قولهم : «اتخذ البنات» ، وفي قولهم في التلبية : «إلا شريك هو لك» ، وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عام في كل مخلوق ، وتقديرُ الأشياء هو حدُّها بالأمكنة والأزمان والمقادير والمصلحة والإتيان .

ثم عقب ذكر هذه الصفات التي هي للألوهية بالطعن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لهم هذه الصفات ، فالعقل يعطي أنهم ليسوا بآلهة . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُخَلِّقُونَ ﴾ يحتمل أن يريد : يخلقهم البشر بالنحت ، وهذا التأويل أشد إبداءً لخساسة الأصنام ،

وخلق البشر يجوز ، ولكن العرب تستعمله (١) ، ومنه قول زهير :
 وَلَآنْتَ تَفَرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعُضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي (٢)
 وهذا من : خَلَقْتُ الْجِلْدَ ، إِذَا عَمِلْتَ فِيهِ رِسُوماً يَقْطَعُ عَلَيْهَا ، فَالْفَرِيُّ
 هُوَ أَنْ يُقَطَّعَ عَلَى تِلْكَ الرِّسُومِ . وقوله تعالى : ﴿ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً ﴾ يريد :
 إِمَاتَةً وَلَا إِحْيَاءً ، و «النشور» : بعث الناس من القبور .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْرِنُهُ وَآعَانُهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ
 جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً
 وَأَصِيلًا ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا
 رَحِيمًا ﴾

(١) هكذا في الأصول ، ونعتقد أن الصواب : « وخلق البشر لا يجوز ، ولكن العرب
 تستعمله » حتى لا يكون هناك تناقض في الكلام ، ومع ذلك ففي اللسان أن الخلق في كلام العرب :
 ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه ، وفيه أيضاً : الخلق بمعنى التقدير ، يقال : خلق الأديم
 يخلقه خلقاً : قدره قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة أو خففاً — فقد ينسب الخلق
 إلى البشر بهذا المعنى ، وعليه جاء قول زهير .

(٢) خلقنا هنا بمعنى : قدر الأمر ، من قولهم : خلق الأديم يخلقه بمعنى : قدره
 وقاسه قبل القطع ليقطع منه ما يريد من مصنوعات كالقربة أو الخف أو المزادة ، وأما الفرى فهو
 التقطيع نفسه ، يقال : فريت الشيء أفريه فرياً : شققته وقطعته — على جهة الإصلاح —
 وأفريتته : قطعته على جهة الإفساد ، والمراد هنا الإصلاح ، ومعنى البيت : أنت تُنفذ ما تعزم
 عليه وتقدره . قال في (اللسان - فرا) : وهو مثل .

المراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قريش ، وذلك أن بعضهم قالوا : هذا كذبٌ افتراه محمد ، واختلف الناس في المُعِينِينَ لمحمد صلى الله عليه وسلم - على زعم قريش - فقال مجاهد : أشاروا إلى قوم من اليهود ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أشاروا إلى عبيد كانوا للعرب من الفرس ، أحدهم أبو فُكَيْهَةَ مولى الحضرميين ، وجبر ، ويسار ، وعدّاس ، وغيرهم . ثم أخبر الله تعالى أنهم ما جاءوا إلاّ إثمًا وزوراً ، أي : ما قالوا إلاّ بهتاناً وزوراً ، و «الزور» : تحسين الباطل ، هذا عرفه ، وأصله التحسين مطلقاً ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : «فأردت أن أقدم بين يدي أبي بكر مقدمة كنتُ زورْتُها» .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ، قال ابن عباس : يعني بذلك قول النضر بن الحارث ، وذلك أنهم قالو : كلُّ ما في القرآن من ذكر أساطير الأولين فإنما هو بسبب النضر بن الحارث المشهور في ذلك ، ثم رموا محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه اُكْتُبَها ، وقرأ طلحة بن مصرف : «اُكْتُبَها» بضم التاء الأُولى وكسر الثانية ، على معنى : اُكْتُبَتْ له ، ذكرها أبو الفتح (١) ، وقرأ طلحة : «تُتلى» بتاء بدل

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في «المحتسب» : «إن قراءة العامة : [اُكْتُبَها] ، معناه : استُكْتُبَها ، ولا يكون معناه : كُتِبَها أي : كُتِبَها بيده ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يكتب ، وهو من تمام إعجازه ... وإذا كان كذلك فمعنى : [اُكْتُبَها] إنما هو : استُكْتُبَها ، وهو على القَلْب ، أي : استُكْتُبَتْ له ، ومثله في القَلْب قراءة من قرأ : ﴿قُدِّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ ، أي : قُدِّرَتْ لهم » ، وبعد أن ساق شواهد شعرية على القلب =

الميم . ثم أمره الله تعالى أن يقول : الذي أنزله هو الله الذي يعلم سرَّ جميع الأشياء التي في السموات والأرض ، ثم أعلم أنه غفور رحيم ليُرَجِّي كل سامع في عفوه ورحمته مع التوبة والإنابة ، والمعنى أن الله غفور رحيم في إبقائه على أهل هذه المقالات والكفر لعلمهم أن يؤمنوا .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٧٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٧٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿٨٠﴾ ﴾

الضمير في قوله : [وقالوا] لقريش ، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهود ، ذكره ابن إسحق في

= في العربية قال : « وليس ممتنعاً أن يكون قوله : [اكتتبها] : كتبتها ، وإن لم يَل ذلك بيده ، إلا أنه لما كان عن رأيه أو أمره نُسب ذلك إليه ، وفي الحديث : (مَنْ اكَتَبَ ضَمِينًا كَانَ لَهُ كَذَا) ، أي : زَمِينًا ، يعني كتب اسمه في الفرض : فعلى هذا يكون [اكتتبها] أي : اكَتَبْتَهُ لَهُ . هذا هو كلام ابن جني كاملاً ذكرناه لأن ابن عطية اختصره .

السير ، وغيره ، مضمنه أن سادتهم - عتبة وغيره - اجتمعوا معه ، فقالوا : يا محمد ، إن كنت تحب الرياسة وَلَيْنَاكَ عَلَيْنَا ، وإن كنت تُحِبُّ الْمَالَ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا^(١)... فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في باب الاحتجاج عليه ، وقالوا له : ما بالك - وأنت رسول من الله - تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق تريد التماس الرزق ؟ أي : من كان رسول الله مستغن عن جميع ذلك ، ثم قالوا له : سل ربك أن ينزل معك ملكاً يُنذِرُ معك ، أو يُلقِي إليك كنزاً نُنْفِقُ منه ، أو يرُدُّ لك جبال مكة ذهباً ، أو تُزَالُ الجبال ويكون مكانها جنات تطرد فيها المياه ، وأشاعوا هذه الحاجة ، فنزلت هذه الآية .

وكتبت اللام مفردة من قولهم : ﴿ مَالٍ هَذَا ﴾ إِمَّا لِأَنَّ مُمْلِي المصحف قطع لفظه فاتبعه الكاتب ؛ وإِمَّا لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ حَرْفَ الْجَرِّ بِإِنهَاءِ الاتصال ، نحو مَنْ ، وفي ، وَعَنْ ، وَعَلَى . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ بالياء ، وقرأ حمزة ، والكسائي [نَأْكُلُ] بالنون ، وهي قراءة ابن وثاب ، وابن

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والخبر طويل تجده في السيرة ، وفي الدر المنثور ، وفيه من أسماء المشركين : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ، وغيرهم .

مُصْرَفٌ ، وسليمان بن مهران (١) . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ - وَهُمْ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ أُشِيرَ إِلَيْهِمْ - أَنَّهُمْ قَالُوا - حِينَ يَثْسِرُوا مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّحْرِ وَهِيَ الرِّثَّةُ (٢) ، فَكَأَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى تَحْقِيرِهِ ، أَي : رَجُلٍ مِنْكُمْ فِي الْخَلْقَةِ ، ذَكَرَهُ مَكِّي وَغَيْرِهِ . ثُمَّ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى مَسْلِيًّا عَنْ مَقَالَتِهِمْ فَقَالَ : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾ ، أَي : أَخْطَأُوا الطَّرِيقَ فَلَا يَجِدُونَ سَبِيلًا لِهَدَايَةِ ، وَلَا يَطِيقُونَهُ لِالتَّبَاسُهُمْ بِضَدِّهِ مِنَ الضَّلَالِ .

(١) لُقِّبَ بِالْأَعْمَشِ ، وَاعْتَادَ ابْنُ عَطِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ يَذْكُرَهُ بِلقبه ، وَاسْمِهِ سَلِيمَانَ بْنِ مَهْرَانَ ، أَبُو مُحَمَّدٍ ، أَسَدِي بِالْوَلَاءِ ، تَابِعِي مَشْهُورٌ ، أَصْلُهُ مِنْ بِلَادِ الرِّيِّ ، نَشَأَ وَتَوَفَّى بِالْكُوفَةِ ، وَكَانَ عَالِمًا بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَالْفَرَائِضِ ، وَرَوَى نَحْوَ ١٣٠٠ حَدِيثٍ ، قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ : كَانَ رَأْسًا فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَقَالَ السَّخَاوِيُّ : لَمْ يُرَ السُّلَاطِينُ وَالْمُلُوكُ وَالْأَغْنِيَاءُ فِي مَجْلِسٍ أَحَقَرَ مِنْهُمْ فِي مَجْلِسِ الْأَعْمَشِ مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِهِ وَفَقْرِهِ . (ابن سعد ، وَتَذَكُّرَةُ الْحِفَاطِ ، وَتَارِيخُ بَغْدَادَ ، وَالْوَفِيَّاتُ) .

(٢) قَالَ فِي (اللِّسَانِ - سَحْرٌ) : وَالسَّحْرُ أَيضًا : الرِّثَّةُ ، وَاجْتَمَعَ اسْمُحَارٌ ، وَسُحْرٌ ، وَسُحُورٌ ، وَقَدْ يَجْرُكُ فَيُقَالُ : سَحَّرْتُ ، مِثْلُ نَهَرَ وَنَهَّرَ ، وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي) ، أَي : مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُسْتَدٌّ إِلَى صَدْرِهَا وَمَا يَحَازِي سَحْرَهَا مِنْهُ .

وَيُظْهِرُ أَنَّ فِي الْكَلَامِ نَقْصًا ، وَأَنَّ بَعْضَهُ قَدْ سَقَطَ مِنَ النَّسَاجِ قَبْلَ قَوْلِهِ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّحْرِ ، وَمِمَّا رُوِيَ عَنِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ أَنَّ يَكُونُ الْمَعْنَى : غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِ السَّحْرُ ، أَوْ يُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ ، أَي : يُغْتَدَّى بِهِمَا ، أَوْ أُصِيبَ سَحْرَهُ ، كَمَا تَقُولُ : رَأْسُهُ ، أَي : أَصَبَتْ رَأْسَهُ .

وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي ﴾ الآية رجوع بأُمور محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله ، أي : هذه جهتك ، لا هؤلاء الضَّالُّون في أمرك ، والإشارة بـ [ذَلِكَ] - قال مجاهد : هي إلى ما ذكره في النقاش من الكنز والجنة في الدنيا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي إلى أكله الطعام ومشيه في الأسواق ، قال الطبري : والأول أظهر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأن التأويل الثاني يوهم أن الجنات والقصور التي في هذه الآية - وهوتاويل الثعلبي وغيره - يرُدُّه قوله بعد ذلك : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ (١) ، والكل محتمل .

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكرٍ وحفصٍ - ونافعٌ ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [وَيَجْعَلُ] بالجزم ، على العطف على موضع الجواب في قوله : [جَعَلَ] ؛ لأن التقدير : إن يشأ يجعل ، وقرأ أبو بكر عن عاصم أيضاً ، وابن كثير ، وابن عامر : [وَيَجْعَلُ] بالرفع والاستئناف ، وهي قراءة مجاهد ، ووجهه العطف على المعنى في قوله : [جَعَلَ] ؛ لأن جواب الشرط هو موضع استئناف ، ألا ترى أن الجمل من الابتداء والخبر قد تقع موقع جواب الشرط ؟ وقرأ عبد الله بن موسى ،

(١) قيل : لا يرُدُّه ؛ لأن المعنى به متمكن ، وهو عطف على ما حكى عنهم ، يقول : بل أتي بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة . وقد قال ابن عطية : والكل محتمل .

وطلحة بن سليمان : [وَيَجْعَلُ] بالنصب ، وهي على تقدير (أَنْ) في صدر الكلام ، قال أبو الفتح : هي على جواب الجزاء ، قالوا : وهي قراءة ضعيفة ، وأدغم الأعرج (جَعَلَ لَكَ) و (وَيَجْعَلُ لَكَ) ، وروي ذلك عن ابن محيصة .

و «القصور» : البيوت المبنية الجدران ، قاله مجاهد وغيره ، فكانت العرب تُسَمِّي ما كان من الشعر والصوف والقصب (١) بيتاً ، وتُسَمِّي ما كان بالجدران قصراً ؛ لأنه قُصر على الداخلين (٢) .

قوله عز وجل :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ^ط وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ
بَعِيدٍ سَمِعُواَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا
هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

المعنى : ليس يهم في تكذيبك مشيك في الأسواق ، بل إنهم كفرة لا يفهمون الحق ، فقوله : [بَلْ] تَرَكُ لنفس اللفظ المتقدم لا لمعناه ، على ما تقتضيه «بَلْ» في مشهور معناها ، [وَأَعْتَدْنَا] :

(١) القَصَب : كل نبات كانت ساقه أنابيب وكعوباً ، ونبات مائي من الفصيلة النجيلية له سوق طوال (الغاب البلادي) .
(٢) في القرطبي : «لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه» .

جَعَلْنَا مُعَدًّا ، وَالْعَتَادُ : مَا يُعَدُّ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، و «السَّعِيرُ» : طَبَقٌ مِنْ أَطْبَاقِ جَهَنَّمَ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ يريد : جهنم ؛ إذ اقتضاهما لفظ «السعير» ، ولفظ [رَأَتْهُمْ] يحتمل الحقيقة ، ويحتمل المجاز على معنى : صارت منهم قدر ما يرى الرائي من البعد ، إلا أنه ورد حديث يقتضي الحقيقة في هذا ، ذكره الطبري ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار بين عيني جهنم) ، ف قيل : يا رسول الله ، أول جهنم عينان ؟ فقال : (اقرأوا إن شئتم : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (١) ، وروي في بعض الآثار أن البعد الذي تراهم منه مسيرة سنة ، وروي أنه مسيرة خمسمائة سنة .

وقوله تعالى : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ لفظ فيه تجوُّز ، وذلك أن التَّغِيْظَ لا يُسْمَعُ ، وإنما المسموع أصوات دالة على التَّغِيْظِ ، وهي ولا شك احتدامات في النار كالذي يسمع في نار الدنيا ، فنسبة هذا المسموع الذي في الدنيا من ذلك نسبة الإحراق من الإحراق ، وهي سبعون درجة كما ورد في الصحيح . و «الزفير» : صوت ممدود كصوت الحمار المرجع في نهيقه ، قال النقاش : الزفير : صوت الحمار عند

(١) وأخرجه الطبراني ، وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة .

نهيقه ، وقال عبيد بن عمير : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرّ ترعداً فرائصه .

و «المكان الضيق» فيها هو مقصد إلى التضييق عليهم من المكان في النار ، وذلك نوع من التعذيب ، قال عليه الصلاة والسلام : (إِنَّهُمْ لِيُكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُكْرَهُ الْوَتْدُ فِي الْحَائِطِ) (١) ، أي : يدخلون كرهاً وعنفاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ كَمَا يُضَيَّقُ الزُّجَّ عَلَى الرَّمْحِ ، وقرأ ابن كثير ، وعبيد عن أبي عمرو : [ضَيْقًا] بتخفيف الياء ، والباقون يُشَدِّدُونَ .

ومعنى [مُتَقَرِّبِينَ] مربوطٌ بعضهم إلى بعض ، ورُوي أن ذلك بسلاسل من نارٍ ، والقرينان من الثيران : ما قُرْنَا بحبل للحرث ، ومنه قول الشاعر :

إِذَا لَمْ يَزَلْ حَبْلُ الْقَرَيْنَيْنِ بِالنَّوَى فَلَا بُدَّ يَوْمًا مِنْ (٢)

وقرأ أبو شيبه المهري صاحب معاذ بن جبل رضي الله عنه : [مُتَقَرِّبُونَ] بالواو ، وهي قراءة شاذة ، والوجه قراءة الناس ، وقوله :

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله : (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ) ، قال : (والذي نفسي بيده إنهم ليُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتْدُ فِي الْحَائِطِ) .

(٢) لم تتمكن من قراءة الكلمتين الأخيرتين في البيت - على أن الشاهد فيه هو كلمة « الْقَرَيْنَيْنِ » في الشطر الأول ، وهما الثوران اللذان قرنا بحبل واحد عند الحرث ، أو كل اثنين قرنا بحبل لأي غرض من الأغراض .

[ثُبُوراً] مصدر ، وليس بالمدعُو ، ومفعول [دَعَوْا] محذوف ، تقديره :
دَعَوْا من لا يُجيبهم ، ونحو هذا من التقديرات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أن يكون الثُبُور هو المدعُو ، كما يدعى الحسرة والويل ،
و « الثُبُورُ » قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الويل ، وقال الضحاك :
هو الهلاك ، ومنه قول ابن الزبَعْرِي :

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَايِ ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ (١)
وقوله : ﴿ لَا تَدْعُو ﴾ إلى آخر الآية معناه : يقال لهم على معنى التَّوْبِيخِ
والإعلام بأنهم مخلدون : لا تقتصروا على حُزْنٍ واحد ، بل احزنوا
كثيراً ؛ لأنكم أهلٌ لذلك .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾

(١) عبد الله بن الزبَعْرِي كان شاعر قريش ، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه ، ثم أسلم بعد فتح مكة ، وحين أسلم قال أبياتاً من الشعر ، روى منها ابن اسحق
أربعة أبيات في السيرة ، وهذا البيت واحد منها ، وأجاري : أباري وأعارض ، والسَّنَنُ
(بفتح السين المشددة والنون الأولى) : الطريق ، ومثبور : هالك . وابن عطية يستشهد بالبيت
على أن معنى الثبور هو : الهلاك .

المعنى : قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين هم بسبيل مصير هذه الأحوال من النار : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ ؟ وذلك على جهة التوقيف والتوبيخ ، ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيء لفظة التفضيل بين الجنة والنار في الخير ؛ لأنَّ الموقِفَ جائز له أن يُوقِفَ مُحاوره على ما يشاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ ، وإنما يمنع سبويه وغيره من التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما في المعنى الذي فيه تفضيل إذا كان الكلام خبراً ؛ لأنَّ فيه مخالفة ، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ (١) .

وقيل : الإشارة بقوله : [ذَلِكَ] إلى الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، وإلى القصور التي في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ

(١) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم عقب عليه بقوله : « وما ذكره بخالفه قوله : (فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ) ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ فإن هذا خبر ، وكذلك قولهم : « الْعَسَلُ أَحْلَى مِنَ الْحَلِّ » ، إلا أن تقييد الخبر بأنه إذا كان واضحاً الحكم فيه للسامع بحيث لا يختلج في ذهنه ولا يتردد أيهما أفضل ، فإنه يجوز .
وقال بعض المفسرين : إن [خَيْرٌ] هنا لا تدل على الأفضلية ، بل هي على ما جرت عليه عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابلة ، وحسان بن ثابت حين قال مخاطباً أبا سفيان : (فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ) كان يريد بيان فضل النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يُرد أبدأً أن ينسب شيئاً من الخير لأبي سفيان ، ويوسف عليه السلام لم يكن يرى في الفاحشة ما يجعله محباً لها ، وإنما أراد أن يبين مقدار حبه للسجن في هذه الأحوال التي يرى نفسه فيها ، وكلام ابن عطية على جانب كبير من الصواب ، ووجهة نظره تستحق الاعتبار ، والخبر واضح في ذهن السامع لا يتردد فيه ، وهو الشرط الذي ذكره أبو حيان .

لَكَ ﴿ ، وهذا على أن يكون الجَعْلُ في الدنيا ، وقيل : الإشارة بقوله :
[ذَلِكَ] إلى الكنز والجنة اللتين ذكر الكفار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأصحُّ أن الإشارة بقوله : [ذَلِكَ] إلى النار كما شرحنا آنفاً .
و [الْمُتَّقُونَ] في هذه الآية من اتقى الشرك ، فإنه داخل في الوعد ،
ثم تبقى المنازل في الوعد بحسب تقوى المعاصي (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدًّا مَسْئُولًا ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما - وهو
قول ابن عباس ، وابن زيد - أنه مسئولٌ لأن المؤمنين سألوه أو
يسألونه ، ورؤي أن الملائكة سألت الله تعالى تنعيم المتقين فوعدهم
بذلك ، قال محمد بن كعب : هو قول الملائكة ، وتلا ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ
جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ (٢) ، والمعنى الثاني ذكره الطبري عن بعض
أهل العربية : أن يريد وعداً واجباً قد حتمه ، فهو لذلك مُعَدٌّ أن
يُسأل ويُقتضى (٣) ، وليس يتضمن هذا التأويل أن أحداً سأل الوعد المذكور .

(١) أي : يبقى المتقون في درجات مختلفة داخل الوعد ، ودرجاتهم تختلف بحسب
درجاتهم في التقوى والبعد عن المعاصي .

(٢) من الآية (٨) من سورة (غافر) ، وقيل : هو وعد الله للمؤمنين بالجنة ، سألوه
ذلك الوعد فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ .

(٣) لأنه كالدَّيْنِ يطلبه صاحبه ، وهو واجب بدون سؤال أو طلب ، فقد أصبح حقاً
لصاحبه .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشِرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظَلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

المعنى : واذكر يوم ، والضمير في [يَحْشُرُهُمْ] للكفار ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ يريد به كل شيء عبد من دون الله ، فغلب العبارة عما لا يعقل من الأوثان لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة .
وقرأ ابن كثير ، وعاصم - في رواية حفص - ، والأعرج ، وأبو جعفر : [يَحْشُرُهُمْ] ... [فَيَقُولُ] بالياء فيهما ، وقرأ ابن عامر بالنون فيهما ، وهي قراءة الحسن ، وطلحة ، وعاصم أيضاً ، وقرأ نافع [نَحْشُرُهُمْ] بالنون [فَيَقُولُ] بالياء ، وفي قراءة عبد الله : « وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِنَا » ، وقرأ الأعرج [نَحْشُرُهُمْ] بكسر الشين ، وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس ؛ لأن (يَفْعَلُ) بكسر العين في المتعدي أقيس من (يَفْعَلُ) بضم العين (١) .

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط) تعقيباً على كلام ابن عطية : « وهذا ليس كما ذكر ، بل (فَعَلَّ) المتعدي الصحيح جميع حروفه ، إذ لم يكن للمبالغة ، ولا حلقِيَّ عين ولا لام ، =

وهذه الآية تتضمن الخبر على أن الله تعالى يوبخ الكفار في القيامة بأن موقف المعبودين على هذا المعنى ؛ ليقع الجواب بالتبري من الذنب فيقع الخزي على الكافرين .

واختلف الناس في الموقف الموجب في هذه الآية - فقال جمهور المفسرين : هو كل من ظلم بأن عبداً ممن يعقل كالملائكة وعزير وعيسى وغيرهم ، وقال الضحاك ، وعكرمة : الموقف الموجب : الأصنام التي لا تعقل ، يقدرها الله تعالى يومئذ على هذه المقالة ، ويجيء خزي الكفرة لذلك أبلغ .

وقرأ جمهور الناس : [نَتَّخِذَ] بفتح النون ، وذهبوا بالمعنى إلى أنه من قول من يعقل ، وأن هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ (١) وكقول عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ (٢) ، و ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءِ ﴾

= فإنه جاء على يفعل ويفعل كثيراً ، فإن شهر أحد الاستعمالين أتبع وإلا فالخيار ، حتى أن بعض أصحابنا خيّر فيهما سُمِعَا للكلمة أو لم يُسْمَعَا .

(١) الآية (٤٠) ومن الآية (٤١) من سورة (سبأ) .

(٢) من الآية (١١٧) من سورة (المائدة) .

– على هذه القراءة – في موضع المفعول به . وقرأ أبو جعفر ، والحسن ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وأبو رجاء ، ونصر بن علقمة ، ومكحول ، وزيد بن علي ، وحفص بن حميد (١) : [نُتَّخَذَ] بضم النون ، وتذهب هذه مذهب من يرى أن الموقف المُجيبَ الأوثان ، ويضعف هذه القراءة دخول [مِنْ] في قوله : ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ﴾ ، اعترض بذلك سعيد بن جبير وغيره ، وقال أبو الفتح : ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ﴾ في موضع الحال (٢) ، ودخلت [مِنْ] زيادة لمكان النفي المتقدم ، كما تقول : ما اتخذت زيدا من وكيل ، وقرأ علقمة : « ما ينبغي » بسقوط [كَانَ] وثبوتها أمكن في المعنى ؛ لأنهم أخبروا عن حال كانت في الدنيا ، ووقت الإخبار لا عمل فيه .

وفسر هذا المُجيبُ – بحسب الخلاف فيه – الوجهَ في ضلال الكفار ، كيف وقع ؟ وأنه لما متَّعهم الله تعالى بالنعم الدنياوية وأدرَّها لهم ولأسلافهم الأحقاب الطويلة نسوا الذكر ، أي : ما ذُكِّرَ به النَّاسُ على ألسنة الأنبياء .

(١) هو حفص بن حميد القمي بالقاف ، أبو عبد الله ، روى عن عكرمة ، وروى عنه أشعث بن إسحاق وغيره ، وثقه النسائي .
 (٢) أي : على قراءة [نُتَّخَذُ] بضم النون ، أما على قراءة الجمهور [نُتَّخَذَ] بفتح النون فإنها عنده في موضع المفعول به أيضاً ، قال : فهي كقولك : ضربت رجلاً ، فإن نفيت قلت : ما ضربت من رجل (المحتسب) .

و [بُوراً] معناه : هَلَكى ، والبوار : الهلاكُ ، واختلف في لفظه -
فقال فرقة : هي مصدر يوصف به الجمع والواحد ، ومنه قول ابن
الزُّبَيْرِ :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ (١)

وقالت فرقة : هي جمع باير ، وهو الذي قد فارقه الخير فحصل بذلك
في حكم الهلاك ، باشره الهلاك بعدُ أو لم يباشر ، قال الحسن : البايِرُ :
الذي لا خير فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَكذَّبُواكُمْ ﴾ الآية ، خطاب من الله تبارك
وتعالى بلا خلاف ، فمن قال : « إِنَّ الْمُجِيبَ الْأَصْنَامُ » كان معنى هذه
إخباره الكفار أن أصنامهم قد كذبوهم ، وفي هذا الإخبار خزيٌ
وتوبيخ ، والفرقة التي قالت : « إِنَّ الْمُجِيبَ هُوَ الْمَلَائِكَةُ ، وَعُزَيْرٌ ،
وعيسى ، ونحوهم » اختلفت في المخاطب بهذه الآية ، فقالت طائفة :
المخاطب الكفار على جهة التوبيخ والتقريع ، وقالت طائفة : المخاطب

(١) هذا البيت من الأبيات التي قالها ابن الزُّبَيْرِ بعد إسلامه ، وهو فيها يخاطب الرسول
صلى الله عليه وسلم فيقول :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سِتْنِ الْغِيِّ ، وَمَنْ مَالَ مِثْلَهُ مَثْبُورٌ

و « رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ » : مُصْلِحٌ مَا أَفْسَدْتُ حين كنتُ أُبَارِي الشَّيْطَانَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالِ ،
وَأَصْلُ الرَّتَقِ : سَدٌّ مَا فِي الثَّوْبِ الْمَمْرُوقِ مِنْ خُرُوقِ وَإِصْلَاحِهَا ، وَالشَّاهِدُ هُنَا أَنَّ (بُورُ)
معناها : هالك .

هؤلاء المعبودون ، أعلمهم الله تعالى أن الكفار بأفعالهم القبيحة قد كذبوا بهذه المقالة ، وزعموا أن هؤلاء هم الأولياء من دون الله تعالى ، وقالت فرقة : خاطب الله تعالى المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : قد كذبكم أيها المؤمنون الكفار فيما تقولون من التوحيد والشرع .

وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم ، والناس : [تَقُولُونَ] بالتاء من فوق [يَسْتَطِيعُونَ] بالياء من تحت ، ورجحها أبو حاتم ، وقرأ أبو حيوه : [يَقُولُونَ] بالياء من تحت ، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بالتاء من فوق ، وقال مجاهد : الضمير في [يَسْتَطِيعُونَ] هو للمشركين ، قال الطبري : وفي مصحف ابن مسعود : «فَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرَفًا» ، وفي قراءة أبي بن كعب : «لَقَدْ كَذَّبُوكَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ» ، قال أبو حاتم : في حرف عبد الله : «لَكُمْ صَرَفًا» على جمع الضمير .

و [صَرَفًا] معناه : ردُّ التكذيب أو العذاب أو ما اقتضاه المعنى بحسب الخلاف المتقدم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ قيل : هو خطاب للكفار ، وقيل : هو للمؤمنين ، والظلم هو الشرك ، قاله الحسن وابن جريج ، وقد يحتمل أن يعمر غيره من المعاصي ، وفي حرف أبي : «وَمَنْ يَكْذِبُ مِنْكُمْ نَذِقُهُ عَذَابًا أَلِيمًا» .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ
وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ * وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ *

هذه الآية الأولى رد على كفار قريش في استبعادهم أن يكون من البشر رسول ، وقولهم : ﴿ مَا لِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ، وأخبر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم وأُمَّته بأنه لم يرسل قبل في سالف الدهر نبياً إلا بهذه الصفة .

والمفعول بـ [أَرْسَلْنَا] محذوف يدل عليه الكلام ، تقديره : رجالاً أو رُسُلًا ، وعلى هذا المفعول المحذوف المقدر يعود الضمير في قوله : ﴿ إِلَّا أَنَّهُمْ ﴾ ، وذهبت فرقة إلى أن قوله : ﴿ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن الحدث .

وقرأ جمهور الناس : [وَيَمْشُونَ] بضم الياء وسكون الميم وتخفيف الشين ، وقرأ علي ، وعبد الرحمن ، وابن مسعود رضي الله عنهم : [وَيَمْشُونَ] بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة ، بمعنى : يُدْعَوْنَ

إلى المشي ويحملون عليه ، وقرأ أبو عبد الرحمن (١) بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة ، وهي بمعنى يمشون ، ومنه قول الشاعر :

أَمْشِي بِأَعْطَانِ الْمِيَاهِ وَأَبْتَغِي قَلَائِصَ مِنْهَا صَعْبَةً وَرَكُوبُ (٢)

ثم أخبر تبارك وتعالى أن السبب في ذلك أنه سبحانه أراد أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس ، مؤمن وكافر ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنة للفقير ، والفاقر فتنة للغني ، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره ، وكذلك العلماء وحكام العدل ، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب (٣) ، والتوقيف بـ [أَتَصْبِرُونَ] خاص للمؤمنين المحققين ، فهو لأئمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين ، أي اختباراً لهم ، ثم وقّفهم :

(١) هو أبو عبد الرحمن السلمي ، قاله في القرطبي .

(٢) يروى البيت : « وَمَشَى بِأَعْطَانِ الْمِيَاهِ وَابْتَغَى » بضمير الغائب ، وفي روح المعاني : (ذلولٌ) بدلا من (ركوب) . والعَطْنُ للإبل كالوطن للإنسان ، وقد غلب على مبركها حول الحوض ، والجمع أَعْطَانُ . والقلائص جمع قلوص ، وهي من الإبل : الفَتَيْةُ المُجْتَمِعَةُ الخَلْقِ وذلك من حين تُرْكَبُ إلى التاسعة من عمرها ، ثم هي الناقية . والرَّكُوبُ : يريد بها التي ذُلِّلَتْ واعتادت الركوب عليها ، وهي ضد الصعبة التي لم تُسْتَأْنَسْ ، أو التي تنفر من الراكب ولا تقبل الجلوس فوقها . والشاهد في البيت أن مَشَى بالتشديد تكون بمعنى مَشَى بالتخفيف .

(٣) ابن القاسم صاحب مالك رحمه الله ، وقد رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه ، فتلا الآية ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر .

هل تصبرون أم لا (١)؟ ثم أعرب قوله ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين .

ثم أخبر عن مقالة الكفار : ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنا الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية ، وقوله تعالى : [يَرْجُونَ] ، قال أبو عبيدة وقوم : معناه : يخافون ، والشاهد لذلك قول الهذلي :

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلٍ (٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر لي أن الرجاء في الآية والبيت على بابه ؛ لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبداً برجائه ، فإذا نفى الرجاء عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مكذّب بالبعث لنفي الخوف والرجاء ، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاء تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاء الله تعالى ، وأما بيت

(١) الفتنة : أن يحسد المُبتلى المُعافي ، ويحقير المُعافي المُبتلى ، والصبرُ أن يجبس كل منهما نفسه ، المُعافي عن البطر ، والمُبتلى عن الضجر ، وقوله سبحانه : [أَتَصْبِرُونَ] ؟ محذوف الجواب ، يعني : أم لا ؟ ومن أجل هذا أجاب ابن القاسم نفسه حين رأى أشهب في ملكه فقال : سنصبر .

(٢) لم يَرْجُ : لم يخف ولم يُبَالِ ، وخَالَفَهَا (بالحاء) : جاء إلى غسلها وهي غائبة ترعى وقد سرحت ، خَالَفَهَا إلى العسل ، ويروى : خَالَفَهَا (بالحاء المهملة) ، والمعنى : لازمها ، ونوب : تتاب المرعى فتأكل ثم ترجع فتُعَسِّلُ ، وقال أبو عبيدة : إنما سُمِّيَتْ نوباً لسوادِ فيها ، ونوب : لا واحد له من لفظه ، وقيل : بل هو نائب ونوب ، مثل : عائذ وعود ، والبيت من قصيدة له مطلعها :

أَسَاءَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تُسَائِلْ عَنِ السَّكَنِ أَوْ عَنِ عَهْدِهِ بِالْأَوَائِلِ ؟

الشعر المذكور فمعناه عندي : لم يرج دفعها ولا الانفكاك عنها ،
فهو لذلك يوفي على الصبر ويجد في شغله .

ولما تمت كفار قريش رؤية ربهم أخبر تعالى عنهم أنهم عظموا
أنفسهم ، وسألوا ما ليسوا له بأهل ، و [عَتَوْا] معناه : صعبوا على
الحق واشتدوا ، ويقال : عَتِيَ وَعُتُو ، عُتُو عَلَى الْأَصْلِ ، وَعَتِيَ لِاسْتِثْقَالِ
الضَّمِّ عَلَى الْوَاوِ فَقُلِبَتْ يَاءً ثُمَّ كُسِرَ مَا قَبْلَهَا طَلَبًا لِلتَّنَاسُبِ (١) .

قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (٢٢)
وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ
مُّسْتَقْرَرًا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾
الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ عَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾
الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ ﴿٢٩﴾ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

(١) جاءت الآية هنا عَتُوءًا : ﴿ وَعَتَوْا عَتُوءًا كَثِيرًا ﴾ بالواو ، وهذا على الأصل ،
وفي سورة مريم بالياء في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ على استئصال
اجتماع الواوين والقلب لمناسبة الفواصل . هذا ما ذكره أبو حيان وابن عطية ، وقال الفراء :
وجاز أن يكون المصدر بالياء أيضاً لأن المصدر والأسماء تنفق في هذا المعنى ، ألا ترى أنهم
يقولون : قاعد وقوم قعود ، وقعدت قعوداً ، فلما استوياها هنا في القعود لم يبالوا أن يستويا
في العتو والعتي .

المعنى في هذه الآية أن الكفار لما قالوا : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ ﴾
 إنما هو يوم القيامة ، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تقبض
 أرواحهم ، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة ، وأمر
 العوامل في هذه الظروف بين إذا تؤمل ، فاختصرناه لذلك . ومعنى
 الآية : إن هؤلاء الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدر الله تعالى
 في ذلك ؛ فإنهم يوم يرون الملائكة هو شرُّ لهم ، ولا بُشْرَى لهم ،
 بل لهم الخسار ولُقيا المكروه ، ويومئذ لا خير ولا بشرى ؛ لأن الظروف
 تكون إخباراً عن المصادر ، والضمير في قوله : [وَيَقُولُونَ] ، قال
 الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، ومجاهد : هو للملائكة ، المعنى :
 ويقول الملائكة للمجرمين : حِجْرًا مَحْجُورًا عَلَيْكُمْ الْبَشْرَى ، أي :
 حراماً مُحَرَّمًا ، ومنه قول جرير بن عبد المسيح :

حَنَّتْ إِلَى النَّخْلَةِ الْقُصُوى فَقُلْتُ لَهَا حِجْرٌ حَرَامٌ أَلَا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ^(١)
 وقال مجاهد أيضاً ، وابن جريج : إن الضمير في قوله : [وَيَقُولُونَ]

(١) جرير بن عبد المسيح عُرف باسم المتلمس ، والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز
 القرآن ، وهو في (اللسان - دَهْرَس) ، والرواية فيه : (حَجَّتْ) بدلا من (حَنَّتْ) ،
 وحَنَّتْ : اشتاقت ، والنَّخْلَةُ الْقُصُوى : موضع على ليلة من مكة ، وحِجْرٌ (بالحاء المثَلثة) :
 حرامٌ ، والدَّهَارِيسُ : الدَّوَاهِي واحدها دَهْرَس (بكسر الدال وضمها) . والضمير في
 (حَنَّتْ) يعود على ناقته ، يقول لها بعد أن حَنَّتْ إلى تلك النخلة : ممنوع عليك تلك الأماكن .
 وفي معجم البكري رُوي البيت : (بَسَلْ عَلَيْكِ) بدلا من (حِجْرٌ حَرَامٌ) ، والمعنى واحد .

هو للكفار المجرمين ، قال ابن جريج : كانت العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا : حجراً ، قال مجاهد : حجراً : عوداً ، يستعينون بالملائكة (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون المعنى : ويقولون : حرام محرم علينا العفو ، وقد ذكر أبو عبيدة أن هاتين اللفظتين عوذة عند العرب ، يقولها من خاف آخر في الحرم ، أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المعنى هو مقصد بيت المتلمس الذي تقدم ، أي : هذا الذي حنت إليه ممنوع .

وقرأ الحسين ، وأبو رجاء : [حُجْرًا] بضم الحاء ، والناس على كسرهما .

ثم أخبر تعالى عما يأتي قضاؤه وفعله فقال حكاية عن يوم القيامة : [وَقَدِمْنَا] ، أي : قَصَدَ حكمنًا وإنفاذنا ، ونحو هذا من الألفاظ اللائقة ، وقيل : هو قدوم الملائكة أسنده إليه لأنه عن أمره ، وحسنت لفظة [قَدِمْنَا] لأن القادم على شيء مكرره لم يُقرره ولا أمر به مُغَيَّرَ له

(١) قال الليث : « ظنُّوا أن ذلك ينفعهم كفعلمهم في الدنيا » .

ومذهب ، وأما قول الراجز :

وَقَدِمَ الْخَوَارِجُ الضَّلَالُ إِلَى عِبَادِ رَبِّنَا فَقَالُوا
إِنَّ دِمَاءَكُمْ لَنَا حَلَالٌ (١)

فالقُدوم على بابه .

ومعنى الآية : وقصدنا إلى أعمالهم التي هي في الحقيقة لا تزن شيئاً ؛ إذ لا نية معها ، فجعلناها على ما تستحق لا تعدل شيئاً ، وصيرناها هباءً منثوراً ، أي : شيئاً لا تحصيل له ، والهباءُ : هي الأجرام المستدقة الشائعة في الهواء التي لا يدركها حسٌ إلا حين تدخل الشمس على مكان ضيق يحيط به الظل كالكوّة ونحوها ، فيظهر حينئذ فيما قابل الشمس أشياء تغيب وتظهر ، فذلك هو الهباءُ ، ووصفه في هذه الآية بـ «منثورٍ» ، ووصفه في غيرها بـ «مُنْبَثٌ» (٢) ، فقالت فرقة : هما سواءٌ ، وقالت فرقة : المُنْبَثُ أَرَقُّ وَأَدْقُّ مِنَ الْمَنْشُورِ ؛ لأنَّ المنشور يقتضي أن غيره نشره ، كسنابك الخيل أو الرياح أو هدم حائط ونحو ذلك ، والمُنْبَثُ كأنه انبث من رفته ، وقال غيرهما (٣) ،

(١) استشهد أبو عبيدة بهذا الرجز في (مجاز القرآن) ، وابن عطية يرى أن القُدوم في الرجز على بابه ، أما في الآية فإن القُدوم يقصد معه التَّخْيِيرُ لشيءٍ مَكْرُوهٍ .

(٢) وذلك في الآية رقم (٦) من سورة (الواقعة) ، حيث يقول تبارك وتعالى عن الجبال : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ .

(٣) هو ابن عباس رضي الله عنهما .

الهباء المنشور هو ما تسفي به الرياح وتبثه ، وروي عنه أيضاً أنه قال : الهباء الماء المهرق ، والأول أصح ، والعرب تقول : هبات الغبار ونحوه إذا بثته ، قال الشاعر :

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْدِ ع مَنِبَأً كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ (١)

ومعنى هذه الآية : جعلنا أعمالهم لا حكم لها ولا منزلة .

ثم أخير عز وجل أن مُسْتَقَرَّ أهل الجنة خير من مُسْتَقَرَّ أهل النار ، وجاءت [خير] ها هنا للتفضيل بين شيئين لا شركة بينهما ، قال الزجاج وغيره : إنه لما اشتركا في أن هذا مُسْتَقَرَّ وهذا مُسْتَقَرَّ فَضَّلَ الاستقرار الواحد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر لي أن هذه الألفاظ التي فيها عموم ما ، ويتوجه حكمها من جهات شتى ، نحو قولك : أَحَبُّ ، وَأَحْسَنُ ، وَخَيْرٌ ، وَشَرٌّ ،

(١) البيت للحارث بن حلزة ، وهو من معلقته التي ألفاها في مجلس عمرو بن هند ، وبدأها بقوله :

أَدْتَنَّا بِبَيْنِنَهَا أَسْمَاءَ رَبِّ نَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والبيت في وصف ناقته التي آتت صوتاً وأفرعها القنّاص وقد دنا الإمساء كما يقول في البيت السابق ، والوَجْعُ : رجع قوائمه ، والوَقْعُ : وقع خفافها ، وَالمَنِينُ : الغبار الدقيق ، والأهباء : الغبار المتفرق ، يقول : لقد هربت ، وجعلت تعدو بسرعة مثيرة خلفها الغبار الرقيق المتفرق . ههنا بكسر الهمزة وكلمة (هباء) ليست من ذوات الهمز ، وإنما همزت لالتقاء الساكنين ، ولهذا يقال في التصغير : هببي في موضع الرفع ، والواحد هبأة ، والجمع أهباء ، ويؤيد هذا بيت الحارث المذكور .

يسوغ أن يُجاءَ بها بين شيئين لا شركة بينهما ، فتقول : السعد في الدنيا أحب إلينا من الشقاء ، أي : قد يوجد بوجه ما من يستحب الشقاء كالمتعبد والمغتاض ، وكذلك في غيرها ، فإذا كانت (أفعل) في معنى بين أن الواحد من الشيئين لا حظاً له فيه بوجه فسد الأخبار بوجه التفضيل به ، كقولك : الماء أبرد من النار ، ومن هذا أنك تقول في ياقوتة ومدرة^(١) - وتشير إلى المدرة - : هذه خير وأحسن وأحب وأفضل من هذه ، ولو قلت : هذه ألمع وأشدُّ شراقة من هذه ، لكان فاسداً .

وقوله : [مَقِيلًا] ، ذهب ابن عباس رضي الله عنهما ، والنخعي ، وابن جريج إلى أن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ومقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فالمقيل من القائلة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن اللفظة إنما تضمنت تفضيل الجنة جملة وحسن هوائها ، والعرب تفضل البلاد بحسن المقيل ؛ لأن وقت القيلولة يبدو فيه فساد هواء البلاد ، فإذا كان بلد في وقت فساد الهواء حسناً

(١) المدرة : واحدة المدر ، وهو قطع الطين اليابس ، وقيل : الطين العلك الذي

لا رمل فيه .

جاز الفضل ، ومن ذلك قول الأسود بن يعفر الإيادي :

أَرْضٌ تَخَيْرَهَا لَطِيبٌ مَقِيلُهَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ أُمِّ دُوَادٍ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ ، يريد يوم القيامة عند انفطار السماء ونزول الملائكة ووقوع الجزاء بحقيقة الحساب ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [تَشَقَّقُ] بشد الشين والقاف ، وقرأ الباكون بتخفيف الشين ، وقوله : [بِالْغَمَامِ] ، أي : تشقق عنه ، والغمام : سحب رقيق أبيض جميل لم يره البشر بعد إلا ما جاء في تظليل بني إسرائيل . وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ بضم النون وشد الزاي المكسورة ورفع [الْمَلَائِكَةُ] على مفعول لم يُسَمَّ فاعله ، وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوهاب : [وَنَزَلَ] بتخفيف الزاي المكسورة ، قال أبو الفتح : وهذا غير معروف ؛ لأن (نَزَلَ) لا يتعدى إلى مفعول فيسبى هنا للملائكة ، ووجهه أن يكون مثل :

(١) الأسود بن يعفر شاعر جاهلي فصيح ، كان يتادم النعمان ، ولما أسنَّ كُفَّ بصره ، وبيته من المفضلية ٤٤ ، وهي من مختار الشعر ، وفيه يصف بلاد إياد بأنها طيبة المقييل ، ولهذا اختارها كعب بن مامة ، وابن أمِّ دُوَادٍ - وكعب مشهور بالجوذ عند العرب ، فقد آثر بنصيبه من الماء رفيقه التَّمْرِي فمات عطشاً ، وضرب به المثل في الجود ، (راجع الشعر والشعراء) ، وابن أمِّ دُوَادٍ هو أبو دُوَادٍ الإيادي جارية بن الحجاج ، وكان في عصر كعب بن مامة ، ويقال إن كعب بن مامة أجاز أبي دُوَادٍ حين أخافه بعض الملوك فضرب المثل بجاز أبي دُوَادٍ ، قال طرفة :

إِنِّي كَفَّسَانِي مِنْ هَمِّ هَمَمْتُ بِهِ جَارَ كَجَارِ الْخُدَّاقِيِّ الَّذِي انْتَصَقَا

والخُدَّاقِيُّ هو أبو دُوَادٍ ، وخُدَّاقُ قبيلة من إياد .

«زُكِمَ الرجل وجُنُّ» ، فإنه لا يقال إِلَّا أَزَكَمَهُ اللهُ وَأَجَنَّهُ ، وهذا باب سماع لا قياس (١) ، وقرأ أبو رجاء : [وَنَزَّلَ] بفتح النون وشد الزاي ، وقرأ الأعمش : «وَأَنْزَلَ الملائكة» ، وكذلك قرأ ابن مسعود ، وقرأ أبي بن كعب : «وَنَزَلَتِ الملائكة» ، وقرأ ابن كثير وحده (٢) : «وَنَزَّلَ الملائكة» بنونين ، فهي قراءة أهل مكة ، ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ هارون عن أبي عمرو : «وَنَزَّلَ الملائكة» بإسناد الفعل إليها ، وقرأت فرقة : «وينزل الملائكة» ، وقرأ أبي بن كعب أيضاً : «وتنزلت الملائكة» .

وَقَرَّرَ أَنَّ الْمَلِكَ الْحَقَّ الْمُبِينِ هُوَ يَوْمئِذٍ لِلرَّحْمَنِ ؛ إِذْ قَدْ بَطَلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلِّ مَلِكٍ . وَعَسِيرُهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُوجَّهُ بِدُخُولِ النَّارِ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، وَمَا فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنَ الْمَخَافِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(١) ويقول أبو الفتح أيضاً بعد ذلك : «فإنما أن يكون ذلك لغة لم تقع إلينا ، وإما أن يكون على حذف المضاف ، يريد : ونزل نزل الملائكة ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فأقام [الملائكة] مقام المصدر الذي كان مضافاً إليها ، كما فعل الأعمش في قوله : أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَكَ لَيْلَةَ أَرْمَدًا وَبَيْتًا كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدًا ؟ فهو يريد : اغتماض ليلة أرمد ، فنصب (ليلة) إذاً إنما هو على المصدر لا على الظرف ؛ لأنه لم يرد : أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَكَ فِي لَيْلَةِ أَرْمَدٍ ، وإنما أراد : أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَكَ مِنَ الشُّوقِ وَالْأَسْفِ اعْتِمَاضًا مِثْلَ اعْتِمَاضِ لَيْلَةِ رَمَدِ الْعَيْنِ .»

(٢) يعني وحده من السبعة .

دليل على أن ذلك اليوم سهلٌ على المؤمنين ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله تعالى ليهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا) (١) .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يَعْزُّبُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِئْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾
يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي^ق
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنِيَ بِرَبِّكَ
هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

[يَوْمَ] ظرف العامل فيه مضمرة ، و «عضُّ اليدين» هو فعل النادم الملهوف المتفجع ، وقال ابن عباس وجماعة من المفسرين : [الظَّالِمُ] في هذه الآية عُقبة بن أبي معيط ، وذلك أنه أسلم أو جنح للإسلام ، وكان أبي بن خلف الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد خليلاً لعُقبة ، فنهاه عن الإسلام ، فقبل نهيه ، فنزلت الآية

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣-٧٥) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه : قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ، ما أطول هذا اليوم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنه ليُخَفَّفَ على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا) .

فيهما ، فالظالم عُقبة ، وفلانُ أُبيّ . وفي بعض الروايات عن ابن عباس أن الظالم أُبيّ ، فإنه كان يحضر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاه عُقبة ، فأطاعه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن أدخل في هذه الآية أُمَّةً بن خلف فقد وهم ، إلا على قول من يرى [الظالم] اسم جنس .

وقال مجاهد ، وأبو رجاء : الظالم : اسمُ جنس ، وفلان : الشيطان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر لي أن [الظالم] عامٌ ، وأن مقصد الآية تعظيم يوم يتبرأ فيه الظالمون من خلائهم الذين أمرهم بالظلم ، فلما كان خليلُ كل ظالم غيرَ خليل الآخر ، وكان كل ظالم يسمي رجلاً خاصاً به عبّر عن ذلك بـ «فلان» الذي فيه الشياخ التّام ، ومعناه واحد عن الناس ، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليلٌ يعينه ويحرّضه ، هذا في الأغلب ، ويشبه أن سبب الآية وترتّب هذه المعاني كان عُقبةً وأبيّاً ، وقوله : ﴿مَعَ الرَّسُولِ﴾ يُقَوِّي ذلك بأن نجعل تعريف [الرّسول] للعهد ، والإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى التّأويل الأوّل التّعريف للجنس . وكلّهم قرأ [لَيْتَنِي] ساكنة الياء غير أبي عمرو فإنه حرّك الياء ﴿لَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ﴾ ، ورواها أبو حامد عن نافع مثل أبي عمرو ،

و «السَّبِيلُ» المتمنّاة هي طريق الآخرة . وفي هذه الآية لكل ذي نُهيّة (١) تنبيه على تجنّب قرين السوء ، والأحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ الباء فيه (٣) عوض عن الباء في : يا وَيْلَتِي ، والألف هي التي في قولهم : يا غلاما ، وهي لغة ، وقرأت فرقة بإمالة : ﴿ يَا وَيْلَتِي ﴾ ، قال أبو علي : وترك الإمالة أحسن ؛ لأن أصل هذه اللفظة الباء «يا وَيْلَتِي» ، فبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فراراً من الباء ، فمن أمال رجع إلى الذي فرّ عنه أولاً .
و [الذِّكْر] هو ما ذكر به الإنسان أمر آخرته من قرآن أو موعظة ونحوه ، ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ يحتمل أن يكون من قول

(١) التَّهْيِة : الْعَقْلُ .

(٢) من ذلك ما روي في الصحيح من حديث أبي موسى (واللفظ لمسلم) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يُحْدِثَكَ ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة) ، وذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله ، أي جلسائنا خير ؟ قال : (من ذكركم بالله روّيته ، وزاد في علمكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمله) . ولقد أحسن من قال :

تَجَنَّبَ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرَمَ حِبَالَهُ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْسَبُ حَبِيبَ الصَّدْقِ وَاحْتَذَرَ مِرَاءَهُ
تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَةَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ
وقال آخر :

أَصْحَابُ خِيَارِ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيَتَهُمْ خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ عَفِيفًا
(٣) الصواب أن يقال : الفتحة فيه عوض عن الباء ، لأن الباء ذهبت ، وجاءت بدلا منها الفتحة لتناسب الألف ، ويؤيد هذا كلام أبي علي بعد ذلك .

الظالم ، ويحتمل أن يكون ابتداءً إخبار من الله تعالى على جهة الدلالة على وجه ضلالهم ، والتحذير من الشيطان الذي بلغ ثم ذلك المبلغ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ حكاية عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، وتشكيه ما يلقاه من قومه ، هذا قول الجمهور ، وهو الظاهر . وقالت فرقة : هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو : [قَوْمِي] بتحريك الياء ، والباقون بسكونها . و [مَهْجُورًا] يحتمل أن يريد : مُبْعَدًا مَقْصِيًا ، [ويحتمل أن يكون] من الهُجْر بضم الهاء (١) إشارة إلى قولهم : شعر وكهانة وسِحْر ، هذا قول مجاهد ، والنخعي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقول ابن زيد : هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصحف ، وألا تكون الغبرة تعلوه في البيوت وتشتغل بغيره ، وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من علّق مصحفاً ولم يتعاهده أتى

(١) ما بين العقتين زيادة لا بدّ منها لسلامة المعنى ، فإن قوله : « بضم الهاء » لا يستقيم مع المعنى الذي ذكره سابقاً ، وهو أنه يريد من [مَهْجُورًا] مُبْعَدًا وَمَقْصِيًا ، لأن ذلك يكون من الهَجْر بفتح الهاء ، وهو ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط ، أما الهُجْر بضم الهاء فيرتب على معنى آخر هو ما ذكره مجاهد في تفسيره « يَهْجُرُونَ فِيهِ بِالْقَوْلِ ، يَقُولُونَ : سحر » ، وهذا يتفق مع قول ابن عطية بعد ذلك : « إشارة إلى قولهم : شعر وكهانة وسِحْر » . ويستقيم المعنى بما زدناه بين العقتين .

يوم القيامة معلقاً به ، يقول : هذا اتخذني مهجوراً ، أقض يا ربَّ بيني وبينه (١) .

ثمَّ آنسه عن فعل قومه بأنَّ أعلمه أن غيره من الرسل كذلك امتحن بأعداء في زمنه ، أي : فاصبر كما صبروا ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، و [عَدُوًّا] يريد به الجمع ، تقول : «هُؤُلَاءِ عَدُوُّ لِي» ، فتصف به الجمع والواحد والمؤنث ، ثم وعده تعالى بقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ ، والباء في [بِرَبِّكَ] للتأكيد ، دالة على المعنى ، إذ هو : اکتف بربك .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءَ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم : لو كان هذا القرآن من عند الله تعالى لنزل

(١) في «روح المعاني ، والبيضاوي» جاء النص : (مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّقَ مِصْحَفَهُ وَلَمْ يَتَعَاهَدَهُ ، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ ، يَقُولُ : يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، إِنْ عَبْدكَ هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا ، فَاقْض بَيْنِي وَبَيْنَهُ) ، على أن العلماء قد تكلموا في صحة هذا الحديث ؛ لأن في سنده أبو هُدُبة ، وهو كذاب .

جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل ، وقوله : [كَذَلِكَ] يحتمل أن يكون من قول الكفار ، [ويحتمل أن يكون مستأنفاً من كلام الله تبارك وتعالى لا من كلامهم]^(١) ، وهو أولى ، ومعناه : كما نزل أردناه ، فالإشارة إلى نزوله متفرقاً ، وجعل الله تعالى السبب في نزوله متفرقاً في الزمان تثبتت فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ، وليحفظه . وقال مكِّي ، والرُّمَّانِيُّ : من حيث كان أمياً لا يكتب ، وليطابق الأسباب المؤقتة ، فنزل في نيّف وعشرين سنة ، وكان غيره من الرسل يكتب فنزل جملة واحدة ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : [لِيُثَبَّتَ] بالياء . و « التَّرْتِيلُ » : التفريق بين الشيء المتتابع ، ومنه قولهم : بقر رتلاً ، ومنه ترتيل القراءة^(٢) . وأراد الله تبارك وتعالى أن يُنزل القرآن في النوازل والحوادث التي قدرها وقدر نزوله فيها .

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء الكفرة لا يجيئون بمثلٍ - يضربونه على جهة المعارضة - مُبْهَمٍ - كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل - إلا جاء القرآن بالحق في ذلك ، أي بالذي هو حق ، ثم هو أحسن تفسيراً ، أو أفصح بياناً وتفصيلاً . ثم أوعد الله تعالى الكفار بما ينزل بهم

(١) ما بين العقتين زيادة لا بُدَّ منها حتى يستقيم المعنى .

(٢) جاء في (اللسان - رتل) : « رَتَّلَ الكلام : أحسن تأليفه وأبانه وتمهّل فيه . والترتيل في القراءة : الترسُّلُ فيها والتبَّيُّن من غير بغي ، وفي صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : كان يُرَتِّلُ آيةً آيةً » . والعلماء على أن ترتيل القرآن هو تنزيله مفزقاً بعضه إثر بعض ، وأما قولهم : « بَقَّرَ رَتَّلَ » فهو من الرَّتْل ، وهو حُسْنُ تناسق الشيء .

يوم القيامة من الحشر على وجوههم إلى النار . وذهب الجمهور إلى أن هذا المشي على الوجوه حقيقة ، ورؤي في ذلك - من طريق أنس ابن مالك رضي الله عنه - حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يا رسول الله ، كيف يقدرون على المشي على وجوههم ؟ (قال : إن الذي أقدرهم على المشي على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم) (١) وقالت فرقة : المشي على الوجوه استعارة للمذلة المفرطة والهوان والخزي ، وقوله تعالى : ﴿ شَرُّ مَكَانًا ﴾ القول فيه كالقول في قوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا
 أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا
 الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾
 وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ
 الْأَمْثَلِ ۖ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾

هذه الآيات التي ذكر فيها الأمم هي تمثيل لهم وتوعده بأن يحل بهم ما حلَّ بهؤلاء المعذبين ، و [الْكِتَابَ] : التوراة ، و «الوزير» :

(١) الحديث في تفسير الطبري ، رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه من عدة طرق .

المُعِين ، وهو من تحمّل الوزر ، أي ثقل الحال ، ومن الوزر الذي هو الملجأ^(١) ، و ﴿ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ هم فرعون وملئه من القبط ، ثم حذف من الكلام كثيراً دلّ عليه ما بقي ، وتقدير المحذوف : فَذَهَبَا فَأَدْيَا الرِّسَالَةَ فَكَذَّبُوهُمَا فَدَمَّرْنَاَهُمَا . وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسلمة بن محارب : [فَدَمَّرَانَّهُمْ] ، أي : كونا سبب ذلك ، قال أبو الفتح : أَلْحَقَ نون التوكيد ألف التثنية ، كما تقول لرجل : اضربان زيدا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [فَدَمَّرَاهُمْ] ، وحكى عنه أبو عمرو الداني : [فَدَمَّرْنَاَهُمْ] بكسر الميم خفيفة ، قال : وروي عنهم : ﴿ فَدَمَّرُوا بِهِمْ ﴾ على الأمر لجماعة وبزياده باء ، والذي فسّر أبو الفتح وهم ، وإنما القراءة : ﴿ فَدَمَّرُوا بِهِمْ ﴾ بالباء ، وكذا ذكرها المهدي . ونُصِبَ قوله : [قَوْمَ] بفعل مضمر يدلّ عليه [أَغْرَقْنَاَهُمْ]^(٢) ،

(١) قال في (اللسان - وزر) : «الْوَزْرُ : الملجأ ، وأصل الوزر الجبل المنيع ، وكلّ معقل وَزْر ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ .

(٢) في نصب [قَوْمَ] أربعة أقوال : العطف على الماء والميم من [فَدَمَّرْنَاَهُمْ] . أو بإضمار : اذْكَرْ ، أو بإضمار فعل يفسّره ما بعده ، والتقدير : وأغْرَقْنَا قَوْمَ نوح أغرقناهم ، والرابع أنه منصوب بـ [أَغْرَقْنَاَهُمْ] ، قاله الفراء ، وردّه النحاس : لأن «أغْرَقْنَا» ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر ، وفي قوم نوح ، واعترض أبو حيان على الإعراب الثالث هنا ، وقال : الظاهر أن [أَغْرَقْنَاَهُمْ] جواب [لِمَا] فلا يفسّر ناصباً لِقَوْمٍ . أما إن كانت [لِمَا] ظرفاً فإنه يجوز .

وقوله تعالى : [الرُّسُلَ] وهم إنما كذبوا نوحاً فقط معناه أن الأئمة التي تكذب نبياً واحداً ففي ضمن ذلك تكذيب جميع الأنبياء ، فجاءت العبارة بما تضمنه فعلهم تعبيراً في القول عليهم ، وقوله تعالى : [آيَةً] أي علامة على سطوة الله تبارك وتعالى بكل كافر بأنبيائه .

﴿ وَعَاداً وَثَمُوداً ﴾ يُصْرَفُ وَلَا يُصْرَفُ ، وَجَاءَ هَا هُنَا مُصْرُوفاً ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ ، وَالْحَسَنُ ، وَعَيْسَى : [وَعَاداً] مُصْرُوفاً ، [وَتَمُودَ] غَيْرَ مُصْرُوفٍ . وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ﴿ أَصْحَابِ الرَّسِّ ﴾ - فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : هُمْ قَوْمٌ مِنْ ثَمُودَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَهْلُ قَرْيَةٍ مِنَ الْيَمَامَةِ يُقَالُ لَهَا : الرَّسُّ ، وَقَالَ كَعْبٌ ، وَمِقَاتِلٌ ، وَالسُّدِّيُّ : الرَّسُّ : بَثْرٌ بِأَنْطَاكِيَةِ الشَّامِ ، قُتِلَ بِهَا صَاحِبُ يَاسِينَ (١) ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : أَصْحَابُ الرَّسِّ قَوْمٌ بُعِثَ إِلَيْهِمْ نَبِيٌّ فَأَكَلُوهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَصْحَابُ الرَّسِّ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ قَوْمَانِ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ ، وَقَالَ عَلِيُّ - فِي كِتَابِ الثَّعْلَبِيِّ - : أَصْحَابُ الرَّسِّ قَوْمٌ عَبَدُوا شَجَرَةَ صَنْوَبَرٍ يُقَالُ لَهَا : «شَاهُ دَرَخْتِ» رَسُّوا نَبِيَّهُمْ فِي بَثْرٍ أَوْ قَبْرِ أَوْ مَعْدِنٍ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

سَبَقَتْ إِلَى فَرْطٍ بِأَهْلِ تَنَابِلَةَ يَحْفَرُونَ الرَّسَّاسَا (٢)

(١) قال في البحر المحيط : وهو حبيب النجار .

(٢) استشهد بالبيت صاحب (اللسان - رسس) مرتين : الأولى على أن الرِّسَّ : البثر القديمة ، وأن جمعها : رساسٌ ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَهَا رَسُّوا صَاحِبَهُمْ فِيهَا ، أَيْ =

وروى عكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل الرّسّ المشار إليهم في هذه الآية قومٌ أخذوا نبيهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه صخرة ، فكان عبداً أسود قد آمن به بجيء بطعام إلى ذلك البئر فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلعها ، وهو مؤمن بذلك النبي ، فيعطيه ما يغذيه ، ثم يردّ تلك الصخرة ، إلى أن ضرب الله على أذن ذلك الأسود يوماً أربع عشرة سنة ، وأخرج أهل القرية نبيهم فأمنوا به في حديث طويل (١) . قال الطبري : فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله تعالى في هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ إيهامٌ لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى ، وقد تقدم شرح « القرن » ، وكم هو ، ومن هذا اللفظ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى - ويروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قاله - : (كذب النّسّابون من فوق عدنان) (٢) ، لأنّ

= دسّوه ، والثانية على أن كل بئر تُسمّى عند العرب رسّاً ، والفَرَط بالتحرّك : المتقدم إلى الماء ، يتقدم الواردة فيبهيء لهم الأرسان والدلاء ، ويملاً الحياض ويستقي لهم ، والباهل : البلاء : المتردّد بلا عمل ، ويروى بالنون بدلا من الباء ، والناهل - على هذا - هو العطشان ، وهو الذي شرب حتى ارتوى ، فهو من الأضداد ، والتّنابله - جمع تِنْبَالٍ وتِنْبَلٍ بكسر التاء ، وقيل : على وزن جعفر - والتّنبل : الرجل القصير ، وهو رباعي على مذهب سيويه ، والمذكور في اللسان هو الشطر الثاني فقط ، والبيت من قصيدة مشهورة للنابعة الجعدي يقول فيها :

لَبِيتُ أَنْسَاءً فَأَفْتَيْتُهُمْ وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أَنْسَاءِ أَنْسَاءِ

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ، وفي ابن جرير زيادات عما ذكره ابن عطية هنا .

(٢) أخرج الحاكم في الكُنّي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتهى إلى معدن بن عدنان أمسك ، ثم يقول : كذب النّسّابون) ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ . (الدر المنثور) .

الله تبارك وتعالى أخبر عن كثير من الأمم والخلق ولم يخبر عن غيرهم .
ثم قال الله تعالى : إن كلَّ هؤلاء ضُرب له الأمثال ليَهتدي فلم يهتد ،
فتَبَّرَهُ اللهُ ، أي أهلكه ، والتَّبَارُ : الهلاكُ ، والتَّبْرُ : الذهب ، أي :
المُكْسَرُ الْمُفْتَت ، ولذلك يقال لِفُتَاتِ الرُّخَامِ والزُّجَاجِ : تَبْرٌ ،
وقال ابن جرير : إن أصل الكلمة نبطي ، ولكن العرب قد استعملته .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا ۖ أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَّذِي بَعَثَ اللَّهُ
رَسُولًا ۝٤٢﴾ إِنَّ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ هَاهُنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ
يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ۝٤٣﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ
عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٤﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَآلُ النَّعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٥﴾

قال ابن عباس ، وابن جريج ، والجماعة : الإشارة إلى مدينة
قوم لوط ، وهي (سَدُوم) بالشام ، و ﴿ مَطَرًا سَوِيًّا ﴾ حجارة السَّجِيل ،
وقرأ أبو السَّمَالِ : [السَّوِيَّة] بضم السين المشددة ، ثم وقفهم على إعرابهم
وتعرضهم لسخط الله تبارك وتعالى بعد رؤيتهم العبرة من تلك القرية ،

ثم حكم عليهم بأن كفرهم إنما أوجبه فساد معتقدهم في أمر الآخرة ،
وأنهم لا يرجون البعث ، وكذلك لا يخافونه .

ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم إذا رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم
استهزئوا به واحتقروه ، واستبعدوا أن يبعثه الله تعالى رسولا ، فقالوا -
على جهة الاستهزاء - : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ ، وفي [بَعَثَ]
ضمير يعود على [الَّذِي] حذفت اختصاراً ، وحسن ذلك في الصفة .

ثم آيس^(١) النبي صلى الله عليه وسلم عن كفرهم بقوله تعالى :
﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ الآية ، و المعنى : لا تتأسف عليهم
ودعهم لرأيهم ، ولا تحسب أنهم على ما تحب من التحصيل ، بل
هم كالأنعام في الجهل بالمنافع ، وقلة التَّحَسُّس للعواقب ، ثم حكم
بأنهم أضلُّ سبيلاً من حيث لهم الفهم وتركوه ، والأنعام لا سبيل لها
إلى فهم المصالح ، ومن حيث جهالة هؤلاء وضلالتهم ، وهي في أمر
أخطر من الأمر الذي فيه جهالة الأنعام . وقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذَ إِلَهَهُ
هَوَاهُ ﴾ أي : جعل هواه مطاعاً فصار كالإله ، والهوى قائد إلى كل فساد ،
والنفس أمارة بالسوء ، وإنما الصلاح إذا ائتمرت العقل ، وقال
ابن عباس رضي الله عنهما : الهوى إله يُعبد من دون الله عزَّ وجلَّ ،
وذكره الشعلي ، وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ إلى ما كانوا

(١) قال في (اللسان - آيس) : « آيستُ منه آيسُ يأساً : لغة في يتيستُ منه آياسُ
يأساً ، وآيستي منه فلان مثل : آياستي » .

عليه من أنهم كانوا يعبدون حجراً ، فإذا وجدوا أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الثاني الذي وقع هواهم عليه . قال أبو حاتم : وروي عن رجل من أهل المدينة - قال ابن جني : هو الأعرج - «إِلهَةٌ هَوَاهُ» ، والمعنى : اتخذ شمساً يستضيءُ بها ، إذ الشمس يقال لها : إلهة ، ويصرف ولا يصرف (١) ، و «الوكيل» : القائم على الأمر الناهض به .

قوله عز وجل :

﴿الرَّحْمَنُ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿الْم تَرَ﴾ معناه : انتبه ، والروية هنا روية القلب ، وأدغم عيسى بن عمر : ﴿رَبِّكَ كَيْفَ﴾ ، قال أبو حاتم : والبيان أحسن ،

(١) قال صاحب البحر المحيط نقلاً عن أبي الفتح : الإلهة : الشمس ، ويقال ألهة بالضم ، وهي غير مصروفة للعلمية والتأنيث ، لكنها لما كانت مما يدخلها لام المعرفة في بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزع ، فلذلك صرفت وصارت بمنزلة النعوت فتكرت ، وروى أبو الفتح شاهداً على صرفها عن أبي علي قول مية بنت عتبة ترثي أخيها : تَرَوِّحُنَا مِنَ اللَّعْبَاءِ عَصْرًا فَأَعْجَلْنَا الْإِلَهَةَ أَنْ تَشُوبَا وقال : «فتكون [إلهة] هذه المقروءة متزوعاً منها حرف التعريف الذي في الإلهة ، فتكرت فصرفت ، واللعباء : سبخة معروفة بناحية البحرين بجذاء القليف وسيف البحر ، ويروى (عصرا) بدلا من (عصرا) ، ومعناها الدخول في العشي ، وهو اختلاط الظلام أيضاً .

و «مَدُّ الظِّلِّ» بإطلاق هو ما بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس ، ومن بعد مغيبها مدة يسيرة ، فإن في هذين الوقتين ظلٌ ممدود على الأرض مع أنه نهار ، وفي سائر أوقات النهار ظلال متقطعة ، و «المَدُّ» و «الْقَبْضُ» مطرد فيها ، وهو عندي المراد في الآية ، والله أعلم .

ومن الظل الممدود ما ذكر الله تبارك وتعالى في هواء الجنة ؛ لأنها لما كانت لا شمس فيها كان ظلها ممدوداً أبداً ، وتظاهرت أقوال المفسرين على أن هذا الظل هو من الفجر إلى طلوع الشمس ، وذلك معترض بأن ذلك في غير نهار ، بل في بقايا الليل ، فلا يقال له ظل .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَوْشَاءٍ لَّجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أي ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ ، ولكنه جعل الشمس ونسخها إياه وطردها له من موضع إلى موضع دليلاً عليه مبيناً لوجوده ولوجه العبرة فيه ، وحكى الطبري أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل شيء ؛ إذ الأشياء إنما تعرف بأضدادها .

وقوله تعالى : ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ يحتمل أن يريد : لطيفاً ، أي : شيئاً بعد شيء في مرة واحدة لا بعنف ، قال مجاهد : ويحتمل أن يريد : معجلاً ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يريد : سهلاً قريب التناول .

قال الطبري : ووصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث تستر الأشياء وتغشاها ، و «السبات» ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرض فيشبهه

النائم به ، والسبت : الإقامة بالمكان ، فكأن السبات سكونٌ ما وثبت عليه ، و «النشور» في هذا الموضع الإحياء ، شبه اليقظة به ليتطابق الإحياء مع الإماتة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات ، ويحتمل أن يريد بالنشور وقت انتشار وتفرق لطلب المعاش وابتغاء فضل الله ، و «النهَارَ نُشُورًا» وما قبله من باب : ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ .

قوله عز وجل :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ٤٨ ﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ٤٩ ﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٥٠ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ٥١ ﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ٥٢ ﴾

قرأت فرقة : [الرياح] ، وقرأت فرقة : [الريح] على الجنس ، فهي بمعنى الرياح ، وقد نسبنا القراءة في سورة الأعراف ، وقراءة الجمع أوجه (١) ؛ لأن عرف «الريح» متى وردت في القرآن مفردة

(١) قال أبو حيان في البحر : «ولا يسوغ أن يقال : هذه القراءة أوجه ؛ لأن كلا من القراءتين متواتر» .

فإنما هي للعذاب ، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح ؛ لأن
رياح المطر تتشعب (وتتداعب) (١) وتتفرق وتأتي لينة من هنا وهناك ،
وشيئاً إثر شيء ، ورياح العذاب حرجف (٢) لا تتداعب ، وإنما تأتي
جسداً واحداً ، ألا ترى أنها تُحطِّم ما تجد وتهدمه ؟ قال الرُّماني :
جُمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة لواقح : الجنوب والصبأ والشمال ،
وأفردت رياح العذاب لأنها واحدة ، ولا تلتقح ، وهي الدَّبُور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

[وَيَرُدُّ] (٣) على هذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم إذا هبَّت الرياح :

(اللَّهُم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) (٤) . واختلف القراء في [بُشْرًا] :

(١) هكذا في الأصول ، ونقلها أبو حيان في البحر أيضاً بهذا اللفظ ، ولا نجد لها هنا

معنى ، فلعلها تحريف عن كلمة أخرى ، أو لعل معناها : تستمر وتدوم وتلازم .

(٢) الحَرَجَفُ من الرياح : الباردة الشديدة المهبوب مع جفاف ، وليئةٌ حرجف :

باردةُ الرياح . (المعجم الوسيط)

(٣) غير موجودة في الأصول ، ولكنها في البحر نقلاً عن ابن عطية ، والمعنى هنا يقتضيها .

وقد قال في البحر بعد أن نقل كلام ابن عطية عن التعارض بين الحديث وكلام الرماني : « لا يظهر ،

لأنه يجوز أن يريد بقوله عليه الصلاة والسلام : (رياحاً) الثلاثة اللواقح ، وبقوله : (ريحاً)

الدَّبُورَ ، فيكون ما قاله الرُّماني مطابقاً للحديث على هذا المفهوم .

(٤) راجع الجزء الخامس ، صفحة ٥٣٧ .

في النون والباء^(١) وغير ذلك اختلافاً قد ذكرناه في سورة الأعراف^(٢) ،
و [نَشْرًا] معناه : منتشرة متفرقة .

و «الطَّهْر» بناءً مبالغة في (طاهر) ، وهذه المبالغة اقتضت في
ماء السماء وفي كل ما هو منه وبسبيله أن يكون طاهراً ومُطَهَّرًا ، فإذا
أفرط التغيير بخلطه بالخبث لم يكن الماء طاهراً ولا مطهراً ، ووصف
البلدة بالميت لأنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكر والمؤنث ،
وجاز ذلك من حيث «الْبَلْدَة» بمعنى «الْبَلَد» ، وقرأ طلحة بن مصرف :
«لننشىء^(٣) به بلدة ونسقيه» بضم النون ، وهي قراءة الجمهور ،
ومعناه : نجعله لهم سقيا ، هذا قول بعض اللغويين في (أَسْقَى) ،
قالوا : و (سَقَى) معناه للشفة^(٤) ، وقال الجمهور : سَقَى وَأَسْقَى بمعنى
واحد ، وينشد على ذلك بيت لبيد :

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ (٥)

(١) لأن بعض القراء قرأها بالنون ، وبعضهم قرأها بالباء ، فمن قال بالنون مع ضم
الشين جعله جمعاً لريح تشور كصبور ، ومن قرأ بالنون مع سكون الشين جعله من النَّشْر ،
كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّاشِرَاتُ نَشْرًا ﴾ ، ومن قرأ بالباء مع ضم الشين جعله جمع ريح بشور ،
أي تبشر بالمطر والخير ، ومن سَكَّن الشين مع الباء فقد خَفَّف كراهةً لتوالى ضميتين .

(٢) راجع الجزء الخامس ، صفحة ٥٣٥ وما بعدها .

(٣) هكذا في جميع الأصول .

(٤) في (اللسان - سَقَى) : «يقال : سَقَيْتَهُ لَشَفْتِهِ ، وَأَسْقَيْتَهُ لِمَاشِيَتِهِ وَأَرْضَهُ .

(٥) سَقَى وَأَسْقَى هنا بمعنى واحد ، وقد استشهد اللسان بهذا البيت على ذلك ، ومَجْدٌ :

ابنة ثيم بن غالب ، وهي أمُّ كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر ، وبسببها عدَّ بنو عامر
من الخمس ؛ لأنها قرشية .

وقرأ أبو عمرو : [نَسْقِيَهُ] بفتح النون ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن أبي عبلة ، وأبي حيوة ، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . و [أَنَاسِيٌّ] قيل : هو جمع إنسان ، والياء المشددة بدل من النون في الواحد ، قاله سيبويه ، وقال المبرد : هو جمع إنسيٍّ ، فكان القياس أن يكون (أَنَاسِيَّة) (١) ، كما قالوا في مهلي : مهالبة (٢) ، وحكى الطبري عن بعض اللغويين في جمع إنسان : (أَنَاسِين) بالنون كسرحان وبستان ، وقرأ يحيى بن الحارث «أَنَاسِيٌّ» بتخفيف الياء . والضمير في [صَرَفْنَاهُ] قال ابن عباس ، ومجاهد : هو عائذ على الماء المنزل من السماء ، والمعنى أن الله تبارك وتعالى جعل لهم إنزال الماء تذكرة بأن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض ، وهو كله في كل عام بمقدار واحد ، وقاله ابن مسعود ، وقوله - عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ - : ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي في قولهم: بالأنواء والكواكب ، قاله عكرمة ، وقيل : [كُفُورًا] على الإطلاق لما تركوا التذکر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الضمير في [صَرَفْنَاهُ] للقرآن ، وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ، ويعضد ذلك قوله بعد ذلك : ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ ، وعلى التأويل الأول الضمير في [بِهِ] يُرَادُ بِهِ

(١) في الأصول : «إنسانية» .

(٢) المثال الذي ذكر في كتب اللغة ، وعنها أخذ المفسرون ، وقاله الفراء في أحد قولين له هو : «جَمَعَ التُّرُقُورَ عَلَىٰ قَرَاقِرٍ وَقَرَاقِيرٍ» ، والتُرُقُورُ : ضرب من السفن ، وقيل : هو السفينة الكبيرة الطويلة .

القرآن على نحو ما ذكرناه . وقال ابن زيد : يرادُ به الإسلام . وقرأ
 عكرمة : [صَرَفْنَاهُ] بتخفيف الراء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ،
 والكوفيون : [لِيَذْكُرُوا] بسكون الذال ، وقرأ الباكون : [لِيَذْكُرُوا]
 بشد الذال والكاف .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّ شَيْنًا ﴾ الآية اقتضاب يدل عليه ما ذكرناه ،
 تقديره : ولكننا أفردناك واصطفيناك فلا تطع الكافرين .

قوله عز وجل :

﴿ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ
 بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا
 وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ
 وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ
 مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

اضطرب الناس في تفسير هذه الآية - فقال ابن عباس رضي الله
 عنهما : أراد : بحر السماء والبحر الذي في الأرض ، ورُتبت ألفاظ
 الآية على ذلك ، وقال مجاهد : البحر العذب هو مياه الأنهار الواقعة

في البحر الأجاج ، ووقوعها فيه هو مَرَجُهَا ، قال : والبرزخ والحجر هما (١) حاجز في علم الله تعالى لا يراه البشر ، وقاله الزجاج ، وقالت فرقة : معنى [مَرَجَ] : أدام أحدهما في الآخر ، وقال ابن عباس : عَلَيَّ أَحدهما على الآخر ، ونحو هذا من الأقاويل التي تتداعى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي أقول في الآية : إن القصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى ، وإتقان خلقه للأشياء ، في أن بث في الأرض مياهاً عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار ، وجعلها خلال الأجاج ، وجعل الأجاج خلالها ، فترى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه ، وتلقى الماء في البحر - في الجزائر ونحوها - قد اكتنفه الماء الأجاج ، فبثها هكذا في الأرض ، وهو خلطها ، ومنه قوله : [مَرَجَ] ، ومنه ﴿ في أمرٍ مَرِيجٍ ﴾ (٢) و «الْبَحْرَانِ» يراد بهما جميع الماء العذب وجميع الماء الأجاج ،

(١) في الأصل (هو) .

(٢) من الآية (٥) من سورة (ق) . ومن هذا المعنى - وهو الاختلاط والاضطراب - قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاص : (إذا رأيت الناس مَرَجَتْ عهودهم ، وخَفَّتْ أماناتهم ، وكانوا هكذا وهكذا) - وشبَّكَ بين أصابعه - فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ؟ جعلني الله فداك ، قال : (الزم بيتك ، واملِكْ عليك لسانك ، وخُذْ بما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة أمر نفسك ، ودع عنك أمر العامة) . خرَّجه النسائي ، وأبو داود ، وغيرهما .

كَأَنَّهُ قَالَ : مَرَجَ نَوْعِي الْمَاءِ ، فَالْبَرْزُخُ وَالْحِجْرُ هُمَا (١) مَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
 مِنَ الْأَرْضِ وَالْيَبْسِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ ، وَمِنَهُ الْقُدْرَةُ الَّتِي تَمْسُكُهُمَا مَعَ قَرَبِ
 مَا بَيْنَهُمَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ . وَبِكَسْرِ الْحَاءِ قَرَأَ النَّاسُ كُلَّهُمْ هُنَا ،
 وَالْحَسَنُ بَضَمَ الْحَاءِ فِي سَائِرِ الْقُرْآنِ . وَ « الْبَرْزُخُ » : الْحَاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ .
 وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ ﴾ ، وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مَصْرُوفٍ : ﴿ وَهَذَا
 مِلْحٌ ﴾ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِ اللَّامِ ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : هَذَا مِنْكَرٌ (٢) فِي
 الْقِرَاءَةِ ، وَقَالَ ابْنُ جَنِيٍّ : أَرَادَ : مَالِحًا ، وَحَذَفَ الْأَلْفَ ، كَعَرْدٍ وَبَرْدٍ (٣) .
 وَ « الْأُجَاجُ » : أَبْلَغُ مَا يَكُونُ مِنَ الْمَلُوحَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ الْآيَةُ . هُوَ تَعْدِيدُ
 النِّعْمَةِ عَلَى النَّاسِ فِي إِيجَادِهِمْ بَعْدَ الْعَدَمِ ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْعِبْرَةِ فِي ذَلِكَ ،

(١) فِي الْأَصْلِ (هُوَ) .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَهَذَا الْمَنْكَرُ فِي الْقِرَاءَةِ » ، وَالتَّصْوِيبُ عَنِ الْمَحْتَسَبِ لِابْنِ جَنِيٍّ ،
 فَقَدْ نَقَلَ كَلَامَ أَبِي حَاتِمٍ .

(٣) يَرِيدُ : كَعَرْدٍ وَبَرْدٍ فِي قَوْلِ الرَّاجِزِ :

أَصْبَحَ قَلْبِي صَرْدًا لَا يَشْتَهِي أَنْ يَرْدًا
 إِلَّا عَرَادًا عَرْدًا وَصَلِيًّا نَاءً بَرْدًا
 وَعَعْنُكَتًا مُلْتَبِدًا

فَإِنَّهُ يَرِيدُ : عَارِدًا وَبَارِدًا ، فَحَذَفَ الْأَلْفَ تَخْفِيفًا ، وَكَذَلِكَ هُنَا حَذَفَ الْأَلْفَ مِنْ (مَالِحًا)
 تَخْفِيفًا فَصَارَتْ (مَلِحًا) ، قَالَ : عَلَى أَنْ (مَالِحًا) لَيْسَتْ فَصِيحَةً صَرِيحَةً ؛ لِأَنَّ الْأَقْوَى فِي
 ذَلِكَ : مَاءٌ مِلْحٌ ، وَمِثْلُهُ مِنَ الْأَوْصَافِ عَلَى فِعْلٍ : نِضْوٌ ، وَهَرِطٌ - وَهُوَ اللَّحْمُ الْمَهْزُولُ - .

وتعديد النعمة في التواشج الذي بينهم من النسب والصهر ، وقوله :
 ﴿ مِنْ أَلْمَاءٍ ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من
 الماء ، وإما أن يريد نطف الرجال ، وكل من ذلك قالته فرقة ، والأول
 أفصح وأبين ، و «النَّسَبُ وَالصَّهْرُ» معنيان يعمان كل قربي تكون
 بين آدميين ، فالنَّسَبُ هو أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو في أم ،
 قَرَبَ ذلك أو بعد ذلك ، والصَّهْرُ هو تواشج المناكحة ، فقرباة الزوجة
 هم الأختان (١) ، وقرباة الزوج هم الأحماء (٢) ، والأصهار يقع عاماً
 لذلك كله ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : النَّسَبُ ما لا يحل
 نكاحه ، والصَّهْرُ ما يحل نكاحه ، وقال الضَّحَّاك : الصَّهْرُ قرباة الرضاع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك عندي وهم أوجبه أن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
 «حُرْمٌ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ ، وَمِنَ الصَّهْرِ خَمْسٌ» ، وفي رواية أخرى : «ومن

(١) قال ابن الأعرابي : الأختانُ : أبو المرأة وأخوها وعمَّتها ، كما قال الأصمعي ،
 والصَّهْرُ : زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمَّته ، وقال محمد بن الحسن : أَخْتَانُ الرَّجُلِ :
 أزواج بناته وأخواته وعمَّاته وخالاته وكل ذات محرم منه ، وأصهارُهُ : كلُّ ذي رحم محرم
 من زوجته .

(٢) في المعجم الوسيط : حما المرأة : أبو زوجها ومن كان من قبيلِهِ من الرجال .
 وحما الرجل : أبو امرأته ومن كان من قبيلِهِ من الرجال : واجتمع : أحماء .

الصَّهْرُ سَبْعٌ» ، يريد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ فهذا هو النَّسَبُ ، ثم يريد بالصَّهْرُ قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (١) ، ثم ذكر المحصنات ، ويحتمل هذا أَنَّ ابن عباس رضي الله عنهما أراد : حرم من الصهر ما ذكر معه ، فقصد بـ (ما ذُكِرَ) إلى عَظْمِهِ وهو الصَّهْرُ (٢) ، لا أَنَّ الرضاع صِهْرٌ ، وإنما الرضاع عديل النَّسَبِ يحرم منه ما يحرم من النَّسَبِ بحكم الحديث المأثور فيه ، ومن روى : «وَحُرِّمَ مِنَ الصَّهْرِ خَمْسٌ» أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات وهن ذوات الأزواج . (٣) .

(١) الآية (٢٣) من سورة (النساء) .

(٢) في الأصل : «وهو القصد» ، والتصويب عن القرطبي ، فقد نقل العبارة كلها عن ابن عطية .

(٣) قال القرطبي بعد أن نقل كلام ابن عطية : «فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسباً ، وهو قول الزجاج» .

وحكى الزهراوي قولاً أن النسب من جهة البنين ، والصهر من جهة البنات ، قال الحسن : وهذا حسن وفي درج ما قدمته ، وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ لأنه جمعه به نسب وصهر .

قال التماضي أبو محمد رحمه الله :

فاجتماعهما وكادُ حرمة إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ هي [كان] التي للدوام قبل وبعد ، لا أنها تعطي مضياً فقط .

ثم ذكر تعالى خطأهم في عبادتهم أصناماً لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، وقوله : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ فيه تأويلان : أحدهما أن «الظهير» المعين ، فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك ، من أن الكفار يعينون على ربهم غيرهم من الكفرة ، ويعينون الشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه ، وهذا هو تأويل مجاهد ، والحسن ، وابن زيد . والثاني ذكره الطبري في أن يكون «الظهير» فعلاً من قولك : «ظهرتُ الشيء» إذا طرحته وراء ظهرك واتخذته ظهيراً ، فيكون معنى الآية على هذا التأويل احتقار الكفرة (١) ، و «الكافر» في هذه الآية اسم

(١) ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهِيرًا ﴾ ، أي : هيناً لا قيمة له ،

وعليه جاء قول الفرزدق :

جنس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بل هو مُعَيَّن أراد به أبا جهل ابن هشام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويُشبهه أن أبا جهل سبب الآية ، ولكن اللفظ عام للجنس كله .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ الآية ، تسليية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي : لا تَهْتَم بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً عليهم ، فإنما أنت رسول تُبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ ، وتُنذِرُ الْكَافِرِينَ بِالنَّارِ ، ولست بمطلوب بإيمانهم جميعاً .

ثم أمره تعالى بأن يحتجَّ عليهم مُزيلاً لوجوه التَّهْم بقوله : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ، أي : لا أطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ ، الظاهر فيه أنه استثناءٌ منقطع ، والمعنى : لكن مسؤولي ومطلوبي من شاء أن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة فليفعل . وقال الطبري : المعنى : لا أسألكم أجراً إلا إنفاق المال في سبيل الله ، فهذا هو المسؤول ، وهو السبيل إلى الرب .

= تَمِيمُ بْنُ قَيْسٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي بِظَهْرٍ فَلَا يَتَعَيَّنَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

وقيل في معنى « ظهير » : وكان الكافر على ربه الذي يعبد - وهو الصنم - قوياً غالباً يعمل به ما يشاء ، لأن الحماد لا قدرة له على دفع ضرر أو جلب نفع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالاستثناء - على هذا - كالمتصل ، وكأنه قال : **إِلَّا أَجْرٌ مِنْ شَاءَ (١)** ،
والتأويل الأول أظهر .

قوله عز وجل :

﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ** ^ع **وَكَفَى بِهِ بَذُنُوبٍ عِبَادَهُ**
خَيْرًا ﴿٥٨﴾ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى**
عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا**
وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾

المعنى : قل لهم يا محمد هذه المقالة التي لا ظنَّ ينصرف إليك معها ، ولا تُتهم معها ، وبشِّرْ وأنذر وتوَكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموت ، فهو المتكفل بنصرك في كل أمرك ، ثم وصف تعالى نفسه بالصفة التي تقتضي التوكل في قوله : ﴿ **الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ** ﴾ ؛ إذ هذا

(١) أي : الأجر الحاصل لي من الله على دعوته إلى الإيمان وقبوله هذه الدعوة ؛ لأن الله يأجرني على ذلك ، وقيل : التقدير : **إِلَّا أَجْرٌ مِنْ شَاءَ** أن يتخذ إلى ربه سبيلا باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة . وقيل : المعنى : **إِلَّا أَجْرٌ مِّنْ آمَنَ** ، ويريد بالأجر الإنفاق في سبيل الله ، أي : لا أسألكم أجراً إلا الإنفاق في سبيل الله ، فجعل الإنفاق أجراً . قاله في البحر والقرطبي .

المعنى يختص بالله تبارك وتعالى دون كل ما في الدنيا مما يقع عليه اسم حي ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي : قل سبحان الله وبحمده ، أي : تنزيهه واجب ، وبحمده أقول .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قال في كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر) (١) ، فهذا معنى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ، وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان ، الثقيلتين في الميزان . وقوله تعالى : [وَكَفَى] توعده ، وإزالة عن كاهل محمد صلى الله عليه وسلم في همه بهم (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ مع جمعه [السَّمَوَاتِ] ، فقييل : سائغ من حيث عادل لفظ [الْأَرْضِ] لفظ [السَّمَوَاتِ] ، ومنه قول عُمَيْرِ بْنِ شَيْمٍ :

أَلَمْ يَخْزُنْكَ أَنْ جَبَالَ قَيْسٍ وَتَغَلَّبَ قَدْ تَبَايَنَّا انْقِطَاعاً (٣)

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأحمد .
(٢) (كَفَى) في كلام العرب يراد بها المبالغة ، تقول : كفى بالعلم جمالا ، وكفى بالأدب مالا ، وفي بعض الأخبار : كفى بك ظفرا أن يكون عدوك عاصياً .

(٣) الشاعر هو القطامي ، عُمَيْرُ بْنُ شَيْمٍ التغليبي ، وبيته هذا من قصيدته التي مدح بها زُقَيْرَ بْنَ الْحَارِثِ الْكَلَابِيِّ الَّذِي أُسْرَهُ ثُمَّ حَمَاهُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَمَنَّ عَلَيْهِ ، وَوَهَبَ لَهُ مِائَةَ نَاقَةٍ ، وَرَدَّهُ إِلَى قَوْمِهِ : فَقَالَ فِيهِ :

أَكْفُرْ أَوْ بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرَّتَاعَا ؟ =

من حيث عادَلَ جبل حبالاً ، ومنه قول الآخر :

إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحُتُوفَ كِلَاهُمَا يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي (١)

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ، اختلفت الرواية في اليوم الذي ابتداءً الله تعالى فيه الخلق - فأكثر الروايات على يوم الأحد ، وفي مسلم وكتاب الدلائل : يوم السبت ، ويتبين من كون ذلك في ستة أيام وضع الأناة والتمهل في الأمور ؛ لأن قدرته تقتضي أنه يخلقها في طرفة عين لو شاء ، لا إله إلا هو ، وقد تقدم القول في الاستواء .

وقوله : [الرَّحْمَنُ] يحتمل أن يكون رفعه بإضمار مبتدأ ، أي : هو الرحمن ، ويحتمل أن يكون بدلا من الضمير في قوله : [أَسْتَوَى] ، وقرأ زيد بن علي بن الحسين : [الرَّحْمَنُ] بالخفض (٢) .

= والشاهد في البيت هنا أن الشاعر قال (تَبَايَنَتَا) بالثنية مع أن كلمة (جبال) جمع ، وذلك لأنه جعل جبال قيس جماعة ، وجبال تغلب جماعة أخرى فأعاد الضمير باعتبارهما صنفين أو مجموعتين ، وهذا هو مراد المؤلف بقوله : « حيث عادل جبل حبالاً » ، فقد قدر لتغلب جبالاً ، وقدر الكلام : « أن جبال قيس وجبل تغلب » ، ثم جاءت المعادلة بين النوعين والشئيين . (١) البيت للأسود بن يعقوب ، وهو من المفضلية (٤٤) ، والشاهد موجود في الشطر الأول ، وهو أن الشاعر عادل لفظ الموت بلفظ الختوف ، فأعاد الضمير عليهما باعتبارهما صنفين أو شئيين فقال : كلاهما ، مع أن الأول مفرد والثاني جمع ، كما جاء التعادل في الآية الكريمة بين لفظ [الأرض] وهو مفرد ، ولفظ [السموات] وهو جمع . وسوادي : شخصي . (٢) في قراءة الرفع يجوز على مذهب الأخفش أن يكون [الرَّحْمَنُ] مبتدأ و [فاسأل] خبره ، على حد قول الشاعر : « وقائلة نحولان فانكح فتاهم » .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما : فاسأل عنه ، و [خَبِيرًا] - على هذا - منصوب بوقوع السؤال عليه ، والمعنى : اسأل جبريل والعلماء وأهل الكتب المنزلة . والثاني أن يكون المعنى كما تقول : لو لقيت فلاناً لَلَقَيْتَ به البحر كرمًا ، أي : لقيت منه ، والمعنى : فاسأل الله عن كل أمر ، و [خَبِيرًا] - على هذا - منصوب إمَّا بوقوع السؤال ، وإمَّا على الحال المؤكدة ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴾ (١) ، وليست هذه بحال مُتَنَقِّلَةٌ ؛ إذ الصِّفَةُ العَلِيَّةُ لا تتغير (٢) .

ولما ذكر [الرَّحْمَنُ] في هذه الآية كانت قريش لا تعرف هذا في أسماء الله تبارك وتعالى ، وكان مسيلمة كذاب اليمامة تسمى بالرحمن ، فتغالطت قريش بذلك ، وقالت : إن محمداً يأمر بعبادة رحمن اليمامة ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ استفهامٌ عن مجهول عندهم ، ف [مَا] على بابها المشهور . وقرأ جمهور القراء : [تَأْمُرُنَا] بالبناء ، أي أنت يا محمد ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، والأسود بن يزيد ، وابن مسعود : [يَأْمُرُنَا]

(١) قال في البحر : « كونه منصوباً على الحال المؤكدة على هذا التقدير لا يصح ، إنما يصح أن يكون مفعولاً به » . وهو من الآية رقم (٩١) من سورة (البقرة) .

(٢) هذا رأي المهدي ، قال : لا يصح أن تكون حالا ، لا من الفاعل ولا من المفعول ، والحال في أغلب أمرها تتغير وتنقل ، لكن إذا حملناها على أنها حال مؤكدة جاز ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴾ .

بالياء من تحت ، إِمَّا على إرادة محمد صلى الله عليه وسلم ، والكناية عنه بالغيبة ، وإِمَّا على إرادة رحمن اليمامة ، وقوله تعالى : [وَزَادَهُمْ] أَي : أَضَلَّهُمْ هذا اللفظ ضللاً يختص به حاشى ما تقدم منهم .

قوله عز وجل :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾
 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾
 وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾

لما جعلت قريش سؤالها عن الله تعالى وعن اسمه الذي هو الرحمن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحةً بصفاته التي تُعرّف به ، وتوجب الإقرار بألوهيته . و « البروج » هي التي علمتها العرب بالتجربة وكلُّ أمة مُصْحَرَةٌ (١) ، وهي الشهور عند اللغويين وأهل تعديل الأوقات ، وكل برج منها على منزلتين وثلاث من منازل القمر التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ (٢) ، والعرب تُسمي

(١) البروج المعروفة هي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت .
 (٢) من الآية (٣٩) من سورة (يس) .

البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببرج السماء ، ومنه قوله
تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ (١) ، وقال الأخطل :

كَأَنَّهَا بُرْجٌ رُّومِيٌّ يُشِيدُهُ بَانَ بِجِصٍّ وَأَجْرٌ وَأَخْجَارٍ (٢)

وقال بعض الناس في هذه الآية التي نحن فيها : البروج : القصور
في الجنة ، وقال الأعمش : كان أصحاب عبد الله يقرءونها : « في
السماء قصوراً » ، وقيل : البروج : الكواكب العظام ، حكاه الثعلبي
عن أبي صالح ، وهذا غير ما بيناه إلا أنه غير مخلص ، والقول بأنها
قصور في الجنة يحط من غرض الآية في التنبيه على أشياء مدركات
تقوم بها الحجة على كل منكر لله أو جاهل به .

وقرأ الجمهور : [سِرَاجاً] ، وهي الشمس ، وقرأ حمزة ، والكسائي ،
وعبد الله بن مسعود ، وعلقمة ، والأعمش : [سُرْجاً] ، وهو اسم جميع
الأنوار ، وقد خص القمر بالذكر تشريفاً ، وقرأ النخعي ، وابن وثاب ،
والأعمش أيضاً : [سُرْجاً] بسكون الراء ، قال أبو حاتم ، وروى
عصمة عن الحسن : [وَقُمراً] بضم القاف ساكنة الميم ، ولا أدري

(١) من الآية (٧٨) من سورة (النساء) .

(٢) البيت في وصف الناقة ، يُشَبِّهُهَا فِي ضَخَامَتِهَا بِالْقَصْرِ الْكَبِيرِ الْمُرْتَفِعِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ
فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَشَيْدُ الْبِنَاءِ : رَفَعَهُ وَعَلَاهُ ، أَوْ ظَلَاهُ بِالشَّيْدِ ، وَهُوَ كُلُّ مَا طَلَبِي بِهِ الْبِنَاءُ ،
وَالشَّاهِدُ فِي الْبَيْتِ أَنَّ الْبُرْجَ هُوَ الْبِنَاءُ الْمُرْتَفِعُ الْمُسْتَغْنِي بِنَفْسِهِ .

ما أراد إلا أن يكون جمعاً كَثُمرَ وَثُمرَ ، قال أبو عمرو : وهي قراءة الأعمش ، والنَّخعي (١) . وقوله : [خِلْفَةٌ] أي : هذا يخلف هذا ، ومن المعنى قول زهير :

بِهَا الْعَيْنُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاوُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمٍ (٢)
ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء لمنزل في الصيف دأباً :

ولها بِالْمَاطِرُونَ إِذَا أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِي جَمَعَا
خِلْفَةً حَتَّى إِذَا ارْتَبَعَتْ سَكَنْتُ مِنْ جِلْقِي بِيَعَا
فِي بُيُوتِ وَسْطِ دَسْكَرَةٍ حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنْعَا (٣)

(١) في البحر أن عِصْمَةَ قرأها عن عاصم لا عن الحسن وفي القرطبي - عصمة عن الأعمش ، وقال في البحر : « والظاهر أنه لغة في القمر كالرَّشْد والرُّشْد والعَرَب والعُرْب » ، وقيل : جمع قمراء ، أي ليلة قمراء ، كأنه قال : « وذا قمر منير » ؛ لأن الليلة تكون قمراء بالقمر ، فأضافه إليها ، ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه قول حسَّان : (بَرْدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ) ، يريد : ماء بَرْدَى ، لأنه لو لم يراع المضاف لقال : تُصَفَّقُ بِالنَّاءِ .

(٢) العَيْنُ : البقر ، واحدها أعين وعيناء ، سُمِّيَتْ عيناء لِسَعَةِ عينها ، والآرام : الظباء البيض الخوالص البيضاء ، والواحد ريم ، وخِلْفَةٌ معناه : إذا مضى فوج جاء فوج آخر خلفه في مكانه ، وحكَّى يعقوب عن بعض اللغويين أن المعنى : مُخْتَلِفَةٌ ، يريد أنها تَتَرَدَّدُ في كل وجه ، وهذا علامة الأمن والخصب ، والظَّلَا : ولد البقرة والظبي والشاة ، والمَجْثَمُ : الموضع الذي يجم فيه الحيوان ، ويروى المَجْثَمُ بفتح التاء على أنه اسم من جَثَمَ يَجْثُمُ ، ويروى بكسر التاء فهو الاسم من جَثَمَ يَجْثُمُ .

(٣) الأبيات ليزيد بن معاوية ، وهي من مقطوعة قالها يتغزل في امرأة نصرانية ، كانت قد ترهبت في دير عند بستان بظاهر دمشق يسمَّى الماطرون ، وخِلْفَةٌ باللام : ما يطلع من =

وقال مجاهد : [خِلْفَةً] من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود ، نحو ما قدمناه ، وقال مجاهد وغيره : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ ﴾ أي : يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تبارك وتعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والحسن ، وابن عباس : معناه : لمن أراد أن يذكر ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه ، وقرأ حمزة وحده (١) : [يَذْكَرَ] بسكون الذال وضم الكاف ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، والنخعي ، وقرأ الباقر : [يَذْكَرَ] بشد الذال ، وفي مصحف أبي بن كعب : [يَتَذْكَرَ] بزيادة تاء .

ثم لما قال تعالى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ جاء بصفة عباده الذين هم أهلُ التذْكَرِ والشُّكُورِ ، و «العباد» و «العبيد»

= الثمر بعد الثمر ، وهي رواية البغدادي في الخزانة ، والعيني عن ابن القوطية ، والطبري والقرطبي في تفسيريهما ، ورواها المبرد في الكامل : (خُرْفَةٌ) بالخاء المضمومة والراء ، وهو ما يُخْتَرَفُ ويُجَسَّنِي . وارتبعت : دخلت في الربيع ، ويروى ذكرت بدلا من سكنت ، وجلتق : مدينة بالشام ، يقال إنها دمشق ، والبيسج : جمع بيعة بكسر الباء ، وهي مكان التبعث عند اليهود ، ولكن هذا لا يتفق مع ما قاله البغدادي من أن المرأة كانت نصرانية ، والدسكرة : القرية العظيمة ، وجمعها دساكر ، وينع الثمر : أدرك وطاب وحن قطافه . يقول الشاعر : إن هذه المرأة تردد بين الماطرون حيث نفذ إليه في الشتاء حين يأكل النمل ما جمعه في الصيف ، وبين بيع العبادة في دمشق إذ جاء الربيع حيث تقسيم في بيوت تقع وسط قرية كبيرة قد أينعت حولها ثمار أشجار الزيتون وحن قطافها .

(١) يعني من السبعة المعروفين في القراءات .

بمعنى ، إلا أن العباد تستعمل في مواضع التنويه ، وسُمي قومٌ من عبد القيس العباد لأن كسرى ملكهم دون العرب ، وقيل : لأنهم تآلَّهوا مع نصارى الحيرة وصاروا عباداً لله ، وإليهم ينسب عدي بن زيد العبادي ، وقرأ الحسن : «وعُبد الرحمن» ، ذكره الثعلبي ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ خبر ابتداء ، والمعنى : وعباده حق عباده هم الذين يمشون ، وقوله : ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك المعظم ، لاسيما وفي ذلك الانتقال في الأرض معاشرَةَ الناس وخلطتهم ، ثم قال : [هَوْنًا] بمعنى أمره كله هون ، أي لينٌ حسن ، قال مجاهد : بالحلم والوقار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بالطاعة والعفاف والتواضع ، وقال الحسن : حلماً ، إن جهل عليهم لم يجهلوا ، وذهبت فرقة إلى أن [هَوْنًا] مرتبط بقوله تعالى : ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي أن المشي هو الهون ، ويشبه أن يُتَأَوَّلَ هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيهِ ، فيرجع القول إلى نحو ما بيَّناه ، وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل ؛ لأنه رُبَّ ماشٍ هوناً رُوِيْدًا وهو ذئب أطلس ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صيب ، وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الآية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (مَنْ مَشَى مِنْكُمْ فِي طَمَعٍ فَلَيْمَشَ رُوِيْدًا)

إنما أراد في عقد نفسه ، ولم يرد المشي وحده ، ألا ترى أن المبطلين المتحلّين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر ذمّاً لهم :

كُلُّهُمْ يَمْشِي رُوَيْدٌ كُلُّهُمْ يَطْلُبُ صَيْدٌ (١)

وقال الزهري : سرعة المشي تذهب بهاء الوجه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد الإسراع الحثيث ؛ لأنه يخل بالوقار ، والخير في التوسط ، وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ فما وجدت في ذلك شفاءً ، فرأيت في النوم من جاءني فقال لي : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا للتفسير في الخلق ، و [هَوْنًا] معناه : رفقاً وقصداً ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا) الحديث (٢) ،

(١) قال ذلك أبو جعفر المنصور الخليفة في مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور ، وتمامه :

غَيْرَ عَمْرُو بْنِ عَبِيدٍ

(٢) أخرجه الترمذي في البر ، وفيه : (أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضِكَ يَوْمًا مَا) ، وفي « الأدب المفرد » للبخاري : هو من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ونصّه : (أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضِكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغَضُ بَغِيضِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبِكَ يَوْمًا مَا) ، ولم يثبت في المرفوع .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ، اختلفوا في تأويل ذلك - فقالت فرقة : ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل : «سلاماً» بهذا اللفظ ، أي : سلمنا سلاماً أو تسليماً أو نحو هذا ، فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين ، والذي أقول : إن قوله : [قَالُوا] هو العامل في [سَلَامًا] ؛ لأن المعنى : قالوا هذا اللفظ ، وقال مجاهد : معنى [سَلَامًا] : قولاً سداداً ، أي : يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين ، فقالوا في هذا التأويل : العامل في قوله [سَلَامًا] على طريقة النحويين ، وذلك أنه بمعنى : قولاً ، وهذه الآية كانت قبل آية السيف ، فنسخ منها ما يخص الكفرة ، وبقي أدها في المسلمين إلى يوم القيامة ، وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه ، وما تكلم على نسخ سواه ، رجح به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على غير المسلمين ، والآية مكّية نسختها آية السيف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورأيت في بعض [مصحف] (١) التواريخ أن إبراهيم بن المهدي - وكان من المائلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال يوماً

(١) هكذا في الأصل ، ولم يذكرها أحد من المفسرين الذين ذكروا القصة ، وأظنها من زيادات النساخ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

إلا أنه دخول غير مستوفى ، وقرأ أبو البرهسم : [سجوداً] ، ومدحهم تبارك وتعالى بدعائهم في صرف عذاب جهنم من حيث ذلك دليل على صحة عقيدتهم وإيمانهم ، ومن حيث أعمالهم بحسبه ، و [غَرَاماً] معناه : ملازماً ثقيلاً مجحفاً ، ومنه غرام الحب ، ومنه قول الأعشى :

إِنْ يُعَاقِبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُغْـ _____ طِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي (١)

وقول بشر بن أبي خازم :

وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجِفَا رِ كَانَ عِقَاباً وَكَانَ غَرَاماً (٢)

وقرأ جمهور الناس : [مُقَاماً] بضم الميم ، من الإقامة ، ومنه قول الشاعر :

حَيُّوا الْمُقَامَ وَحَيُّوا سَاكِنَ الدَّارِ (٣)

(١) البيت من قصيدته التي مدح بها الأسود بن المنذر اللخمي ، والتي يقول في مطلعها :

مَا بُكَاءَ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ وَسَوْأِي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤْأِي ؟

والشاهد في البيت أن (غراماً) بمعنى : شديداً ثقيلاً دائماً .

(٢) قال بشر هذا البيت في قصيدة يفخر فيها بقومه ، وبما سجلوه من أيام ، ويومُ النَّسَارِ ويومُ الجفار من أيام العرب ، الأول نسبة إلى جبل ، والثاني نسبة إلى ماء لبني تميم ، ويوم النَّسَارِ كان لبني أسد وأحلافها على بني عامر ، ويوم الجفار كان لهم على بني تميم حين أرادت أن تتأثر لبني عامر بعد هزيمتها يوم النَّسَارِ ، ولكن دارت الدائرة على بني تميم وانتصر بنو أسد في المعركتين ، ولهذا قال : إنه كان عقاباً وكان عذاباً شديداً دائماً ، وقد نسه في اللسان للطَّرِمَّاح .

(٣) المُقَام : مكان الإقامة ، فالتحية لكل من الدار وساكنها .

وقرأت فرقة : [مقاماً] بفتح الميم ، وأنه من قام يقوم ، فجهنم موضع قيام لهم ، والأول أفصح وأشهر .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ٧٧ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ٧٨ ﴿ يُضَعَّفَ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحُلِدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ ٧٩ ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ٨٠ ﴿

اختلف المفسرون في هذه الآية التي في الإنفاق ، فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة وإن أفرط ، والمسرف هو المنفق في المعصية وإن قلَّ إنفاقه ، وأن المقتر هو الذي يمنع حقاً عليه ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد . وقال عون بن عبد الله ابن عتبة : الإسراف : أن تنفق مال غيرك . وغير هذا من الأقوال التي هي غير مرتبطة بلفظ الآية ، وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر ، والوجه أن يقال : إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره ، وكذلك التعدي على مال الغير ،

وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك ، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات ، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيلاً ونحو هذا ، وألاً يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أي : العدل ، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه من الخصال ، وخير الأمور أوسطها ، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه يتصدق بجميع ماله ؛ لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين ، ومنع غيره من ذلك ، ونعم ما قال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يجيع ولا يعري ، ولا ينفق نفقة يقول الناس : قد أسرف . وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال ، ولا يأكلون الطعام للذة . وقال عبد الملك بن مروان لعمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه حين زوجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟ فقال له عمر : الحسنه بين سيئتين ، ثم تلا هذه الآية . وقال يزيد ابن حبيب أيضاً في هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثياباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ، ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ، ويكفيهم من الحر والبرد .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله . وفي سنن ابن ماجه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ مِنَ السَّرْفِ أَنْ تَأْكُلَ مَا اشْتَهَيْتَهُ) ، وقال الشاعر :

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ كَلَّا طَرَفِي قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ (١)

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر ، ومجاهد ، وحفص عن عاصم (٢) : [يَقْتَرُوا] بفتح الياء وكسر التاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي بفتح الياء وضم التاء ، وهي قراءة الحسن ، وطلحة ، والأعمش ، وعاصمٌ - بخلاف - ، وقرأ أبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح التاء (٣) .

(١) العُلُوُّ : الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد فيه ، قال في اللسان : « وخير الأمور أوساطها ، و... كِلَا طَرَفِي قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ » فاستشهد بالنصف الثاني على أن المراد الاعتدال في الأمور ، وعدم مجاوزة الحد في الطرفين بالإفراط أو التفريط ، وعلى هذا فلاقتصاد هو الاعتدال ، أو هو ما بين الإسراف والتقتير ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ أي بين الظالم والسابق ، وقال : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ ، وفي الحديث الشريف : (ما عال مقتصد ولا يتعيل) ، أي : ما افتقر من لا يسرف في الإنفاق ولا يُقْتَرُ .

(٢) الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم [يَقْتَرُوا] بفتح الياء وضم التاء ، لا بكسرها ، ونظن أن الخطأ من الناسخ .

(٣) إذا راجعنا ذلك على ما في كتب القراءات نجد اختلافات متعددة ، وحتى نأمن العثار والخطأ ننقل لك هنا ما أثبتته الحافظ ابن الجزري في كتابه (النشر في القراءات العشر) ، قال : « قرأ المدنيان وابن عامر بضم الياء وكسر التاء ، وقرأ ابن كثير والبصريان بفتح الياء وكسر التاء ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم التاء » . هذا والحجة لمن فتح الياء وكسر التاء أنه أخذه من قَتَرَ يَقْتَرُ ، مثل : ضَرَبَ يَضْرِبُ ، ومن ضمَّ التاء أخذه من قَتَرَ يَقْتَرُ ، مثل : خَرَجَ يَخْرُجُ ، والحجة لمن ضمَّ الياء وكسر التاء أنه أخذه من أَقْتَرَ يُقْتَرُ ، وهما لغتان معناهما : قِلَّةُ الْإِنْفَاقِ ، قاله ابن خالويه في كتاب : « الحجة » .

وقرأ أبو عمرو والناس : [قَوَاماً] بفتح القاف ، أي : معتدلاً (١) ،
 وقرأ حسان بن عبد الرحمن بكسر القاف ، أي : مبلغاً وسداداً وملاك
 حال ، و [قَوَاماً] خبر [كَانَ] ، واسمها مُقَدَّرٌ ، أي : الإنفاق ،
 وجوز الفراء أن يكون اسمها قوله : ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الآية ،
 إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في : عبادتهم الأوثان ،
 وقتلهم النفس بوأد البنات ، وغير ذلك من الظلم والاعتيال والغارات ،
 وبالزنى الذي كان عندهم مباحاً ، وفي نحو هذه الآية قال عبد الله
 ابن مسعود رضي الله عنه : قلت يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
 أيُّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت : ثم
 أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أي ؟ قال :
 أن تزاني حليلة جارك ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبالقتل والزنى يدخل في هذه الآية العصاة من المؤمنين ، ولهم
 من الوعيد بقدر ذلك ، والحق الذي تُقتل به النفس هو قتل النفس ،

(١) في بعض النسخ : اعتدالا .

(٢) أخرجه الفريابي ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ،
 وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان - عن
 ابن مسعود رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

والكفرُ بعد الإيمان ، والزنى بعد الإحصان ، والكفر الذي لم يتقدمه إيمان في الحربيين .

و « الأثامُ » في كلام العرب : العقاب ، وبه فسّر ابن زيد هذه الآية ، ومنه قول الشاعر :

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمَسَى عُقُوقاً وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامٌ (١)

أي : جزاءً وعقوبة . وقال عكرمة ، وعبد الله بن عمرو ، ومجاهد : إن « أثاماً » واد في جهنم ، هذا اسمه ، وقد جعله الله تعالى عقاباً للكفرة .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يُضَاعَفُ] ، [وَيَخْلُدُ] جزماً . وقرأ ابن كثير ، وأبو جعفر ، والحسن ، وابن عامر : [يُضَعَّفُ] بشد العين وطرح الألف ، وبالجزم في [يُضَعَّفُ] ، [وَيَخْلُدُ] . وقرأ طلحة بن سليمان : [نُضَعَّفُ] بضم النون وكسر العين المشددة [العذاب] بالنصب ، و [يَخْلُدُ] بالجزم ، وهي قراءة أبي جعفر . وقرأ طلحة بن سليمان : [وَتَخْلُدُ] بالتاء ، على معنى مخاطبة

(١) البيت لبليعة بن قيس بن ربيعة بن عبد الله بن يعمر ، اسمه حميضة ، وهو من كنانة بن خزيمه ، وكان بلعاء رأس بني كنانة وقائدهم في الحروب والغزوات ، وله أخبار كثيرة بسبب إكثاره من الغارات على العرب ، وقد أكثر من القول في فنون الشعر المختلفة ، وشعره حسن ، وقد استشهد صاحب اللسان بالبيت ، ونسبه إلى شافع الليثي ، قال : « قال أبو إسحق : تأويل الأثام : المجازاة ، وقال أبو عمرو الشيباني : لقي فلان أثام ذلك ، أي جزاء ذلك ، فإن الخليل وسيبويه يذهبان إلى أن معناه : يأتى جزاء الأثام ، وقول شافع الليثي في ذلك : جزى الله ... البيت ، أي : عقوبة مجازاة العقوق ، وهي قطيعة الرحم » . أما أبو عبيدة فقد نسبه إلى بلعاء في مجاز القرآن .

الكافر بذلك ، ورُوي عن أبي عمرو : [وَيُخْلَد] بضم الياء من تحت ،
 وفتح اللام ، قال أبو علي : «وهي غلط من جهة الرواية» ، و [يُضَاعَفُ]
 بالجزم بدلٌ من [يَلْتَقَ] ، قال سيبويه : مضاعفة العذاب لِقِي الأثام ،
 قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْبًا جَزْلاً وَنَارًا تَأْجَجًا (١)

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ الآية ، لا خلاف بين العلماء أن
 الاستثناء عامل في الكافر والزاني ، واختلفوا في القاتل من المسلمين -
 فقال جمهور العلماء : «لَهُ التَّوْبَةُ» ، وجعلت هذه الفرقة قاعدتها
 قوله تعالى : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٢) ، فحصل القاتل
 في المشيئة كسائر التائبين من ذنوب ، ويتأولون الخلود الذي في آية
 القتل في سورة النساء (٣) بمعنى الدوام إلى مدة كخلود الدول ونحوه ،

(١) البيت لعبيد الله بن الحر الجعفي ، كان مع معاوية على علي ، ثم حدثت بينهما
 مناقشة خرج بعدها وانضم إلى علي رضي الله عنه - أقرأ خير ذلك في (خزانة الأدب) للبغدادي .
 والجزل : الغليظ ، وهذا يجعل النار قوية فينظر إليها الضيوف عن بُعد ، وتأججاً بضمير
 الاثني ، للحطب والنار ، أو أن الألف في (تأججاً) للإطلاق مع تذكير النار ، أو عاد الضمير
 على النار مذكراً لأن النار مؤنث مجازي ، والشاهد في البيت جزم (تُلْمِمُ) لأنه بدلٌ من
 قوله : (تَأْتِنَا) ، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لحاز ، قال سيبويه : سألت الخليل عن
 البيت فقال : (تُلْمِمُ) بدلٌ من الفعل الأول ، أراد أن يفسر الإتيان بالإمام ، كما تقول :
 مررت برجل عبد الله ، ففسر الأول وهو رجل بالثاني وهو عبد الله .

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (النساء) ، وتكررت في الآية (١١٦) من السورة نفسها .

(٣) وهي قوله تعالى في الآية (٩٣) : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ

جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

وروى أبو هريرة لمن قتل حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) .
وقيل : إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه ،
وقاله سعيد بن جبير ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره :
لا توبة للقاتل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهذه الآية إنما
أريد بالتوبة فيها المشركون ، وذلك أنها لما نزلت قالت طوائف من
المشركين : كيف لنا بالدخول في الإسلام ونحن قد فعلنا جميع هذا ؟
فنزلت ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الآية (٢) ، فما رأيت رسول الله

(١) الحديث الذي يشير إليه أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه بسند
ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العتمة
ثم انصرفت ، فإذا امرأة عند بابي ، فقالت : جئتك أسألك عن عمل عملته هل ترى لي منه
توبة ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : زنيْتُ وولدت لي وقتلته . قلت : لا ولا كرامة ، فقامت وهي
تقول : واحسرتاه ، أخلق هذا الجسد للنار ؟ فلما صلّيت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح
من تلك الليلة قصصتُ عليه أمر المرأة ، قال : وما قلت لها ؟ قلت : لا ولا كرامة ، قال :
بئس ما قلت ، أما كنت تقرأ هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ ...
إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ الآية ، قال أبو هريرة : فخرجت فما بقيت دار بالمدينة ولا خطة
إلا وقفتُ عليها فقلت : إن كانت فيكم المرأة التي جاءت أبا هريرة فلتأتِ ولتُبشِّر ، فلما
انصرفتُ من العشي إذا هي عند بابي ، فقلت : أبشري ، إني ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم
ما قلت وما قلت لك فقال : بئس ما قلت ، أما كنت تقرأ هذه الآية ؟ وقرأتها عليها ، فخرت
ساجدة وقالت : أحمد الله الذي جعل لي توبة ومخرجاً ، أشهد أن هذه الجارية (الجارية معها
وابن لها) حُرَّان لوجه الله ، وإني قد تبت بما عملت .

(٢) من الآية (٥٣) من سورة (الزمر) .

صلى الله عليه وسلم فرح بشيء فرحه بها وبسورة الفتح^(١) . وقال غير ابن عباس رضي الله عنهما ممن قال بأن لا توبة للقاتل : إن هذه الآية منسوخة بآية سورة النساء ، قاله زيد بن ثابت ، ورواه أيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال أبو الجوزاء : صحبت ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عشرة سنة فما رأيت شيئاً من القرآن إلا سألتُه عنه ، فما سمعته يقول : إن الله تبارك وتعالى يقول للذنب : لا أغفره .

وقوله تعالى : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ معناه : يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة ، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله عز وجل إياهم ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وابن زيد ، والحسن ، وردوا على من قال : « هو في يوم القيامة لمن يريد المغفرة له من الموحدين ، يبدل السيئات حسنات » ، وهذا تأويل ابن المسيب في هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو معنى كرم العفو .

وقرأ ابن أبي عبلة : [يُبَدِّلُ] بسكون الباء وتخفيف الدال .

(١) أخرجه بلفظ آخر في أوله ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس

رضي الله عنهما .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ
الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِبَآئِتٍ رَبِّهِمْ لَمْ يُخْرِجُوا
عَلَيْهَا صُغًا وَعُغَيَانًا ﴾ (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٧٤) ﴿

أكد هذا اللفظ أمر التوبة ، والمعنى : ومن تاب فإنه قد تمسك
بأمر وثيق ، وهذا كما تقول لمن يُستحسن قوله في أمر : لقد قلت
يا فلان قولاً ، وكذلك الآية معناها مدح المتاب ، كأنه قال : فإنه
يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً . ثم استمرت الآية في صفة عباد الله
- تبارك وتعالى - المؤمنين بأن نفى عنهم شهادة الزور . و [يَشْهَدُونَ]
في هذه الآية ظاهرٌ معناها : يشاهدون ويحضرون . و «الزُّورُ» : كل
باطلٍ زورٍ وزُخرفٍ ، فَأَعْظَمَهُ الشُّرْكَ ، وبه فسر الضحاك ، وابن زيد ،
ومنه الغناء ، وبه فسر مجاهد ، ومنه الكذب ، وبه فسر ابن جريج ،
وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، ومحمد بن علي : المعنى :
لا يشهدون الزور ، فهي من الشهادة لا من المشاهدة ، و «الزُّورُ» :
الكذب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
 والشاهد بالزور - حاضره ومؤدّيه - فجرة ، فالمعنى الأول أعم ،
 لكن المعنى الثاني أغرق في المعاصي وأنكى .
 و «اللَّغْوُ» : كل سقط من فعل أو قول ، ويدخل فيه الغناء واللهو
 وغير ذلك مما قاربه ، ويدخل في ذلك سفه المشركين وأذاهم للمؤمنين ،
 وذكر النساء وغير ذلك من المنكر ، و [كِرَامًا] معناه : معرضين
 مُسْتَخْفِينَ يتجافون عن ذلك ، ويصبرون على الإيذاء منه ، وروي أن
 عبد الله بن مسعود سمع غناءً فأسرع في مشيه وذهب ، فبلغ ذلك النبي
 صلى الله عليه وسلم فقال : (لقد أصبح ابن أم معبد كريماً) ، وقرأ
 الآية (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
 وأما إذا مرّ المسلم بمنكر فكرّمه أن يُغيّره ، وحدود التغيير معروفة .
 وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، يريد : ذكروا
 بالقرآن آخرتهم ومعادهم ، وقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾
 يحتمل تأويلين : أحدهما أن المعنى : لم يكن خروورهم بهذه الصفة
 بل يكون خروورهم سجداً وبُكياً ، وهذا كما تقول : لم يخرج زيد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن عساكر ، عن إبراهيم بن ميسرة رضي الله عنه ، وفيه
 أن الذي قرأ الآية هو إبراهيم بن ميسرة ، وجاء بلفظ : (ثم تلا إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا
 بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾) . (الدر المنثور) .

إلى الحرب جزعاً ، أي : إنما خرج جريئاً مقدماً ، أو كأن الذي يَخِرُّ
 أصمّ أعمى هو المنافق أو الشاك ، وهو التأويل الثاني ، وإليه ذهب
 الطبري ، وهو أنّ ﴿ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ هي صفة الكفار ،
 وهي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك ، وقرن ذلك بقولك :
 « قعد فلان يشتمني ، وقام فلان يبكي » ، وأنت لم تقصد الإخبار
 بقعود ولا قيام ، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضلَّ
 كان ذلك خروراً ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ، وإن كان
 قد شبه به الذي يخر ساجداً ، لكن أصله أن يكون على غير ترتيب .
 ثم مدح المؤمنين حال الدعاء إليه بأن يُقِرَّ العيون بالأهل والذرية .
 و « قُرَّة العين » يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من
 القَرِّ ، وهو الأشهر ؛ لأن دمع السرور باردٌ ودمع الحزن سخن ، فمن
 هذا يقال : أَقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ وَأَسَخَّنَ اللهُ عَيْنَ الْعَدُوِّ (١) ، وقُرَّة العين في
 الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تبارك وتعالى ، قاله
 ابن عباس ، والحسن ، وحضرمي ، وبين المقداد بن الأسود الوجه
 في ذلك بأنهم كانوا في أول الإسلام يهتدي الابن والأب كافر ،

(١) أخذ الشاعر فقال :

فَكَمَّ مَسَخِنَتُ بِالْأَمْسِ عَيْنٌ قَرِيرَةٌ وَقَرَّتْ عِيونٌ دَمَعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبٌ

والزَّوْجُ والزوجة كافرة ، فكانت قرّة عيونهم في إيمان أحبّابهم .
 وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والحسن : [وَذُرِّيَاتِنَا] ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وطلحة ، وعيسى : [وَذُرِّيَّتِنَا] بالإفراد .
 وقوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قيل : هو جمع (آم) ، مثل قائم وقيام ، وقيل : هو مفرد اسم جنس ، أي : اجعلنا يأتهم بنا المتقون ، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي مُتَّقِيًا قدوة ، وهذا هو قصد الداعي ، وقال إبراهيم النخعي : لم يطلبوا الرياسة ، بل أن يكونوا قدوة في الدين ، وهذا حسن أن يُطلب ويُسعى إليه .

قوله عز وجل :

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُرْبِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قرأ أبي بن كعب : [يُجَاوُونَ] بألف ، و [الْغُرْفَةَ] من منازل الجنة ، وهي الغرف فوق الغرف ، وهي اسم جنس ، كما قال :
 وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمْرَاءُ لَمْ أَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ (١)

(١) الحَبَّةُ : واحدة الحَبِّ ، وهو ما يكون في السنبُل والأكام كالقمح والشعير ، وجمع الحَبِّ : حبوب ، والحُلُولُ : التزول ، والشاهد أن الحَبَّةَ : اسم جنس كالغرفة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [وَيُلَقَّوْنَ] بضم الياء وفتح اللام وشدّ القاف ، وهي قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وعاصم ، وطلحة ، ومحمد اليماني ، ورؤيت عن النبي صلى الله عليه وسلم : [وَيُلَقَّوْنَ] بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، واختلف عن عاصم (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ الآية . أمرٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب بذلك ، و [ما] تحتمل النفي ، وتحتمل التقرير ، والكلام في نفسه يحتمل تأويلات : أحدها أن تكون الآية إلى قوله : ﴿ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ خطاباً لجميع الناس ، فكأنه قال لقريش منهم : ما يبالي الله بكم ، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت ، وذلك الذي يُعبأ بالبشر من أجله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) ، وقال النقاش : المعنى : لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ، ونحو ذلك ، فهو عرف الناس المرعي (٣) فيهم ، وقرأ ابن الزبير وغيره : « فقد كذب الكافرون » ، وهذا يؤيد أن الخطاب بـ ﴿ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ ﴾ هو لجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتهم ولم تعبدوه ، فسوف يكون العذاب - أو يكون التكذيب الذي هو سبب العذاب - لزاماً .

(١) لأن القراءة الثابتة في المصحف عن عاصم من طريق حفص جاءت بضم الياء وتشديد القاف .

(٢) الآية (٥٦) من سورة (الذاريات) .

(٣) في بعض النسخ : المدعى فيهم .

الثاني أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة ، أي : ما يعبأُ بكم ربي لولا دعاؤكم الأصنام دونه ، فإن ذلك يوجب تعذيبكم .
الثالث وهو قول مجاهد : ما يعبأُ بكم ربي لولا دعاؤكم إلى شرعه ، فوقع منكم الكفر والإعراض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمصدر في هذا التأويل مضاف إلى المفعول ، وفي الأولين مضاف إلى الفاعل ، و [يَعْبَأُ] مشتق من العبء وهو من الثقل الذي يعبأُ ويُرتَّب كما يُعبَأُ الجيش (١) ، قال ابن جني : قرأ ابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهما : « فقد كذب الكافرون » ، قال الزهراوي : وهي قراءة ابن مسعود ، قال : وهي على التفسير .

وأكثر الناس على أن اللزَام المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر ، وهو قول أبي بن كعب ، وابن مسعود ، والمعنى : فسوف يكون جزاءُ التكذيب ، وقالت فرقة : هو توعدُّ بعذاب الآخرة ، وقال ابن مسعود : اللزَام هو التكذيب نفسه ، أي : لا يُعْطَوْنَ توبة ، ذكره الزهراوي ،

(١) في (اللسان - عبأ) : « عبأ الأمر عبثاً وعبأه يُعبئُهُ : هيأه ، وعبأتُ المتاع : جعلت بعضه على بعض ، وقيل : عبأ المتاع وعبأه : كلاهما هيأه ، وكذلك الخيل والجيش ، وكان يونس لا يهزم تعبئة الجيش » .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً : اللِّزَامُ الموتُ ، وهذا نحو القول ببدر ، وإن أراد به متأول الموت الفناء في الناس عرقاً فهو ضعيف ، وقرأ جمهور الناس : [لِزَاماً] بكسر اللام ، من لوزم ، وأنشد أبو عبيدة لِصَخْرٍ الْغَيِّ (١) :

فَإِمَّا يَنْجُوا مِنْ حَتْفِ أَرْضٍ فَقَدْ لَقِيَا حُتُوفَهُمَا لِزَاماً

وقرأ أبو السمال : [لَزَاماً] بفتح اللام ، من لَزِمَ (٢) ، والله أعلم .

كامل تفسير سورة الفرقان والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) هو صخر بن عبيد الله الخيثمي الهذلي ، وفي الأغاني أنه لُقِّبَ بصخر الغيِّ لخلاصته وشدة بأسه وكثرة شره ، وله ترجمة في الإصابة ، وفي الأغاني ، والبيت في (اللسان - لزِم) وفيه «قال أبو عبيدة : وجاء في التفسير عن الجماعة أنه يوم بدر ، وما نزل بهم فيه ، فإنه لوزم بين القتلى لزاماً ، أي : فُصِّلَ ، وأنشد أبو عبيدة لصخر الغيِّ : فَإِمَّا يَنْجُوا ... البيت ، وتأويل هذا أن الحتف إذا كان مقدراً فهو لازم ، إن نجا من حتف مكانٍ لِقِيَتَهُ الحتف في مكانٍ آخر لِزَاماً » .

(٢) قال أبو جعفر : يكون مصدر لَزِمَ ، والكسر أولى ، وقال غيره : اللِّزَامُ بالكسر مصدر لازمٍ لِزَاماً ، مثل خاصمٍ خِصَاماً ، واللِّزَامُ بالفتح مصدر لَزِمَ ، مثل سَلِمَ سَلَاماً ، أي سلامة ، فاللِّزَامُ بالفتح اللُّزُومُ ، واللِّزَامُ : الملازمة ، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل ، فاللِّزَامُ في موقع : مُلَازِمٍ ، واللِّزَامُ في موقع : لِزَامٍ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة
للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة الشعراء

هذه السورة مكية كلها ، قاله جمهور الناس ، وقال مقاتل :
منها مدني الآية التي يذكر فيها الشعراء ، وقوله تبارك وتعالى :
﴿ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١) .

(١) وقال ابن عباس ، وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة : من قوله :
﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى آخرها .
وعدد آيات السورة مائتان وسبع وعشرون آية ، وفي رواية : ست وعشرون ، وعن البراء
ابن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ،
وأعطاني الثميين مكان الإنجيل ، وأعطاني الطواسين مكان الزبور ، وفضلني بالحواميم والمفصل ،
ما قرأهن نبي قبلي) .

قوله عز وجل :

﴿ طَسَمَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَّفْسَكَ ٣ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ نَسَأْنَا نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ٥ لَمَّا خَضِعِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٧ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٨ أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهَةً أَنْ يُنَبِّئَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٩ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ١٠ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهم مُؤْمِنِينَ ١١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٢ ﴾

تقدم القول في الحروف في أوائل السور مستوعباً ، و [تِلْكَ] مرتفع بالابتداء ، وهو وخبره ساد مسد الخبر عن [طَسَمَ] في بعض التأويلات . والإشارة بـ [تِلْكَ] هي بحسب الخلاف في [طَسَمَ] ، وفي بعض الأقوال أن تكون [تِلْكَ] إشارة إلى حاضر ، و «ذلك» إلى موجود ، كما أن «هذه» قد تكون الإشارة بها إلى غائب معهود كأنه حاضر . و ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ القرآن .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : [طِسَمَ] بكسر الطاء ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر بفتحها وبإدغام النون من (سين) في الميم ، وقرأ حمزة وحده بإظهارها ، وهي قراءة أبي جعفر ، ورويت عن نافع ، وروى يعقوب عن أبي

جعفر ونافع قَطَعَ كل حرف منها على حِدَةٍ ، قال أبو حاتم : الاختيار فتح الطاء وإدغام آخر (سين) في أول (ميم) فتصير الميم متصلة (١) .
وقوله تعالى : [لَعَلَّكَ] الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عما كان فيه من القلق والحرص على إيمانهم ، فكان في شغل البال في حيزِ الخوف من نفسه ، و «الْبَاخِعُ» القاتل نفسه والمهلك لها بالهم ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناسُ ، ومن ذلك قول ذي الرمة :

أَلَا أَيُّهَذَا الْبَاخِعُ الْوَجْدُ نَفْسَهُ لَشَيْءٍ نَحْتَهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ (٢)
وخطوب بـ «لَعَلَّ» على ما في نفس البشر من توقع الهلاك في مثل تلك الحال . ومعنى الآية أَلَّا تَهْتَمُّ يا محمد بهم ، وبلغ رسالتك ، وما عليك من إيمانهم ، فإن ذلك بيد الله تعالى لو شاء لآمنوا ، وقوله : [أَلَّا] مفعول من أجله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ ﴾ شرطٌ ، وما في الشرط من الإيهام هو - في هذه الآية - في حيزنا ، وأما الله تعالى فقد علم أنه لا ينزل عليهم

(١) قال النحاس : للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه : يُبَيِّنَان عند حروف الحلق ، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء ، ويقبلان ميماً عند الباء ، ويكونان من الخياشيم ، أي لا يُبَيِّنَان فيما عدا ذلك ، وعلى ذلك لا تجوز قراءة إظهار النون من (سين) ؛ لأنه ليس ها هنا حرف من حروف الحلق .

(٢) البيت في الديوان ، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، وذكره في (اللسان - بَخَع) ، قال : بَخَع نفسه يَبْخَعُهَا بَخْعاً وَبُخُوعاً : قَتَلَهَا غِيظاً أَوْ غَمّاً ، وَنَحْتَهُ : عَدَلْتَهُ وَصَرَفْتَهُ وَأَبْعَدْتَهُ عَنْ يَدَيْهِ . يريد : نَحْتَهُ فحُفَف .

آية اضطرار ، وإنما جعل الله تعالى آيات الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ليهتدي من سبق في علمه هداة ، ويضل من سبق ضلاله ، وليكون للنظرة تكسب به يتعلق الثواب والعقاب ، وآية الاضطرار تدفع جميع هذا إن لو كانت .

وقرأ : [نُنزِلُ] بفتح النون وشد الزاي أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، والأعرج ، وعاصم ، والحسن ، وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة بسكون النون وتخفيف الزاي . وروى هارون عن أبي عمرو ﴿ يَشَأُ يُنْزِلُ ﴾ بالياء فيهما . والخضوع للدلالة في الآية المنزلة كان يترتب بأحد وجهين : إما بخوف هلاك في مخالفة الأمر المقترن بها كنتق الجبل على بني إسرائيل ، وإما أن تكون من الوضوح بحيث يقع الإذعان لها وانقياد النفوس ، وكل هذين لم يأت به نبي ، ووجه ذلك ما ذكرناه ، وهو توجيه منصوص للعلماء . وقرأ طلحة : « فَتَظَلَّ أَعْنَاقُهُمْ » ، وهو المراد في قراءة الجمهور ، وجعل الماضي موضع المستقبل إشارة إلى تقوية وقوع الفعل (١) . وقوله تعالى : [أَعْنَاقُهُمْ] يحتمل تأويلين :

(١) قال الفراء في (معاني القرآن) : « صواب أن تعطف على مجزوم الجزاء ؛ (فَعَلَّ) ؛ لأن الجزاء يصلح في موضع فَعَلَّ يَفْعَلُّ ، وفي موضع يَفْعَلُّ فَعَلَّ ، ألا ترى أنك تقول : إن زُرْتَنِي زُرْتَنِي وإن تَرَرْتَنِي أَزْرَكَ ، والمعنى واحد ؟ قال تبارك وتعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ ثم قال : ﴿ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ ، فَرَدَّ يَفْعَلُّ عَلَيَّ فَعَلَّ ، وقال الشاعر - وهو قعب بن أم صاحب :

إِنْ يَسْمَعُوا سُبَّةَ طَارُوا بِهَا فَرَحًا مِثِّي وَمَا يَسْمَعُوا مِنْ صَالِحٍ دَقْنَا
فَرَدَّ الخواب يَفْعَلُّ وقبله يَفْعَلُّ .

أحدهما - وهو قول مجاهد ، وابن زيد ، والأخفش - أن يريد : جماعاتهم ، يقال : « جاء في عنق من الناس » أي جماعة ، ومنه قول الشاعر :

أَنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا (١)

وعليه حُمل قول أبي مخجن :

وَأَكْتُمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبَةُ الْعُنُقِ (٢)

ولهذا قيل : « عُنُق رِقْبَةٌ » ، ولم يُقَل : « عُنُق عُنُق » فراراً من الاشتراك ، قاله الزهراوي .

(١) جاء في (اللسان - عنق) : « جاء القوم عُنُقًا عُنُقًا ، أي طوائف ، وقال الأزهري : إذا جاءوا فرقاً كل جماعة منهم عُنُق ، قال الشاعر يخاطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أَبْلِيغُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَنَ أَحَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
أَنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

أراد أنهم أقبلوا إليك بجماعتهم ، وقيل : هم مائلون إليك ومنتظرون .

(٢) هذا عجز بيت ، وهو واحد من أبيات افتخر بها عبيد بن أبي محجن عند معاوية ،

وهي :

لَا تَسْأَلِ النَّاسَ مَا مَالِي وَكَشَرْتَهُ وَسَائِلِ الْقَوْمِ : مَا حَزَمِي وَمَا خُلْتِي
الْقَوْمُ أَعْلَمُ أَنِّي مِنْ سَرَائِهِمْ إِذَا تَطَيْشُ يَدُ الرَّعْدِ يَدَةُ الْفَرَقِ
قَدْ أُرْكَبُ الْهَوْلَ مَسْدُولًا عَسَاكِرُهُ وَأَكْتُمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبَةُ الْعُنُقِ

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن العُنُق هنا من نفس المعنى الموجود في الشاهد السابق ، والذي يبدو لي أن العُنُق هنا بمعنى الجارحة المعروفة .

والتأويل الآخر أن يريد بـ «الأعناق» الجارحة المعلومة ، وذلك أن خضوع العنق والرقبة هو علامة الذلة والانقياد ، ومنه قول الشاعر :
 وَإِذَا الرَّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خُضِعَ الرَّقَابِ نَوَاكِسَ الْأَبْصَارِ (١)
 فمعنى هذا التأويل أن نتكلم على قوله : [خاضعين] ، كيف جمع جمع من يعقل ؟ وذلك متخرج على نحوين من كلام العرب : أحدهما أن الإضافة إلى من يعقل أفادت حكمه لمن لا يعقل ، كما تفيد الإضافة إلى المؤنث تأنيث علامة المذكر ، ومنه قول الأعشى :
 كما شَرَقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ (٢)

(١) البيت للفرزدق ، وهو من قصيدة له يمدح فيها آل المهلب ، واستشهد به في (اللسان - خضع) قال : «وقوم خضع الرقاب : جمع خضوع بمعنى خاضع ، قال الفرزدق : وإذا الرجال ... البيت» . ومعنى «خضع الرقاب» : مطأطؤ الرؤوس ذلا ، و «نواكس الأبصار» كناية عن الإجلال والتَّهَيُّبُ ، وهو مخالف للفصاحة عند البيانيين لأنه جمع ناكسة لا ناكس . قال في (اللسان - نكس) : «نكس رأسه إذا طأطأه من ذل» ، وجمع في الشعر على نواكس وهو شاذ ، وأنشد الفرزدق : وإذا الرجال ... البيت . قال سيبويه : إذا كان الفعل لغير الآدميين جمع على فواعل ؛ لأنه لا يجوز فيه ما يجوز في الآدميين من الواو والنون في الاسم والفعل ففواعل المؤنث . وقد ذكر ابن عطية تخريجين لهذا .
 (٢) هذا عجز البيت ، وهو بتمامه :

وَتَشْرَقُ بِالْقَسْوَلِ الَّذِي قَدَّ أَدْعَتَهُ كَمَا شَرَقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وقد استشهد به صاحب (اللسان - شرق) ، وهو في الديوان من قصيدة يهجو بها عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان حين جمع بينه وبين جهنم الشاعر ليهاجيه ، يقول : وحتى تشرق بما أذعت من القول ، كما يشرق مقدم القناة بالدم ، وصدر القناة هو أعلاها ، والشاهد فيه أنه أنت الفعل (شرق) بالتاء مع أن الفاعل وهو (صدر) مذكر ، ولكنه لما أضيف إلى القناة وهي مؤنثة لحقته تاء التأنيث بالفعل ، فكانه جعل الفعل للقناة لا لصدرها ، وابن عطية =

وهذا كثير . والنحو الآخر أن تكون «الأعناق» لما وُصفت بفعل لا يكون إلا مقصود البشر - وهو الخضوع - ؛ إذ هو فعل يتبع أمراً في النفس جمعت فيه جمع من يعقل ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٢) ، وقرأ ابن أبي عبيدة : «لَهَا خَاضِعَةٌ» .

ثم عَنَّفَ الكفار ، ونَبَّهَ على سوء فعلهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : [مُحَدَّثٍ] يريد : مُحَدَّثُ الإتيان ، أي : مجيء القرآن للبشر كان مجيء شيء بعد شيء ، وقالت فرقة : يحتمل أن يريد بـ «الذِّكْر» محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ، رَسُولًا ﴾ (٣) ، فيكون الوصف بالمُحَدَّثِ متمكناً .

= يقيس على ذلك أنه يجوز أن تخلع على غير العاقل صفة العاقل وحكمه فتقول : أعناقهم خاضعين ، بدلا من «خاضعة» وذلك لأن الأعناق أضيفت إلى ضمير العاقل . ومثل البيت قول الراجز :

لَمَّا رَأَى مَتْنَ السَّمَاءِ أَبْعَدَتْ

فقد أنث الفعل (أبعدت) بالناء مع أن الضمير يعود على مذكر وهو (متن) ، ولكن لما أضيف المتن إلى مؤنث وهو السماء جاز أن ينظر الشاعر إلى المضاف إليه وأن يتناسى المضاف ، وكأنه قال : لما رأى السماء أبعدت .

(١) من الآية (١١) من سورة (فصلت) .

(٢) من الآية (٤) من سورة (يوسف) .

(٣) من الآيتين (١٠ ، ١١) من سورة (الطلاق) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
والقول الأول أفصح .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ الآية وعيد بعذاب الدنيا ،
والآخرة ، وَيُقْوِي أَنَّهُ وَعِيدٌ بِعَذَابِ الدُّنْيَا أَنَّ ذَلِكَ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ
كبدر وغيرها .

ولما كان إعراضهم عن النظر في الصانع والإله أعظم كفرهم ،
وكانوا يجعلون الأصنام آلهة ، ويعرضون عن الذكر في ذلك - نبه
على قدرة الله تعالى ، وأنه الخالق المنشئ الذي يستحق العبادة بقوله :
﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ ﴾ الآية . و « الزَّوْجُ » : النوع والصنف ،
و « الكريم » : الحسن المتقن ، قاله مجاهد وقتادة ، ويراد الأشياء
التي بها قوام الأمور والأغذية والنباتات ، ويدخل في ذلك الحيوان
لأنه عن إنبات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (١) ،
قال الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن صار إلى الجنة فهو كريم ،
ومن صار بضد ذلك فهو لئيم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ حتم على أكثرهم بالكفر . ثم توعد بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، يريد : عز في نعمته من الكفار ورحم مؤمني
كل أمة ، وقال نحو هذا ابن جريج ، وفي لفظة [الرَّحِيم] وعد .

(١) الآية (١٧) من سورة (نوح) .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٤﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ مَا نَبَّأَتْنَا بِمَا نَعْمُ إِنَّمَا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾ فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

التقدير : واذكر إذ نادى ربك موسى . وسوق هذه القصة تمثيل لكفار قريش لتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنْتِ ﴾ يجوز أن تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب ، بمنزلة (أي) ، ويجوز أن تكون غيرها ، وهي في موضع نصب (١) ، وقوله : ﴿ أَلَّا يَتَّقُونَ ﴾ ، أي : قل لهم ، فجمع في هذه العبارة من المعاني نفي التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى ، وقرأ الجمهور : [يَتَّقُونَ] بالياء من تحت ، وقرأ عبد الله بن مسلم ، وحماد بن سلمة ، وأبو قلابة : [تَتَّقُونَ] بالتاء من فوق ، وعلى معنى : فقل لهم .

(١) على أنها مصدرية ، كما قال أبو حيان في البحر .

ولِعِظَمِ قُوَّةِ فِرْعَوْنَ وَتَأَلُّهُ وَطُولِ مُدَّتِهِ وَمَا أَشْرَبَتْ الْقُلُوبَ
 مِنْ مَهَابَتِهِ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ،
 وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ : [وَيَضِيقُ] بِالرَّفْعِ ، وَ [يَنْطَلِقُ] كَذَلِكَ ، وَقَرَأَ
 الْأَعْرَجُ ، وَطَلْحَةُ ، وَعَيْسَى ذَلِكَ بِالنَّصْبِ فِيهِمَا ، فَقِرَاءَةُ الرَّفْعِ هِيَ
 إِخْبَارٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِوُقُوعِ ضَيْقِ صَدْرِهِ ، وَعَدَمِ انْتِطَاقِ لِسَانِهِ ،
 وَلِهَذَا رَجَّحَ أَبُو حَاتِمٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ ، وَقِرَاءَةَ النَّصْبِ تَقْتَضِي أَنْ ذَلِكَ
 دَاخِلٌ تَحْتَ خَوْفِهِ ، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى [يُكَذِّبُونِ] . وَكَانَ فِي خَلْقِ مُوسَى
 عَلَيْهِ السَّلَامُ حِدَّةٌ ، وَكَانَتْ فِي لِسَانِهِ حَبْسَةٌ بِسَبَبِ الْجَمْرَةِ فِي طِفْلُوته ،
 وَحَكَى أَبُو عَمْرٍو عَنِ الْأَعْرَجِ أَنَّهُ قَرَأَ بِنَّصْبِ [وَيَضِيقُ] وَبِرَّفْعِ [يَنْطَلِقُ] ،
 وَقَدْ يَكُونُ عَدَمُ انْتِطَاقِ اللِّسَانِ بِالقَوْلِ لِعَمُوضِ المَعَانِي الَّتِي تَطْلُبُ
 أَلْفَاظاً مَحْرُورَةً ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي وَقْتِ ضَيْقِ صَدْرِهِ لَمْ يَنْطَلِقِ اللِّسَانُ ،
 وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَأَخْلُلُ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي ﴾ (١) ، فَالرَّاجِحُ
 قِرَاءَةُ الرَّفْعِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ مَعْنَاهُ : يُعِينَنِي وَيُؤَاذِرَنِي ،
 وَكَانَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزِيْرًا فَصِيحًا وَاسِعَ الصَّدْرَ ، فَحَذَفَ بَعْضُ
 المَرَادِ مِنَ القَوْلِ إِذْ بَاقِيهِ دَالٌّ عَلَيْهِ .

ثم ذكر موسى عليه السلام خوفَ القبطِ من أجلِ ذنْبِهِ ، وَهُوَ
 قَتْلُهُ الرَّجُلَ الَّذِي وَكَّرَهُ ، قَالَ قَتَادَةُ وَمَجَاهِدُ وَالنَّاسُ : فَخَشِيَ أَنْ

(١) الآية (٢٧) من سورة (طه) .

يستقاد منه ، فقال الله عزَّ وجلَّ له : [كَلَّا] ردًّا لقوله : « إِنِّي أَخَافُ » ،
 أي : لا تخف ردًّا لذلك فإنني لم أُحَمِّك ما حُمِّلت إلا وقد قضيتُ
 بظهورك ونصرك . وأمر موسى وهارون بخطاب موسى فقط لأن هارون
 ليس بمكلم بإجماعٍ ، ولكن قال لموسى : [أَذْهَبَا] أي أنت وأخوك ،
 و « الآيات » تعم جميع ما بعثهما الله تعالى به ، وأعظم ذلك العصا ،
 وبها وقع العجز ، [وَأَلَيْدُ الْبَيْضَاءِ] (١) ، وبالآيتين تحدَّى موسى
 عليه السلام فرعون ، ولا خلاف في أن موسى عليه السلام هو الذي
 حمله الله تبارك وتعالى أمر النبوة كلها ، وأن هارون عليه السلام كان
 نبياً رسولا معيناً وزيراً . وقوله : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إما أن يجعل الاثنين
 جمعاً ، وإما أن يريد هما والمبعوث إليهم وبني إسرائيل ، وقوله :
 [مُسْتَمِعُونَ] على نحو التعظيم والجبروت الذي لله تبارك وتعالى ، وصيغة
 [مُسْتَمِعُونَ] تُعْطَى اهتبالاً بالأمر ليس في صيغة « سامعون » ، وإلا فليس
 يوصف الله تبارك وتعالى بطلب الاستماع ، وإنما المقصد إظهار التَّهَمُّ
 ليعظم أنس موسى عليه السلام ، أو تكون الملائكة - بأمر الله إياها -
 تستمع .

(١) [اليد البيضاء] زيادة يقتضيها المقام وسلامة العبارة ، حيث قال ابن عطية بعدها :
 « وبالآيتين تحدَّى ... » ، والآيات التي بعث الله بها موسى هي : (العصا ، واليد ، والظوفان ،
 والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم ، والسنين ، والنقص من الثمرات) ، مع وجود
 اختلاف بين العلماء في بعضها .

وقوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هو أن العرب أجرت « الرسول »
مجري المصدر في أن وصفت به الجمع والواحد والمؤنث ، ومن ذلك
قول الهذلي :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ لِي أَعْلَمَهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبْرِ (١)

وقول الشاعر وإن كان مؤلدا :

إِنَّ الَّتِي أَبْصَرْتُهَا سَحْرًا تَكَلَّمَنِي رَسُولُ (٢)

وقوله : ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ معناه : سرح ، فهو بمعنى

الإرسال الذي هو بمعنى الإطلاق ، كما تقول : أرسلت الحجر من يدي .

(١) قال أبو ذؤيب هذا البيت من قصيدة قالها حين بيئت ناساً من بني سُلَيْمِ ناساً
من هذيل فقتلوهم ، قال شارح أشعار الهذليين : « أَلِكْنِي : أبلغ عني ألوكي ، و « الألوكة »
الرسالة ، كما تقول : أعكمتني ، أي أعني على عكمتي واعكمت معي ، وخير الرسول :
يريد الرُّسُل ، والرسول في موضع جمع ، كقولك : « كثير الدينار والدرهم » ، وقوله :
بنواحي الخبر ، أي : حروف الكلام وجوانبه وما أشكل منه . وقال القرطبي : أَلِكْنِي
إليها : أرسلني إليها .

(٢) الشاهد أن (رسول) هنا جاء في صفة المؤنث ولم تلحقه علامات التأنيث . ومثل هذين
الشاهدين قول كُثَيْبِ عَزَّةَ :

لَقَدْ كَذَبَ الْوَأَشُونَ مَا بُوْحْتُ عِنْدَهُمْ بَسِيرٌ وَلَا أُرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

لأن الرسول هنا بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر كما قال في اللسان ، ومن الشواهد أيضاً في هذا
المقام قول العباس بن مرداس :

أَلَا مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي خُفَّافًا رَسُولًا بَيَّتُ أَهْلِكَ مُنْتَهَاهَا ؟

فإنه يعني بقوله : «رسولا» : رسالة ، ولذلك أنث الهاء في قوله : منتهاها .

وكان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى فرعون في أمرين : أحدهما أن يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذلّ العبودية والغلبة . والثاني أن يؤمن ويهتدي ، وأمر بمكافحته ومقاومته في الأول ، ولم يؤمر بذلك في الثاني على ما بلغ من أمره ، وبُعث بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل فقط ، هذا قول بعض العلماء .

وقول فرعون لموسى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾ هذا على جهة المنّ عليه والاحتقار ، أي : رَبِّينَاكَ صغيراً ، أو لم نقتلك في جملة من قتلنا فلبثت فينا سنين ، فمتى كان هذا الذي تدّعيه ؟ وقرأ جمهور القراء : ﴿ مِنْ عُمَرِكَ ﴾ بضم الميم ، وقرأ أبو عمرو : [عُمَرِكَ] بسكونها ، ثم قرره على قتل القبطي بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ والفعلة - بفتح الفاء - المرّة من الفعل ، وقرأ الشعبي : [فِعَلْتِكَ] بكسر الفاء ، وهي هيئة الفعل ، وقوله : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : أحدهما أن يريد : وقتلت القبطي وأنت في قتلك إياه من الكافرين ؛ إذ هو نفس ولا يحل قتله ، قاله الضحّاك . أو يريد : وأنت من الكافرين بنعمتي في قتلك إياه ، قال ابن زيد : وهذان بمعنى واحد في حق اللفظ ، وإنما اختلفا باشتراك لفظ الكفر . والثاني أن يكون بمعنى الهزؤ ، أي : وأنت على هذا الدين وأنت من الكافرين بزعمك ؟ قاله السدي . والثالث - وهو قول الحسن - أن يريد : وأنت من الكافرين الآن ، يعني فرعون : بالعقيدة التي يكون بينها ، فيكون الكلام مقطوعاً من

قوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ ﴾ ، وإنما هو إخبارٌ مبتدأٌ أنه كان من الكافرين ، وهذا التأويل أيضاً يحتمل أن يريد به كُفْرَ النعمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه إلى فرعون نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۗ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ *

القائل هو موسى عليه السلام ، والضمير في قوله : [فَعَلْتَهَا]

لقتله القبطي ، وقوله : [إِذَا] صلة في الكلام ، وكأنها بمعنى : حينئذ (١) ،

(١) قال أبو حيان في (البحر) تعقيماً على كلام ابن عطية : « وليس بصلة ، بل هي حرف معنى ، وقوله : « وكأنها بمعنى حينئذ » ينبغي أن يجعل قوله تفسير معنى ، إذ لا يذهب أحد إلى أن (إذاً) ترادف من حيث الإعراب (حينئذ) . »

وقوله : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ قال ابن زيد : معناه : من الجاهلين بأنَّ وكزتي إياه تأتي على نفسه ، وقال أبو عبيدة : معناه : من الناسين لذلك ، ونزع لقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ (١) ، وفي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهم : « وأنا من الجاهلين » ، ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير (٢) .

وقوله : [حُكْمًا] يريد النبوة وحكمتها ، وقرأ عيسى : [حُكْمًا] بضم الحاء والكاف ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ درجة ثانية للنبوة ، فَرُبَّ نَبِيٍّ لَيْسَ بِرَسُولٍ .

ثم حاجه عليه السلام في منه عليه بالتربية وترك القتل بقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، واختلف الناس في تأويل الكلام - فقال قتادة : هذا منه على جهة الإنكار أن تكون نعمة ، كأنه قال : أو يصحُّ لك أن تعد علي نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل وقتلتهم ؟ أي : ليست بنعمة ؛ لأن الواجب كان ألا تقتلني وألا تقتلهم ، وألا تستعبدني ولا تستعبدهم بالقتل ولا بالخدمة وغير ذلك . وقرأ الضحاك : « وتلك نعمة مالك أن تمنها » ،

(١) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة) ، وذلك أن المتأولين قالوا : إنَّ [تَضِلَّ] بمعنى « تنسى » بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فَتَذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ ، والتذكير يكون للناسي .

(٢) وقال الزمخشري : « من الفاعلين فعل أولي الجهل ، كما قال يوسف لإخوته : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ » .

وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وقال الأَخْفَشُ: قيل: الواو أَلْفُ الاستفهام محذوفة، والمعنى: أوتلك؟ وهذا لا يجوز إلا إذا عادلتها «أم» كما قال:

تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرُ؟ (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول تكلف (٢)، وقسول موسى عليه السلام تقرير

(١) القائل هو امرؤ القيس، وهذا صدر بيت من قصيدة قالها يصف فرسه وخروجه

إلى الصيد، والبيت بتمامه:

تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرُ وَمَاذَا عَلَيْكَ بِيَانُ تَنْتَظِرُ؟

والرواح: السير في العشي، والابتكار: الخروج مبكراً، يقول: أتروح في آخر النهار أم تخرج مبكراً؟ ولماذا تتعجل الذهاب؟ وماذا عليك لو انتظرت فالانتظار خير لك؟ والشاهد حذف ألف الاستفهام في (تروح)، إذ أصلها: أتروح؟ والدليل هو وجود (أم) في الكلام.

(٢) قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا

أن يكون في الكلام (أم)، ولكن الفراء قال: يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك،

وحكى: ثرى زيد منطلقاً؟ بمعنى: أترى، وعاتق علي بن سليمان على كلام الفراء بقوله:

إنما أخذه من ألفاظ العامة، وقال الثعلبي حكاية عن الفراء: إن الآية إنكار من موسى عليه السلام

على طريق الاستفهام الذي حذف ألفه، كقوله تعالى: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ وقوله: ﴿ فَهَمُّ

الْخَالِدُونَ ﴾، وكقول الشاعر:

رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خَوَيْلِدُ لَا تُرْعَ فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجْهَ : هُمُ هُمُ؟

وأشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم:

لَمْ أَنْسَ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقَفَّتْهَا وَجَفَّنَهَا مِنْ دُمُوعِهَا شَرِقُ

وقولها والركاب واقفةً تركتني هكذا وتنطليق؟

قال القرطبي: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم (أم) خلاف قول النحاس.

بغير ألف ، وهو صحيح كما قال قتادة ، والله المعين .

وقال السدي ، والطبري : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ، كأنه يقول : « نعم ، وتربيتك نعمة عليّ من حيث عبّدت غيري وتركتني ، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي » (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولكلّ وجهٍ ناحيةٌ من الاحتجاج ، فالأول ماضٍ في طريق المخالفة لفرعون ونقض كلامه ، والثاني مُبدٍ من موسى عليه السلام أنه منتصف من نفسه معترف بالحق ، ومتى حصل أحد المتجادلين في هذه الرتبة ، وكان حجيجه في ضدها غلب المنتصف بذلك ، وكان قوله أوقع في النفوس .

ولمّا لم يُجدِ فرعون - لعنه الله - هذا الطريق من تقريره على التربية وغير ذلك رجع إلى معارضة موسى عليه السلام في قوله : ﴿ رَسُوْلُ رَبِّ اَلْعَالَمِيْنَ ﴾ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء ،

(١) وهناك رأي ثالث قاله الضحاك وهو أن الكلام خرج مخرج التبيكيت ، والتبيكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ، والمعنى : لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي ، فأني نعمة لك عليّ ؟ فأنت تمنّ علي بما لا يجب أن تمنّ به ؟

قال مكّي : كما يستفهم عن الأجناس ، فلذلك استفهم بـ « ما » ، وقد ورد له استفهام بـ « من » في موضع آخر (١) ، ويشبه أنها مواطن ، فأجابه موسى عليه السلام بالصفات التي يتبين السامع منها أنه لا مشاركة لفرعون فيها ، وأنها ربوبية السموات والأرض ، وهذه المجادلة من فرعون تدل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى التوحيد ، فقال فرعون عند ذلك : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء أو التعجب من شناعة المقالة ؛ إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم ، والفراعنة قبله كذلك ، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إلى اليوم بقية ، فزاده موسى عليه السلام في البيان بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، فقال فرعون حينئذ - على جهة الاستخفاف - : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ . وقرأ جمهور الناس : [أُرْسِلَ] على بناء الفعل للفاعل ، فزاد موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تظهر نقص فرعون ، وتبين أنه في غاية البعد عن القدرة عليها ، وهي ربوبية المشرق والمغرب ، ولم يكن لفرعون إلا ملك مصر من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية ، وفي قراءة ابن مسعود وأصحابه : ﴿ رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ .

(١) هو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ؟

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ لَيْنٍ أَخَذْتَ إِلَٰهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَٰكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾ قَالَ أُولَٰئُو
 جَهَنَّمَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ قَالَ فَآتِ بِهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ فَأَلْقَى
 عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٤٣﴾
 قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٤٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
 بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ
 ﴿٤٦﴾ يَا تَوَكُّبِكُمْ بِكُلِّ سَعَارٍ عَلَيْهِ ﴿٤٧﴾ ﴿﴾

لما انقطع فرعون - لعنه الله - في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب ، وهذا أبين علامات الانقطاع ، فتوعد موسى عليه السلام حين أعياه خطابه ، وفي توعدده بالسجن ضعف ؛ لأنه حارب طباعه معه (١) ، وكان - فيما روي - يفرع منه فرعاً شديداً حتى كان لا يُمسك بوله . ورُوي أن سجنه كان أشد من القتل ، إذ كان في مطبق من الأرض لا ينطلق منه أبداً ، وكان مخوفاً .

(١) يريد أن فرعون خالف طبيعته في العنف والقتل مع موسى ، ولهذا توعدده بالسجن ولم يأمر بقتله مباشرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه نزعة دار [. . .] إلى اليوم (١) .

وكان عند موسى عليه السلام من أمر الله تبارك وتعالى مالا يروعه معه توعد فرعون ، فقال موسى له على جهة التلطف والطمع في إيمانه : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ يتضح لك معه صدقي ؟ أفكنت تسجنني ؟ (٢) فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ، فقال له : ﴿ فَآتِ بِهِ ﴾ [إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ] من يده ، وكانت من عصى الجنة ، وكانت عصا آدم عليه السلام ، وروي أنها كانت من ورق الريحان ، وكانت عند شعيب عليه السلام في جملة عصى الأنبياء عليهم السلام فأعطاهم لموسى عليه السلام عند رعايته له الغنم على صورة قد تقدم ذكرها دللت على نبوة موسى ، وكان لها في رأسها شعبتان ، فثمَّ كان فم الحية . والثعبان أعظم ما يكون من الحيات ، وقد ذكرنا فيما تقدم ما روي في عظم الحيات وغير ذلك من قصص هذه الآية . ونزع موسى عليه السلام يده من

(١) بين العلامتين [.] كلمة غير واضحة .

(٢) قال الزمخشري : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام ، ومعناه : أتفعل بي ذلك ولو جئت بك بشيء مبين ؟ وقال الحوفي : هي واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير ، والمعنى : أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أسجن وأنا متلبس بها ؟

جيبه فإذا هي تتلألأ كأنها قطعة من الشمس ، فلما رأى فرعون ذلك هالَهُ ، ولم يكن له فيه مدفع ، غير أنه فزع إلى رميه بالسحر ، وطمع - لعلَّو علم السحر في ذلك الوقت وكثرته - أن يكون فيه سبب لمقاومة موسى عليه السلام ، فأوهم قومه وأتباعه أن موسى عليه السلام ساحر ، وانتصب [حوَّله] على الظرف وهو في موضع الحال ، أي : كائنين حوله ، فالعامل فيه محذوف ، والعامل فيه هو الحال حقيقة ، والناصب له [قَالَ] لأنه هو العامل في ذي الحال بواسطة لام الجرّ ، نحو مررت بهند ضاحكة .

ثم استشارهم في أمره وأغراهم به في قوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ (١) ، فأشاروا عليه بتأخير أمره وأمر أخيه وجمع السحرة لمقاومته ، ورؤي أنهم أشاروا بسجنه ، وهو كان الإرجاء عندهم ، «والإرجاء» : التأخير ، ولم يشيروا بقتله لأن حجته نيّرة وضلالتهم في ربوبية فرعون مبيّنة ، فخشوا الفتنة ، وطمعوا أن يُغلب بحجّة تقنع العوام . و «الحاشر» : الجامع . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ ، وهو بناءٌ للمبالغة ، وقرأ عاصم أيضاً والأعمش : ﴿ بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ .

(١) قال المفسرون : أوهم قومه أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ليقوّي تنفيرهم عنه ، إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن الذي نبتوا فيه . وقد استأمرهم فرعون واستشارهم فيما يفعل مع موسى وذلك لما حلّ به من الحيرة والدهشة ، وانحط عن مرتبة ألوهيته إلى مرتبة أصبح فيها يستشيرهم في أمره فيأمرونه ، فصار مأموراً بعد أن كان آمراً .

قوله عز وجل :

﴿بِجَمْعِ السَّحَرَةِ لِمَبْقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا
لِنَأْتِيكَ بِآجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

اليوم هو يوم الزينة ، ويقال : يوم كسر خليج النيل ، فهو يوم
الزينة على وجه الدهر بمصر ، وقال ابن زيد : إن هذا الجمع كان
بالإسكندرية .

وقوله : ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ ليس معناه نتبعهم في السحر ،
إنما أراد ما معناه : نتبعهم في نصرة ديننا وملتنا ، والإبطال على
معارضها .

وقرأ الأعرج ، وأبو عمرو : ﴿أَيْنَ لَنَا﴾ بآلف الاستفهام ،
وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وشيبة : ﴿إِنَّ لَنَا﴾ على الإيجاب ، وقرأ
عيسى : [نعم] بكسر العين ، والتقريب الذي وعدهم به فرعون
هو الجاه الزائد على العطاء الذي طلبوه ، والقرب من الملك الذي كان
عندهم إلههم . واختلف الناس في عدد السحرة ، وقد ذكرنا ذلك

فيما تقدم ، وكانوا مجموعين من مدائن مصر وريف النيل ، وهي كانت بلاد السحر كالفرما وغير ذلك ، ومعظمهم كان من الفرما والجبال ، والعصي كانت أوقار الإبل^(١) ، وقوله : ﴿ بَعِزَّةٍ فِرْعَوْنَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما القسم ، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون ، كما تقول : بالله لا أفعل كذا وكذا ، فكان قسمهم بعزة فرعون غير مبرور ، والآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون - إذ كانوا يعبدونه - والتبرك باسمه ، كما تقول - إذا ابتدأت بعمل شغل - : باسم الله ، وعلى بركة الله ، ونحو هذا .

قوله عز وجل :

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمْنُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَمَا الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

(١) الأوقار : جمع وقرة وهو الحمل الثقيل - يقول : إن العصي كانت من الكثرة بحيث

لا تحملها إلا الإبل الكثيرة .

تقدم في غير هذه السورة ما ذكر الناس في عظم الحيّة حين ألقى موسى عليه السلام عصاه ، وفي هذه الآية متروك كثير يدل عليه الظاهر ، وقد ذكر في مواضع أخر ، وهو خوف موسى عليه السلام من ظهور سحرهم واسترهابهم للناس وتخيلهم في حبالهم وعصيتهم أنها تسعى بقصد . ثم إن الحيّة التي خلق الله من العصا التقت تلك الحبال والعصي عن آخرها ، وأعدمها الله تعالى في جوفها ، وعادت العصا إلى حالها حين أخذ موسى عليه السلام بالفرجة التي كانت في رأسها فأدخل يده في فمها فعادت عصا بإذن الله تبارك وتعالى .

وقرأ جمهور القراء : [تَلَقَّف] بفتح التاء خفيفة واللام وشد القاف ، وقرأ حفص عن عاصم : [تَلَقَّف] بسكون اللام وتخفيف القاف ، وروي البرّي وابن فليح^(١) عن ابن كثير بشد التاء وفتح اللام وشدّ القاف ، ويلزم على هذه القراءة إذا ابتداءً أن يجلب همزة الوصل ، وهمزة الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة ، كما لا تدخل على أسماء الفاعلين^(٢) .

(١) في الأصول : « البرّي وفليح » ، والتصويب عن كتب القراءات وتفسير البحر المحيط الذي نقل عبارة ابن عطية بنصها ليعقب عليها بالتعقيب التالي .
 (٢) قال في البحر المحيط تعقيباً على ذلك : « كأنه تخيل أنه لا يمكن الابتداء بالكلمة إلا باجتلاب همزة الوصل ، وليس ذلك بلازم ، وكثيراً ما يكون الوصل مخالفاً للوقف والوقف مخالفاً للوصل ، ومن له تمرّن في القراءات عرف ذلك » .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي : ما يكذبون معه وبسببه في قولهم : إنها معارضة موسى عليه السلام ونوع من فعله ، والإفك : الكذب .
 تم إن السحرة لما رأوا العصا خالية من صنعة السحر ورأوا فيها بعد من أمر الله تعالى ما أيقنوا أنه ليس في قوة البشر أذعنوا ، ورأوا أن الغنيمة هي الإيمان والتمسك بأمر الله عز وجل ، فسجدوا كلهم لله تعالى مُقَرِّينَ بوحدانيته وقدرته ، ووصلوا إلى إيمانهم بسبب موسى وهارون عليهما السلام ، وصرحوا بأن ذلك على أيديهما ؛ لأن قولهم : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يعني ذلك ، فلم يكرروا البيان في قولهم : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ إلا لما ذكرناه .

فلما رأى فرعون والملائكة إيمان السحرة ، وقامت الحجّة بإيمان أهل علمهم ومظنّة نصرتهم وقع فرعون - لعنه الله - في الورطة العظمى ، فرجع إلى السحرة بهذه الحجّة الأخرى ، فوقفهم مُوبِّخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه ، وفي هذه اللفظة مفارقة عظيمة ؛ لأن أحد احتمالاتها أنهم لو طلبوا إذنه في ذلك أذن . ثم توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، وبالصلب في جذوع النخل ، فقالوا له : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أي : لا يضيرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله تعالى ورضوانه (١) ،

(١) يقال : لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَّرَ ولا ضارورة بمعنى واحد ، وأنشد

أبو عبيدة لخداش بن زهير :

فإنَّكَ لا يَضُورُكَ بَعْدَ حَـوْلِِ أَطْبَيْيْ كَانَ أُمُّكَ أُمُّ حَمَارُ

وروي أنه أنفذ فيهم ذلك الوعيد وصلبهم على النيل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء» ، وقولهم : ﴿أَنْ كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد : من القبط وصنيعتهم ، وإلا فقد كانت بنو إسرائيل آمنت . وقرأ الناس : [أنا] بفتح الألف ، وقرأ أبان بن تغلب : [إننا] بكسر الألف بمعنى أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط .

قرله عز وجل :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٦١﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿٦٢﴾ وَكُنُوزِ وَمَقَامِ كَرِيمٍ ﴿٦٣﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٦٤﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم إن الله عز وجل لما أراد إظهار أمره في نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه أمر موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل إلى الملا من مصر ، وأخبره أنهم سيتبعون ، وأمره بالسير تجاه البحر ، وأمره بأن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأموالهم ، وأن يكثرُوا من أخذ

أموالهم كيفما استطاعوا ، هذا ما رواه بعض المفسرين ، وأمره باتخاذ جراء الزاد ، فأمره أن اتخذه فطيراً لأنه أبقى وأثبت ، وروي أن الحركة أعجلتهم عن اتخاذ جراء الزاد ، وخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحراً ، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول موسى عليه السلام : كذا أمرت ، فلما أصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم ، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر ، فروي أنه لحقه ومعه ستمائة ألف أدهم من الخيل جاشي سائر الألوان ، وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، والله أعلم بصحته ، وإنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم في بني إسرائيل ، وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك العدد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان مع فرعون ألف جبار ، كلهم عليه تاج ، وكلهم أمير خيل .

و «الشُرذمة» : الجمع القليل المحتقر ، وشُرذمة كل شيء بقية

الخسيصة ، وأنشد أبو عبيدة :

* مجدين في شراذم النعال *

وقال الآخر :

جاء الشتاء وقميصي أخلاق شراذمٌ يضحكُ منها التواقُ (١)
 وقوله : [لَعَائِظُونَ] يريد : بخلافهم الأمر وبأخذهم المال عارية
 وهروبهم منهم تلك الليلة على ما روي ، وقال أبو حاتم : وقرأ من
 لا يؤخذ عنه : «لَشِرْدِمَةٌ قَلِيلُونَ» ، وليست هذه موقوفة (٢) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [حَذِرُونَ] ، وهو جمع (حَذِر) ،
 وهو المطبوع على الحَذِرِ ، وهو هنا غير عامل ، وكذلك هو في قول
 ابن أحمر :

هَلْ أَنْسَأَنَّ يَوْمًا إِلَى غَيْرِهِ
 إِنِّي حَوَالِيٌّ وَإِنِّي حَذِرٌ (٣)

(١) البيت في (اللسان - خَلَّتْ وَشَرْدَمَ) - عن ابن بري ، وفي (تَوَاقَ) عن الأصمعي ،
 والثوب الأخلاق يصفون به الواحد إذا صار خَلَقًا كُلَّهُ ، كأن كل قطعة فيه خَلَقٌ ، فجمعه
 باعتبار أجزائه ، ومثل ذلك قولهم : «أَرْضٌ سَبَّاسِبٌ ، وَبُرْمَةٌ أَعْشَارٌ ، وَحَبَلٌ أَرْمَامٌ» ،
 والشراذم جمع شردمة ، وهي الجماعة القليلة من الناس ، وثياب شراذم : أخلاق متقطعة ،
 وثوب شراذم : قطع . ويقال : نَفْسٌ تَوَاقَةٌ : مشتاقَةٌ ، وقيل : التَوَاقُ اسم ابن الشاعر ،
 ويروى البيت بالنون ، ويكون المعنى حينئذ : الرجل الذي يروض الأمور ويصالحها ، قاله
 في الصحاح ، هذا وقد سبق الاستشهاد به .

وقال تعالى : [قَلِيلُونَ] لأن كل جماعة منهم كان يلزمها معنى القلة ، فلما جمع قيل :
 [قَلِيلُونَ] ، ومثل ذلك : حيٌّ واحدٌ ، وحيٌّ واحدون ، قال الكميت :

فَرَدَّ قَوَاصِيَ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ فَقَدَّ صَارُوا كَحَيِّ وَاحِدِينَا

(٢) يعني أن هذه القراءة ليست موقوفة على أحد رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال ذلك أبو حيان الأندلسي ، وفي بعض الأصول : « وليست هذه موثوقة » .

(٣) البيت في (اللسان - حَوَالٍ) ، استشهد به على أن الحواليَّ هو الجيِّد الرأي ذو الحيلة ،

ونسبه لابن أحمر أيضاً ، لكنه قال : (ويقال إنه للمرَّار بن مُنْقَدِ العُدوي) ، والرواية فيه =

واختلف في عمل (فَعَلَ) - فقال سيبويه : إنه عامل ، وأنشد :

حَذِرُ أُمُوراً لَا تَضِيرُ وَأَمِنُ مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ (١)

وَأَدَّعَى اللَّاحِقِي تَدْلِيْسَ هَذَا الْبَيْتِ عَلَى سَيْبَوِيهِ . وقرأ عاصم ، وابن

عامر ، وحمزة ، والكسائي : [حَاذِرُونَ] وهو الذي أخذ يحذر (٢) ،

وقال عباس بن مرداس :

وَإِنِّي حَاذِرٌ أَنَّمِي سِلَاحِي إِلَى أَوْصَالِ ذِيَالٍ صَنِيعِ (٣)

«أَوْ تَنْسَأَنُ يَوْمِي» ، وابن أحمر هو عمرو بن أحمر بن الغمرد بن قرأص ، كان أعور ، وعُمِّرُ تسعين سنة ثم سقي بطنه فمات . وابن عطية يستشهد بالبيت على أن (حَذِرَ) غير عامل على خلاف ما يراه سيبويه ، والحَذِرُ - كما في اللسان - هو المتيقظ المتحرر الشديد الحذر والفرع .

(١) استشهد سيبويه بهذا البيت على أن (حَذِرَ) تعمل مثل (حَاذِرَ) ، وقد ذكر ذلك في اللسان ، والبيت في خزاعة الأدب ، وفي العَيْتِي حيث قال : «قائله أبو يحيى اللاهقي» ، وساق خبر أنه مصنوع ، وأنشده ابن الشجري دون أن ينسبه ، وروايته هو والعيني كما هنا : «لَا تَضِيرُ» ، أي : لَا تَضُرُّ ، ورواية الكتاب لسيبويه ، واللسان : «لَا تُخَافُ» ، وقد روي عن اللاهقي أنه قال : سألت سيبويه عن شاهد في تعدِّي (فَعَلَ) فعملت له هذا البيت . وإعمالُ فَعَلَ وفَعِيل مذهب لسيبويه ؛ لأنهما عنده محولان من (فاعل) المتعدي لإرادة المبالغة فيعملان عمله قياساً على (فَعُولٌ وفَعَّالٌ) ، وعورض سيبويه في هذا لأنهما بناءان لما لا يتعدى مثل كريم ولثيم وبَطِيرٌ وَأَشِيرٌ . ومعنى البيت أن هذا الإنسان جاهل قليل المعرفة وأنه يحذر ما لا ينبغي أن يُحذر أو يُخَاف منه ، ويأمن ما لا يصح أن يُؤمن .

(٢) يريد أن يقول : إن معنى (حَذِرَ) متيقظ وفي خِلْقته وطبيعته الحذر ، ومعنى (حَاذِرَ) مُسْتَعِدُّ أخذ يحذر ، أي : بدأ يتعلم الحذر في المستقبل لا في قصته ، وحكى النحاس عن أبي عبيدة أنهما بمعنى واحد ، وهو قول سيبويه الذي استشهد عليه بيت ابن أحمر .

(٣) العباس بن مرداس شاعر وفارس ، أسلم قبل فتح مكة ، وحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح في تسعمائة ونيّف من قومه بني سُلَيْمٍ ، وكان يرجع إلى بلاده ولا يقيم =

وقرأ ابن أبي عمارة (١) ، وسُميَط بن عجلان: [حَادِرُونَ] بالدال غير منقوطة ، من قولهم : «عَيْن حَادِرَة» أي : ممتلئة ، فالمعنى : ممتلئون غيظاً وأنفة (٢) .
والضمير في قوله تعالى : [فَأَخْرَجْنَاَهُمْ] عائد على القبط ، و «الجَنَاتِ والعيون» بحافتي النيل من أسوان إلى رشيد ، قاله ابن عمر - رضي الله عنهما - وغيره ، و «الْكُنُوز» قيل : هو إشارة إلى الأموال التي خربوها ، قال مجاهد : لأنهم لم ينفقوها قط في طاعة ، وقيل : هي إشارة إلى كنوز المقطم ومطالبه ، وهي باقية إلى اليوم ، و «المقام الكريم» قال ابن لهيعة : هو الفيوم ، وقيل : يعني به المنابر ، وقيل : مجالس الأُمراء والحكام ، وقال الحسن : المجالس الحسان ، وقرأ الأعرج وقتادة بضم الميم ، من : أقام (٣) .

= في مكة ولا المدينة . والبيت في (اللسان - ذَيْلَ) ، ذكره شاهداً على أن (ذَيْتَال) معناها : طويل الذَيْل ، ومعنى «أُنْمِي سِلَاحِي» : أزيده وأمده ، يقال : أُنْمِيتَ الشَّيْءَ وَنَمَيْتَهُ : جعلته نامياً ، والأوصال : المفاصل ، والذَيْتَالُ قد يقال للمختال المتبختر في مشبه من الخيل ، وقد يقال للرجل إذا تبخَّرَ فَجَرَّ ذَيْلَهُ ورائه ، والشاهد أن (حاذر) هنا هو الذي يأخذ في الحذر .
(١) في الأصول : «ابن أبي عمارة» ، والتصويب عن «البحر المحيط» و «القرطبي» ، قال القرطبي : «حكاهما المهدي عن ابن أبي عمارة ، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان» .

(٢) وقال ابن خالويه : الحادر : السمين القوي الشديد ، يقال : غُلَامٌ حَادِرٌ بَدِيرٌ ، وقال صاحب اللوامح : حَادِرُ الرَّجُلِ : قوي بأسه ، يقال : رجل حَادِرٌ بَدِيرٌ إذا كان شديد البأس في الحرب ، وقال الشاعر :
أَحِبُّ الصَّبِيِّ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمَّهِ وَأَبْغُضُهُ مِنْ بَغْضِهَا وَهُوَ حَسَادِرٌ
(٣) المَقَام - بالفتح - يكون الموضع ، ويكون مصدرأ ، وهو من : قام يقوم ، والمَقَام - بالضم - يكون أيضاً الموضع والمصدر ، وهو من : أقام يُقيم .

وتورث بني إسرائيل يحتمل متصدين : أحدهما أن الله قد ورثهم هذه الضفة من أرض الشام ، والآخر أنه ورثهم مصر ولكن بعد مدة طويلة من الدهر ، قاله الحسن ، على أن التواريخ لم تتضمن ملك بني إسرائيل في مصر ، و [مُشْرِقِينَ] معناه : عند شروق الشمس ، أي : حين دخلوا فيه ، وقيل : معناه : نحو الشرق ، وقرأ الحسن : [فَاتَّبَعُوهُمْ] بصلة الألف وشد التاء (١) .

فلما لحق فرعون بِجَمَعِهِ جَمَعَ موسى عليه السلام وقرب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدوَّ القويَّ وراءهم والبحر أمامهم - ساءت ظنونهم ، وقالوا لموسى عليه السلام - على جهة التوبيخ والجفاء - : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، أي : هذا دأبك ، فردَّ عليهم قولهم وزجرهم ، وذكر وعد الله تبارك وتعالى له بالهداية والظفر ، وقرأ الجمهور : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ بتشديد الدال وفتح الراء (٢) ، ومعناه : يُتَتَابَعُ علينا حتى نفنى ،

(١) في الأصول : « بصلة الألف وسكون التاء » ، والتصويب عن البحر المحيط ، وهي أيضاً قراءة الدمايري .

(٢) الذي في الأصول أن هذه القراءة بفتح الدال وشد الراء ، أي : « لَمُدْرِكُونَ » ، والتصويب عن القرطبي ، والبحر المحيط ، والمحتسب ، وكتب القراءات ، وهي أيضاً قراءة الزهري ، وهي من ادْرَكَ ، ووزنها (مُفْتَعَلُونَ) ، وقال الفراء في معاني القرآن : « كما تقول : حَفَرْتَ واحْتَفَرْتَ بمعنى واحد . فكذلك [لَمُدْرِكُونَ] و [لَمُدْرِكُونَ] معناهما واحد ، والله أعلم » . وعلقت النحاس على كلامه فقال : وليس كذلك يقول النحويون الحدائق ، إنما =

وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ تَرِيءَ الْجَمْعَانِ ﴾ بكسر الراء وبمدِّ ثُمَّ بِهِمْزٍ ،
ورُوي مثله عن عاصم ، ورُوي أيضاً عنه مفتوحاً ممدوداً ، والجمهور
يقروونه مثل (تَرَاعَى) ، وهذا هو الصواب ؛ لأنه تفاعل ، قال
أبو حاتم : «وقراءة حمزة في هذا الحرف محال» ، وحَمَلَ عليه وقال :
«وما رُوي عن ابن وثاب والأعمش خطأ» (١) .

=يقولون : مُدْرَكُونَ: مُلْحَقُونَ ، ومُدْرَكُونَ : مجتهد في لحاقهم ، والذي يعيننا هو الضبط
الصحيح للقراءة ، ونعتقد أن النسخ قد كثر منهم الخطأ في ضبط القراءات وفي كثير من الكلمات
في هذا الجزء بالذات ، ونحن نحاول التصويب عن كتب القراءات وكتب التفسير ودواوين الشعر ،
والله الموفق والمعين .

(١) قال ابن خالويه في كتابه (الحجة في القراءات السبع) : «الحُأَفُ في الوقف عليه ،
فوقف حمزة [تَرِيءَ] بكسر الراء ومدِّ قليل ؛ لأن من شرطه حذف الهمزة في الوقف ،
فكان المد إشارة إليها ودلالة عليها ، ووقف الكسائي بالإمالة والتمام ، ووقف الباقون بالتفخيم
والتمام على الأصل ، فإن كانت الهمزة للتأنيث أشير إليها في موضع الرفع وحذفت في موضع
النصب» . وقال الداني : «حمزة قرأ بإمالة فتحة الراء في الوصل ، وإذا وقف أتبعها الهمزة
فأمالها مع جعلها بَيِّنَ بَيِّنَ على أصله ، فتصير بين أَلْفَيْنِ مُمَّالَتَيْنِ : الأولى أميلت لإمالة
فتحة الراء ، والثانية أميلت لإمالة فتحة الهمزة» . وقال الأستاذ أبو جعفر أحمد ابن الأستاذ
أبي الحسن بن البادش في كتابه (الإقناع) : «إذا قف عليها حمزة والكسائي أمالا الألف المنقلبة
عن لام الفعل ، وحمزة يُمِيلُ أَلْفَ تفاعل وصلًا ووقفًا لإمالة الألف المنقلبة ، ففي قراءته
إمالة الإمالة ، وفي هذا الفعل ، وفي (رَاعَى) إذا استقبله أَلْفٌ وَصَلْ لمن أمال للإمالة حَذَفَ
السبب وإبقاء المسبب» .

وبهذا يتضح لنا حقيقة قراءة حمزة التي حمل عليها أبو حاتم ، وأفاد كلام ابن عطية
أنها خطأ .

قوله عز وجل :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۖ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ اغْرَمْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

لما عظم البلاء على بني إسرائيل أمر الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر ؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى عليه السلام ، ومتعلقة بفعل فعله ، وإلا فضرب العصا ليس بفالق البحر ولا معين على ذلك بذاته ، إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه ، ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالجبل العظيم . و « الطَّوْدُ » : الجبل (١) ، ورُوي عن ابن جريج والسدي وغيرهما أن بني إسرائيل ظن كل فريق منهم أن الثاني قد غرق ، فأمر الله تعالى الماء فصار كالطِّيقان ، فرأى بعضهم بعضاً فتأسوا (٢) .

(١) ومنه قول امرئ القيس :

فَبَيَّنَّا الْمَرْءَ فِي الْأَحْيَاءِ طَوْدٌ رَمَاهُ النَّاسُ عَنْ كَثَبٍ فَمَالَا

وقول الأسود بن يعفر :

حَلُّوْا بِأَنْقِرَةَ يَسِيْلُ عَلَيَّهِمْ مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
(٢) يريد : تأسى كل فريق منهم بالآخر ، أي : اتخذه أسوة واقتدى به في عبور البحر .

[وَأَزْلَفْنَا] معناه : قربنا ، وقرئ بالقاف ، ونسبها أبو الفتح إلى عبد الله بن الحارث (١) ، وقرأ الحسن وأبو حيوة : [وَزَلَفْنَا] بغير ألف ، وذلك أن فرعون - لعنه الله تعالى - لما وصل إلى البحر وقد دخله بنو إسرائيل ، قيل : صَمَّم وقال لقومه : إنما انفلق بأمرى ، فدخل على ذلك ، وقيل : بل كَعَّ (٢) وهم بالانصراف ، فعرض جبريل عليه السلام على فرسٍ وديقي (٣) ، فمضى وراءها حصان فرعون ، فدخل على نحو هذا واتبعه الناس ، ورؤي أن الله تعالى جعل ملائكة تسوق قومه حتى حصلوهم في البحر ، ثم إن موسى عليه السلام وقومه خرجوا إلى البر من تلك الطرق ، ولما أحسوا باتباع فرعون وقومه فزعوا من أن يخرج وراءهم ، فهمم موسى عليه السلام بخلط البحر ، فحينئذ قيل له : ﴿ وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوْاً ﴾ (٤) ، ولما تكامل جنده فرعون وهمم مقدمتهم بالخروج انطبق البحر عليهم وغرقوا ، ودخل موسى عليه السلام البحر بالعرض وخرج في الضففة التي دخل منها بعد مسافة ،

(١) قال أبو الفتح في كتابه « المحتسب » بعد أن نسب القراءة إلى عبد الله : « مَنْ قَرَأَ : [وَأَزْلَفْنَا] بالفاء فالآخرون موسى عليه السلام وأصحابه ، ومن قرأها بالقاف فالآخرون فرعون وأصحابه ، أي : أهلكتنا ثم الآخريين ، أي : فرعون وأصحابه » .

(٢) كَعَّ : جَبَسَ وَضَعَفَ ، يقال : كَعَّ كَعّاً وَكُعُوعاً فهو كَعٌّ وَكَاعٌ . (المعجم الوسيط) .

(٣) يعني أنها فرسٌ استسلمت لحصان فرعون ، بأن قربت منه ، وأمكنته منها ، واستأنست

له ، وفي المثل : « وَدَقَّ الْعَيْرُ إِلَى الْمَاءِ » أي : دنا منه ، يضرب لمن خضع للشيء . (راجع

الصحيح والمعجم الوسيط) .

(٤) من الآية (٢٤) من سورة (الدخان) .

وكان ذلك في يوم عاشوراء . وقال النقاش : البحر الذي انفلق لموسى عليه السلام نهر النيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مردود إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ تنبيهه على موضع العبرة ،
وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : عز في نعمته من الكفار ،
ورحم المؤمنين من الأئمة ، وقد مضى كثير مما يلزم ذكره من قصة
موسى عليه السلام .

قوله عز وجل :

﴿ وَآتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ مِنَّا عَلَيْكُم مَّا نَشَاءُ فَاذْعَبُوا ۚ قَالُوا
أَوْ يَنْفَعُكُمْ أَوْ يَضُرُّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالُوا
أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا
رَبَّ الْعَالَمِينَ ۗ ﴾

هذه القصة تضمنت الإعلام بغيب ، والإتيان بما يقطع أن محمداً
صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرفه ، ثم ظهر على لسانه في ذلك ما في

الكتب المتقدمة ، وليست هذه الآية مثالا لقريش في أمر الأصنام فقط ، لأنه ليس فيها تكذيب وعذاب ، وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير ، والصنم ما كان من الأوثان على صورة بني آدم ، كان من حجر أو عود أو غير ذلك ، و « ظَلَّ » عرفها في فعل الشيء نهاراً ، و « بات » عرفها في فعله ليلاً ، و « طفق » عامة للوجهين ، ولكن قد يجيء « ظَلَّ » بمعنى العموم ، وهذا الموضع من ذلك . و « العكوف » ؛ اللزوم ، ومنه المعتكف ، ومنه قول الراجز :
عَكْفَ النَّبِيْطِ يَلْعَبُونَ الْفَنَزَجَا (١)

ثم أخذ إبراهيم عليه السلام يوقفهم على أشياء يشهد العقل أنها بعيدة عن صفة الإله ، وقرأ الجمهور بفتح الياء من [يَسْمَعُونَكُمْ] ، وقرأ قتادة بضمها وكسر الميم ، من أسمع ، والمفعول - على هذه القراءة - محذوف (٢) . وقرأ جمهور القراء : ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ بإدغام الدال في

(١) هذا شطر بيت قاله العجاج الراجز ، وهو في (اللسان - عكف) ، قال : « عَكْفَ على الشيء يعكف ويعكف عكفاً وعكوفاً : أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه ، وقيل : أفام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي : مُقِيمًا ، يقال : فلان عاكف على فرج حرام ، قال العجاج يصف ثوراً :

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ بِهِ إِذَا حَجَا عَكْفَ النَّبِيْطِ يَلْعَبُونَ الْفَنَزَجَا

أي : يقبلن عليه . و « حَجَا » : وَقَفَ ، والنبيط : جبل يتر لون السواد من العراق ، وهم الأنباط ، والفنزجة والفنزج : النَّزْوَان ، وقيل : هو اللعب الذي يقال له : الدَّسْتَبَنْد ، وهو رقص المجوس إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون .

(٢) تقديره : هل يسمعونكم الجواب أو الكلام ؟

التاء بعد القلب ، ويجوز فيه قياس (مذكر) ، ولم يقرأ به أحد ، والقياس أن يكون اللفظ به «إِذْ دَعَوْنَ» ، والذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال الأصلية في الفعل فكثرت التماثلات (١) .

وقولهم : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أقبح وجوه التقليد ؛ لأنه على ضلالة ، وفي أمر بين خلافه ، وعظيم قدره ، فلما صرحوا لإبراهيم عليه السلام عن عظم ذلك وعدم نظرهم ، وأنه لا حجة لهم ، خاطبهم ببراءته من جميع ما عبد من دون الله عز وجل وعداوته له ، وعبر عن بغضته وإطراحه لكل معبود سوى الله تعالى بالعداوة ؛ إذ هي تقتضي التفسير ، وقيل : في الكلام قلب ؛ لأن الأصنام لا تعادي وإنما هو عاذاها (٢) . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قالت فرقة :

(١) علّق أبو حيان على ذلك بقوله : « وهذا الذي ذكر أنه يجوز فيه قياس (مذكر) لا يجوز ؛ لأن ذلك الإبدال - وهو إبدال التاء دالا - لا يكون إلا في (افتعل) مما فاؤه ذال أو زاي أو دال ، نحو : اذذكر ، وازدجر ، وادهن ، أصله : اذتكر ، وازتجر ، وادتهن ، أو جيم شذوذاً ، قالوا : إجدمع في اجتمع . ومن تاء الضمير بعد الزاي والدال ، ومثلوا بتاء الضمير للمتكلم ، فقالوا في فزت : فزُد ، وفي جلدت : جلدت . ومن تاء تولج شذوذاً ، قالوا : دولج ، وتاء المضارعة ليست شيئاً مما ذكرناه فلا تبدل تاؤه . وقول ابن عطية : (والذي منع من هذا اللفظ ... الخ) يدل على أنه لولا ذلك لحاز إبدال تاء المضارعة دالا وإدغام الذال فيها ، فكنت تقول في اذتخرج : اذخرج ، وذلك لا يقوله أحد ، بل إذا أدغم مثل هذا أبدل من الذال تاءً وأدغم في التاء فتقول : اذتخرج . (البحر المحيط ٧-٢٣) .

(٢) قال بعض العلماء : « لا ضرورة تدعو إلى ذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ فهذا معنى العداوة ، ولأن المغربي على عداوتها عدو الإنسان وهو الشيطان » .

هو استثناء متصل ؛ لأن في الآباء الأقدمين مَنْ قَدْ عبد من دون الله تبارك وتعالى ، وقالت فرقة : هو استثناء منقطع ؛ لأنه إنما أراد عبادة الأوثان من كل قرن منهم ، ولفظة [عَدُوٌّ] تقتضي الجمع والمفرد والمؤنث .

قوله عز وجل :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لَائِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

أثنى إبراهيم عليه السلام على الله تعالى بهذه الأوصاف التي وصف الله تعالى بها ، والمتصف بها يستحق الأوصاف الفعلية التي تخصص البشر . و ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ بقدرته ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أي : يرشدني إلى طاعته ، وقوله عز وجل : ﴿ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ تجديد للنعمة في الرزق ، وقال أبو بكر الوراق في كتاب الثعلبي : « المعنى : يطعمني بلا طعام ، ويسقيني بلا شراب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إِنِّي أَبِيتُ

عند ربي يطعمني ويسقيني) (١) ، وأسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله عز وجل ، وهذا من حسن الأدب في العبارة ، والكل من عند الله ، وهذا كقول الخضر عليه السلام : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ (٢) ، وقال جعفر الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة ، وقرأ الجمهور هذه الأفعال : [يَهْدِينِ - يَسْقِينِ - يَشْفِينِ - يُحْيِينِ] بغير ياء ، وقرأ نافع وابن إسحق : [يَهْدِينِي] بالياء ، وكذلك ما بعده .

وأوقف إبراهيم عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة ، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلته ، وقوله : [خَطِئْتِي] ذهب فيه أكثر المفسرين إلى أنه أراد كذباته الثلاث : قوله : « هي أختي » في شأن سارة ، وقوله : ﴿ إِنِّي سَمِيمٌ ﴾ (٣) وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (٤) ، وقالت فرقة : أراد بالخطيئة اسم الجنس ، قدرها في كل أمره من غير تعيين .

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والدارمي ، والإمام أحمد ، ولفظه كما في سنن الدارمي عن أبي هريرة : (قال : نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال ، فقال له رجل من المسلمين : فإنك تُواصل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنني لستُ مثلكم ، إنني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ، فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال ، فقال : لو تأخر نزلتكم ، كالمئتكلم لهم حين أبوا أن ينتهوا) .
(٢) نسب العيب إلى نفسه في هذه الآية ، ونسب الخير إلى الله في قوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَنَا أَشْدَّ هَمًّا ﴾ ، الآيتان (٧٩) ، (٨٢) من سورة (الكهف) .

(٣) من الآية (٨٩) من سورة (الصفات) .

(٤) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أظهر عندي ؛ لأن تلك الثلاث قد خرجها كثير من العلماء على المعارض ، وهي - وإن كانت كذبات بحكم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات) (١) ، وبحكم ما في حديث الشفاعة من قوله في شأن إبراهيم عليه السلام : نفسي نفسي ، وذكر كذباته (٢) - فهي في مصالح وعون شرع وحق .

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والنكاح ، ومسلم في الفضائل ، وأبو داود في الطلاق ، والترمذي في تفسير سورة الأنبياء ، وأحمد ٢-٤٠٣ ، ولفظه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعي إلى آهتهم : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَعَلَّه كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ ، وقوله لسارة : إنها أختي ، قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟ قال : أختي ، قال أرسل بها ، فأرسل بها إليه وقال لها : لا تكذبي قولي ، فأني قد أخبرته أنك أختي ، إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك ، قال : فلما دخلت إليه قام إليها ، قال : فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط علي الكافر ، قال : فغط حتى ركض برجله ...) الخ الحديث .

(٢) أخرجه البخاري ، والترمذي ، وأحمد ، وهو حديث طويل رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن الشفاعة ، وفيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ؟ يُجمع الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد ، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟) ... فيذهبون إلى آدم ، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ... (فيقولون : يا إبراهيم ، أنت نبي الله وخليله من =

وقرأ الجمهور : [خَطِيئَتِي] بالإفراد ، وقرأ الحسن : [خَطَايَايَ] بالجمع .
و « الْحُكْمُ » الذي دَعَا به إبراهيم عليه السلام هو الحكمة والنبوة ،
ودعاء إبراهيم عليه السلام في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام ،
و « إلحاقه بالصالحين » : توفيقه لعمل ينتظمه في جملتهم أو يجمع
بينه وبينهم في الجنة ، وقد أجابه تبارك وتعالى حيث قال : ﴿ وَإِنَّهُ
فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، و « لِسَانُ الصُّدُقِ » هو الثناء وتخليد
المكانة بإجماع من المفسرين ، وكذلك أجاب الله دعوته ، فكلُّ ملة
تتمسك به وتُعظِّمه ، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد صلى الله
عليه وسلم . قال مكِّي : وقيل : معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر
الزمان من يقوم بالحق فأجيب الدعوة في محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكُّم في اللفظ .
ولما فرغ من مطالب الدنيا طلب سعادة الآخرة وهي جنَّة النعيم ،

= أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب
اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات —
فذكرهن أبو حيان في الحديث — نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى) ...
وهكذا حتى ينتهي بهم الموقف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (فأنتلن فآتي تحت
العرش فأقع ساجداً لربي عزَّ وجلَّ ... الخ الحديث) ... فَيَشْفَعُ وَيُشْفَعُ ، صلى الله عليه وسلم .
(١) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة) ، وتكررت في الآية (١٢٢) من سورة (النحل) ،
وفي الآية (٢٧) من سورة (العنكبوت) .

وشبهها بما يورث ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ (١) ، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن يتبين له بموته على الكفر أنه عدو له ، أي محتوم عليه ، وهو عن الموعدة المذكورة (٢) ، وقرأ أبي بن كعب : « واغفر لأبوي إنهما كانا من الضالين » .
 ﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ إما من الخزي وهو الهوان ، وإما من الخزية وهي الحياء ، والضمير في [يُبْعَثُونَ] ضمير العباد لأنه معلوم ، أو ضمير الضالين ، ويكون من جملة الاستغفار .

قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٩٤﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٥﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٦﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٧﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيِنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٨﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٩﴾ فَكَبِئُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٠٠﴾ وَجُنُودٌ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

[يَوْمَ] بدل من الأول في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ، والمعنى : يوم لا تنفع أَعْلَاقُ الدُّنْيَا ومَحَاسِنُهَا (٢) ، فقصد من ذلك الذكر العظيم

(١) الآية (٦٣) من سورة (مريم) .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٦٤) من سورة (التوبة) : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَن مَّوَدَّةِ الرَّحْمَةِ وَكَانَ تَقِيًّا لَهُ ﴾ ، فإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ ﴿ .

(٣) الميائين : استغفيس من كل شيء يتعلق به القلب ، والجمع : أَعْلَاقُ .

وَالْأَكْثَرُ ؛ لِأَنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ هُمَا زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مَنْقُطِعٌ ، أَي : لَكِنْ مِنْ أَتَى اللَّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ يَنْفَعُهُ سَلَامَةٌ قَلْبِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ مَعْنَاهُ : خَالِصٌ مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَعَاقِ الدُّنْيَا الْمَتْرُوكَةِ وَإِنْ كَانَتْ مَبَاحَةً كَالْمَالِ وَالْبَنِينَ ، قَالَ سَفِيَانٌ : هُوَ الَّذِي يَلْقَى رَبَّهُ وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يقتضي عموم النفضة ، ولكن السليم من الشرك هو الأهم ، وقال جنيد : بقلب لديغ من خشية الله ، و « السليم » : اللديغ .
 [وَأُزْلِفَتْ] مَعْنَاهُ : قَرِيبٌ ، وَ « الْغَاوُونَ الَّذِينَ بُرِّزَتْ لَهُمُ الْجَحِيمُ » هُمُ الْمُشْرِكُونَ بِدَلَالَةِ أَنَّهُمْ خَوَّطَبُوا فِي أَمْرِ الْأَصْنَامِ ، وَالْقَوْلُ لَهُمْ : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ هُوَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّرْبِيخِ وَالتَّوْقِيفِ عَلَى عَدَمِ نَظَرَتِهِمْ نَحْوَهُ . وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : [فَبَرَّزَتْ] بِالْفَاءِ ، وَالْجَمْهُورُ بِالْوَاوِ (١) ، وَقَرَأَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : [وَبَرَّزَتْ] بِفَتْحِ الْبَاءِ وَالتَّخْفِيفِ وَرَفَعِ [الْأَجْحِيمِ] .

ثم أخبر عن حال يوم القيامة من أن الأصنام تُكَبِّبُ فِي النَّارِ ، أَي تُلْقَى كَبَّةً وَاحِدَةً ، وَوَصَلَ بِهَا ضَمِيرٌ مِنْ يَعْقِلُ مِنْ حَيْثُ ذَكَرْتُ

(١) قراءة الأعمش بالفاء تجعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة مباشرة ، وذلك لأن الفاء للترتيب والتعقيب ، أما الواو فلمطلق الجمع فيمكن أن يكون كل واحد منهما قد ظهر قبل الآخر ، وقراءة الفاء تدل على تقديم الرحمة على العذاب ، وهو حسن لولا أن جمهور القراء قرأ بالواو ، وهو رسم المصحف . (قاله في البحر المحيط) .

بالعبادة ، وكادت تسند إليها أفعال من يعقل ، والضمير في قوله :
 [هُم] يعود على الكفار ، و [الْغَاوُونَ] : الشياطين . و « كُبِيبٌ »
 مضاعف من « كَبٌّ » ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح ؛ لأن
 معناهما واحد ، والتضعيف بين ، مثل : صرَّ وصرصر ، وغير ذلك .
 و [الْغَاوُونَ] : الكفرة الذين شملتهم الغواية ، و ﴿ جُنُودٌ إِبْلِيسَ ﴾ :
 نَسْلُهُ وَكُلُّ مَنْ تَبِعَهُ لِأَنَّهُمْ جُنْدٌ لَهُ وَأَعْوَانٌ .

قوله عز وجل :

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّكُمْ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٨ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ٩٩ فَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ١٠٠ وَلَا
 صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠٤ ﴾

ثم وصف تعالى أن أهل النار يختصمون فيها ويتلاومون ، ويأخذون
 في شأنهم بجدال ، ومن جهلهم قولهم لأصنامهم - على جهة الإقرار
 وقول الحق - : قسماً بالله إن كنا لفي ضلال مبين في أن نعبدكم
 ونجعلكم سواء مع الله تعالى الذي هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم ،
 ثم عطفوا يردون الملامة على غيرهم ، أي : ما أضلنا إلا كبراًؤنا
 وأهل الحزم والجرأة والمكانة ، ثم قالوا - على جهة التلهف والتأسف -

– حين رأوا شفاعَةَ الملائكة والعلماء والأنبياء نافعة في أهل الإيمان عموماً ،
 وشفاعة الصديق في صديقه خاصة – : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ
 حَمِيمٍ ﴾ ، وفي هذه اللفظة تنبيهه على محلّ الصديق من المرء ، قال
 ابن جريج : [شَافِعِينَ] من الملائكة ، و [صَدِيقٍ] من الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولفظه «الشفيع» تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده ، ولفظة
 «الصديق» تقتضي شدة مساهمة ونصرة ، وهو (فعليل) من صدق
 الودّ من أبنية المبالغة (١) .

و «الحميم» : الوليّ والقريب الذي يخصك أمره ويخصه أمرك ،
 وجامعة الرجل خاصته ، وباقي الآية بين قد مضى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآيات من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾
 هي عندي منقطة من كلام إبراهيم عليه السلام ، وهي إخبار من

(١) نقل ابن عطية هذا الكلام عن ابن جريج ، وللكلام بقية منها : «ونفي الشفاعة
 والصديق يحتمل أن يكون نفيّاً لوجودهم إذ ذاك وهم موجودون للمؤمنين ، إذ تشفع الملائكة ،
 ويتصدق المؤمنون ، كما قال تعالى : ﴿ الْأَخْيَارُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا
 الْمُسْتَقِيمِينَ ﴾ ، أو ذلك على حسب اعتقادهم في معبوداتهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وأن لهم
 أصدقاء من الإنس والشياطين ، فقصداً بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع ؛ لأن مالا ينفع
 حكمه حكم المعدوم ، فصار المعنى : فعلا من نفع من كنا نعتقد أنهم شفعاؤهم وأصدقاؤهم .»

الله عزَّ وجلَّ تعلق من صفة اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه ألا يخزي (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَتَّقُونَ ﴿١١٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٠﴾ * قَالُوا أَنْتُمْ
لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١٢١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ
إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
﴿١٢٥﴾ قَالُوا لَيْن لَمْ تَنْتَه يَنْوُحْ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي
كَذَّبُونِ ﴿١٢٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا وَتَجَنَّبْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ فَأَنْجِنَنَّهُ
وَمَنْ مَعَهُ رَفِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٩﴾ ثُمَّ اغْرَمْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
﴿١٣١﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(١) ناقض أبو حيان ابن عطية في كلامه هذا فقال : « كان ابن عطية قد أعرب ﴿ يَوْمَ ﴾ لا يَنْفَعُ ﴿ بدلًا من ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ وعلى هذا لا يتأتى هذا الذي ذكره ؛ لأنه يفكك الكلام ويجعل بعضه من كلام إبراهيم وبعضه من كلام الله تعالى . لأن العامل في البدل - على مذهب الجمهور - فعل آخر من لفظ الأول ، أو الأول ، وعلى كلا التقديرين لا يصح أن يكون من كلام الله تعالى ؛ إذ يصير التقدير : « ولا تخزني يوم لا ينفع مال ولا بنون . »

أسند [كَذَّبَتْ] إلى « القوم » وفيه عدم التأنيث من حيث « القوم » في معنى الأئمة والجماعة (١) . وقوله : [الْمُرْسَلِينَ] من حيث أَنَّ من كَذَّبَ نبياً واحداً فقد كَذَّبَ جميع الأنبياء ؛ إذ قولهم واحد ، ودعوتهم سواء ، وقوله تعالى : [أَخُوهُمْ] يريد : في النسب والمنشأ ، لا في الدين ، و [آمينٌ] معناه : على وحي الله تعالى ورسالته ، يريد : في المنشأ .

وقرأ ابن كثير ، وعاصم (٢) : [أَجْرِي] ساكنة الياء ، وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة بفتح الياء في كل القرآن ، ثم ردد عليهم الأمر بالتقوى والدعاء إلى الطاعة تحذيراً ونذارة وحرصاً عليهم ، فذهب أشرفهم إلى استنقاص أتباعه بسبب صغار الناس الذين اتبعوه وضعفائهم ، وهذا كقول قريش في عمَّار بن ياسر ، وصهيب ، وغيرهما . وقال بعض الناس : [الْأَرْذُلُونَ] : الحاكة والحجَّامون والأساكفة .

(١) وقيل : (قوم) مؤنث مجاوي ، ويصغر قويمه ، فلذلك جاء ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، ولما كان مدلوله أفراداً ذكوراً عقلاء عاد الضمير عليه كما يعود على الجمع المذكَّر العاقل .
 (٢) لعلَّ هذه القراءة عن عاصم برواية أبي بكر ، وإلا فإن قراءة عاصم برواية حفص هي [أَجْرِي] بفتح الياء ، كما هي ثابتة في المصحف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي على جهة المثال ، أي : أهل الصنائع الخسيسة ، لا أن هذه الصنائع المذكورة خصت بهذا ، و [الْأَرذَلُونَ] : جمع الأَرذل ، ولا يستعمل إلا مُعرفاً أو مضافاً ، أو بمن ، ويظهر من الآية أن مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم ، لا النظر في صنائعهم ، ويدل على ذلك قول نوح : ﴿ وَمَا عَلَّمِي ﴾ الآية ؛ لأن معنى كلامه : ليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة ، فإنما أقنع بظواهرهم واجتزئ به ، ثم حسابهم على الله تبارك وتعالى ، وهذا نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ... الحديث بجملته) (١) .

وقرأ جمهور الناس : [وَأَتَّبَعَكَ] على الفعل الماضي ، وقرأ ابن السمين اليماني ، وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري : [وَأَتَّبَعُكَ]

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد في مسنده ، ولفظه كما في البخاري في كتاب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله) .

على الجمع ، ونسبها أبو الفتح إلى ابن مسعود ، والضحاك ، وطلحة ، قال أبو عمرو : وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ، والأعمش ، وأبي حيوه (١) . وقرأ عيسى بن عمر الهمداني : ﴿ لَوْ يَشْعُرُونَ ﴾ بالياء من تحت ، وقرأ الجمهور : [تَشْعُرُونَ] بتاء الخطاب . وإعراب قوله : [وَأَتَّبَاعُكَ] إما جعله في موضع الحال ، وإما عطف على الضمير في قوله : ﴿ أَنْتُمْ مِنْ لَكَ ﴾ ، وحسن ذلك الفصل بقوله : [لَكَ] (٢) .

وقوله : ﴿ مِنْ الْمَرْجُومِينَ ﴾ يحتمل أن يريد : بالحجارة ، ويحتمل أن يريد : بالقرآن والشتم ونحوه وهو شبيه برجم الحجارة ، وهو من الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك . وقوله : [أَفْتَحْ] معناه : احكم ، والفتاح : القاضي بلغة يمنية ، و [الْفُلُكُ] : السفينة ، وجمعها فُلُكٌ أيضاً ، وقد تقدم بسط القول في هذا الجمع في سورة الأعراف ، و [الْمَشْحُونُ] معناه : المملوء بما ينبغي له من قدر ما يحمل ، وباقي الآية بين .

(١) قال أبو الفتح في المحتسب : « تحتمل هذه القراءة ضربين من القول مختلفي الطريق إلا أنهما متفقا المعنى : أحدهما أن يكون أراد : أنؤمن لك وإنما أتَّبَاعُكَ الأردلون ؟ ذ [أَتَّبَاعُكَ] مرفوع بالابتداء ، و [الأَرْدَلُونَ] خبر ، والآخر أن يكون [أَتَّبَاعُكَ] معطوفاً على الضمير في [أَنْتُمْ] ، أي : أنؤمن لك نحن و [أَتَّبَاعُكَ] الأردلون ، ذ [الأَرْدَلُونَ] وصف للأتباع . وقد نقل ابن عطية خلاصة لهذا .

(٢) فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله : نحن ، وذلك أن العوض ينبغي أن يكون في شِقِّ العوض منه ، وأن يكون قبل حرف العطف ، وهذه هي صورة قوله : [لَكَ] .

قوله عز وجل :

﴿ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ
 ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامِ
 وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾
 قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

[عَادُ] : قبيلة ، وانصرف للخفة ، وقيل : هو اسم أبيهم ،
 وخطبهم هود عليه السلام بمثل مخاطبة سائر الرسل ، ثم كلمهم
 فيما انفردوا به من الأفعال التي اقتضتها أعمالهم ، فقال : [أَتَبْنُونَ]
 على جهة التوبيخ ، و «الرَّيْعُ» : المرتفع من الأرض ، ومنه قول المسيب
 ابن علس يصف طريقاً :

- في الآلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا رِيحٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلٌ (١)
 والسَّحْلُ : الثوب الأبيض ، ومنه قول ذي الرمة :
 طِرَاقُ الْخَوَافِي مُشْرَقٌ فَوْقَ رِيْعَةٍ نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيْشِهِ يَتَرَقَّرُقُ (٢)
 ومنه قول الأعشى :
 وَيَهْمَاءُ قَفْرِ تَجَاوَزَتْهَا إِذَا خَبَّ فِي رِيْعِهَا آلهَا (٣)
 ويقال : (ريعٌ) بكسر الراء ، ويقال : (ريعٌ) بفتحها ، وبها قرأ
 ابن أبي عبلة ، وعبر بعض المفسرين عن «الريع» بالطريق ، وبعضهم
 بالفج ، وبعضهم بالثنية الصغيرة .

(١) الميسب (بفتح الياء المشددة) ، و (عكس) بفتحين ، اسمه : زهير بن عكس ابن مالك ، والميسب لقب لُقّب به بيت قاله . وهو من شعراء بكر بن وائل المعدودين ، وخال الأعشى ، والبيت في اللسان (ريع) ، قال : الرّيع والرّيعُ : الطريق المنفرج عن الجبل (عن الزجاج) ، وفي الصحاح : الطريق ، ولم يقيد ، ومنه قول الميسب ، شبه الطريق بالسَّحْلُ ، وهو الثوب الأبيض .

(٢) البيت في (اللسان - ريع) وفي (طرق) أيضاً ، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، وطائر طِرَاقُ الريش : إذا ركب بعضه بعضاً ، والخوافي : ما تحت القوادم في الطائر من الريش ، والقوادم : جمع قادمة وهي أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر ، قال : (فإن الخوافي قوةٌ للقوادم) ، والرّيع : المرتفع من الأرض ، وقيل : الجبل ، واختلفوا في الجمع والمفرد ، ويترقق : يلمع . يصف الطائر بأن ريش الخوافي فيه كثيف يركب بعضه على بعضه ، وندى الليل يلمع في ريشه حين وقف فوق المكان المرتفع .

(٣) البيت منسوب للأعشى هنا ، وفي الطبري ، ولم نجده في الديوان على الرغم من وجود قصيدة على نفس الوزن والقافية ، واليهما : الفلاة لا يهتدى فيها ، وليس فيها ماء ولا أنيس ، وتجاوزتها : قطعها ، وخبب : تحرك واضطرب في سرعة ، والآل : السراب ، نسب سرعة الحركة والاضطراب إلى السراب في هذه الصحراء ، والبيت شاهد على أن الريع هو المكان المرتفع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجملة ذلك أنه المكان المشرق ، وهو الذي يتنافس الناس في
 هيأته . و « الآية » : البنيات ، قال ابن عباس رضي الله عنهما :
 إنه علم ، وقال مجاهد : أبراج الحمام ، وقال النقاش وغيره :
 القصور الطوال ، و « المصانع » : جمع مصنع ، وهو ما أصنع وأتقن
 في بنائه من قصر مشيد ونحوه ، وقال قتادة : هي مأخذ للماء ، وقوله :
 ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ، إما أن يريد : على أملاككم ورجائكم ، وإما أن
 يريد الاستفهام على معنى التوبيخ والهزاء بهم ، وقرأ الجمهور :
 [تَخْلُدُونَ] بفتح التاء وضم اللام ، وقرأ قتادة : [تَخْلُدُونَ] بضم
 التاء وفتح اللام ، يقال : خلد الشيء ، وأخلده غيره ، وقرأ أبي
 وعلقمة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُخْلِدُونَ ﴾ بضم التاء وفتح الخاء وفتح اللام
 وشدها ، وروي عن أبي : « كأنكم تخذلون » ، وروي عن ابن عباس
 رضي الله عنهما : « كأنكم خالدون » .

و « البَطْشُ » : الأخذ بقوة وسرعة ، و « الجِبَارُ » : المتكبر ،
 ومنه قولهم : « نخلة جبارة » إذا كانت لا تُدرَك علواً ، ومنه قوله
 عليه الصلاة والسلام في المرأة التي أبت أن تنحى عن طريقه : (إنها
 جبارة) (١) ، ومنه الجبروت ، فالمعنى : إنكم كفار الغضب ، لكم
 السطوات المفرطة ، والبوادر من غير تثبيت .

(١) أشار ابن الأثير في كتابه النهاية لهذا الحديث عند شرحه لكلمة جِبَارَة ، وذكر صاحب
 اللسان الحديث في جِبَر ، ولفظه فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم حَضَرَتْهُ امرأة ، فأمرها بأمر =

ثم ذكّرهم عليه السلام بأيادي الله تعالى قبّلهم فيما منحهم من الأنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها ، ثم خوفهم عذاب الله تعالى في الدنيا ، وكانت مراجعتهم أنّ سوّوا بين وعظه وتركه الوعظ . وقرأ ابن محيصرن : [وَعَظَّتْ] بإدغام الظاء في التاء ، ثم قالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلِقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، واختلف القراء في ذلك - فقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر : [خُلِقُ] بضم اللام ، فالإشارة بـ [هَذَا] إلى دينهم وعبادتهم وتصرفهم في المصانع ، أي : هذا الذي نحن عليه خُلِقُ الناس وعاداتهم ، وما بعد ذلك بعث ولا تعذيب كما تزعم أنت ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو قلابة [خُلِقُ] بضم الخاء وسكون اللام ، ورواها الأصمعي عن نافع ، وقرأ أبو جعفر ، وأبو عمرو : ﴿ خُلِقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام ، وهي قراءة ابن مسعود ، وعلقمة ، والحسن ، وهذا يحتمل وجهين : أحدهما : وما هذا الذي تزعمه إلا اختلاق الأولين من الكذبة قبلك ، فأنت على منهاجهم ، والثاني أن يريدوا : ما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأولون ، حياة وموت ، وما ثمّ بعث ولا تعذيب ، وكل معنى ممّا ذكرته تحتمله

فتأبّت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعوا فإنها جبّارة) ، أي : عاتية متكبرة ، وقيل : الجبّار : المتسائط ، قال الشاعر :

سَلَبْنَا مِنَ الْجَبَّارِ بِالسَّيْفِ مُلْكَهُ عَشِيّاً وَأَطْرَافُ الرَّمَاحِ شَوَارِعُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ .

قراءة [خلق] ، وروى علقمة عن ابن مسعود : « إِلَّا اخْتَلَقُ الْأَوَّلِينَ » ،
وباقى الآية قد مضى تفسيره .

قوله عز وجل :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٦﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَنْتُمْ بِهِ آمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٤٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَيْهَامُ ﴿١٤٩﴾ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِيوتًا فَكْرِهِينَ
﴿١٥٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥١﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٢﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ
شِرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٧﴾
فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدَمِينَ ﴿١٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾

[ثمود] : قبيلة عربية ، وتصرف ولا تصرف ، على مقصد
الحي أو القبيلة ، وقرى بالوجهين : الجمهور بغير صرف ، وابن
وثاب وغيره بالصرف . و [صالح] أخوهم في النسب ، والأنبياء

من العرب أربعة : هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله وسلم عليه
وعليهم أجمعين ، وإسماعيل عليه السلام عربيُّ اللسان سرياني النسب ،
وهو أب العرب الموجودين اليوم .

وقوله : ﴿ أَتُرْكُونَ فِيمَا هَا هُنَا ﴾ تخويف لهم ، بمعنى : أتطمعون
أن تقروا في النعم على معاصيكم ؟ و «الهُضِيم» معناه : اللين الرطب ،
و «الطَّلْع» : الكفري ، وهو عنقود النخل قبل أن يخرج من الكم
في أول نباته ، فكأن الإشارة إلى أن طلوعها يثمر ويرطب ، قال ابن
عباس رضي الله عنهما : أَيْنَع وبلغ وهو يُهْضَم ، وقال الزهري : الهضيم :
الرَّخْصُ اللطيف أول ما يخرج ، وقال الزجاج : هو - فيما قيل -
الذي رطبه بغير نوى ، وقال الضحاك : الهضيم : المنضد بعضه
على بعض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقرأ الجمهور : [تَنْحِتُونَ] بكسر الحاء ، وقرأ الكسائي بفتحها ،
وذكر أنها لغة ، قال أبو عمرو : وهي قراءة الحسن ، وأبو حيوة .
وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وابن عامر : [فَارِهَيْنَ] ، وهي
قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو
عمرو : [فَرِهَيْنَ] ، وقرأ مجاهد : «مُتَفَرِّهَيْنَ» بميم ، على وزن : مُتَفَعِّلِينَ ،
واللفظة مأخوذة من الفراهة ، وهي جودة منظر الشيء وقوة كماله

في نوعه ، فمعنى الآية : كَيْسِينَ مُهْتَمِينَ ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد : شرهين ، وقال ابن زيد : أقوياء ، وقال أبو عمرو بن العلاء : أشْرِينَ بَطْرِينَ ، وذهب عبد الله بن شداد إلى أنه بمعنى : مستفْرهين ، أي : مبالغين في استحازة (١) الفاره من كل شيء مما يصنعونه ويشتهونه .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ خاطب به جمهور قومه ، وعنى بالمسرفين كبراءهم وأعلام الكفر والإضلال فيهم .
وقوله : ﴿ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما مأخوذ من السَّحَر (بكسر السين) ، أي : قد سُحِرَتْ فَأَنْتَ لَدَيْكَ مَخْبُولٌ لَا تَنْطِقُ بِقَوِيمٍ ، والثاني أنه مأخوذ من السَّحَر (بفتح السين) وهي الرئة ، وقيل : السَّحَر : قصبة الرئة وما يتعلق بها من كبد وغيره ، أي : انت ابن آدم مثلنا لا يصح أن تكون رسولا عن الله تعالى ، وما بعده في الآية يُقَوِّي هذا التأويل (٢) ، ومن اللفظة قول لبيد :
فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا عَصَافِيرٌ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسْحَرِ (٣)

(١) استَحَاذَ الشَّيْءَ وَاحْتَاذَهُ بِمَعْنَى : ضَمَهُ وَامْتَلَكَه . (المعجم الوسيط) .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ ، ومن الغريب أن أبا حيان قال بعد ذكره هذا التأويل : « وَيُضْعِفُ هَذَا الْقَوْلَ قَوْلُهُمْ بَعْدُ : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ ؛ إذ تكون هذه الجملة توكيدا لما قبلها ، والأصل التأسيس » .

(٣) البيت من قصيدة له يذكر فيها من مات من قومه ، ويتأمل سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه ، ومطلعها :

أَعَاذِلُ قَوْمِي فَاعْذُلِي الْآنَ أَوْ ذَرِي فَلَسْتُ وَإِنْ أَقْصَرْتُ عَنِّي بِمُقْتَصِرٍ
وهو من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ، قال : وكلُّ من أكل من إنس أو دابة فهو مُسْحَرٌ ، وذلك أن له سحراً يقري فيه ما أكل . وعصافير معناها : ضعاف .

ويقال للاغتداء : التَّسْحِير ، ومنه قول امرئ القيس :

..... وَنُسْحَرَ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ (١)

ثم اقترحوا عليه آية ، ورُوي أنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم ، وقصتها في هذه الآية قدمضت مستوعبة ، فلما خرجت الناقة قال لهم : ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ ﴾ ، أي : حظٌ من الماء ، وقرأ ابن أبي عملة : ﴿ لَهَا شُرْبٌ وَلَكُمْ شُرْبٌ ﴾ بضم الشين فيهما ، وقد تقدم قصص ورود الناقة . و «السوء» : عقرها ، وتوعدهم عليه بعذاب ، وظاهر أمره أنه أراد : في الدنيا ، ونسب عقرها إلى جميعهم مع اختصاص قدار الأحمر بعقرها من حيث اتفقوا على ذلك رأياً وتدبيراً . وقوله : ﴿ فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ ، لما ظهر لهم تغير ألوانهم حسبما كان صالح عليه السلام أخبرهم ندموا ، ورأوا أن الأمر على ما أخبر به حتى نزل

(١) هذا عجز بيت ، وهو مطلع قصيدة له ، والبيت بتمامه :

أرانا موضعين لأمر غيبٍ ونُسْحَرَ بالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

وقد ذكره صاحب اللسان في مادة (سَحَرَ) شاهداً على أن السَّحَرَ هو الغداء ، وموضعين : مُسْرِعِينَ ، ولأمر غيب : لِلْمَوْتِ ، ونُسْحَرَ : نُغَذَى ، أو نُلَهَى عن الموت بالطعام وبالشراب ، ومن اللطيف أنه في البيت التالي يصف الناس بأنهم عصفير فيلتنقي في ذلك بليد ، قال :

عَصَافِيرٌ وَذُبَّانٌ وَدُودٌ وَأَجْرًا مِنْ مُجَلَّحَةِ الذَّنَابِ

والمجَّلَّحة : هي المقدمة على الأمر إقداماً شديداً ، والمهاجمة على الناس ، فهم مع ضعفهم كأنهم العصفير أو الديدان يفعلون فعل الذناب المجلَّحة .

بهم العذاب ، وكانت صيحة جمدت لها أبدانهم ، وانشقت قلوبهم ،
وماتوا عن آخرهم ، وصبت عليهم حجارة خلال ذلك .

قوله عز وجل :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ أَنَا تُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٠﴾ وَتَذَرُونَ
مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧١﴾ قَالُوا لَنْ نَمُنَّ بِكَ
يَلُوطُ لَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧٢﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٧٣﴾ رَبِّ نَجِّنِي
وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٤﴾ فَنجَّيناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٥﴾ إِلَّا بَعْضًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧٦﴾ ثُمَّ
دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٨﴾ إِنْ فِي
ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨٠﴾ ﴾

قال النقاش : إن في مصحف ابن مسعود ، وأبي ، وحفصة
رضي الله تعالى عنهم : « إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطُ » وسقط « أَخُوهُمْ » ، واختصرت
الياء في الخط واللفظ من قوله : [وَأَطِيعُونَ] مراعاةً لرؤوس الآي
أن تناسب .

ثم وقفهم على معصيتهم البشعة في «إتيان الذكران» وترك فروج الأزواج ، والمعنى : ويذر ذلك العاصي في حال المعصية ، لا أن معناه : تركوا النساء جملة ، وفي قراءة ابن مسعود : «ما أصلح لكم ربكم» ، و [عَادُونَ] معناه : ظالمون مرتكبون للخطر ، فتوَعَّدَهُم بِالإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِ فَلَا يُتُّهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ، واقتصر على الإخبار بأنه قال : [لِعَمَلِكُمْ] . و «أَلْقَى» : بَغَضَ الشَّيْءَ وَتَرَكَهُ ، ثم دعا بالنجاة فنجاه الله تعالى بأن أمره بالرحلة ليلا ، وكانت امرأته تعين عليه قومه فأصابها حجر فهلكت فيمن هلك .

وقوله : ﴿ فِي الْغَابِرِينَ ﴾ معناه : في الباقين ، فإما أن يريد : في الباقين من لِدَاتِهَا وَأَهْلِ سُنَّتِهَا ، وهو تأويل أبي عبيدة ، وإما أن يريد : في الباقين في العذاب النازل بهم ، وهو تأويل قتادة ، والمشهور أنها بمعنى : بَقِيَ ، وغابر الزمان : مستقبله ، ولكن الأعشى قد استعمل «غابر الزمان» بمعنى ماضيه في شعر المنافرة المشهور (١) ، وقال الزهراوي : يقال للذاهب غابر ، وللباقي غابر . و «التمدير» :

(١) جاء ذلك في قصيدة قالها الأعشى يهجو علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، والبيت الذي استعمل فيه (غابر) بمعنى الماضي هو :
عَضَّ بِمَا أَبْقَى الْمَوَاسِي لَهُ مِنْ أُمَّهِ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ
يريد : ما تركه موسى بعد إجراء عملية الختان لأمه وهي صغيرة .

الإهلاك بإمطار الحجارة ، وبذلك جرت السير في رجم اللوطي ،
وباقى الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثِيَّتَهُمْ
وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ
رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

قال النقاش : في مصحف ابن مسعود ، وأبي ، وحفصة :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ، وقالوا : لا وجه لمراعاة النسب ،
وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم وأدمي مثلهم .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر : [لَيْكَةَ] على وزن فَعْلَةٌ هنا وفي (ص) (١) ، وقرأ الباقر : [الْأَيْكَةَ] وهي الدوحة الملتفة من الشجر على الإطلاق ، وقيل : من شجر معروف له غضارة يألفه الحمام والقمارى ونحوه ، وقال قتادة : كان شجرهم هذا دوماً ، و «لَيْكَةَ» اسم البلد في قراءة من قرأ ذلك ، قاله بعض المفسرين ، وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام ، وذهب قوم إلى أنها مُسَهَّلَةٌ من الأَيْكَةَ ، وأنها وقعت في المصحف هنا وفي سورة (ص) بغير ألف ، وقال أبو علي : سقوط ذلك في المصحف لا يرجح النطق بها هكذا ؛ لأن خط المصحف أتبع فيه تسهيل اللفظ ، كلما سقطت الألف من اللفظ سقطت من الخط ، نحو سقوط الواو من قوله : ﴿سَدُّعُ الزَّبَانِيَةِ﴾ (٢) لَمَّا سقط من اللفظ ، وأما ترجيح القراءة في [لَيْكَةَ] بفتح الياء في موضع الجرِّ فلا يقتضيه ما في المصحف ، وهي قراءة ضعيفة ، ويدل على ضعفها أن سائر ما في القرآن غير هذين الموضعين مُجمع فيه على [الْأَيْكَةَ] بالهمز والألف والخفض .

وكانت مدن القوم سبعة فيما روي ، فلم يكن شعيب منهم ، ولذلك لم يذكر هنا بأنه أخ لهم ، وإنما كان من بني مدين ، ولذلك ذُكِرَ بِأَخُوهُمْ ، وجاءت الألفاظ في دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء

(١) في قوله تعالى في الآية (١٣) : ﴿وَتَسْمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ .
 (٢) الآية (١٨) من سورة (العنكبوت) .

واحدة بعينها إذ كان الإيمان المدعو إليه معنى واحداً بعينه ، وفي قولهم عليهم السلام : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عرض رقيق وتلطف ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ (١) ، وكانت معصيتهم المضافة إلى كفرهم بخس الموازين وتنقص أموال الناس بذلك . و « الْقِسْطَاسُ » : المعتدل من الموازين ، وهو بناء مبالغة من القسط ، وذهب ابن عباس، ومجاهد إلى أن قوله : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ بضم القاف [من القسطاس] (٢) ، وقرأ عيسى وأهل الكوفة بكسرها ، و [تَعَثُّوا] معناه : تفسدون ، يقال : « عَثَا » إذا أفسد .

[وَأَلْجِبِلَّةٌ] : القرون والخليقة الماضية ، قال الشاعر :

وَالْمَوْتُ أَعْظَمُ حَادِثٍ فيما يَمُرُّ عَلَى الْجِبِلَّةِ (٣)

وقرأ جمهور الناس : [وَأَلْجِبِلَّةٌ] بكسر الجيم والباء ، وقرأ أبو حصين والحسن : [وَأَلْجِبِلَّةُ] بضمها ، و « الْكِسْفُ » : القطع ، واحداً : كِسْفَةٌ ، كَتَمْرَةٌ وَتَمْرٌ (٤) ، و ﴿ يَوْمَ الظُّلَّةِ ﴾ يوم عذابهم ، وصورته - فيما روي - أن الله تعالى امتحنهم بِحَرٍّ شَدِيدٍ ، فلما كان

(١) الآية (١٨) من سورة (النازعات) .

(٢) هكذا في نسخ الأصول ، ونعتقد أن ما بين العفتين . من زيادة النسخ .

(٣) هو شاهد على أن الْجِبِلَّةُ هي : الخليقة ، قال في (اللسان - جِبَلٍ) : « الْجِبِلَّةُ :

الْخَلِيقَةُ ، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴾ ، وقرأها الحسن بالضم ، قال الكسائي : الْجِبِلَّةُ وَالْجِبُلَّةُ تكسر وترفع مشددة كُسِرَتْ أو رَفَعَتْ .

(٤) ورد هذا التنظير في الطبري ، وعنه أخذ ابن عطية ، قال محقق الطبري : « وقياس

الجمع غير واضح » .

ذلك اليوم غشى بعض قطرهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ، فاضطربت عليهم تلك السحابة ناراً فأحرقتهم عن آخرهم ، وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت ، والحق أنه عذاب جعله الله تبارك وتعالى ظُلةً ، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : من حدثك ما عذاب يوم الظُّلة فقد كذب ، وباقي الآية بين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْلَىٰ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

الضمير في [إنه] للقرآن ، أي : إنه ليس بكهانة ولا سحر ، إنما هو من عند الله تبارك وتعالى ، و ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ : جبريل عليه السلام بإجماع ، ونزل باللفظ العربي والمعاني الثابتة في الصدر والمصاحف ، والضمير على ذلك كله عائد في [به] ، و «اللسان» عبارة عن اللغة ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم - في رواية حفص - : [نَزَلَ] خفيفة الزاي [الرُّوحُ] بالرفع ، وقرأ

ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم - وحمزة ، والكسائي بشد الزاي [الروح] نصباً ، ورجحها أبو حاتم بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ (١) ، وبقوله : ﴿ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقوله : [به] في موضع الحال ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ (٢) .
 وقوله تعالى : ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ إشارة إلى حفظه إياه ، وعلل النزول على قلبه بكونه من المنذرين ؛ لأنه لا يمكن أن يُنذر به إلا بعد حفظه ، وقوله : [بِلِسَانٍ] يمكن أن يتعلق بلفظ الباء بـ ﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ ، وهذا على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يسمع من جبريل عليه السلام حروفاً عربية ، وهو القول الصحيح ، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وإغلاظه ، ويمكن أن يتعلق بقوله : [لِتَكُونَ] ، وتمسك بهذا من رأى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع أحياناً مثل صلصلة الجرس يتفهم له منه القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف يقتضي أن بعض ألفاظ القرآن هي من لدن

النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مردود .

(١) من قوله تعالى في الآية (٩٧) من سورة (البقرة) : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ

فَأِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

(٢) من الآية (٦١) من سورة (المائدة) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي في كتبهم ، يريد أن القرآن مذكور في الكتب المنزلة القديمة مُنبه عليه مشاراً إليه (١) ، وقرأ الجمهور : [زُبُر] بضم الباء ، وقرأ الأعمش بسكونها (٢) . ثم احتج عليهم بأنهم كان ينبغي أن يُصحح عندهم أمره ، كان علماء بني إسرائيل يعلمونه ، كعبد الله بن سلام ونحوه ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً - فيما حكى عنه الثعلبي - : إن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هذا زمانه ، ووصفوا بعثه ، ثم خلطوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويؤيد هذا كون الآية مكية ، وقال مقاتل : هذه الآية مدنية ، فمن قال : إنها مكية ، ذهب إلى أن علماء بني إسرائيل ذكروا أن في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه الإشارة إلى ذلك . وكلهم قرأ : [يَكُنُّ] بالياء [آية] نصباً ، غير ابن عامر فإنه قرأ :

(١) وقيل : إن معانيه فيها ، وبهذا يُحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة ، على أن القرآن قرآن إذا تُرجم لغير العربية حيث قيل : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ لكون معانيه فيها .

(٢) السكون للتخفيف ، والأصل الضم .

[تَكُنْ] بالتاء من فوق : [آيَةٌ] رفعاً ، وهي قراءة عاصم والجحدري (١) ،
 وقرأ جمهور الناس : ﴿ أَنْ يَعْلَمَهُ ﴾ بالياء من تحت ، وقرأ الجحدري :
 ﴿ أَنْ تَعْلَمَهُ ﴾ بالتاء من فوق .

ثم سأل محمدًا صلى الله عليه وسلم عن صدور قومه عن الشرع
 بأن أخبر أن هذا القرآن العربي لو سمعوه من أعجم ، أي : من حيوان
 غير ناطق ، أو جماد ، - والأعجم : كل مالا يفصح - ما كانوا
 يؤمنون ، أي : قد حتم الكفر عليهم فلا سبيل إلى إيمانهم ، و «الأعجمون»
 جمع أعجم ، وهو الذي لا يفصح ، وإن كان عربي اللسان (٢) يقال
 له : أعجم ، وكذلك يقال للحيوانات والجمادات ، ومنه قول النبي
 صلى الله عليه وسلم : (جُرْحُ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ) (٣) ، وأسند الطبري
 عن عبد الله بن مطيع أنه قال حين قرأ هذه الآية وهو واقف بعرفة :

(١) الصحيح أن الواو في قوله (والجحدري) زائدة من النسخ ، وأن الذي قرأ هو
 عاصم الجحدري ، والتصحيح عن كتب التفسير والقراءة .
 (٢) في بعض النسخ : «عربي النسب» ، وهو الأشبه ، ويوافق ما في «البحر المحيط»
 حين نقل كلام ابن عطية .

(٣) أخرجه البخاري في الديات والزكاة والمساقات ، ومسلم في الحدود ، وأبو داود
 في الديات ، والترمذي في الزكاة والأحكام ، والنسائي في الزكاة ، وابن ماجه في الديات ،
 والدارمي في الزكاة والديات ، والموطأ في العقول ، وأحمد في أماكن كثيرة من مسنده ، ولفظه
 كما في الدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه : (جرح العجماء جُبَار ، والبير جُبَار ، والمعدن
 جُبَار ، وفي الرِّكَاز الخمس) . قال ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» :
 «العجماء : الدابة ، والجُبَارُ : الهدر» .

«جملي هذا أعجم ، فلو أنزل عليه ما كانوا يؤمنون» ، والعجمي هو الذي نسبه في العجم وإن كان فصيح اللسان . وقرأ الحسن : «الأعجميين» ، قال أبو حاتم : أراد جمع «الأعجمي» المنسوب ، وقال بعض النحويين : الأعجمون جمع أعجم ، وهو أعجم ، أضيف فقويت بالإضافة رتبته في الأسماء فجمع ، وليس بأعجمي النسبة إلى العجم^(١) . وقرأ جمهور الناس : ﴿ أَوْ لَمْ يَكُنْ ﴾ بالياء ﴿ لَهُمْ آيَةٌ ﴾ بالنصب ، وقرأ : «أَوْ لَيْسَ لَكُمْ آيَةٌ» ابن مسعود والأعمش ، وفي مصحف أبي «أَلَيْسَ» بغير واوٍ أو فاء ، وقرأت فرقة : [تَكُنْ] بالتاء من فوق [آيَةٌ] رفعاً ، وقرأ بعض من قرأ بالتاء [آيَةٌ] بالنصب ، وسائرهم بالرفع ، وقد مضى ذكر ما في السبع ، وذكر الطبري أن

(١) قال الطبري : « وإنما قيل : ﴿ عَلَيَّ بَعْضُ الْأَعْجَمِينَ ﴾ ، ولم يقل : « على بعض الأعجميين » لأن العرب تقول إذا نعتت الرجل بالعجمة وأنه لا يُفصح بالعربية : هذا رجل أعجم ، والمرأة : هذه امرأة عجماء ، وللجماعة : هؤلاء قوم عجم وأعجمون ، وإذا أريد هذا المعنى وصف به العربي والأعجمي ؛ لأنه إنما يعني أنه غير فصيح اللسان ، وقد يكون كذلك وهو من العرب » . وقال أبو الفتح ابن جني في المحتسب تعليقا على قراءة الحسن : [الأعجميين] : « هذه القراءة عُدْر في القراءة المجتمع عليها ، وتفسير للغرض منها ، وهي قوله : ﴿ عَلَيَّ بَعْضُ الْأَعْجَمِينَ ﴾ ، وذلك أن ما كان من الصفات على أفعل ، وأثناء فعلاء — لا يجمع بالواو والنون ، ولا مؤنثه بالألف والتاء ، ألا تراك لا تقول في أحمر : أحمر ، ولا في حمراء : حمراوات ، فكأن قياسه ألا يجوز فيه «الأعجمون» ، لأن مؤنثه عجماء ، ولكن سببه أنه يريد : «الأعجميون» ثم حذف ياء النسب ، وجعل جمعه بالواو والنون دليلا عليها وأمانة لإرادتها » . وأجاز الفراء أن يقال : رجل عجمي ، بمعنى : أعجمي ، ومذهب سيويه هو ما ذكره ابن جني .

الضمير في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عائد على « الذِّكْرِ »
في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ ﴾ (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ
مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

الإشارة بـ « ذَلِكَ » إلى ما يتحصل لسامع الآيات المتقدمة من الحتم
عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ
الْأَعْجَمِينَ ﴾ الآية . و [سَلَكْنَاهُ] معناه : أدخلناه ، والضمير فيه
للكفر الذي يتضمنه قوله : ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، قاله الحسن .
قال الرَّمَّانِي : لا وجه لهذا إلا أنه لم يجر ذكره ، وإنما الضمير
للقرآن وإخطاره بالبال ، وحكى الزهراوي أن الضمير للتكذيب
المفهوم ، وحكاه الثعلبي ، وقرأ ابن مسعود : « كذلك جعلناه في قلوب » ،

(١) من الآية (٥) من هذه السورة (الشعراء) .

وروي عنه : « نَجَعُهُ » ، و «المجرمون» أراد به مجرمي كل أمة ، أي أن هذه عادة الله تبارك وتعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب ، ولا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم ، وهذا على جهة المثال لقريش ، أي : هؤلاء كذلك . وكشف الغيب ما تضمنته هذه الآية يوم بدر .

وقرأ الجمهور : [فَيَأْتِيَهُمْ] بالياء ، أي العذاب ، وقرأ الحسن : [فَتَأْتِيَهُمْ] بالتاء من فوق ، يعني الساعة ، وفي قراءة ابن كعب : «فَيَرَوْهُ بَغْتَةً» ، ومن قول كل أمة مُعَذَّبَةٌ : ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي مُؤَخَّرُونَ ، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة .

ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالى في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك ، وقولهم لمحمد صلى الله عليه وسلم : أين ما تَعِدُنَا ؟ أي أنه لا ينبغي لهم ذلك لأن عذابنا بالمرصاد إذا حان حينه . ثم خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم بإقامة الحجة عليهم في أن مُدَّةَ الإِرجاء والإِمهال والإِملاء لا يعني منع نزول العذاب بعدها ، ووقوع النقمة ، وذلك في قوله : [أَفَرَأَيْتَ] الآية ، قال عكرمة : [سِنِينَ] يريد : عُمُر الدنيا ، ولأبي جعفر المنصور قصة في هذه الآية .

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه لم يُهلك قرية من القرى إلا بعد إرسال من ينذرهم عذاب الله تعالى ذِكْرَى لهم وتبصرةً وإقامة حجة ؛

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) و [ذِكْرِي] عند الكسائي نصب على الحال ، ويصح أن يكون نصب على المصدر ، وهو قول الزجاج ، ويصح أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء ، تقديره : « ذلك ذكري » (٢) ، ثم نفى عن جهته عز وجل الظلم ؛ إذ هو مما لا يليق به .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

(١) من الآية (١٦٥) من سورة (النساء) .

(٢) وأجاز الزمخشري في [ذِكْرِي] أن تكون مفعولا له ، على معنى أنهم يندرون لأجل الموعظة والتذكرة ، وأن تكون مرفوعة صفة بمعنى : « مُنْذِرُونَ ذَوُو ذِكْرِي » ، أو جعلوا ذكري لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها ، وأجاز أيضاً أن تكون متعلقة بـ [أَهْلَكُنَا] مفعولا له ، والمعنى : وما أهلكنا من قرية ظالمين إلا بعد ما أزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم لتكون تذكرة وعبرة لغيرهم ، فلا يعصوا مثل عصيانهم ، وما كنا ظالمين فنهلك قوماً غير ظالمين ، وهذا الوجه عليه المعول . ا.هـ. — ومع ذلك ناقشه فيه أبو حيان ليثبت أنه لا معول عليه .

لما كان في هذا الموضع ما قال الكفار - لأنهم قالوا : إن هذا القرآن كهانة - نزلت هذه الآية مكذبة لذلك ، أي : ما نزلت به الشياطين ؛ لأنها عُزلت عن السمع الذي كانت تأخذ له مقاعدها ، وقوله : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ أي : ما يمكنهم ، وقد تجيء هذه اللفظة عبارة عما لا يكون ، وعبارة عما لا يليق وإن كان ممكناً ، ولما جاء الله تعالى بالإسلام حرسَ السماءَ بالشهب الجارية إثر الشياطين ، فلم يخلص شيطان بشيء يُلقنه كما كان يتفق لهم في الجاهلية .

وقرأ الجمهور : [الشَّيَاطِينِ] ، وروي عن الحسن أنه قرأ : «الشياطون» ، وهي قراءة مردودة ، قال أبو حاتم : هي غلط منه أو عليه ، وحكاها الثعلبي أيضاً عن ابن السميّقع ، وذكر عن يونس بن حبيب أنه قال : سمعت أعرابياً يقول : دخلت بساتين من ورائها بساتون ، قال يونس : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

ثم وصى عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالثبوت على أمر الله تبارك وتعالى ، وأمر بندارة عشيرته تخصيصاً لهم ، إذ العشيرة مظنة المقاربة والطواعية ، وإذ يمكنه معهم من الإغلاظ عليهم مالا يحتمله غيرهم ، فإن البرّ بهم في مثل هذا الحمل عليهم ، والإنسان غير متهم على عشيرته ، وكان هذا التخصيص مع الأمر العام بندارة العالم ،

وروي عن ابن جريج أن المؤمنين من غير عشيرته في ذلك الوقت نالهم همٌّ من هذا التخصيص وخروجهم منه ، فنزلت : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه النذارة عظم موضع الأمر عليه وصعب ، لكنه تلقاه بالجلد ، وصنع أشياء مختلفة كلها بحسب الأمر ، من ذلك « أنه أمر علياً رضي الله عنه بأن يصنع طعاماً ، وجمع عليه بني جدّه عبد المطلب ، وأراد نذارتهم ودعوتهم في ذلك الجمع ، فظهر منه عليه الصلاة والسلام بركة في الطعام ، قال علي : وهم يومئذ أربعون رجلاً ، ينقصون رجلاً أو يزيدونه ، فرماه أبو لهب بالسحر ، فوجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترق جمعهم من غير شيء ، ثم جمعهم مرة ثانية كذلك وأنذرهم ووعظهم فتضاحكوا ولم يجيبوا » (١) ، ومن ذلك أنه نادى عمّه العباس ، وصفية عمته ، وفاطمة ابنته رضي الله عنهم ، وقال : (لا أغني عنكم من الله شيئاً ، إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد) في حديث مشهور (٢) ، ومن ذلك أنه صعد على الصفا ، أو أبي قُبَيْس ، ونادى :

(١) أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب ، وأخرج مثله ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في الدلائل - من طرق - عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه . وهو حديث طويل تجده في سيرة ابن هشام ، وفي الدر المنثور .

(٢) أخرجه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، - وليس فيه عمّه العباس - إذ قالت : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة =

يا بني عبد مناف ، واصباحاه ، فاجتمع إليه الناس من أهل مكة ، فقال : يا بني فلان ، يا بني فلان ، حتى أتى على بطون قريش جميعاً ، فلما تكامل خلق كثير من كل بطن قال لهم : (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح الجبل تريد الغارة عليكم ، أكنتم مُصدِّقي) ؟ قالوا : نعم ، فإننا لم نجرب عليك كذباً ، فقال لهم : (فإنِّي نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد) ، فقال له أبو لهب لعنه الله : ألهذا جمعتنا ؟ تَبَّا لك سائر اليوم ، فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ السورة (١) .

و «العشيرة» : قرابة الرجل ، وهي في الرتبة تحت الفخذ وفوق العصبية . و «خفض الجناح» استعارة ، ومعناه : لينُ الكلمة وبسَطُ

=عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم) ، وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه عن عروة مرسلًا مثله . (الدر المنثور) . وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فقال : (يا معشر قريش ، اشترُوا أنفسكم من الله ، لا أعني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أعني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أعني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أعني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد ، سليني ماشئت ، ما أعني عنك من الله شيئاً) .

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، والبخاري ، وابن مردويه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم — عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرج مثله عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

الوجه والبر ، والضمير في [عَصَوُكَ] عائد على عشيرته من حيث جمعت رجالاً ، فأمره الله تعالى بالتَّبَرِّي منهم (١) ، وفي هذه الآية موادةٌ نسختها آية السيف .

قوله عز وجل :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرْزُقُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَدَّتْ رَأْسَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهُيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشيبة : [فَتَوَكَّلْ] بالفاء ، وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، والجمهور بالواو ، وكذلك في سائر المصاحف ، وأمره تعالى بالتوكل عليه في كل أمره ، ثم جاء

(١) من النظرات العميقة ما رواه في البحر عن بعض العلماء ، قال : « قيل : الضمير يعود على من اتبعه من المؤمنين ، والمعنى : فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإيمان بعد التصديق والإيمان فقل : إني بريء مما تعملون لا منكم ، أي : أظهر عدم رضاك بأعمالهم ، وإنكارك عليهم ، ولو أمره بالبراءة منهم ما بقي بعد هذا شفيحاً للعصاة » .

بالصفات التي تؤنس المتوكل ، وهي العزة والرحمة المذكورتان في آخر قصص الأمم المذكورة في هذه السورة وضمنها نصر كل نبي على الكفرة ، والتَّهْمُ بِأمره والنظر إليه .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ عبارة عن إدراك ، وظاهر الآية أنه أراد قيام الصلاة ، ويحتمل أنه يريد سائر التصرفات ، وهو تأويل مجاهد وقتادة ، وقوله : ﴿ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أي : في أهل الصلاة ، أي صلاتك مع المصلين ، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وقال أيضاً مجاهد : قلب أعينك وأبصارك في الساجدين حين تراهم من وراء ظهرك (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا معنى أجنبي هنا .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً وقتادة : أراد : تقلبك في المؤمنين ، فعبر عنهم بالساجدين . وقال ابن جبير : أراد الأنبياء ، أي : تقلبك كما تقلب غيرك من الأنبياء (٢) .

(١) يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (أتموا الركوع والسجود ، فوالله إني لأراكم من خلفي) .

(٢) وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً : « تقلبك في أصلاب آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء حتى خرجت إلى الوجود » ، وقال الزمخشري : « ذكر ما كان يفعله =

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ، هنا استفهام وتوقيف تقرير ، و « الْأَفَّاكُ » : الكذاب ، و « الْأَثِيمُ » : الآثم ، ويريد الكهنة لأنهم كانوا يتلقون من الشيطان الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء فيخلطون معها مائة كذبة ، فإذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها . وقوله : [يُلْقُونَ] يعني الشياطين ، ومقتضى ذلك أن الشيطان المسترق أيضاً كان يكذب إلى ما سمع ، هذا في الأكثر ، ويحتمل الضمير في [يُلْقُونَ] - أي يكذبون - الكهنة . ولما ذكر الكهنة بإفكهم وكذبهم الذي يقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالى عقب ذلك بذكر الشعراء وحالهم لينبّه على بُعد كلامهم من كلام الله تعالى في القرآن ، إذ قال في القرآن بعض الكفرة : إنه شعر ، وهذه الكناية عن شعر الجاهلية ، حكى النقاش عن السدي أنها في ابن الزبيرى ، وأبي سفيان بن الحرث ، وهبيرة بن أبي وهب ، ومسافع الجمحي ، وأبي عزة (١) ، وأميمة ابن أبي الصلت .

= صلى الله عليه وسلم في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المنتهجين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ويستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم .
(١) هو أبو عزة الجمحي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الأولان ممن تاب وآمن رضي الله عنهما ، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو أو يمدح شهوة ، ويقذف المحصنات ، ويقول الزور .
وقرأ نافع : [يَتَّبِعُهُمْ] بسكون التاء وفتح الباء ، وهي قراءة أبي عبد الله ، والحسن - بخلاف عنه - ، وقرأ الباقر بشد التاء وكسر الباء .

واختلف الناس في قوله : [الْغَاوُونَ] - فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الرواة ، وقال أيضاً : هم المستحسنون لأشعارهم ، المصاحبون لهم ، وقال عكرمة : هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر ، وهذا أرجح الأقوال . وقال مجاهد وقتادة : [الْغَاوُونَ] : الشياطين . وقوله تعالى : ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من غث الكلام وباطله ، وتحسينهم القبيح وتقبيحهم الحسن ، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ذكر لتعاطيهم وتعمقهم في مجاز الكلام حتى يؤول إلى الكذب ، ولكن في هذا اللفظ عذرٌ لبعضهم أحياناً ، فإنه يُروى أن النعمان بن عدي لما ولّاه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ميسان ، وقال لزوجته الشعر المشهور عزله

عمر رضي الله عنه ، فاحتجَّ عليه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فدرأ عنه عمر رضي الله عنه الحدَّ في الخمر (١) .
 وروى جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَنْ مشى سبع خطوات في شعر كُتِبَ من الغاوين) ، ذكره أسد بن موسى ، وذكره النقاش .

(١) النعمان بن عدي بن نضلة ، ولأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاية ميسان ، فقال شعراً جاء فيه :

مَنْ مُبْلَغِ الْحَسَنَاءِ أَنَّ حَلِيلَهَا بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
 إِذَا شِئْتُ غَنَّتَنِي دَهَاقِينَ قَرْيَةٍ وَرَقَاصَةً تَجْدُو عَلَيَّ كُلُّ مَنْسَمِ
 فَإِنْ كُنْتُ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَسَلِّمِ
 لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه بالقدوم عليه ، فلما قدم قال له : أي والله إنه ليسووني ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما فعلت شيئاً مما قلت ، وإنما كان من فضلة القول ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، فقال له عمر رضي الله عنه : أما عذرك فقد درأ عنك الحدَّ ، ولكن لا تعمل لي أبداً وقد قلت ما قلت .
 وقد روي أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق :

فَبِتْنِ بِيحَانِيٍّ مُصْرَعَاتٍ وَبِتْ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخَيْتَامِ

فقال له : قد وجب عليك الحدُّ ، قال الفرزدق : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدَّ بقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ
مَا ظَلَمُوا وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢٦٧) ﴿

هذا الاستثناء هو في شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب
ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكل من اتصف بهذه الصفة ،
وروي عن عطاء بن يسار أن هؤلاء شقَّ عليهم ما ذكر قَبْلُ في الشعر ،
وذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية للاستثناء في
الشعر (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يحتمل أن يريد : في أشعارهم ،
وهو تأويل ابن زيد ، ويحتمل أن يريد : ذلك خُلُقُ لهم وعادة وعبادة ،
قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا كما قال لبيد حين طلب
منه شعر : « إن الله أبدلني بالشعر القرآنَ خيراً منه » ، وكلُّ شاعر
في الإسلام يهجو أو يمدح عن غير حقٍّ ، ويقذف ولا يرتدع عن

(١) أخرج مثله عن أبي هريرة ابنُ مردويه ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من الشعرِ حكمة) ، قال : (وأتاه قرظة بن كعب ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : إنا نقول الشعر ، وقد نزلت هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرؤوا ، فقرؤوا : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، قال : أنتم هم ، ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ، قال : أنتم هم ، ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ ، قال : أنتم هم) .

قول دنيء ، فهو داخل في هذه الآية ، وكل تقيٍّ منهم يكثر من الذكر ، ويمسك عن كل ما يعاب فهو داخل في الاستثناء . وقوله : [وَأَنْتَصِرُوا] إشارة إلى ما قالوه من الشعر وغيره في قريش ، قال قتادة : وانتصروا بمثل ما ظلموا .

وباقى الآية وعيدٌ للظلمة كفارِ مكة ، وتهديدٌ لهم . وعَمَلٍ [يَنْقَلِبُونَ] في [أَيٍّ] لتأخره (١) ، والحوّل والقوة لله عزّ وجلّ ، والله تبارك وتعالى أعلم .

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الشعراء

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) ومعنى ﴿أَيٍّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ : أيّ مصير يصيرون ، وأيّ مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العذاب وهو شرّ مرجع . وقال الماوردي : الفرق بين المُنْقَلَب والمُرْجَع أن المُنْقَلَب هو الانتقال إلى ضدّ ما هو فيه ، والمرجع هو العود إلى حالٍ كان عليها من حالٍ هو فيها ، فصار كل مرجع مُنْقَلَبًا ، وليس كل منقلب مرجعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كتب أبي في وصيته سطرين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، ويتقي الفاجر ، ويصدق الكاذب : إني استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن يجرّ وَيَبْدَلْ فلا أعلم الغيب ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة النمل (١)

قوله عز وجل :

﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٧﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَانَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ
سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في كل السور ، وكل ما قيل
مترتب هنا ، وعلى القول بأنها حروف من أسماء الله تبارك وتعالى

(١) هذه السورة مكية في قول الجميع ، وآياتها ثلاث وتسعون آية ، وقيل : أربع وتسعون آية .

فالأسماء هنا : لطيف وسميع ، وكونها إشارة إلى نوع حروف المعجم
 أبين الأقوال ، وعطف [كِتَاب] على [الْقُرْآن] وهما لِمْسَمَى واحد
 من حيث هما صفتان لمعنيين ، فالقرآن لأنه اجتمع ، والكتاب لأنه
 كُتِبَ ، وقرأ ابن أبي عبة : ﴿ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ بالرفع (١) ، وقوله :
 ﴿ هُدًى وَبُشْرَى ﴾ يحتمل أن يكون في موضع نصب على المصدر ،
 ويحتمل أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمرة ، تقديره :
 ذلك هدى وبشرى .

ثم وصف تعالى المؤمنين بالأوصاف الخليقة بهم ، وإقامة الصلاة :
 إدامتها على وجهها ، و [الزَّكَاةُ] هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة
 لأن السورة مكية قديمة ، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير ،
 وقيل : [الزَّكَاةُ] هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق ،
 وتكرار الضمير في قوله : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ للتأكيد .

ثم ذكر تعالى الكفرة الذين لا يؤمنون بالبعث ، والإشارة إلى
 قريش ، وقوله تعالى : ﴿ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ يحتمل أنه تعالى حتم
 عليهم الكفر ، وحبب إليهم الشرك ، وزينه بأن خلقه واخترعه
 في نفوسهم ، ومع ذلك اكتسابهم وحرصهم على كفرهم ، وهذا على
 أن تكون الأعمال المزيّنة كفرهم وطغيانهم ، ويحتمل أن الأعمال

(١) والتقدير : « وآياتُ كتابٍ » ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب
 بإعرابه . قاله في البحر .

المُزَيَّنَةُ هي الشريعة التي كان الواجب أن تكون أعمالهم ، فأخبر الله تبارك وتعالى على جهة الذكر أنه بفضلته ورحمته زين الدين وبينه ، ورسم الأعمال والتوحيد ، لكن هؤلاء [يَعْمَهُونَ] ، أي : يُعرضون ، و «العَمَهُ» : الحيرة والتردد في الضلالة . ثم توعدهم تعالى بسوء العذاب ، فمن ناله شيء منه في الدنيا نفى عنه عذاب الآخرة ، ومن لم ينله عذاب في الدنيا كان سوء عذابه في موته وفيما بعده ، و [الأَخْسَرُونَ] : جمع أَخْسَرَ ؛ لأن (أَفْعَلَ) صفة ، لا يجمع إلا أن يضاف فتقوى رتبته في الأسماء ، وفي هذا نظر (١).

قوله عز وجل :

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَعَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِي إِنَّهُ وَأَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

(١) علّق أبو حيان على ذلك بقوله : « ولا نظر في كونه يجمع جمع سلامة وجمع تكسير إذا كان بآل ، لا يجوز فيه إلا ذلك إذا كان قبله ما يطابقه في الجمعية ، فيقال : الزيدون هم الأفضلون والأفاضل ، والهندات هن الفضليات والفضّل ، وأما قوله : (لا يجمع إلا أن يضاف) فلا يتعين إذ ذاك جمعه ، بل إذا أضيف إلى نكرة فلا يجوز جمعه ، وإن أضيف إلى معرفة جاز فيه الجمع والإفراد على ما تقرر في كتب النحو » .

«تُلَقَّى» تُفَعَّل ، مضاعف ، ومعناه : تعطى ، كما قال سبحانه :
 ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١) ، قال الحسن : المعنى : إنك
 لتقبل القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا شك أنه يفيض عليه فضل الله تعالى فيقبله صلى الله عليه وسلم ،
 وهذه الآية ردُّ على كفار قريش في قولهم : إن القرآن من تلقاء محمد
 ابن عبد الله ، و ﴿مِنْ لَدُنِّ﴾ معناه : من عنده ومن جهته . و « الْحَكِيمُ » :
 ذو الحكمة في معرفته حيث يجعل رسالاته ، وفي غير ذلك ، لا إله
 إلا هو .

ثم قصَّ تعالى خبر موسى ، والتقدير : اذكر إذ قال موسى ،
 وكان من أمر موسى عليه السلام أنه حين خرج بزوجه بنت شعيب
 عليهما السلام يريد مصر - وقد قرب وقت نبوته - مشوا (٢) في ليلة

(١) من الآية (٣٥) من سورة (فُصِّلَتْ) .

(٢) جاء الضمير في كلام ابن عطية للجمع ؛ لأن الظاهر أن قول الله تعالى : [لِأَهْلِهِ] يدل على الجمع ، لقوله سبحانه بعد ذلك : [سَأَتِيكُمْ] ، و [تَصْطَلُونَ] ، هذا وقد قيل : لم يكن معه غير زوجته ، وهذا واضح من كلام ابن عطية حين بدأ يقص قصة موسى عليه السلام ، وقيل : كانت امرأته قد ولدت له ولداً وهو عند شعيب عليه السلام فكان هذا الولد مع أمه ، ويمكن أن يكون الكلام من باب التعظيم والإكرام باستعمال ضمير الجمع .

ظلماء ذات برد ومطر ، ففقدوا النار ومسَّهم البرد واشتدت عليهم الظلمة
 وصلوا الطريق ، وَأَصْلَدَ (١) زناد موسى عليه السلام ، فبينما هو في
 هذه الحال إِذْ رَأَى نَاراً عَلَى بُعْدٍ . و [آنَسْتُ] معناه : رَأَيْتُ ، ومنه
 قول حسان بن ثابت :

انظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جِلَّتْ هَلْ تُوْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ (٢) ؟

فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية ، ومشى نحوها ، فلما دنا
 منها بعدت هي منه ، وكان ذلك نوراً من نور الله عزَّ وجلَّ ، ولم
 يكن ناراً في نفسه ، لكن ظنه موسى ناراً ، فناداه الله تبارك وتعالى
 عند ذلك ، وسمع موسى عليه السلام النداء من جهة الشجرة ، وأسمعه
 الله تعالى كلامه . و «الْخَبْر» الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإعلام
 بالطريق . وقوله : ﴿بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ ، شبه النار التي توجد في طرف
 عود أو غيره بالشهاب ، ثم خصَّصه بأنَّه مما اقتبس ؛ إذ الشهب قد
 تكون من غير اقتباس ، والقبس اسم لقطعة النار تُقْتَبَسُ في عود

(١) يقال : أَصْلَدَ الرَّئِدُ : صَوَّتَ وَتَمَّ يُورِ .

(٢) البيت في الديوان ، وفي اللسان ، وقد وردت الرواية : (بيطن جِلَّتْ) ، ويروى :
 (انظر نهاراً) ، ويروى : (انظر حبيبي) ، وهي رواية ابن دريد ، وجاءت في تاريخ ابن عساکر :
 (٤-١٣٣) . وجِلَّتْ بفتح اللام المشددة وبكسرهما : دمشق ، والبلقاء : من أعمال دمشق ،
 والشاهد فيه هنا أن (تونس) بمعنى : تَرَى .

أو غيره ، كما أن القبض اسم ما يُقبض ، ومنه قول أبي زيد :
 فِي كَفِّهِ صَعْدَةٌ مُثَقَّفَةٌ فِيهَا سِنَانٌ كَشُعْلَةٍ الْقَبَسِ (١)
 وقول الآخر :

مَنْ شَاءَ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ اسْتَقْبَسَا (٢)

وأصل الشهاب الكوكب المنقض في أثر مُسْتَرِقِ السمع ، وكل ما يقال
 له شهاب من النيران فعلى التشبيه ، وقال الزجاج : كل أبيض ذي
 نور فهو شهاب ، وكلامه مُعْتَرَضٌ ، والقبس يحتمل أن يكون اسماً
 غير صفة أضاف إليه بمعنى : بشهاب أقتبسه أو اقتبسته ، وعلى كونه
 صفة يكون ذلك كإضافة الدار إلى الآخرة (٣) ، والصلاة إلى الأولى ،
 وغير ذلك . وقرأ الجمهور بإضافة [شهاب] إلى [قبس] ، وهي
 قراءة الحسن وأهل المدينة ومكة والشام . وقرأ عاصم ، وحمزة ،

(١) البيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ، قال : « بِشِهَابِ قَبَسٍ » ، أي :
 بشعلة نار . والصَّعْدَةُ : القناة ، وقيل : القناة المستوية تبت كذلك لا تحتاج إلى الثقيف ،
 والمثَقَّفَةُ : التي أُقيم وأصلح ما فيها من اعوجاج ، والشاهد في البيت إضافة (الشعلة) إلى (القبس) ،
 أي : شعلة مقبسة من نار ، فهي كقوله تعالى : ﴿ بِشِهَابِ قَبَسٍ ﴾ في قراءة من قرأ بالإضافة .
 (٢) الجحيم : النار الشديدة التَّأجُّج ، وكلُّ نار تُوقَدُ على نار فهي جحيم ، والافتِنِاسُ :
 الأخذ من النار ، واستَقْبَسَا : طلب الاقتباس من النار ، والقَابِسُ : طالب النار ، ويقال :
 قَبَسْتُ مِنْهُ نَاراً أَقْبَسُ قَبْساً فَنَأْقَبِسْتِي ، وكذلك اِقتَبَسْتُ مِنْهُ .

(٣) في قوله تعالى في الآية (١٠٩) من سورة (يوسف) : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
 لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ .

والكسائي : ﴿بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ بتنوين [شِهَابٍ] ، وهذا على الصفة ، ويجوز أن تكون الصفة مصدر : قَبَسَ يَقْبِسُ ، كما أن الحَلْبَ مصدر : حَلَبَ يَحْلَبُ ، وقال أبو الحسن : الإضافة أجود وأكثر في القراءة ، كما تقول : دارٌ آجُرٌّ وسوارٌ ذهبٍ ، حكاها أبو علي . و [تَصْطَلُونَ] معناه : تستدفئون من البرد .

والضمير في [جَاءَهَا] للنار التي رآها موسى عليه السلام ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ يحتمل أن تكون [أَنْ] مُفسِّرة ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب على تقدير : بأن بُورك ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير : «نُودِيَ أَنَّهُ» ، قاله الزجاج . وقوله : [بُورِكَ] معناه : قُدِّسَ وضوعف خيره ونُمِّي ، والبركة مختصة بالخير ، ومن هذا قول أبي طالب بن عبد المطلب :

بُورِكَ المَيْتُ الغَرِيبُ كما بُو رِكَ نَبْعُ الرُّمَّانِ والزَيْتُونِ (١)

و «بَارَكَ» مُتَعَدٍ بغير حرف ، تقول العرب : بَارَكَكَ اللهُ (٢) .

(١) البيت في (اللسان - بَرَكَ) - والرواية فيه : «تَضَحُّ الرُّمَّانُ» بدلا من «نَبْعُ الرُّمَّانِ» ، قال : «قال الأزهري : معنى بركة الله عُلُوُّهُ على كل شيء» ، قال أبو طالب : بورك ... البيت .
(٢) قال في (اللسان - برك) : «بارك الله الشيءَ وبارك فيه وعليه» . وقال الفراء : «والعرب تقول : «بَارَكَكَ اللهُ وبارك فيك» ، وقال الثعلبي : «العرب تقول : باركك الله ، وبارك =

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ اضطرب المتأولون فيه - فقال ابن عباس ، وابن جبير ، والحسن ، وغيرهم : أراد عزَّ وجلَّ نفسه ، وعبر بعضهم في هذا القول عبارات مردودة شنيعة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أراد النور . وقال الحسن ، وابن عباس : أراد بـ ﴿ مَنْ حَوْلَهَا ﴾ الملائكة وموسى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فأما قول الحسن وغيره فإنما يتخرج على حذف مضاف ، بمعنى : بُورِكَ مَنْ قَدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي النَّارِ ، والمعنى : في النار على ظنك وما حسبت ، وأما القول بأن ﴿ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ النور ، فهذا على أن يُعبر عن النور من حيث كان أنه من نور الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من الملائكة ؛ لأن ذلك النور الذي حسبه موسى ناراً لم يدخل من ملائكة ، و ﴿ مَنْ حَوْلَهَا ﴾ يكون موسى والملائكة المطيفين به . وقرأ أبي بن كعب «بُورِكَتِ النَّارُ» ، و ﴿ مَنْ حَوْلَهَا ﴾ يكون موسى والملائكة ، كذا حكى

= فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات » ، ثم أنشد قول الشاعر :
 فَبُورِكَتْ مَوْلُوداً وَبُورِكَتْ نَاشِئاً وَبُورِكَتْ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَبُ
 وقال عبد الله بن الزبير :
 فَبُورِكَتْ فِي بَنِيكَ وَفِي بَنِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا وَنَحْنُ لَكَ الْفِيْدَاءُ
 ومعنى هذا أن (بَارَكَ) تتعدى بالحرف وبغير الحرف .

أبو حاتم ، وحكى ابن مكي أنه قرأ : «تباركت النَّارُ وَمَنْ حَوْلَهَا» ،
وحكى الداني أبو عمرو أنه قرأ : «وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ» ، قال :
وكذلك قرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون
مما قيل في النداء لموسى عليه السلام ، ويحتمل أن يكون خطاباً لمحمد
صلى الله عليه وسلم اعتراضاً بين الكلامين ، والمقصد به - على كلا
الوجهين - تنزيه الله عزَّ وجلَّ ممَّا عسى أن يخطر ببال في معنى النداء
في الشجرة ، وكون قدرته وسلطانه في النار ، وعود [مَنْ] عليه ، أي :
هو مُنَزَّهٌ - في جميع هذه الحالات - عن التشبيه والتكليف ، قال
الثعلبي : وإنما الأمر - كما رُوي في التوراة - : «جاء الله من سيناء ،

(١) قال النحاس عمَّا رواه الداني ومكي من قراءة أبي وابن عباس ومجاهد وعكرمة :
«ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ، ولو صحَّ لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النَّارِ
ومن حولها الملائكة وموسى» .

وقال أبو الفتح في قراءة أبي : «تباركت» - ورواها : «تباركت الأرض» - : «هو
تفاعل من البركة ، وهو تأكيد لمعنى البركة ، كقولك : (تعالى الله) ، فهو أبلغ من (علا) ،
وأصل هذا من فَعَّلَ في الفعل ، ففَعَّلْتُ وكَسَّرْتُ أقوى معنى مِنْ قَطَعْتُ وكَسَّرْتُ ،
وعليه جاء قوله تعالى : ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ فهو أبلغ من قادر ، ولهذا أيضاً جاء قوله :
﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كُنْتَسَبَتْ﴾ ، فقد عبَّرَ عن لفظ الحسنة بـ (كَسَبَ) وذلك
لاحتقار الحسنة إلى ثوابها ، لقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ،
وجاء (اكتَسَبَ) في السيئة تنفيراً منها ، وتهويلاً وتشجيعاً بارتكابها» .

وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » ، المعنى : ظهرت أوامره بأنبيائه في هذه الحالات (١) . والضمير في [إِنَّهُ] للأمر والشأن ، قال الطبري : ويُسميها أهل الكوفة المجهولة ، آنسه الله تعالى بصفاته من العزة التي لا خوف معها ، والحكمة ، أي : لا نقص في أفعاله .

قوله عز وجل :

﴿ وَاللّٰهُ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعِيبُ ۗ يٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

أمره الله تعالى بهذين الأمرين تدريجياً له في استعمالهما ، وفي الكلام حذف تقديره : « فألقى موسى العصا » ، ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ ، وأمال [رَآهَا] بعض القراء ، و « الجانُّ » : الحيات ، لأنها تخفي أنفسها ، أي تسترها ، وقالت فرقة : « الجان » : صغار الحيات ، وعصا موسى

(١) قال القرطبي : « فمجئته من سيناء بعثه موسى عليه السلام منها ، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح عليه السلام منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمداً صلى الله عليه وسلم منها ، وفاران : مكة » .

عليه السلام صارت حية ثعباناً وهو العظيم ، وإنما شبهت بالجأن في سرعة الاضطراب ؛ لأن الصغار أكثر حركة من الكبار ، وعلى كل قول فإن الله تبارك وتعالى خلق في العصا وغير أوصافها وأعراضها فصارت حية . وقرأ الزهري ، وعمرو بن عبيد : [جأن] بالهمز .

فلما أبصر موسى عليه السلام هول ذلك المنظر ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ، قال مجاهد : لم يرجع ، وقال قتادة : ولم يلتفت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعقب الرجل : إذا ولى عن أمر ثم صرف بدنه أو وجهه إليه كأنه انصرف على عقبه ، وناداه الله مؤنساً ومقوياً على الأمر : ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ فإن رسل الدين اصطفتهم للنبوّة لا يخافون عندي ومعى ، فأخذ موسى عليه السلام الحية فرجعت عصاه ، ثم صارت له عادة . واختلف الناس في الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ -

فقال مقاتل وغيره : الاستثناء متصل (١) ، وهو من الأنبياء ، وروى الحسن أن الله تعالى قال لموسى : أَخَفْتُكَ لِقَتْلِكَ النَّفْسِ ، وقال الحسن

(١) قال أبو حيان : «الأظهر أن قوله : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ استثناء منقطع ، والمعنى : لكن مَنْ ظلم من غيرهم ، قاله الفراء وجماعة ؛ إذ الأنبياء معصومون من وقوع الظلم الواقع من غيرهم .»

أيضاً : « كانت الأنبياءُ تَذنبُ فَتُعاقَبُ ، ثم تَذنبُ - والله - فتعاقب ، فكيف بنا ؟ » ، وقال ابن جريج : لا يخيف الله تعالى الأنبياءَ إلا بذنب يصيبه أحدهم ، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه ، قال كثير من العلماء : لم يعرف أحد من البشر لهم من ذنب إلا ما رُوي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأجمع العلماء أن الأنبياءَ عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل ، واختلف فيما عدا هذا ، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك .

وفي الآية - على هذا التأويل - حذف اقتضى الإيجاز والفصاحة ترك نصه ، تقديره : « فمن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء » ، وقال الفراء وجماعة : الاستثناء منقطع ، وهو إخبار عن غير الأنبياء ، كأنه قال : من ظلم من الناس ثم تاب فإنني غفور رحيم ، وقالت فرقة : [إلا] بمعنى الواو .

(١) وأشار الزمخشري إلى أن الصغائر التي فرطت منهم قد تسمى ظلماً ، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى بوكزه القبطي ، وسمّاه الله ظلماً كما قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ ، لكن بعض العلماء قالوا : إن ذلك يكون قبل النبوة ، فالأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول لا وجه له (١) . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، وزيد ابن أسلم : « أَلَا مَنْ ظَلَمَ » على الاستفتاح . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا ﴾ معناه : عملاً صالحاً مقترناً بتوبة ، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب ، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك ، وأهل السنة في التائب من المعاصي ، على أنه في المشيئة كالمُصِرِّ ، لكن يغلب الرجاء على التائب والخوف على المُصِرِّ ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) عمّت الجميع من التائب والمُصِرِّ ، ولا فرق بين المشرك وغيره ؛ لأنه يذهب فائدته ، إذ الشُّرك يُغْفَرُ للتائب ، وما دونه كذلك على تأويلهم ، فما فائدة التفصيل في الآية ، وهذا الاحتجاج لازم فتأمله ، ورُوي عن أبي عمرو أنه قرأ : ﴿ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴾ بفتح الحاء والسين ، وهي قراءة مجاهد ، وابن أبي ليلى ، وقرأ محمد بن علي الأصبهاني (٣) : [حُسْنِي] مثل فُعَلَى .

(١) لأن التقدير يكون : « وَلَا مَنْ ظَلَمَ » ، وهذا ليس بثبيء ، لأن معنى (إلا) مُبَايِنٌ لمعنى الواو مبينة كبيرة ؛ إذ الواو للإدخال وإلا للإخراج ، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر .

(٢) تكررت في الآيتين (٤٨) و (١١٦) من سورة (النساء) .

(٣) في البحر المحيط : « محمد بن عيسى الأصبهاني » .

ثم أمر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يدخل يده في جيب جيبته لأنها لم يكن لها كُمٌّ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال مجاهد : مِدْرَعَةٌ صوف إلى بعض يده ، و «الجيب» : الفتح في الثوب لرأس الإنسان ، ورُوي أن يد موسى عليه السلام كانت تخرج كأنها قطعة نور يتلألأ ، ومعنى إدخال اليد في الجيب ضم الآية إلى موسى ، وإظهار تلبسها به ؛ لأن المعجزات من شروطها أن يكون لها اتصال بالرائي ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ أي : من غير برص ولا علة ، وإنما هي آية تَجِيءُ وتذهب ، وقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ متصل بقوله : [أَلْقِ] و [أَدْخِلْ] ، وفيه اقتضاب وحذف ، تقديره : تمهد وتيسر لك ذلك في جملة تسع آياتٍ ، وهي : العصا ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ، والحجر ، وفي هذين الأخيرين اختلاف ، والمعنى : يجيء بهن إلى فرعون وقومه .

قوله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [جَاءَتْهُمْ] لفرعون وقومه ، و [مُبْصِرَةً]

معناه : معها الإبصار والوضوح ، وعلى هذا نحو قولهم : نهارٌ صائمٌ ،

وليل قائمٌ ونائمٌ . وقرأ قتادة والحسن : [مَبْصَرَةٌ] بفتح الميم والصاد (١) .
 وظاهر قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾
 حصول الكفر عناداً ، وهي مسألة فيها قولان : هل يجوز أن يقع أم لا ؟
 فجوزت ذلك فرقة وقالت : يجوز أن يكون الرجل عارفاً إلا أنه يجحد
 عناداً ويموت على معرفته وجحوده ، فهو بذلك في حكم الكافر المخلد ،
 قالوا : وهذا حكم إبليس ، وحكم حيي بن أخطب وأخيه حسب
 ما روي عنهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن عورض هذا المثال فرض إنسان يجوز ذلك فيه . وقالت فرقة :
 لا يصح لوجهين : أحدهما أن هذا لا يجوز وقوعه من عاقل ، والوجه
 الآخر أن المعرفة تقتضي أن يحل في القلب ، وذلك إيمان ، وحكم
 الكافر لا يلحقه إلا بأن يحل في القلب كفر ، ولا يصح اجتماع

(١) في البحر المحيط : « وقرأ قتادة وعلي بن الحسين » ، وعلى هذه القراءة تكون الكلمة
 مصدراً ، كما تقول : الولد مَجْبُوتٌ ، وأقيم المصدر مكان الاسم ، وانتصب أيضاً على الحال ،
 وهذا الوزن كثير في صفات الأماكن ، قيل : أرض مَسْبُعة ، ومكان مَضْبَةٌ ، ومثعلَةٌ ،
 بمعنى : كثيرة السباع ، أو الضباب ، أو الثعالي ، وهذا في الجواهر أو الأعيان ، وأما في الأحداث
 فمنه : الحقُّ مَجْدَرَةٌ بك ومخلقة ومَحْسَاةٌ ومَقْمَنَةٌ .

الضدين في محل ، قالوا : ويشبه في هذا العارف الجاحد أن يسلب عنف الموافاة تلك المعرفة ويحل بدلها الكفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر عندي في هذه الآية وما جرى مجراها أن هؤلاء الكفرة إذا نظروا في آيات موسى أعطتهم قولهم : « إن هذا ليس تحت قدرة بشر » ، وحصل لهم اليقين أنها من عند الله تعالى ، فيغلبهم أثناء ذلك الحسد ، ويتمسكون بالظنون في أنها سحر وغير ذلك حتى يُسلب ذلك اليقين أو يدفع ، وحكمه حكم المستلب في وجوب عذابهم .

و [ظُلماً] معناه : على غير استحقاق للجحد ، و «الْعُلُوُّ» في الأرض أعظم آفة على طالبه ، قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (١) . ثم عجبته تعالى من عاقبة المفسدين قوم فرعون ، وسوء مُنقلبهم حين كذبوا موسى ، وفي هذا تمثيل لكفار قريش إذ كانوا مفسدين مُستَعْلِينَ . وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [وَعَلِيًّا] ، وحكى أبو عمرو الداني عنهم وعن أبان بن ثعلب أنهم كسروا العين من [عَلِيًّا] .

(١) من الآية (٨٣) من سورة (القصص) .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُسْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

هذا ابتداء قصص فيه غيوب وعبر ، وليس بمثال لقريش ، وداود عليه السلام من بني إسرائيل وكان ملكاً ، وورث سليمان عليه السلام ملكه ومنزلته من النبوة ، بمعنى : صار ذلك إليه بعد موت أبيه ، ويُسمى ميراثاً تجوزاً ، وهذا نحو قولهم : « العلماء ورثة الأنبياء » ، وحقيقة الميراث في المال ، والأنبياء لا تورث أهوالهم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ) (١) ، يريد به أن ذلك من فعل الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم ، وإن كان فيهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢-٤٦٣) - عن أبي هريرة ، قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : (إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ ، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَوْتِي عَامِلِي وَنَفَقَةَ نِسَائِي صَدَقَةٌ) .

من ورث ماله كزكريا عليه السلام على أشهر الأقوال فيه ، وهذا كما تقول : « إِنَّا مَعَشَرُ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا شَغَلْنَا الْعِبَادَةَ » ، فالمراد أن ذلك فعل الأكثر ، ومنه ما حكى سيبويه : « إِنَّا مَعَشَرُ الْعَرَبِ أَقْرَى النَّاسِ لِلضَّيْفِ » .

وقوله تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ إخبارٌ بنعمة الله تبارك وتعالى عندهما في أن فهمهما من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها ، فهذا نحو ما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يسمع أصوات الحجارة بالسلام ، وسليمان عليه السلام حكى عن البلبيل أنه قال : « أَكَلْتُ نَصْفَ تَمْرَةٍ فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ » ، إلى كثير من هذا النوع ، وقال قتادة والشعبي وغيرهما : إنما كان هذا الأمر في الطير خاصة ، والنملة طائر إذ قد يوجد لها الأجنحة ، قال الشعبي : وكذلك كانت هذه القائلة ذات جناحين ، وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان ، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنود سليمان عليه السلام يحجب عنه الشمس ، ويحتاجه في البعث في الأمور ، فخصّ لكثرة مداخلته ، ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير ، والنمل حيوان فطن قوي شمام جداً ، يدخر ويتخذ القرى ، ويشق الحب بقطعتين لثلا ينبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت نصفين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره مدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ معناه : يصلح لنا ونتمناه ،
وليست على العموم ، ثم رَدَّدَ شُكْرَ اللَّهِ تبارك وتعالى .

ثم قصَّ تعالى حال سليمان فقال : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴾ أي : جُمِعَ ،
واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام اختلافاً شديداً
لم أُردِّ ذكره لعدم صحته : غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً
ملاً الأرض ، وانقادت له المعمورة كلها ، وكان كرسيه يحمله أجناده
من الجن والإنس ، وكانت الطير تظله من الشمس . ويبعثها في
الأُمور ، فكان له في الكرسي الأعظم موضع يخصه . و [يُوزَعُونَ]
معناه : يُرَدُّ أولهم على آخرهم ويكفون ، قال قتادة : فكان لكل صنف
وزعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها ،
- فَرُبَّ وقت كان يسير فيه في الأرض - ، ومنه قول الحسن البصري
حين ولي قضاء البصرة : « لا بُدَّ للحاكم من وزعة » ، ومنه قول أبي
قحافة حين وصفت له الجارية في يوم الفتح أنها ترى سواداً أمامه
فارس قد تقدم من الصَّف ، فقال لها : ذاك الوازع (١) ،

(١) روى محمد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم قالت : لما وقف رسول الله
صلى الله عليه وسلم بندي طوى - تعني يوم الفتح - قال أبو قحافة - وقد كُفَّ بصره يومئذ -
لابنته : اظهري بي على أبي قبيس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ما تَرَيْنِ ؟ قالت : أرى =

ومنه قول الشاعر :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ؟ (١)
أَي : كَافٌ .

قوله عز وجل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ
لَا يَحِطُّ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

= سواداً مُجْتَمِعاً ، قال : تلك الخليل ، قالت : وأرى رجلاً من السَّوَادِ مُقْبِلاً ومُدْبِراً ، قال :
ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر ... إلخ الخبر .

(١) البيت للنايعة الديقاني ، وهو من قصيدة له يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشت به بنو
قُرَيْع بن عوف من تميم . و (عَلَى) في البيت بمعنى (في) ، كقوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ
عَلَى حِينٍ غَفْلَةً مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وَأَصْحُ : أفيق ، والوازع : الزَّاجِر الكاف ، والصبا :
الصَّبوة وما فيها من أعمال الشباب ولوهم ، والبيت مرتبط بما قبله وهو قوله :

فَكَفَّفْتُ مَنِّي عِبْرَةً فَرَدَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ

يقول : كَفَّفْتُ دَمْعِي في الوقت الذي عاتبت فيه نفسي في حال مَشِيبِهَا على أفعال التَّصَابِي ،
وقلت لنفسي : أَلَسْمَ أفق بعد من طيشي وجهاتي والشيب وازع يزجرني ويكُفِّي ؟ والشاهد في
البيت أن (وازع) بمعنى كَافٌ ، ومثله في ذلك قول الآخر :

وَلَمَّا تَلَّاقَيْنَا جَرَّتْ مِن جُفُونِنَا دُمُوعٌ وَرَعْنَا غَرْبَتَهَا بِالْأَصَابِعِ

وقول الآخر :

وَلَا يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ النَّهْوَى مِّنَ النَّاسِ إِلَّا وَافِرُ الْعَقْلِ كَامِلُهُ

ظاهر هذه الآية أن سليمان عليه السلام وجنوده كانوا مشاةً في الأرض ، ولذلك يتفق حطم النمل [بنزولهم في وادي النمل] (١) ، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح وأحست النمل بنزولهم في وادي النمل [ووادي النمل قيل : بالشام ، وقيل بأقصى اليمن ، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها] (١) .

وأمال أبو عمرو الواو من [وادي] ، والجميع فخم ، والإمالة قراءة ابن أبي إسحق ، وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه : [النمل] بضم الميم كالشمس ، و﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أيضاً بالضم كسمرة ، ورؤي عنه أيضاً ضم النون والميم من [النمل] ، قال نَوْفُ الْبِكَالِي: (٢) كان ذلك النمل على قدر الذباب ، وقالت فرقة : بل كانت صغاراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يقال في هذا أن النمل كانت نسبتها من هذا الخلق نسبة هذا النمل منا ، فيحتمل أن كان الخلق كله أكمل ، وهذه النملة

(١) ما بين العلامتين [.....] غير موجود في الأصول ، ولكننا نقلناه عن البحر المحيط

حيث نقل نصّ كلام ابن عطية .

(٢) هو نَوْفُ بن فَضَّالَةَ الْبِكَالِي ، شامي مستور ، من الثانية ، مات بعد التسعين . (تقريب

التهذيب) .

قالت هذا المعنى - الذي لا يصلح له إلا هذه العبارة - قولاً فهمه عنها النمل ، فسمعه سليمان عليه السلام على بُعده ، وجاءت المخاطبة كمن يعقل لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل ، وروي أنه كان على ثلاثة أميال فتبسم من قولها ، والتبسم ضحك الأنبياء في غالب أمرهم ، لا يليق بهم سواه (١) ، وكان ضحكه سروراً ، واختلِفَ بِمَ؟ فقالت فرقة : بنعمة الله تبارك وتعالى في إسماعه وتفهمه ونحو ذلك ، وقالت فرقة : بنبأ النملة عليه وعلى جنوده في أن نَفَت عنهم تعمُد القبيح من الفعل ، فجعلت الحطم وهم لا يشعرون .

وقرأ شهر بن حوشب : [مَسَكَنَّكُمْ] بسكون السين على الأفراد ، وفي مصحف أبي رضي الله عنه [مَسَاكِنُكُمْ] . وقرأ جمهور القراء : ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بشد النون وسكون الحاء ، وقرأ أبو عمرو في رواية

(١) في الصحيح عن جابر بن سمرة وقيل له : أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، كثيراً ، كان لا يقوم من مُصَلَّاه الذي يصلي فيه الصبح - أو الغداة - حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخاؤون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . وفيه أيضاً عن سعد قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين - أي أثنى فيهم ، وعمل فيهم نحو عمل النار - فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : - أي قال لسعد - ارمِ فذاك أبي وأمِّي ، قال : فترعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه . ومن هذا نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في أكثر أحواله يتبسم ، ولكنه كان يضحك في بعض الأحيان ضحكاً أعلى من التبسم .

عبادة : ﴿لَا يَحِطُّمَنَّكُمْ﴾ بسكون النون ، وهي قراءة ابن أبي إسحق ،
 وقرأ الحسن ، وأبو رجاء : ﴿لَا يُحَطِّمَنَّكُمْ﴾ بضم الياء وفتح الحاء
 وكسر الطاء وشدها وشدَّ النون ، وعنه أيضاً ﴿لَا يَحِطُّمَنَّكُمْ﴾ بفتح
 الياء وكسر الحاء والطاء وشدها (١) ، وقرأ الأعمش وطلحة : ﴿لَا يَحِطِّمَنَّكُمْ﴾
 مخففة بغير نون ، وفي مصحف أبي بن كعب ﴿لَا يَحِطُّمَنَّكُمْ﴾
 مخففة النون التي قبل الكاف .

و [ضاحكاً] نصب على الحال ، وقرأ محمد بن السميع :
 [ضَحِكاً] ، وهو نصب على المصدر [بفعل محذوف يدلُّ عليه [تَبَسَّمَ] ،
 كأنه قال : «ضَحِكْ ضَحِكاً» ، وهذا مذهب صاحب الكتاب ،
 أو يكون منصوباً بنفس [تَبَسَّمَ] لأنه في معنى (ضَحِكْ) [٢] .

ثم دعا سليمان - عليه السلام - ربه في أن يُعينه الله تعالى ويفرغه
 لشكر نعمته ، وهذا هو معنى إيزاع الشكر . وباقى الآية بين .

(١) في المحتسب لابن جني أن القراءة بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء والنون ، وأنه روي
 عن الحسن أيضاً بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون ، أما ضمُّ الياء مع فتح الحاء وتشديد
 الطاء والنون فقد ذكرها القرطبي عن الحسن .

(٢) اضطربت الأصول في الجزء الذي أثبتناه هنا بين العلامتين [...] حتى صار الكلام
 مخلطاً ، ولما كان ابن عطية قد أخذ هذا الكلام عن ابن جني فقد آثرنا أن نقل نفس العبارة التي
 أثبتنا ابن جني في المحتسب حتى نضمن صحة التعبير وسلامته من التحريف والتصحيف .

قوله عز وجل :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢١﴾ لِأَعْذِبْنَهُ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ ۖ وَوَلِيَّاتِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحْطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ ۖ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

اختلف الناس في معنى «تفقده الطير» - فقالت فرقة : ذلك
بحسب ما تقتضيه العناية بأُمور المُلِك والتَّهَمُّ بكل جزء منه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير ، وقالت فرقة : بل تفقد
الطير لأن الشمس دخلت على المَلِك من موضع الهدهد حين غاب ،
فكان ذلك سبب تفقد الطير ليتبين من أين دخلت الشمس ، وقال
عبد الله بن سلام : إنما طلب الهدهد لأنه احتاج إلى معرفة الماء على
كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل في مفازة حُرْم فيها الماء ،
ولأن الهدهد كان يرى بطن الأرض وظاهرها ، كانت تشف له ،
فكان يخبر سليمان عليه السلام بموضع الماء ، ثم كانت الجن تخرجه
في ساعة يسيرة ، تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة ، قاله ابن

عباس رضي الله عنهما فيما روى عنه ابن سلام وغيره ، وقال في كتاب النقاش : كان الهدهد مهندساً ، ورُوي أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول هذا ، فقال له : قف يا وقاف ، كيف يرى الهدهد بطن الأرض وهو لا يرى الفخَّ حين يقع فيه ؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : إذا جاء القضاء عمي البصر ، وقال وهب ابن منبه : كانت الطير تنتاب (١) سليمان عليه السلام كل يوم ، من كل نوع واحد نوبة معهودة ، فتفقد الهدهد .

وقوله تعالى : ﴿ مَالِي لَأَرَى ﴾ إنما المقصد أن الهدهد غاب ، لكنه أخذ اللازم عن غيابه وهو ألا يراه ، فاستفهم - على جهة التوقيف - عن اللازم ، وهذا ضرب من الإيجاز ، والاستفهام الذي في قوله [مَالِي] ناب مناب الألف التي تحتاجها [أم] (٢) . ثم توعدده عليه السلام بالعذاب ، وروى عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه أجمع ، وقال يزيد بن رومان (٣) : جناحه ،

(١) أي : تفقده مرة بعد أخرى ، يقال : انتاب صديقَه : فقده مرة بعد أخرى ، وفلان يَنْتَابُنَا ، والسباعُ تنتاب المنهل ، (المعجم الوسيط) .

(٢) معنى هذا أن [أم] متصلة ، وأن الاستفهام الذي في [مَالِي] ناب مناب ألف الاستفهام ، ويكون المعنى عند ابن عطية : « أغاب عني الآن فلم أراه حالة التفقد أم كان ميمناً غاب من قبَل ولم أشعر بغييبته ؟ »

(٣) هو يزيد بن رومان المدني ، مولى آل الزبير ، ثقة ، من الخامسة ، مات سنة ثلاثين ، وروايته عن أبي هريرة مرسله . (تقريب التهذيب) . ومعنى كلام ابن رومان أنه ينتف ريش جناحه .

وروي عن وهب أنه بآن ينتف بعضه ويبقي بعضه . و «السُّطَّانُ» :
 الحُجَّة حيث وقع في القرآن ، قاله عكرمة عن ابن عباس ، وقرأ
 عكرمة وحده : ﴿لَيَأْتِيَنَّي﴾ بنونين ، وفعل سليمان عليه السلام
 هذا بالهدهد وحده غلاظاً على العاصين ، وعلى إخلاله بِنَوْبِهِ ورتبته .
 وقرأ جمهور القراء : [فَمَكُّثَ] بضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده :
 [فَمَكَّثَ] بفتحها ، ومعناه - في القراءتين - : أَقَامَ ، والفتح في
 الكاف أحسن ؛ لأنها لغة القرآن في قوله : [مَا كَثِيرٌ] (١) ؛ إذ هو
 من (مَكَّثَ) بفتح الكاف ، ولو كان من (مَكَّثَ) بضم الكاف لكان
 جُمِعَ (مَكِيثٌ) (٢) ، والضمير في مكث يحتمل أن يكون لسليمان
 عليه السلام أو الهدهد ، وفي قراءة ابن مسعود : «فَتَمَكَّثَ ثُمَّ جَاءَ
 فَقَالَ» ، وفي قراءة أبي : «فَتَمَكَّثَ ثُمَّ قَالَ أَحَطْتُ» . وقوله : ﴿غَيْرَ
 بَعِيدٍ﴾ كما في مصاحف الجمهور يريد به الزمن والمدة ، وقوله :
 [أَحَطْتُ] أي : علمتُ علماً تاماً ليس في علمك .

(١) من قوله تعالى في الآية (٣) من سورة (الكهف) : ﴿مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبْدَأُ﴾ .
 (٢) يقال : مَكَّثَ يَمَكُّثُ فهو ماكِثٌ مثل قَعَدَ يَقْعُدُ فهو قَاعِدٌ ، ومَكَّثَ يَمَكُّثُ
 مثل عَظُمَ يَعْظُمُ فهو مَكِيثٌ مثل عَظِيمٌ . هذا مذهب سيبويه ، وقال غيره : بل يجوز في مَكَّثَ
 بالضم أن يقال : مَكَّثَ يَمَكُّثُ فهو ماكِثٌ ، مثل حَمَضَ يَحْمِضُ فهو حَامِضٌ .
 (راجع كتب اللغة) .

واختلف القراء في [سَبَّأ] - فقرأ الجمهور: [سَبَّأ] بالصرف ،
 وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [سَبَّأ] بفتح الهمزة وترك الصرف ،
 وقرأ الأعمش : (مِنْ سَبَّأ) بالكسر وترك الصرف ، وروى ابن حبيب
 عن اليزيدي [سَبَّأ] بالألف ساكنة ، وقرأ قنبل - عن النبال -
 بسكون الهمزة ، فالأولى على أنه اسم رجل ، وعليه قول الشاعر :
 الْوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي ذُرَى سَبَّأٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ (١)
 وقال آخر :

مِنْ سَبَّأِ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ (٢)

وهذا على أنها قبيلة ، والثانية (٣) على أنها اسم بلدة ، قاله الحسن
 وقتادة ، وكلا القولين قد قيل ، ولكن روي عن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم من حديث فروة بن مسيك وغيره أنه ولد له عشرة من الولد ،

(١) هذا البيت من شواهد القراء في معاني القرآن ، ويروى : ذُرَى ، وَذَرَا ، ومعنى
 (عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ) أن القيود المصنوعة من جلد الجواميس قد أثرت في أعناقهم .
 والشاهد هنا أن (سَبَّأ) اسم رجل هو أبو القبيلة ، ولهذا صرف ، والبيت لخرير قاله في هجاء
 عمرو بن لُحَا التيمي ، وقد سبق الاستشهاد به في الجزء الثامن صفحة ٤٣٢ .

(٢) هذا جزء من بيت للناطقة الجعدي ، والبيت بتمامه :

مِنْ سَبَّأِ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا
 والشاهد فيه أن (سَبَّأ) اسم قبيلة ، ولهذا منع من الصرف .

(٣) يريد القراءة الثانية في القراءات التي ذكرها في كلمة (سَبَّأ) ، وكذلك يقصد القراءات
 في قوله بعد ذلك ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة .

تيا من منهم ستة وتشام أربعة (١) ، وحكي (٢) هذا الحديث على الزجاج فخط عشواء ، والثالثة على البناء ، والرابعة والخامسة لتوالي الحركات السبع فسكن تخفيفاً للتثقيب في توالي الحركات ، وهذه القراءة لا تبني على الأولى ، بل هي إما على الثانية أو الثالثة . وقرأت فرقة دون تنوين على الإضافة ، وقرأت فرقة [بِنَبِي] بالألف مقصورة (٣) .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة ، أي : مما تحتاجه المملكة ، قال الحسن : من كل أمر الدنيا ، ووصف عرشها بالعظم

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه (٢-١٥٤) عن فروة بن مسيكة المرادي ، قال : (قال رجل : يا رسول الله ، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ... الخ الحديث) ، قال الترمذي : هذا حديث غريب حسن ، ورواه الطبري ، وقال الحافظ بن حجر في (الإصابة) عن هذا الحديث - عند ترجمة فروة بن مسيكة - : أخرجه ابن سعد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن السكن مطولاً ومختصراً .

(٢) في بعض النسخ : (وخففي) وهي أشبه وأقرب .

(٣) هذا الأسلوب في قوله تعالى : ﴿ مِنْ سَبَأٍ بِنَبِيٍّ ﴾ يُسمى في علم البديع تجنيس التصريف ، قيل : وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ ، وما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : (الخليل معقود في نواصيها الخير) ، وقول الشاعر :

لله ما صنعت بنينا نلك المعاجير والمحاجر

وقيل : إن هذا النوع من الأسلوب يسمى التثريد ، وقال الزمخشري : « إنه من جنس الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع ، ولقد جاء هنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى ، ألا ترى لو وضع (بخبر) مكان [بنبي] لكان المعنى صحيحاً ؟ وهو كما جاء أصح لما في (النبأ) من الزيادة التي يطابقها وصف الحال » ، والزيادة التي يقصدها الزمخشري هنا أن (النبأ) لا يكون إلا الخبر الذي له شأن ، أما لفظ (الخبر) فمطلق ، يطلق على ما له شأن وما ليس له شأن .

في الهيئة ورتبة السلطان ، وروي عن نافع الوقف على [عرش] ، ف [عظيم] - على هذا - متعلق بما بعده ، وهذه المرأة هي بلقيس بنت شراحيل فيما قال بعضهم ، وقيل : بنت القشرح ، وقيل : كانت أمها جنيّة ، وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته ، وإنما اللازم من الآية أنها مختصة بامرأة ملكت على مدائن اليمن ، وكانت ذات ملك عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار .

قوله عز وجل :

﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

كانت هذه الأمة أمة تعبد الشمس ؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما روي ، وقيل : كانوا مجوساً يعبدون الأنوار ، وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ظاهر أنه من قول الهدهد ، وهو قول ابن زيد وابن إسحق ، ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم

في شرع ، [ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم] (١) ، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى ، فهو اعتراض بين الكلامين ، وهو الثابت مع التأمّل ، وقراءة التشديد في [أَلَا] تعطي أن الكلام للهدهد ، وقراءة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسب ما سمع ، ويتأمّل إن شاء الله تعالى .

وقرأ جمهور القراء [أَلَا] ، أي : «لَا يَسْجُدُوا» ، ف [أَنْ] في موضع نصب على البدل من [أَعْمَالَهُمْ] ، أو في موضع خفض على البدل من [السَّبِيلِ] ، أو يكون الكلام بتقدير : «لِئَلَّا يَسْجُدُوا» ، ف [أَنْ] متعلقة إمّا ب [زَيْنَ] ، وإمّا ب [فَصَدَّهُمْ] ، واللام الداخلة على [أَنْ] داخلة على مفعول له (٢) .

وقرأ ابن عباس ، وأبو جعفر ، والزهري ، وأبو عبد الرحمن ، والحسن ، والكسائي ، والحسين : «أَلَا يَسْجُدُوا» بتخفيف اللام ، فعلى هذا له أن يقف على ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ويبتدئ ب ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ ،

(١) ما بين العلامتين [.....] زيادة نقلناها عن القرطبي ، لأنه نقل كلام ابن عطية وفيه هذه العبارة ، أما الأصول التي بين أيدينا فقد خلت منها . وإن كان قول ابن عطية بعد ذلك : «وتقوي الآخر» يدل على أنه ذكر احتمالين فقط .

(٢) وقيل : العامل فيها ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ ، أي : لا يهتدون أن يسجدوا ، وعلى هذا القول تكون (لا) زائدة ، كقوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي : ما منعك أن تسجد ، وعلى هذه القراءة فليست هذه الآية بموضع سجدة ؛ لأنها خبر عنهم بترك السجود . إمّا بالتزيين أو بالصدء أو بمنع الاهتداء .

وإن شاء وقف على ﴿أَلَا يَا﴾ ثم يبتدئ : [أَسْجُدُوا] (١) ، واحتج الكسائي لقراءته هذه بأنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه موضع سجدة وإن جعلناه من كلام الهدهد ، بمعنى : ألا يا قوم ونحو هذا ، ومنه قول الشاعر :

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مِيَّ عَلَى الْبِلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجِرْعَائِكَ الْقَطْرُ (٢)

ونحو قول الأخطل :

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدَ بَنِي بَدْرِ وَإِنْ كَانَ حَيَانًا عِدَاً آخِرَ الدَّهْرِ (٣)

(١) وتكون [ألا] للاستفتاح ، و [يا] حرف نداء ، والمنادى محذوف ، والتقدير : ألا يا قوم : اسجدوا ، أو : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، و [اسجدوا] فعل أمر وسقطت ألف الوصل في [اسجدوا] ، وكسبت الياء من [يا] متصلة بالسين بعد أن سقطت الألف منها ، والسبب في سقوط الألفين - ألف الوصل وألف النداء - في الخط هو سقوطهما لفظاً ، (راجع الألويسي والبحر) .

(٢) البيت لذي الرمة ، والجرعاء : الأرض الرملية السهلة المستوية الطيبة المنبت التي لا وُعوثة فيها ، يدعو لها بالري والسقيا الدائمة بعد السلامة من الفناء ، والشاهد هنا أن حرف النداء دخل على منادى محذوف ، والتقدير : ألا يا هذه أسلمي ، و (اسلمي) فعل أمر ، تماماً كما حذف المنادى في الآية الكريمة في قراءة [ألا] بالتخفيف ، وجيء بفعل الأمر : [اسجدوا] .

(٣) البيت في (اللسان ... عدا) منسوباً أيضاً إلى الأخطل التغلبي الشاعر الأموي ، واللسان يستشهد به على أن العِدَى بمعنى الأعداء ، ونقل عن ابن الأعرابي قوله : العِدَى : التباعد ، وقوم عِدَى : إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف ، وقوم عِدَى : إذا كانوا في حرب ، وأكثر من الكلام في ضبط العين من عِدَى . والشاعر يدعو لهند بالسلامة على الرغم مما بين الحيين من عداوة دائمة إلى آخر الزمن . والشاهد الذي قصده ابن عطية هنا هو حذف المنادى تماماً كما في بيت ذي الرمة .

ومنه قول الآخر :

أَلَا يَا سَمْعَ أَعْظَكَ بِخِطْبَةٍ فَقُلْتُ سَمِعْنَا فَاَنْطَقِي وَأَصِيبي (١)

وتحتمل قراءة من شَدَّدَ [أَلَا] أَنْ نجعلها بمعنى التَّحْضِيضِ ، ويقدر

هذا النداء بعدها ، ويجيء في الكلام إضمار كبير ولكنه متوجه ،

وسقطت الألف كما كتبت في : يا عيسى ، وياقوم . وقرأ الأعمش :

(١) الوَعْظُ : التُّصْحُحُ والتذكير بالعواقب ، وفي الحديث : (لأجعلنك عظة) أي موعظة وعبرة لغيرك ، والشاهد فيه هنا هو حذف المنادى ، كما حذف في البيتين السابقين وفي الآية الكريمة ، والتقدير : يا هذا ، ثم جيء بعده بفعل الأمر (اسْمَعْ) . وهذا التركيب كثير في كلام العرب .
ومنه قول الشاعر :

أَلَا يَا اسْتَمِي ذات الدَّمَالِجِ والعقد

وقول الآخر : أَلَا يَا اسْتَمِي قَبْلَ غَارَةٍ سَنَجَالِ

قال القراء : وسمعت بعض العرب يقول : «أَلَا يَا ارْحَمَانَا ، أَلَا يَا تَصَدَّقَا» ، وفي كل هذه الأمثلة يكون المنادى محذوفاً وما بعده فعل أمر ، وأنشد سيبويه :

يَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ وَالصَّالِحِينَ عَلَيَّ سَمْعَانَ مِنْ جَارِ

والشاهد فيه حذف المنادى لدلالة حرف النداء عليه ، والمعنى : يا قوم أو يا هؤلاء ، لعنة الله على سمعان ، ولهذا رفع «لعنة» بالابتداء ، ولو أوقع الشاعر النداء عليها لنصبها .

ونقل الكسائي عن عيسى الهمداني قال : ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها - يريد الآية الكريمة -

إلا بالتخفيف على نيّة الأمر ، وقراءة عبد الله ﴿هَلَا تَسْجُدُونَ﴾ بالتاء حُجَّةً لمن خفف .

ومع ذلك فإن أبا حيان الأندلسي ينفي أن تكون الياء في كل هذه الأمثلة للنداء مع حذف المنادى ،

إذ لا يجوز حذف المنادى هنا بعد أن حذف الفعل العامل في النداء وانحذف فاعله لحذفه ، ولو

حذفنا بعد ذلك المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء ومتعلقه ، وفي هذا إخلال كبير ، ولهذا

كله فإنه يرى أن (يا) في هذه الأمثلة حرف تنبيه أكد به (ألا) التي للتنبيه أيضاً ، وجاز ذلك

لاختلاف الحرفين .

«هَلَّا يَسْجُدُونَ» ، وفي حرف عبد الله : «أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ» بالتاء ،
وفي قراءة أبي : «أَلَّا تَسْجُدُوا» بالتاء أيضاً .

و [أَلْخَبَاءُ] : الخفي من الأُمور ، وهو من : «خَبَأْتُ الشَّيْءَ» ،
وخبءُ السماء : مطرها ، وخبءُ الأرض : كنوزها ونباتها ، واللفظة -
بعد هذا - تُعْمُ كل خفي من الأُمور ، وبه فسّر ابن عباس رضي الله
عنهما ، وقرأ جمهور الناس : [أَلْخَبَاءُ] بسكون الباء وبالهمز (١) ،
وقرأ أبي بن كعب : [أَلْخَبَ] بفتح الباء وترك الهمز ، وقرأ عكرمة :
[أَلْخَبَا] بالألف مقصورة ، وحكى سيبويه أن بعض العرب [يقلب
الهمزة ألفاً إذا كانت مفتوحة وقبلها ساكن] ، ويقلبها واواً إذا كانت
مضمومة وقبلها ساكن ، ويقلبها ياءً إذا كانت مكسورة وقبلها ساكن ،
ومثل سيبويه في ذلك بالوثني ، تقول : رأيتُ الوثا ، وهذا الوثو ،
وعجبت من الوثي (٢) ، وكذلك يعجيء (أَلْخَبَا) في حال النصب ،

(١) العبارة في الأصول : «بسكون الباء والهمز» ، ولما كان من الممكن أن يفهم منها أن
الكلمة بسكون الباء وسكون الهمز آثرنا زيادة الباء على كلمة (الهمز) حتى يتضح المعنى المقصود
مباشرة ، وهو أن الكلمة بالهمز لا بغير همز .

(٢) في (اللسان) : الوثي : الضرب حتى يرهص اللحم ويصل الضرب إلى العظم من غير
كسر . وما بين العلامتين [.....] زدناه ليستقيم كلام سيبويه ؛ حيث أن الأمثلة التي أوردها
تقتضي وجود هذه الزيادة ، ولأن التاعدة تطرد مع الحروف الثلاثة : الألف والواو والياء .

وتقول : اطلعت على الخبي ، وراقني الخبو . وقرأ جمهور القراء :
 ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بياء الغائب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الهدد . وقرأ الكسائي ،
 وعاصم - في رواية حفص - : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ببناء
 المخاطبة ، وهذه القراءة تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل للأمم
 محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي مصحف ابن كعب : «أَلَّا تَسْجُدُوا
 لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبَا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ» ،
 وخصَّ العرش بالذكر في قوله : ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ لأنه أعظم
 المخلوقات ، وما عداه في ضمنه وفي قبضته .

ثم إن سليمان عليه السلام أخر أمر الهدد إلى أن يتبين له حقه
 من باطله ، فسوفه بالنظر في ذلك (١) ، وأمر بكتاب فكتب ، وحمله
 إياه ، وأمره بإلقائه إلى القوم والتولي بعد ذلك ، وقال وهب بن منبه :
 أمره بالتولي حُسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك ، بمعنى :
 وكن قريباً حتى ترى مراجعاتهم ، قال : وقوله : ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾
 في معنى التقديم على قوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ .

(١) المراد بالنظر التأمل والتفكر في الموضوع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واتساق رتبة الكلام أظهر ، أي : ألقه ثم تَوَلَّ ، وفي خلال ذلك فانظر ، وإنما أراد أن يكل الأمر إلى حكم ما في الكتاب دون أن يكون الرسول ملازمه وبلا إلحاح . وقرأ نافع : [فَأَلْقِه] بكسر الهاء ، وفرقة : [فَأَلْقِه] بضمها ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكسائي بإشباع بعد الكسرة في الهاء ، وروى عنه ورش بعد الهاء في الوصل بياء ، وقرأ قوم بإشباع واو بعد الضمة ، وقرأ اليزيدي عن أبي عمرو ، وعاصم ، وحمزة : [فَأَلْقِه] بسكون الهاء^(١) ، وروي عن وهب بن منبه في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألقى دون هذه الملكة حجب جدران ، فعمد إلى كوة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاهَا ، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي - فيما يُروى - نائمة ، فلما انتبهت وجدته فراعها وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدته ، فنظرت إلى الكوة تهتماً بأمر الشمس فرأت الهدهد فعلمت أمره ، ثم جمعت أهل مملكتها وعليتهم فخاطبتهم بما يأتي بعد .

(١) في قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَبَّ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهٖ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام ، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأٓ إِنِّيٓ إِلَىٰ كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوٓآ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأٓ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٤٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوٓآ قُوَّةٍ وَأُولُوٓآ بِأَسْسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۗ وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

في هذه المواضع اختصار يدل ظاهر القول عليه ، تقديره : « فألقى الكتاب وقرأته وجمعت له أهل ملكها » ، و « الملائة » : أشرف الناس الذين ينوبون مناب الجميع ، ووصفت الكتاب بالكرم ، إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم ، فعظمته إجلالا لسليمان ، وهذا قول ابن زيد ، وإما أنها إشارات إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، ورؤي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كرم الكتاب ختمه) (١) ، وإما أنها أرادت أنه بدأ ببسم الله تعالى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، ولفظه فيه : (كرامة الكتاب ختمه) ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف .

(كل كلام لم يبدأ باسم الله تعالى فهو أجذم) (١)، ثم أخذت تصف لهم ما في الكتاب ، فيحتمل اللفظ أنه نصُّ الكتاب موجزاً بليغاً ، وكذلك كتب الأنبياء عليهم السلام ، قدم فيه العنوان - وهي عادة الناس على وجه الدهر - ثم سمى الله تعالى ، ثم أمرهم ألاَّ يعلوا عليه طغياناً وكفراً ، وأن يأتيه مسلمين ، ويحتمل أنها قصدت إلى اقتضاب معانيه دون ترتيبه ، فأعلمتهم أنه من سليمان ، وأن معناه كذا وكذا .
 وقرأ أبي : ﴿وَأَنْ بِاسْمِ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء ، وقرأ ابن أبي عبيدة : ﴿أَنَّهُ مِنْ﴾ ﴿وَأَنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة فيهما ، وفي قراءة عبد الله : ﴿وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ بزيادة واو ، و ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ استفتاح شريف بارع المعنى مُعَبَّر عنه بكل لغة ، وفي كل شرع .

و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ يحتمل أن تكون رفعاً على البدل من [كتاب] ، أو نصباً على معنى : بأن لا تعلموا ، أو مفسرة بمنزلة أي ، قال سيبويه : وقرأ وهب بن منبه : ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا﴾ (٢) بالغين

(١) أخرج أبو داود عن أبي هريرة حديثين ، الأول بلفظ : (كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشْهَدُ فِيهِ كَالْيَدِ الْجَذْمَاءُ) ، والثاني بلفظ : (كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم) ، ذكرهما الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز لهما بالصحة .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب : « غَلَا فِي قَوْلِهِ غُلُوًّا ، وَغَلَا السَّعْرُ يَغْلُو غَلَاءً ، فَصَلَا بَيْنَهُمَا فِي الْمَصْدَرِ وَإِنْ اتَّفَقَا فِي الْمَاضِي » وقال : إن الماضي والمضارع واسم الفاعل والمصدر =

منقوطة : قال أبو الفتح : رواها وهب عن ابن عباس رضي الله عنهما ،
وهي قراءة أشهب العقيلي ، ذكرها الثعلبي .

ثم أخذت في حُسن الأدب مع رجالها ، ومشاورتهم في أمرها ،
وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر ، فكيف في هذه النازلة
الكبرى ؟ فراجعها الملاء بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ،
أبي : وذلك مبدول لك ، فقاتلي إن شئت ، ثم سلموا الأمر إلى نظرها ،
وهذه محاوره حسنة من الجميع . وفي قراءة عبد الله : « مَا كُنْتُ
قَاضِيَةً أَمْرًا » بالضاد من القضاء .

وذكر مجاهد في عدد أحشادها أنها كان لها اثنا عشر ألف قبيل ،
تحت يد كل واحد مائة ألف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد ، وذكر غيره نحوه فاختصرته لعدم صحته .

ثم أخبرت بلقيس عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون
عليها ، وفي الكلام خوف على قومها ، وحيطة لهم ، واستعظام لأمر

= تجري مجرى المثل الواحد، فإذا خولف فيها بين المصادر قام ذلك الخلاف مقام ما كان يجب
من اختلاف الأمثلة لاختلاف ما تحتها من المعاني المقصودة ، ومن ذلك قولهم : وجدْتُ الشيء
وجوداً ، ووجدْتُ في الحزن وجداً ، ووجدت في الغنى وجداً ووجدت وجداً .

سليمان عليه السلام ، وقالت فرقة : إن ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ هو من قول بلقيس تأكيداً منها للمعنى الذي أرادته ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو من قول الله تبارك وتعالى معرفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته ، ومخبراً به .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ هُوَ أَلِيمٌ ﴿٤٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴿

رُوي أن بلقيس قالت لقومها : إني أُجرب هذا الرجل بهدية أعطيه فيها نفائس الأموال ، وأُغرب عليه بأُمور المملكة ، فإن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال فعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبياً لم يرضه المال ، ولأزمننا في أمر الدين ، فينبغي أن نُؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر بعضُ الناس في تفصيلها ، فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته . واختبرتُ علمه - فيما رُوي - بأن بعثت إليه قدحاً فقالت له : املاه لي مما ليس من الأرض ولا من السماء ، وبعثت إليه دُرَّةً فيها ثقب مخلوق وقالت : تدخل سلكها

دون أن يقربها إنسٌ ولا جان ، وبعثت إليه أخرى غير مثقوبة وقالت :
يثقب هذه غير الإنس والجن ، فملاً سليمان عليه السلام القدح من
عرق الجبل ، وأدخلت السلك دودة وثقبت الدرّة أرضة ، وراجع
سليمان عليه السلام في ردّ الهدية بما في الآية ، وعبر عن « المرسلين »
بـ [جاء] وبقوله : [أرجع] لما أراد به « الرسول » الذي يقع على
الجمع والإفراد والتأنيث والتذكير . وقرأ ابن مسعود : « فلما جاؤوا
سليمان » ، وقرأ : « أرجعوا » ، ووعد سليمان لهم مقترن بدوامهم
على الكفر ، وذكر مجاهد أيضاً أنها بعثت في هديتها بعدد كثير
من العبيد بين غلمان وجواري ، وجعلت زبيهم واحداً ، وجربته في
التفريق بينهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ليس بتجربة في مثل هذا الأمر الخطر .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [أُتْمِدُونَنِي] بنونين وياءٍ في
الوصل ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، والكسائي : [أُتْمِدُونَن] بغير
ياءٍ في وقف ووصل ، وقرأ حمزة : [أُتْمِدُونِي] بشد النون وإثبات
الياء ، وقرأ عاصم (١) : ﴿ فَمَا آتَانِ اللَّهُ ﴾ بكسر النون دون ياءٍ ، وقرأت

(١) في رواية أبي بكر عنه .

فرقة : [آتَانِي] بياء ساكنة ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع : [آتَانِي] بياء مفتوحة (١) . ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج ، والمعنى : إذا لم يُسلموا ، وقرأ عبد الله : «لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهِمْ» على جمع ضمير الجنود ، و «لَا قَبْلَ» معناه : لا طاقة ولا مقاومة .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٧٨) قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَاءَ تَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٧٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَاءَ تَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٨٠﴾

القائل سليمان عليه السلام ، والملائة المنادى جمعه من الجن والإنس ، واختلف المتأولون في غرضه في استدعاء عرشها - فقال قتادة : ذكر له بعظم وجودة ، فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم ، والإسلام - على هذا - الدين ، وهو قول ابن جريج ،

(١) وكذلك هي قراءة عاصم في رواية حفص عنه .

وقال ابن زيد : استدعاه لِئُرِيَهَا القُدْرَةَ التي هي من عند الله عزَّ وجلَّ ،
 وليُغْرِبَ عليها ، و [مُسْلِمِينَ] - في هذا التَّأْوِيل - هو بمعنى : مُسْتَسْلِمِينَ ،
 وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما (١) ، وذكر صلةً في العبارة ،
 ولا تأثير لاستسلامهم في عرض سليمان عليه السلام ، ويحتمل أن
 يكون بمعنى : الإسلام ، وأما في التَّأْوِيل الأول فيلزم أن يكون بمعنى الإسلام .
 وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء
 هديتها وردَّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور
 المفسرين ، وحكى الطبري أنه قال ذلك في اختباره صدق الهدهد
 من كذبه لما قال له : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فقال سليمان : ﴿ أَيُّكُمْ
 يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ ؟ ثم وقع في ترتيب القصص تقديم وتأخير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأول أصح (٢) .

(١) في الأصول : « وهو قول ابن عبد الله » ، والتصويب عن القرطبي والبحر :
 (٢) استدل الطبري على رأيه بأدلة ، قال : « قالوا : إنما كتب سليمان الكتاب مع الهدهد
 إلى المرأة بعد ما صحَّ عنده صدق الهدهد بمجيء العالم بعرشها إليه على ما وصفه به الهدهد ،
 قالوا : ولولا ذلك كان محالاً أن يكتب معه كتاباً إلى من لا يدري ، هل هو في الدنيا أم لا .
 وقالوا : وأخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتاباً إلى المرأة قبل مجيء عرشها إليه ، وقبل علمه
 صدق الهدهد بذلك ، لم يكن لقوله : ﴿ سَتَنْظُرُونَ أَصْدَقَتْ أُمُّ كَنْتَ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾
 معنى ؛ لأنه لا يُلِيمُ بخره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب ، أو ترك إبلاغه إياها ذلك ، إلا نحو =

وَرُوي أَن عرشها كان من ذهب وفضة مرصعاً بالجوهر والياقوت ،
وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

وقرأ الجمهور : ﴿ قَالَ عَفْرِيْتُ ﴾ ، وقرأ أبو رجاء ، وعيسى الثقفي :
﴿ قَالَ عَفْرِيَّةُ ﴾ (١) ، ورُويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ،
وقرأت فرقة : ﴿ قَالَ عِفْرُ ﴾ بكسر العين (٢) ، وكل ذلك لغات فيه ،
وهو من الشياطين : الماردُ القويُّ ، والتاءُ في (عفريت) زائدة ، وقد
قالوا : « تَعَفَّرَتِ الرَّجُلُ » إذا تخلق بخلق الإذابة ، قال وهب بن منبه :
اسم هذا العفريت (كوري) ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما
أنه صخر الجني ، ومن هذا الاسم قول ذي الرمة :
كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيَّةٍ مُصَوَّبٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٌ (٣)

= الذي علم بغيره الأول حين قال له : ﴿ جِئْتُكَ مِنْ سَبَّأٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ ﴾ ، وإن لم يكن
في الكتاب امتحان صدقه من كذبه ، وكان محالاً أن يقول نبي الله قولاً لا معنى له ، وقد قال :
﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وعلم أن الذي امتحن به صدق الهدهد
من كذبه هو مصير عرش المرأة إليه ، على ما أخبر به الهدهد الشاهد على صدقه ، ثم كان الكتاب
معه بعد ذلك إليها . وابن عطية يردُّ هذا الكلام دون أن يذكر دليلاً ، أو يفند أدلة الطبري .
(١) بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياءً مفتوحة بعدها تاءً التانيث .

(٢) بكسر العين وبدون ياءٍ أو تاءٍ .

(٣) البيت في وصف ثور وحشي ، ورواية الديوان : (مُسَوِّمٌ) بدلا من (مُصَوَّبٌ) ،
ومُنْقَضِبٌ : مُنْقَطِعٌ ، يقال : انقضب الكوكب من مكانه انقطع وانقض فهو مُنْقَضِبٌ ،
يقول : كأن الثور كوكب مُصَوَّبٌ مُنْقَضِبٌ في إثر عفريَّةٍ في سواد الليل ، والبيت في اللسان
بلفظ (مُسَوِّمٌ) أيضاً .

وقوله : ﴿ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، وابن منبه : معناه : قبل أن تستوي من جلوسك قائماً ، و ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ، قال ابن جبير ، وقتادة : معناه : قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه من أبعد ما ترى ، وقال مجاهد : معناه : قبل أن تحتاج إلى التَّغْمِيزِ ، أي : مُدَّة ما يمكنك أن تَمُدَّ بصرك دون تغميض ، وذلك ارتدادُهُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان يقابلان قول من قال : إن القيام هو من مجلس الحكم ، ومن قال : إن القيام هو من الجلوس ، فيقول في ارتداد الطَّرْفِ : هو أن يطرف ، أي : قبل أن تُغْمِضَ عينيك وتفتحهما (١) ، وذلك أن الثاني (٢) يعاطي الأقصر في المدة ولا بُدَّ . وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ معناه : لَقَوِيٌّ على حملِهِ ، أَمِينٌ على ما فيه . ويُروى أن بلقيس لما فصلت من بلدها متوجهة إلى سليمان عليه السلام ، تركت العرش تحت سقف حصين ، فلما علم سليمان بانفصالها

(١) في الأصول : قبل أن (تُصَلِّح) عينيك وتفتحهما ، والمعنى يستقيم بالفعل تُغْمِضُ ، وهو ما نقله البحر عن ابن عطية .

(٢) يريد به الثاني في اللذين تقدما للإتيان بالعرش .

أراد أن يُغرب عليها بأن تجد عرشها عنده لتعلم أن مُلكه لا يُضاهي ،
 فاستدعى سَوْقَه ، فدعا الذي عَلِمَ من التوراة - وهو الكتاب المشار إليه -
 باسم الله الأعظم الذي كانت العادة في كل الزمان ألا يدعو به أحد
 إلا أُجيب ، فشقت الأرض بذلك العرش حتى نبع بين يدي سليمان
 عليه السلام ، وقيل : بل جيء به في الهواء ، قال مجاهد : وكان
 بين سليمان وبين العرش كما بين الكوفة والحيرة ، وحكى الرماني
 أن العرش حُمِلَ من مأرب إلى الشام في قدر رجع البصر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه مسيرة شهرين للمُجِدِّ ، وقول مجاهد أشهر .

وروي أن الجن كانت تخبر سليمان عليه السلام بمناقل سريرها ،
 فلما قربت قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ ؟ واختلف المفسرون في
 الذي عنده عَلِمَ من الكتاب ، من هو ؟ فجمهور الناس على أنه رجل
 صالح من بني إسرائيل اسمه آصِف بن برخيا ، رُوي أنه صلى ركعتين
 ثم قال لسليمان عليه السلام : يا نبي الله امدد بصرك ، فمدَّ بصره
 فإذا بالعرش نحو اليمن ، فما ردَّ سليمان بصره إلا والعرش عنده ،
 وقال قتادة : اسمه مليخا ، وقال إبراهيم النَّخَعِي : هو جبريل عليه
 السلام ، وقال ابن لهيعة : هو الخضر ، وحكى النقاش عن جماعة

أنهم سمعوا أنه ضبة بن أد جد بني ضبة من العرب ، قالوا : وكان رجلاً فاضلاً يخدم سليمان على قطعة من خيله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيفٌ .

وقالت فرقة : بل هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة - في هذا التأويل - للعفريت ، لما قال هو : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ قيل : كأن سليمان عليه السلام استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ، واستدل قائل هذا القول بقول سليمان عليه السلام : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ ، واستدل أيضاً بهذا اللفظ مناقضه ؛ إذ في كلا الأمرين علم سليمان فضل الله تعالى ، وعلى الأقوال الأولى المخاطبة لسليمان عليه السلام (١) ، ولفظ [آتيك] يحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً ، ويحتمل أن يكون اسم فاعل ، وفي الكلام حذف تقديره : فدعا باسم الله تعالى فجاء العرش بقدرة الله تعالى ، فلما رآه سليمان مستقراً عنده جعل يشكر نعمة ربه بعبارة فيها تعليم للناس ، وهي عرضة للاقتداء بها والاقتباس

(١) الرأي الذي ذكره ابن عطية من أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام عارضه أبو حيان في البحر قائلًا : « إنه من أغرب الأقوال » ، وقال القرطبي : « ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى » .

منها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أشكر على السرير وسوقه أم أكفر إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم مني ؟ (١) وظهر العامل في الظرف من قوله : [مُسْتَقِرًّا] ، وهذا هو المقدرُ أبداً في كل ظرف جاء هنا مُظْهِراً ، وليس في كتاب الله تعالى مثله ، وباقى الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرَشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَشُكَ ^ط قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ^ع وَأُوْتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ^ط إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ^ط فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ^ع وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ^ع قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ^ط مِنْ قَوَارِيرَ ^ط قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴿

أراد سليمان في هذا «التنكير» تجربة ميزها ونظرها ، وليزيد في الإغراب عليها ، وروت فرقة أن الجن أحست من سليمان أو ظنت به أنه ربما تزوج بلقيس ، فكروهوا ذلك ، ورموها عنده بأنها غير عاقلة ولا مميزة ، وبأن رجلها كحافر دابة ، فجرّب عقلها وميزها

(١) وقيل : المعنى : أشكر ذلك من فضل الله علي أم أكفر نعمته بترك الشكر له ؟ قاله

بتنكير عرشها ، وجرب أمر رجلها بأمر الصرح لتكشف عن ساقها عنده ، وقرأ أبو حيوة : [نَنْظُرُ] بضم الراء :

وتنكير العرش تغيير وصفه وستر بعضه ونحو هذا ، وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : تنكيره بأن زيد فيه ونقص منه ، وهذا يعترض بأن من حقها - على هذا - أن تقول : ليس به وتكون صادقة ، وقولها : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ تحرز فصيح ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١) ، وقال الحسن بن الفضل : شبهوا عليها فشبهت عليهم ، ولو قالوا : هذا عرشك ؟ لقلت : نعم ، وفي الكلام حذف تقديره : فنكروا عرشها ، ونظروا ما جوابها إذا سُئِلت عنه ، فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ وقال سليمان عليه السلام عند ذلك : ﴿ وَأَوْتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ الآية ، وهذا منه على جهة تعديد نعمة الله تعالى عليه وعلى آبائه .

وقوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون من قول نبي الله سليمان عليه السلام ، ويحتمل أن يكون من قول الله تبارك وتعالى إخباراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و «الصاد» ما كانت تعبد ، أي عن الإيمان ونحوه ، قال الرماني : عن التَّفَطُّن للعرش ؛ لأن المؤمن فطن يقظ والكافر خبيث ، أو يكون الصاد

(١) من الآية (٣٤) من سورة (فُصِّلَتْ) .

سليمان عليه السلام ، قاله الطبري ، أو يكون الصادُّ اللهُ عزَّ وجلَّ ،
ولما كان [صَدَّهَا] بمعنى (مَنَعَهَا) تجاوز - على هذا التأويل - بغير حرف
جرٍّ ، وإلَّا فإنه لا يتعدى إلَّا ب (عَنْ) . وقرأ جمهور الناس : [إِنَّهَا]
بكسر الهمزة ، وقرأ سعيد بن جبير ، وابن أبي عملة : [أَنَّهَا] بفتح
الهمزة ، وعلى تقدير : ذلك أَنَّهَا ، أو على البدل من [مَا] ، قاله محمد
ابن كعب القرظي .

ولما وصلت بلقيس أمرَ سليمان عليه السلام العجنَّ فصنعت له
صرحاً ، وهو السطح في الصحن من غير سقف ، وجعلته متيناً كالصهريج ،
وملئ ماءً ، وبث فيه السمك والضفادع ، وطبق بالزجاج الشفاف ،
وبهذا جاء صرحاً ، والصَّرْحُ أيضاً كل بناءٍ عالٍ ، وكل هذا من
التصريح ، وهو الإعلان البالغ ، وجعل لسليمان في وسطه كرسيٌّ ،
فلما وصلته بلقيس قيل لها : ادخلي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ،
فرأت اللجة وفزعت وظنت أنه قصد بها الغرق ، وعجبت من كون
كرسيه على الماء ، ورأت ما هالها ، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأمر
فكشفت عن ساقها ، فرأى سليمان ساقها سليمتين غير أَنَّها كثيرة
الشعر ، فلما بلغت هذا الحدَّ قال لها سليمان عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ
مُمرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ ﴾ ، والمُمرَّد : المكحول الأملس ، ومنه : الأمرُدُّ ،

والشجرة المَرْدَاءُ : التي لا ورق عليها ، والمُمرَّدُ أيضاً : المَطْوَلُ ،
ومنه قيل للحصن : ماردٌ (١) ، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت
وأسلمت ، وأقرت على نفسها بالظلم ، فيروى أن سليمان عليه السلام
تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام ، قاله الضحاك ، وقال سعيد بن
عبد العزيز في كتاب النقاش : تزوجها وردّها إلى مُلكها باليمن ،
وكان يأتياها على الريح كل شهر مرة ، فولدت له ولداً أسماه داود ،
مات في حياته ، و [مَعَ] ظرف ، وقيل : حرف بُني على الفتح ،
وأما إذا سُكَّنت العين فلا خلاف أنه حرفٌ جاء لمعنى (٢) .

وقرأ ابن كثير وحده - في رواية الإخريط - : ﴿عَنْ سَاقِيهَا﴾
بالهمز ، قال أبو علي : وهي ضعيفة ، وكذلك يضعف الهمز في
قراءة قبيل : ﴿يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ (٣) ، وأما همز [بِالسُّوقِ] (٤) ،

(١) وقال أبو صالح : هو الطويل على هيئة النخلة ، وقال ابن شجرة : مُمرَّدٌ : واسعٌ
في طوله وعرضه ، قال الشاعر :

غَدَوْتُ صَبَاحاً بَاكِرًا فَوَجَدْتُهُمْ قُبَيْلَ الضُّحَى فِي السَّابِرِيِّ الْمُرَدِّ

أي : الدروع الواسعة .

(٢) قال أبو حيان في البحر : «والصحيح أنها ظرف فُتحت العين أو سُكَّنت ، وليس
التسكين مخصوصاً بالشعر كما زعم بعضهم ، بل ذلك لغة لبعض العرب ، والظرفية فيها مجاز ،
ولمّا هو اسمٌ يدل على معنى الصحبة» .

(٣) في الآية (٤٢) من سورة (القلم) ، وهي قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ
وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ .

(٤) من قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة (ص) : ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا
بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ .

حديد قط ، فأمر الجن بالتلطف في زواله فصنعوا النورة (١) ولم تكن قبل في الأمم .

وهذه الأمور التي فعلها سليمان عليه السلام : من سوق العرش ، وعمل الصرح ، وغير ذلك ، قصد بها الإغراب عليها ، كما سلكت هي قبل سبيل ملوك الدنيا في ذلك بأن أرسلت الجواري والغلمان ، واقترحت في أمر القدح والدرتين .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِتَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَیْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذه الآية على جهة التمثيل لقريش ، و [أن] في قوله سبحانه : ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ يحتمل أن تكون مفسرة ، وأن تكون في موضع نصب ، والتقدير : بأن اعبدوا الله ، و [فریقان] يريد به : من آمن

(١) النورة : أخلاط من أملاح الكلسيوم والباريون تستعمل لإزالة الشعر (المعجم الوسيط - عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة) .

بصالح ومن كفر به ، و «اِخْتَصَامُهُمْ» تنازعهم وحدهم ، فذكر الله تبارك وتعالى ذلك في سورة الأعراف .

ثم إن صالحاً عليه السلام تَلَطَّفَ بقومه ، وترفَّقَ بهم في الخطاب ، فوقفهم على خطئهم في استعجالهم العذاب مما يقتضي هلاكهم ، ثم حضهم على ما هو أَسْرُّ من ذلك وأَعُوذُ بالخير ، وهو الإيمان وطلب المغفرة ورجاء الرحمة ، فَأَجَابُوا - عند ذلك - بقول سَفْسَافٍ (١) ، معناه : تَشَاءُ مِنَّا بِكَ ، قال المفسرون : وكانوا في قحط فجعلوه لذات صالح عليه السلام ، وأصل الطَّيْرَةَ ما تعارفه أهل الجهل من زَجْرِ الطَّيْرِ ، وشبَّهت العرب ما عَنَّ بما طار حتى حصل ، سُمِّيَ ما حصل للإنسان في فزعه ونحوه طائراً ، ومنه قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢) ، وخاطبهم صالح ببيان الحق ، أي : طائرکم علی زعمکم وتسمیتکم - وهو حَظُّكُمْ في الحقيقة - من تعذيب أو إعفاء هو عند الله تعالى ، وبقضائه وقدره ، وإنما هو أنهم قوم يختبرون ، وهذا أحد وجوه الفتنة ، وقد يمكن أن يريد : بل أنتم قوم تولعون بشهواتكم ، وهذا معنى قد تعارف الناس استعمال لفظ الفتنة منه ، ومنه قولك : «فُتِنَ فلانٌ بفلان» ، وشاهد ذلك كثير .

(١) السَّفْسَافُ : الرديء من كل شيء ، والأمر الحقير ، وكل عمل دون الإحكام .

(٢) من الآية (١٣) من سورة (الإسراء) .

قوله عز وجل :

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا
تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة رجال كانوا من أوجه القوم
وأقنابهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص جمة ، جملة أمرهم
أنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قال عطاء بن أبي رباح :
بلغني أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا نحو الأثر المروي : (قطع الدنانير والدراهم من الفساد في
الأرض) ، و [الْمَدِينَةُ] : مجتمع ثمود وقريرتهم ، و «الرَّهْطُ» : من
أسماء الجمع القليل ، العشرة فما دونها ، و «تِسْعَةُ رَهْطٍ» كما تقول :
تسعة رجال ، وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار بن سالف عاقر
الناقة ، وقد تقدم في غير هذا الموضع ما ذكر في أسمائهم .

وقوله تعالى : [تَقَاسَمُوا] ، حكى الطبري أنه يجوز أن يكون فعلاً ماضياً في موضع الحال ، كأنه قال : متقاسمين ، أو متحالفين بالله ، وكان قولهم : [لُنُبَيْتِنَهُ] حَلْفٌ ، ويؤيد هذا التأويل أن في قراءة عبد الله : «وَلَا يُضْلِحُونَ ، تَقَاسَمُوا» بسقوط [قَالُوا] ، ويحتمل - وهو تأويل الجمهور - أن يكون [تَقَاسَمُوا] فعل أمر ، أشار بعضهم على بعض بأن يتحالفوا على هذا الفعل بصالح ، ف [تَقَاسَمُوا] هو قولهم على هذا التأويل . وهذه الألفاظ الدالة على قسم أو جواب تجاب باللام وإن لم يتقدم قَسَمَ ظاهر ، فاللام في [لُنُبَيْتِنَهُ] جواب ذلك . وقرأ جمهور القراء : [لُنُبَيْتِنَهُ] ، (ثُمَّ لَنَقُولَنَّ) بالنون فيهما ، وقرأ الحسن ، وحمزة ، والكسائي بالتاء فيهما ، وبِضْمِ التَّاءِ واللام على الخطاب ، أي : تخاطبوا بذلك ، وقرأ مجاهد ، وحميد بن قيس بالياء فيهما على الخبر ، فهذا ذَكَرَ اللهُ فيه المعنى الذي أرادوه لا بحسب لفظهم .

وروي في هذه الآية أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة وقد أخبرهم صالح عليه السلام بمجيء العذاب اتفق هؤلاء التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله المختصين به ، قالوا : فإن كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق ،

وإن كان صادقاً كنا قد أعجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا . قال الراوي :
فجاؤوا واختفوا لذلك في غار قريب من داره ، فروي أنه انحدرت
عليهم صخرة سدحتهم (١) جميعاً ، ورُوي أنها طبقت عليهم الغار
فهلكوا فيه حين هلك قومهم ، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر ،
وكانوا قد بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح الذين يمكن أن يغضبوا له ،
فهذا مكرهم ، والمكر نحو الخديعة ، وسمى الله تبارك وتعالى عقوبتهم باسم
ذنبهم ، وهذا مهيع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (٢) ، وغير ذلك .
وقرأ الجمهور : [مُهَلِّك] بضم الميم وفتح اللام ، وقرأ عاصم في
رواية أبي بكر بفتحهما ، ورُوي عنه بفتح الميم وكسر اللام (٣) .
و «العاقبة» حال تقتضيها البدأة وتؤدي إليها ، ويعني بالأهل
كل من آمن معه ، قاله الحسن ، وقرأ جمهور القراء ﴿ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾
بكسر الألف ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ أَنَا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ ،
وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحاق ، ف [كَانَ] - على قراءة الكسر
في الألف - تامة ، وإن قُدِّرت ناقصة فخبيرها محذوف ، أو يكون الخبر
[كَيْفَ] مقدماً ؛ لأن صدر الكلام لها ، ولا يعمل - على هذا - [أَنْظُرُ]

(١) أي صرعتهم وبطحتهم على وجوههم .

(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .

(٣) وهي رواية حفص عن عاصم ، أما قراءة الجمهور فتحتمل المصدر والزمان والمكان ،
وأما الثانية وهي رواية أبي بكر عن عاصم فالقياس يقتضي الزمان والمكان ، أي : ما شهدنا زمان
هلاكه ولا مكانه ، وأما قراءة حفص عن عاصم فإن القياس يقتضي أن تكون مصدراً ، أي :
ما شهدنا هلاكه .

في [كَيْفَ] ، لكن يعمل في موضع الجملة كلها ، وهي على قراءة فتح الألف ناقصة ، وخبرها [أَنَا] ، ويجوز أن يكون الخبر [كَيْفَ] ، ويكون [أَنَا] بدلاً من «العاقبة» ، ويجوز أن تكون [كَانَ] تامة و [أَنَا] بدلاً من «العاقبة» ، ووقع تقدير السؤال بـ [كَيْفَ] عن جملة قوله : ﴿ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ ﴾ ، وقرأ أبي بن كعب : «أَنْ دَمَرْنَاهُمْ» ، وهذه تؤيد قراءة الفتح في [أَنَا] .

قوله عز وجل :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْسَرُ لَنَا تُونَ الرِّجَالِ شَهْوَةٌ مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطِ مِّنْ قَرْيَتِكَ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

أمر البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالى ، ففي كل الشرائع أنه إنما يعاقب به الظلمة ، وفي التوراة : «ابن آدم ، لا تظلم ، يخرب بيتك» ، و [خَاوِيَةٌ] نصب على الحال التي فيها الفائدة ، ومعناها :

الخالية قفراً^(١) ، قال الزجاج : وقرئت [خَاوِيَةً] بالرفع ، وذلك على الابتداء المضمّر ، والتقدير : هي خاوية ، أو عن الخبر عن [تِلْكَ] و [بُيُوتُهُمْ] بدلٌ ، أو على خبر ثان ، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم عام تبوك : (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ... الحديث)^(٢) .

ثم قال تبارك وتعالى : [وَلَوْطًا] ، تقديره : واذكر لوطاً ، و [أَلْفَاحِشَةً] : إتيان الرجال في الأدبار [تُبْصِرُونَ] معناه : بقلوبكم أنها خطيئة وفاحشة . وقالت فرقة : تبصرون بأبصاركم ؛ لأنكم تتكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضكم من بعض .

واختلف القراء في قوله : [أَتَيْنَكُمْ] ، وقد تقدم ، وقرأ جمهور القراء : [جَوَابَ] نصباً ، وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحق : [جَوَابُ]

(١) هذا رأي الفراء والنحاس ، والمعنى أنها صارت خراباً ليس بها ساكن ، وقال الكسائي وأبو عبيدة : نصبت [خَاوِيَةً] على القطع ، مجازُهُ : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصبت على الحال .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة والمغازي ، ومسلم في الزهد ، وأحمد (٢-٥٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩١ ، ١١٣ ، ١٣٧) ، ولفظه كما في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين أصحاب الحجر إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم) .

بالرفع ، ونسب ابن جني قراءة الرفع إلى الحسن ، وفسرها في الشاذ (١) .
 وأخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم كانوا تركوا في جوابهم طريق
 الحجّة ، وأخذوا بالمغالبة ، فتأمروا بإخراجه وإخراج من آمن معه ،
 ثم ذمّوهم بمدحة وهي التطهر من هذه الدناءة التي هم أصفقوا عليها ،
 قال قتادة : عابوهم والله بغير عيب . وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - :
 [قَدَرْنَاهَا] بتخفيف الدال ، وقرأ جمهور القراء بشد الدال ، والأولى
 بمعنى : جعلناها وحصلناها ، والثانية بمعنى : قدرنا عليها ، من القدر والقضاء .

و « الغابرون » : الباقون في العذاب ، وغبر بمعنى بقي ، وقد
 يجيء أحياناً في بعض كلام العرب ما يوهم أنه بمعنى مضى ، وإذا
 تؤمل توجه حمله على معنى البقاء ، والمطر الذي أمطر عليهم هو حجارة
 السّجين أهلكت جميعهم ، وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء
 الرّجم في اللوطية ، وبها تأنس لأن الله تعالى عذبهم على كفرهم به ،
 وأرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم ، ولم يقس هذا القول على الزنى
 فيعتبر الإحصان ، بل قال مالك وغيره : يرجمان في اللوطية أحصنا

(١) قال ابن جني في المحتسب : « أقوى من هذا [جواباً] بالنصب ، ويجعل اسم [كان] قوله : ﴿ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ﴾ لِشَبَهِهِ [أَنْ] بالمضمر من حيث كانت لا توصف كما لا يوصف . (٢-١٤١) .

أو لم يُحصنا ، وإنما وردَ عن النبي صلى الله عليه وسلم : (اقتلوا الفاعل والمفعول به) (١) ، فذهب من ذهب إلى رجمهما بهذه الآية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ (٥٩)
 أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ
 بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ يَعْزِزْهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ
 جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
 حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ يَعْزِزْهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦١﴾

قرأ أبو السمال : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ بفتح اللام ، وكذلك في آخر السورة (٢) ، وهذه ابتداء تقرير وتثبيت لقريش ، وهو أيضاً يعم كل مكلف من الناس جميعاً ، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتمجيده والسلام على عباده الذين اصطفاهم للنسبة والإيمان ، وهذا اللفظ عام

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ، وكذلك الترمذي وابن ماجه ، والإمام أحمد (١-٢٦٩) ، واللفظ عند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة) .

(٢) في قوله سبحانه في الآية (٩٣) : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ .

لجميعهم من ولد آدم ، وكَانَ هذا صدر خطبة للتقرير المذكور ،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : العبادُ المُسَلَّم عليهم هم أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم ، واصطفاهم لنبيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا الاختصاص توبيخ للمعاصرين من الكفار .

وقال الفراء : الأمر بالقول في هذه الآية هو لِلُّوْطِ عليه السلام ،

قال المفسرون : وهذه عجمة من الفراء .

ثم وقف قريشاً والعربَ - على جهة التوبيخ - على موضع التَّبَائِنِ

بين الله عزَّ وجلَّ وبين الأوثان والأنصاب ، وقرأ جمهور الناس :

[تُشْرِكُونَ] بالتاء من فوق ، وحكى المهدي عن أبي عمرو ، وعاصم :

[يُشْرِكُونَ] بالياء من تحت .

وفي هذا التفضيل بلفظة [خَيْرٍ] أقوال : أحدها أن التفضيل وقع

بحسب معتقد المشركين ؛ إذ كانوا يعتقدون أن في آلهتهم خيراً

بوجه ما ، وقالت فرقة : في الكلام حذف مضاف في الموضعين ،

التقدير : أتوحيد الله خير أم عبادة ما تشركون ؟ ف [ما] في هذا

التأويل بمعنى الذي ، وقالت فرقة : [ما] مصدرية ، وحذف المضاف

إنما هو أولاً ، وتقديره : أتوحيد الله خير أم شرككم ؟ وقيل : [خَيْرٌ] هنا ليست بأفعل ، وإنما هي بفعل ، كما تقول : « الصلاة خيرٌ » دون تفضيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تقدم أن هذه الألفاظ التي تعم معاني كثيرة كخَيْرٍ وشرٍّ وأحب ونحو ذلك قد يقع التفضيل بها بين أشياء متباينة ؛ لأن المتباينات ربما اشتركت فيها ولو بوجه ضعيف بعيد ، وأيضاً فهذا تقرير ، والمجادل يقرر خصمه لتنبهه على خطئه وإلزامه بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر ، وقد استوعبنا هذا فيما مضى . وقالت فرقة : تقدير هذه الآية : الله ذو خير أما تُشركون ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا النوع من الحذف بعيد .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وعاصم : [يُشْرِكُونَ] بالياء من تحت ،
وقرأ أهل المدينة ومكة والكوفة بالتاء من فوق .

وقوله : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وما بعدها من التوقيفات توبيخٌ لهم ،
وتقرير على ما لا مندوحة لهم عن الإقرار به ، وقرأ الجمهور : [أَمَّنْ]

بشد الميم ، وهي (أَمْ) دخلت على (مَنْ) ، وقرأ الأعمش : [أَمَنْ] بفتح الميم مسهلة ، ويحتمل - على هذه القراءة - أن تكون الألف للاستفهام و (مَنْ) ابتداءً ، وتقدير الخبر : يُكْفَرُ بِنِعْمَتِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ ؟ ونحو هذا من المعنى (١) . و «الحدائق» مُجْتَمِعُ الْأَشْجَارِ مِنَ الْعَنْبِ وَالنَّخِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وقال قوم : لا يقال : «حديقة» إلا لما عليه جدار قد أحدق به ، وقال قوم : تقول ذلك إذا كان جدار أو لم يكن لأن البياض محدق بالأشجار ، و «الْبَهْجَةُ» : الْجَمَالُ وَالنُّصْرَةُ ، وقرأ ابن أبي عبلة : «ذَوَاتِ بَهْجَةٍ» . ثم أخبر سبحانه - على جهة التوقيف - أنه ما كان للبشر ، أي : ما يتهيأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم أَنْ يَنْبِتُوا شَجَرَهَا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِإِخْرَاجِ شَيْءٍ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ . وقد تقدم ترتيب القراءة في الهمزتين من قوله : [أَنْنِ] (٢)

(١) وقدر الزمخشري الخبر : «خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ» ؟ ، قال أبو حيان تعليقا على رأي الزمخشري : «قدّر ما أثبت في الاستفهام الأول ، بدأ أولا في الاستفهام باسم الذات ، ثم انتقل فيه إلى الصفات» .

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١٣) من سورة (الأعراف) : ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فقد قرئ بتحقيق الهمزتين ، وبتحقيق الأولى وتليين الثانية ، وبطرح الأولى وتحقيق الثانية .

و ﴿أَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ (١) . وقوله : [أَلِلهُ] (٢) ، قال أبو حاتم :
القراءة باجتماع الهمزتين محدثة لا توجد في كلام العرب ولا قرأ
بها قارئ عتيق . و [يَعْدِلُونَ] يجوز أن يراد به : يعدلون عن طريق
الحق ، أي : يجورون في فعلهم ، ويجوز أن يراد به : يعدلون بالله
غيره ، أي : يجعلون له عديلاً ومثيلاً .

و [خَلَالَهَا] معناه : بينها وأثناءها ، و «الرَّوَّاسِي» : ، الجبال ،
رسا الشيء يرسو إذا ثبت وتأسل ، و «الْبَحْرَانِ» : الماء العذب بجملته ،
والماء الأجاج بجملته ، و «الحَاجِزُ» : ما جعل الله بينهما من حواجز
الأرض وموانعها على رِقَّتْهَا في بعض المواضع ولطافتها التي لولا قدرة
الله تبارك وتعالى لغلب المِلْحُ العذب ، وكلُّ ما مضى من القول في
تأويل قوله تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ الآية (٣) فهو مترتب هنا فتأمله ،
وباقى الآية بين .

(١) من الآية (٩٠) من سورة (يوسف) فإنه يقرأ بهمزتين محققتين ، وبهمزة ومدّة
وياء بعدها ، وبالإخبار من غير استفهام ، وسيأتي مثل ذلك في قوله تعالى في الآية (٦٧) من هذه
السورة : ﴿أَيُّدَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَتِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ . كما أنه مضى أيضاً في قوله تعالى
في الآية (٥٥) من هذه السورة : ﴿أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ .

(٢) في هذه الآية ، وفيها من القراءات ما في مثيلاتها .

(٣) من الآية (٥٣) من سورة (الفرقان) .

قوله عز وجل :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ
 مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ
 الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يَبْدُو
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا
 بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ
 إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾ بَلِ أَدْرَاكَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَخِرَةِ بَلَّ هُمْ فِي
 شَكٍّ مِنْهَا بَلَّ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴿

وقفهم في هذه الآيات على المعاني التي يتبين لكل عاقل أنه
 لا مدخل لصنم ولا لوثن فيها ، فهي عبرة ونعم ، فالحجة قائمة
 بها من الوجهين .

وقوله تعالى : ﴿ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ﴾ معناه : بشرط أن يشاء على
 المعتقد في الإجابة ، لكن المضطر لا يجيبه متى أجيب إلا الله عز وجل ،
 و [السوء] عام في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده ، وقرأ الحسن :
 [ويجعلكم] بياض على صيغة المستقبل ، ورويت عنه بنون . وكل

قَرْنٍ خَلْفَ لِّلَّذِي قَبْلَهُ (١) ، وقرأ الجمهور : [تَذَكَّرُونَ] بالتاء على المخاطبة ،
 وقرأ أبو عمرو وحده (٢) ، والحسن ، والأعمش بالياء على الغيبة .
 و «الظُّلَمَاتُ» عام لظلمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة ،
 ولِظْمِ الجَهِلِ والضَّلَالِ والخوف التي هي مجازات وتشبيهات ،
 وهذا كقول الشاعر :

* تَجَلَّتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ عَنِ الصَّبَا * (٣)

وكما تقول : أَظْلَمَ الأَمْرُ وَأَنَارَ ، وقد تقدم اختلاف القراء في قوله :
 [بُشْرًا] ، وقرأ الحسن وغيره : [يُشْرِكُونَ] بالياء على الغيبة ، وقرأ
 الجمهور : [تُشْرِكُونَ] على المخاطب .

و «بَدَأُ الخَلْقَ» اختراعُه وإيجاده ، و [الخَلْقُ] : هنا المخلوق
 من جميع الأشياء ، لكن المقصود بني آدم من حيث ذكر الإعادة
 والبعث من القبور ، ويحتمل أن يريد ب [أَلْخَلْقِ] مصدر : خَلَقَ

(١) أي : يَهْلِكُ قوماً وَيُنشِئُ آخريْن يَخلفونهم ، وفي كتاب النقاش : أي ويجعل
 أولادكم خَلْفاً منكم ، وقال الكلبي : خَلْفاً من الكفار ينزلون أرضهم ، وقيل : خلفاء
 النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وقيل : الخلافة في الأرض هي المُلْكُ والتسلط .
 (٢) أي : من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها الحسن والأعمش على ما ذكره المؤلف .
 (٣) الموجود في الأصول : (تَجَلَّتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ) فقط ، وأكملنا عن (اللسان -
 عمي) ، قال : «والعَمَائَةُ : الجهالة بالشيء» ، ومنه قوله : * تَجَلَّتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ
 عَنِ الصَّبَا * ، وَعَمَائَةُ الجاهلية : جهالتُها ، والمعنى : ذهبَت جهالات الصبَا وزالت .
 والشاهد أن الظلمات تطلق مجازاً على جهالات الصبَا .

يَخْلُقُ ، وَيَكُونُ [يَبْدَأُ] و [يُعِيدُ] استعارة للإلتقان والإحسان ، كما تقول : فلان يبدئ ويعيد في أمر كذا وكذا ، أي يُتقنه . و «الرِّزْقُ» من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، هذا مشهور ما يحسه البشر ، وكم لله تبارك وتعالى من لطف خفي .

ثم أمر عز وجل نبيه أن يوقفهم على أن الغيب مما انفرد به الله عز وجل ، ولذلك سُمِّيَ غيباً لغيبته عن المخلوقين ، ورُوي أن هذه الآية من قوله : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ﴾ إنما أنزلت لأن الكفار سألوا وألحوا عن وقت القيامة التي يعدهم فنزلت هذه الآية بالتسليم لأمر الله تعالى وترك التحديد ، وأعلم عز وجل أنه لا يعلم وقت الساعة سواه ، فجاء بلفظ يُعمُّ السامع وغيره ، وأخبر عن البشر أنهم لا يشعرون أيا ن يُبعثون ، وبهذه الآية احتجت عائشة رضي الله تعالى عنها على قولها : «وَمَنْ زَعَمَ أَنْ مُحَمَّدًا يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفَرِيَةَ» (١) .

(١) أخرج الطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات — عن مسروق قال : كنت مُتَكَيِّفًا عند عائشة ، فقالت عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : وما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت مُتَكَيِّفًا فجلست ، فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي عليّ ، ألم يقل الله : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن هذا =

والمكتوبة في قوله : ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بدل مِنْ [مَنْ] (١) . وقرأ جمهور الناس : [أَيَّانَ] بفتح الهمزة ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : [إَيَّانَ] بكسرها ، وهما لغتان (٢) .

وقرأ جمهور الناس : ﴿بَلِ أَدَارِكُ﴾ ، أصله : تَدَارِكُ ، أدغمت التاء في الدال بعد أن أبدلت ، ثم احتيج إلى ألف الوصل ، وقرأ

= رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرأتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظيماً خلقه ما بين السماء إلى الأرض ، قالت : أو لم تسمع الله عز وجل يقول : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ، أو لم تسمع الله يقول : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إلى قوله : ﴿عَلِيِّ حَكِيمٍ﴾ ؟ ومن زعم أن محمداً كتّم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله جلّ ذكره يقول : ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ، قالت : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ، (الدر المنثور ، وفتح القدير) .

(١) المكتوبة هي لفظ الجلالة في قوله : ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ ، يقول ابن عطية إنها بدلٌ من [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ ، ومعنى هذا أنه يرى أن الاستثناء مُتَّصِلٌ ، والرفع على البدل أفصح من النصب على الاستثناء ؛ لأنه استثناء من نفى متقدم ، ويصح أن يكون الرفع على الصفة . لكن أبا حيان الأندلسي يرى أنه لا يصح أن يكون ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ مندرجاً في مدلول [مَنْ] فيكون قوله : ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ظرفاً حقيقياً للمخلوقين فيهما ، وظرفاً مجازياً بالنسبة إليه تعالى ، بمعنى أنه فيهما بعلمه ؛ لأن في ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز ، ثم قال أبو حيان : «وأكثر العلماء ينكر ذلك ، وإنكاره هو الصحيح» .

(٢) يقول العلماء : إن الله تعالى لما نفى عنهم علم الغيب على العموم عاد ونفى عنهم هذا الغيب المخصوص وهو وقت الساعة والبعث ، فصار منتظماً مرتين ؛ إذ هو مندرج في عموم الغيب ومنصوص عليه بخصوصه .

أبي بن كعب : [تَدَارَكَ] فيما رُوي عنه (١) ، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - : ﴿بَلِ ادْرَاكَ﴾ على وزن افْتَعَلَ (٢) ، وهي بمعنى تفاعل ، وقرأ سليمان بن يسار (٣) ، وعطاء بن يسار (٤) : ﴿بَلِ ادْرَاكَ﴾ بفتح اللام ولا همز وبتشديد الدال دون ألف (٥) ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وجعفر ، وأهل مكة : ﴿بَلِ ادْرَاكَ﴾ (٦) وفي مصحف أبي

(١) وهي قراءة على الأصل ؛ لأن (ادْرَاكَ) أصلها (تَدَارَكَ) ثم حصل الإبدال والإدغام والاحتياج إلى ألف الوصل .

(٢) قال أبو الفتح عنها : لا سؤال فيها ، مع كسر اللام لسكون اللام وسكون الدال بعدها .

(٣) هو سليمان بن يسار الهلالي ، المدني ، مولى ميمونة ، وقيل : أم سَلَمَةَ ، ثقة فاضل ،

أحد الفقهاء السبعة : من كبار الثالثة ، مات بعد المائة ، وقيل قبلها . (تقريب التهذيب) .

(٤) هو عطاء بن يسار الهلالي ، شقيق سليمان بن يسار ، وهو أيضاً مولى ميمونة ، ثقة

فاضل ، صاحب مواعظ وعبادة ، من الثالثة ، مات سنة أربع وتسعين ، وقيل : بعد ذلك .

(تقريب التهذيب) ، وقد أجمعت كل كتب التفسير على نسبة هذه القراءة إلى سليمان وأخيه ،

إلا أن كتاب المحتسب لابن جني قال في الجزء الثاني صفحة ١٤٢ : (ومن ذلك قراءة سليمان

ابن يسار وعطاء بن السائب) ، وأعتقد أن الصواب : «عطاء بن يسار» ، والله أعلم .

(٥) أكثر كتب التفسير والقراءات على هذا الضبط ، وفيه تشديد الدال ، إلا في المحتسب

لابن جني ، فقد ضبطها المحققون بسكون الدال مع فتح اللام في (بَل) ، قال أبو حيان الأندلسي :

«وذلك بناءً على أن وزنه افْتَعَلَ ، فأدغم الدال - وهي فاء الكلمة - في التاء بعد قلبها دالا ،

فصار قَلْبُ الثاني للأول ؛ لقولهم : ائْتَرَدَ ، وأصله : ائْتَرَدَ من التَّرَدِ ، والهمزة المحذوفة

المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام أدخلت على ألف الوصل فأنحذفت ألف الوصل ،

ثم انحذفت هي وألقيت حركتها على لام (بَل) . وهذا يؤكد أن الدال مشددة لا ساكنة .

(٦) وهي من الإدْرَاكَ ، قاله القرطبي ، وقال في البحر المحيط : ورويت عن أبي بكر

عن عاصم .

ابن كعب : ﴿ أَمْ تَدَارِكُ عِلْمَهُمْ ﴾ (١) ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما :
 ﴿ بَلَى أَدْرَكَ ﴾ (٢) ، وقرأ ابن عباس أيضاً : ﴿ بَلْ آدَارَكَ ﴾ بهمزة
 ومدّة على جهة الاستفهام (٣) ، وقرأ ابن محيصن : ﴿ بَلْ آدْرَكَ ﴾
 على الاستفهام ، ونسبها أبو عمرو الداني إلى ابن عباس والحسن (٤) .
 فأما قراءة الاستفهام فهي على معنى الهُزء بالكفرة ، والتقرير
 لهم على ما هو في غاية البعد عنهم ، أي : أَعْلَمُوا أَمْرَ الآخِرَةِ وَأَدْرَكَهَا

(١) قال الثعلبي : « إن العرب تضع (بَلْ) موضع (أَمْ) و (أَمْ) موضع (بَلْ) إذا كان في أول الكلام استفهاماً ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَوَاللَّهِ لَا أَدْرِي أَسَكَمَى تَمَمَّوَلَّتْ أَمْ الْقَوْلُ أَمْ كُلُّ إِلِيَّ حَبِيبُ ؟
 أي : بَلْ كُلُّ إِلِيَّ حَبِيبُ . ويروى : (تَلَوَلَّتْ) بدلا من (تَمَمَّوَلَّتْ) ، ويروى : (أَمْ
 انْتَرَمُ) بدلا من (أَمْ الْقَوْلُ) .

(٢) قال ذلك في المحتسب ؛ لكنه جعل (بَلَى) بالياء مع الفعل (آدْرَكَ) ممدوداً ،
 ووضحها بقوله : « أَمَّا (بَلَى) فكأنه جوابٌ ، وذلك أنه لما قال : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فكان قائلاً قال : ما الأمر كذلك ، فقبل له :
 (بَلَى) ، ثم استأنف الكلام . »

(٣) قال أبو حيان : « أي بهمزة داخلية على (ادْرَكَ) ، فيسقط همزة الوصل المجتلية
 لأجل الإدغام والنطق بالساكن .

(٤) أصله : (أَدْرَكَ) فقلبت الثانية ألفاً تخفيفاً كراهة الجمع بين همزتين ، وأنكر
 أبو عمرو بن العلاء هذه الرواية ووجهها . قال ذلك في البحر المحيط ، والقراءات المروية
 في هذه الجملة اثنتا عشرة قراءة ، منها اثنتان فقط للقراء السبعة .

هذا وقد أحسن الإمام ابن خالويه حين قال ملخصاً هذه القراءات : « يُتَمَرُّ بِفَتْحِ الْأَلْفِ
 وَسُكُونِ الدَّالِ - وَبِوَصْلِ الْأَلْفِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ وَزِيَادَةِ أَلْفٍ بَيْنَ الدَّالِ وَالرَّاءِ ، فَالْحِجَةُ لِمَنْ
 قَرَأَ بِقَطْعِ الْأَلْفِ أَنَّهُ جَعَلَهُ مَاضِيًّا مِنَ الْأَفْعَالِ الرَّبَاعِيَّةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ،
 وَالْحِجَةُ لِمَنْ وَصَلَ وَشَدَّدَ وَزَادَ أَلْفًا أَنْ الْأَصْلَ عِنْدَهُ (تَدَارِكُ) فَحَصَلَ الْإِبْدَالُ وَالْإِدْغَامُ وَالْإِتْيَانُ
 بِالْأَلْفِ الْوَصْلُ . »

علمهم ؟ وأما القراءة الأولى (١) فتحتمل معنيين : أحدهما : بَلْ
 أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ ، أَي : تناهى ، كما تقول : أدرك النبات وغيره ، وكما
 تقول : هذا ما أدرك علمي من كذا وكذا ، فهذا قد تتابع وتنهَى
 علمهم بالآخرة إلى أن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا ، وإنما لهم ظنون
 كاذبة ، أو ألا يعرفوا لها وقتاً ، وكذلك ادَّارَكَ وتَدَارَكَ وسواها ،
 وإن حملت هذه القراءة معنى التوقيف والاستفهامِ ساغ ، وجاء إنكاراً
 لِأَنَّ أدركوا شيئاً نافعاً ، والمعنى الثاني : بَلْ أَدْرَكَ بمعنى يُدْرِك ، أَي
 أنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة ، ويرَوُّوا العذاب والحقائق
 التي كذبوا بها ، وأما في الدنيا فلا ، وهذا تأويل ابن عباس رضي الله
 عنهما ، ونَحَا إليه الرَّجَاج ، فقوله : ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ - على هذا التأويل -
 ظرف ، وعلى التأويل الأول في معنى الباء ، والعلم قد يتعدى بحرف
 الجرِّ ، تقول : علمي يزيد كذا ، ومنه قول الشاعر :

وَعِلْمِي بِأَسْوَامِ الْمِيَاهِ الْبَيْت (٢)

ثم وصفهم عزَّ وجلَّ بأنهم في شكٍّ منها ، ثم أردفهم بصفة
 أبلغ من الشك وهي العمى بالجملة عن أمر الآخرة ، و [عَمُونَ] أصله
 (عَمِيُونَ) فَعِلُونَ كحَدِرُونَ وغيره .

(١) هي قراءة الخبر لا الاستفهام ، وهي قراءة ﴿ بَلْ ادْرَكَ ﴾ ، وقد عمم الكلام
 على ادَّارَكَ وتَدَارَكَ بعد ذلك .
 (٢) الشاهد فيه أن (عِلْم) تعدت بحرف الجر وهو الباء ، كما تعدت في قولنا : علمي يزيد كذا .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءِآبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَّءِآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ قُل سِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي
ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨١﴾ قُل
عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

استبعد الكفار أن تُبعث الأجساد والرُّمُّ من القبور ، فذكر ذلك
عنهم على جهة الرَّد عليهم ، وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير : [أَيْدَا]
و [أَيْنَا] غير أن أبا عمرو يمدُّ وابن كثير لا يمدُّ (١) ، وقرأ عاصم
وحمزة : [أَيْدَا] و [أَيْنَا] بهمزة فيهما ، وقرأ نافع : [إِذَا] مكسورة
الألف [آيِنَا] ممدودة الألف ، وقرأ الباقون : [آئِدَا] ممدودة [إَيْنَا]
بنونين وكسر الألف .

(١) جَمَعَا بَيْنَ الاستفهامين وَقَلَبَا الثانية ياءً ، لكن أبا عمرو يفصل بينهما بألف .

ثم ذكر الكفار أن هذه المقالة مما وعدوا بها قبل ، وقد ورد ذلك على لسان جميع الأنبياء ، وجزموا أن ذلك من أساطير الأولين ، ثم وعظهم تبارك وتعالى بحال من عذب وبالحدّر أن يُصيبهم ما أصاب أولئك ، وهذا التحذير يقتضيه المعنى . ثم سأل الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام عنهم ، وهذا بحسب ما كان عنده من الحرص عليهم والاهتمام بأمرهم . وقرأ ابن كثير : ﴿ في ضيقٍ ﴾ بكسر الضاد ، ورويت عن نافع ، وقرأ الباقون بفتحها ، والضيقُ والضيقُ مصدران بمعنى واحد ، وكره أبو علي أن يكون (ضيق) كهين ولين مسهلة من ضيق^(١) ، قال : لأن ذلك يقتضي أن تقام الصفة مقام الموصوف^(٢) . ثم ذكر استعجال قريش لأمر الساعة والعذاب .

و [رَدِفَ] معناه : قَرُبَ وَأَزِفَ ، قاله ابن عباس وغيره ، ولكنها عبارة عما يجيء بعد الشيء قريباً منه ، ولكونه بمعنى هذه الأفعال تعدى بحرف وإلا فبابه أن يتجاوز بنفسه^(٣) . وقرأ الجمهور بكسر

(١) لأن (هين) مسهلة من (هين) ، و (لين) مسهلة من (لين) .

(٢) أي بعد حذفه ، وهي ليست من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد ، ولكن الزمخشري أجاز ذلك ، قال : « ويجوز أن يراد في أمر ضيق » .

(٣) الأصل كما جاء في كتب اللغة أن يقال : رَدِفَهُ إذا تبعه أو اقترب منه وجاء في أثره ، ولكن لما ضُمَّنْ معنى أَرِفَ أو اقترب عدِّي بالحرف فجاءت الآية : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ ، وقيل : إن اللام متعلقة بالمصدر ، والمعنى : الرادفة لكم ، وقد عدِّي بـ (من) على سبيل =

الذال ، وقرأ الأعرج : [رَدَفَ] بفتح الذال . وقرأ الجمهور من الناس :
[يُكِنُّ] من أَكَنَّ ، وقرأ ابن محيصن وابن السميع من كَنَّ : [تَكُنُّ] ،
وهما بمعنى واحد .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٧٥) إِنَّ هَذَا
الْقُرْآنَ أَنْ يَقُصَّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّةَ
الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدَىٰ الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا
مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ
دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴿

الهاء في [غَائِبَةٍ] للمبالغة ، أي : ما من شيء في غاية الغيب والخفاء
إلا في كتاب عند الله في مكنون علمه ، ثم نبه تعالى على أن هذا

= التضمين أيضاً ، ذكر ذلك الزمخشري ، وعليه قول الشاعر :
فلما رَدَفْنَا مِن عُمَيْرٍ وَصَحْبِهِ تَوَلَّوْا سِرَاعًا وَالْمَنِيَّةُ تَعْتَقُ
وقال الجوهري : وأردفه أمر لغة في رَدَفَ ، قال خزيمة بن مالك بن نهد :
إذا الْجَوَزَاءُ أَرَدَقَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا
يعني : فاطمة بنت يدكر بن عترة أحد القارظين .

القرآن أخبر بني إسرائيل بأكثر الأشياء التي كان بينهم اختلاف في صفتها ، فجاءت في القرآن على وجهها ، ثم وصفه تعالى بأنه هدى ورحمة للمؤمنين ، كما أنه عمي على الكافرين المحتوم عليهم ، ومعنى ذلك أن كفرهم استتب مع قيام الحجة ووضوح الطريق ، فكثرت عماهم بهذه الحجة ، ثم أخبر أن ذلك كله بقضاء من الله تعالى وحكم قضاه فيهم وبينهم ، ثم أمرهم بالتوكل عليه ، وبالثقة بالله ، وبأنه على الحق ، أي : إنك الجدير بالنصرة والظهور ، ثم سلاه عنهم ، وشبههم بالموتى من حيث الفائدة بالقول لهؤلاء وهؤلاء معدومة ، فشبههم مرة بالموتى ومرة بالصم ، قال العلماء : الميت من الأحياء هو الذي يلقي الله تعالى بكفره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية ، ونظرت هي في الأمر بقياس عقلي ، ووقفت مع هذه الآية ، وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما أنتم بأسمع منهم)^(١) ، فيشبه أن قصة بدر هي خرق عادة

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وأحمد ، ولفظه كما في البخاري عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقتلوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبيث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشدَّ =

للنبي صلى الله عليه وسلم في أَنَّ رَدَّ اللهُ تعالى إليهم إدراكاً سمعوا به مقالة ، ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ على مَنْ بقي من الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المسلمين منهم ، وقد عورضت هذه الآية بالسلام على القبور ، وبما روي في ذلك أَنَّ الأرواح تكون في شفير القبور في أوقات ، قالوا : فلو لم يَسْمَعِ الميتُ لم يُسَلِّمْ عليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله غير معارض للآية ؛ لأنَّ السلام على القبور إنما هو عبادة ، وعند الله الثواب عليها ، وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم ، وإنَّ جَوَزنا مع هذا أَنَّ الأرواح في وقت على القبور ، فإنَّ سَمِعَ فليس الروح بميت ، وإنما المراد بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ الأشخاص الموجودة مفارقة لأرواحها ، وفيها نقول : خرقت العادة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أهل القليب ، وذلك كمنحو قوله

= عليها رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه ، قالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرِّكْبِي ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، أيسرُكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ! ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسُ محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله تويحاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً .

عليه الصلاة والسلام في الموتى إذا دخل عليهم المكان : (إنهم يسمعون خفق النعال) (١) .

وقرأ ابن كثير : ﴿وَلَا يُسْمِعُ﴾ بالياء من تحت [الْصَّمَّ] رفعا ، ومثله في الروم (٢) ، وقرأ الباقون : [تُسْمِعُ] بالتاء [الْصَّمَّ] نصبا ، وقرأ جمهور القراء : ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ﴾ بالإضافة ، وقرأ يحيى بن الحارث ، وأبو حيوه : ﴿بِهَادِي الْعُمِّيِّ﴾ بتنوين الدال ونصب [الْعُمِّيِّ] ، وقرأ حمزة وحده : ﴿وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمِّيِّ﴾ بفعل مستقبل ، وهي قراءة طلحة بن وثاب ، وابن يعمر ، وفي مصحف عبد الله : ﴿وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمِّيِّ﴾ (٣) .

ومعنى قوله : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الآن من الله تعالى في ذلك - أي حتمه الله عليهم - وقضائه (٤) ، وهذا بمنزلة قوله تعالى : ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ (٥) ،

(١) أخرجه البخاري في الجناز ، ومسلم في الجنة ، وأبو داود في الجناز ، والنسائي في الجناز كذلك ، وأحمد (٢-٣٤٧ ، ٤٤٥) ، ولفظه كما في المسند عن أبي هريرة - قال سفيان يرفعه - قال : (إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولتوا مدبرين) .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٥٢) : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّتُوا مُدْبِرِينَ﴾ .

(٣) بزيادة (أن) بعد (ما) .

(٤) (قضاؤه) معطوفة على (وعدت) .

(٥) من الآية (٧١) من سورة (الزمر) .

فمعنى الآية : وإذا أراد الله تعالى أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب أخرج لهم دابة من الأرض ، ورُوي أن ذلك حين ينقطع الخير ، ولا يُؤمر بمعروف ، ولا يُنهى عن منكر ، ولا يبقى مُنيب ولا تائب ، كما أوحى الله تعالى إلى نوح : ﴿ إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ (١) ، و [وَقَعَ] عبارة عن الثبوت واللزوم (٢) ، وفي الحديث : (إن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراف - ولم يُعَيِّنْ الأُولى - وكذلك الدجال) (٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر الأحاديث والروايات أن الشمس آخرها ؛ لأن التوبة تنقطع معها ، ويُعطي الحال أن الإيمان لا يبقى إلا في أفرادٍ ، وعليهم تهب الرياح التي لا تُبقي إيماناً ، وحينئذ ينفذ وينفخ في الصور ، ونحن

(١) من الآية (٣٦) من سورة (هود) .

(٢) وقال قتادة : معناه : وجب الغضب عليهم ، وقال مجاهد : حق القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقال ابن عمر ، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما : إذا لم يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وكل هذا فيه معنى الثبوت واللزوم كما قال ابن عطية رحمه الله .

(٣) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث إذا خرجن لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض) .

نروي أن الدابة تسمُّ قوماً بالإيمان^(١)، ونجد أن عيسى بن مريم عليه السلام يعدل بعد الدجال ، ويؤمنُ الناسُ به ، وهذه الدابة رُوي أنها تخرج من جبل الصفا بمكة ، قاله عبد الله بن عمر ، وقال عبد الله ابن عمرو - رضي الله عنهم أجمعين - نحوه ، وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لعلت ، ورُوي عن قتادة أنها تخرج من تهامة ، ورُوي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنور نوح عليه السلام ، ورُوي بعضهم عن حذيفة بن اليمان أنها تخرج ثلاث خرجات^(٢)، ورُوي أنها دابة مزغبة شعراء ، ورُوي

(١) يريد أنها تضع علامة على الناس ، فهذا تسميه بِسِمَةِ الإيمان ، وهذا تسميه بِسِمَةِ الكفر كما وضع ابن عطية بعد ذلك ، وهو مذكور في بعض الآثار ، ومنها الحديث الذي نرويه في الهامش التالي .

(٢) أخرج الطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : (لها ثلاث خرجات من الدهر : فتخرج خرجة بأقصى اليمن ، فينشر ذكرها بالبادية في أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها في أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية) - يعني مكة - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حُرْمَةٌ وأكرمها المسجد الحرام لم يَسْرِعْهُمْ إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب ، فارْقَصَ الناسُ عنها شتى ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، ثم عرفوا أنهم لن يعجزوا الله . فبدأت بهم فَجَلَّتْ وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرِّي ، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب . حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : الآن تصلي ؟ فيقبل عليها فتسسمه في وجهه ثم تنطلق ، ويشترك الناس في الأموال ، ويصطلحون في الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر ، حتى إن =

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها على خِلْقَةِ الْآدَمِيِّينَ ، وهي في السحاب وقوائمها في الأرض ، ورُوي أنها جمعت من خَلْقِ كُلِّ حَيْوَانٍ ، ورُوي الثعلبي عن ابن الزبير نحوه ، ورُوي أنها دابة مَبْثُوثٌ نوعها في الأرض ، فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم ، فقوله - على هذا التَأْوِيلِ - : [دَابَّةٌ] إنما هو اسم جنس ، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة .

وقرأ جمهور الناس : [تَكَلَّمَهُمْ] من الكلام ، وفي مصحف أبي : «تُنْبِيهِمْ» ، وفسرها عكرمة بـ (تَسْمِيَهُمْ) ، قال قتادة : وفي بعض

المؤمن يقول : يا كافر اقصيني حقِّي ، وحتى إن الكافر ليقول : يا مؤمن اقصني حقي ، (الدر المنثور) ، ولنا على هذا الحديث تعليقان :

(أ) - أن رواية الدر المنثور (عن حذيفة بن أسيد الغفاري) ، أما ابن عطية فذكر حذيفة ابن اليمان ، ونقله القرطبي عن حذيفة فقط دون تعيين لاسم أبيه ، والثابت في تفسير ابن كثير وغيره أنه حذيفة بن أسيد الغفاري ، ولعلَّ الخطأ هنا في ابن عطية من النسخ ، وهو ما نُرجِّحه ؛ لأن الذي رُوي عن حذيفة بن اليمان هو ما رواه ابن جرير عنه أنه قال : (بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون تضطرب الأرض من تحته ، وتخرج الدابة من الصفا ... الخ) وقال عنه ابن كثير « واسناده لا يصح » ، والله أعلم .

(ب) - أن الشواهد في الحديث أمور كثيرة ، منها خروج الدابة ، والسمة التي تسم الناس بها ، وأنها الفصيل الذي تركته ناقه صالح ، حيث جاء فيه النصُّ بقوله : (وهي ترغُو بين الركن والمقام) ، والرغَاءُ هو للإبل ، وفي ذلك تحديد لنوع الدابة .

القراءة : « تُحَدِّثُهُمْ » ، وقرأ أبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير (١) :
« تَكَلِّمُهُمْ » (٢) بكسر اللام من الكَلَمِ وهو الجرح ، قال أبو الفتح :
هي قراءة ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، والجحدري ، وقال
ابن عباس رضي الله عنهما : « كل ذلك والله تفعل تَكَلِّمُهُمْ وَتَكَلِّمُهُمْ » (٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

رُوي في هذا أنها تمر على الناس فَتَسِمُ الكافر في جبهته وتُرَمِّدُ
وتشتمه وربما خَطَمَتَهُ (٤) ، وربما تمسح على وجه المؤمن فتبيضه ، ويعرف
- بعد ذلك - الإيمان والكفر من قِبَلِهَا .

وقرأ الجمهور من القراء : « إِنَّ النَّاسَ » بكسر [إِنَّ] ، وقرأ
حمزة ، والكسائي ، وعاصم بفتح الألف ، وفي قراءة عبد الله :

(١) أبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير بن عبد الله البَجَلِي الكوفي - بضم الزَّاي وسكون
الراء من زُرْعَةَ - قيل : اسمه هرم ، وقيل : عمرو ، وقيل : عبد الله ، وقيل : عبد الرحمن .
وقيل جرير - وهو ثقة ، من الثالثة - تقريب التهذيب (٢-٤٢٤) .

(٢) قال ابن جِنِّي في المحتسب : وهذا شاهد لمن ذهب في قوله : [تَكَلِّمُهُمْ]
إلى أنه بمعنى تجرحهم بأكلها إياهم ، ومعنى هذا أن [تَكَلِّمُهُمْ] من التَكَلِيم الذي هو
تكثير في الكَلَمِ بمعنى الجرح .

(٣) قال ذلك حين سُئِلَ عن القراءتين : [تَكَلِّمُهُمْ] من الكلام ، و [تَكَلِّمُهُمْ]
من الكَلَمِ وهو الجرح .

(٤) يَرْمِدُ الشيء : يجعله في الرماد ، أو يُهْلِكُهُ ، وَخَطَمَتَهُ يَخْطِمُهُ : جعل على
أنفه خطاماً .

«تَكَلَّمْتُمْ بِأَنَّ» ، وهذا تصديق بالفتح ، وعلى هذه القراءة يكون قوله :
 ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ إلى آخر الآية من كلام الدابة ، وروى ذلك عن ابن
 عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله عز وجل .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ
 إِذَا جَاءَهُمْ وَقَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَا دَأْبُكُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾ وَوَقَعَ
 الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا
 فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي
 الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ
 أَتَوْه دَانِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المعنى : واذكر يوم ، وهذا تذكير بيوم القيامة ، و [نَحْشُرُ] :

نَجْمَع ، و ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يريد : من كل قَرْنٍ من الناس متقدم ؛

لأن كل عصر لهم يخزل من كفررة بالله من لدن تفرق بني آدم ، و «الفَوْجُ» :

الجماعة الكبيرة من الناس ، والمعنى : ممن حاله أنه مكذب بآياتنا ،

و [يُوزَعُونَ] معناه : يُكْتَمُونَ في السَّوق ، أي : يُحْبَسُونَ أولهم على آخرهم ،

قاله قتادة وغيره ، ومنه وازع الحبس ، ومنه يقول عبد الشارف بن عبد العزى :

فجاءوا عارضاً برداً وحيناً كمثل السيلِ تركب وازعينا^(١)

ثم أخبر تعالى عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ :

﴿ أَكذَّبْتُمْ بِآيَاتِي ﴾ الآية ، ثم قال : ﴿ أَمَا ذَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

على معنى استيفاء الحجج ، أي : إن كان لكم عمل أو حجة فهاتوها .

وقرأ أبو حيوة : ﴿ أَمَا ذَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بتخفيف الميم (٢) .

ثم أخبر عن وقوع القول عليهم ، أي نفوذ العذاب وحتم القضاء ،

وأنهم لا ينطقون بحجة لأنها ليست لهم ، وهذا في موطن من موطن

القيامة ، وفي فريق من الناس ؛ لأن القرآن يقتضي أنهم يتكلمون

بحجج في غير هذا الموطن .

ثم ذكر تعالى الآية في الليل وكونه وقت سكون ووداعة لجميع

الحيوان ، والمهم في ذلك بنو آدم ، وكون النهار مبصراً ، أي :

ذا إبصار ، وهذا كما تقول : ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ ، ومعنى ذلك :

يُنام فيه ، فكذلك هذا معناه : يُبصر فيه ، فهو لذلك : ذا إبصار ،

(١) العارضُ البردُ : السحاب الذي تصحبه نسائم باردة خفيفة ، والبردُ هو ذو

البرودة ، كما قال : « وَصَلِيَانًا بَرْدًا » ، قال في اللسان : أي : ذو برودة . والشاهد هنا في

قوله : وازعينا ، ومعناها : يكفون ، على معنى يُحبس أولم على آخرهم تضيئاً من حدة

اندفاعهم التي شبهها بالسيل الجارف .

(٢) أدخل أداة الاستفهام على أداة الاستفهام توكيداً ، قاله صاحب البحر المحيط .

ثم تجوز بأن قيل : [مُبْصِرًا] ، فهو على النسب كعيشة راضية (١) ، والآيات في ذلك هي للمؤمنين والكافرين ، هي آية لجميعهم في نفسها ، لكن من حيث الانتفاع بها والنظر النافع إنما هو للمؤمنين فلذلك خُصوا بالذكر .

ثم ذكر تبارك وتعالى يوم النَّفْخِ في الصُّور ، وهو القَرْنُ في قول جمهور الأئمة ، وهو مقتضى الأحاديث ، وقال مجاهد : هو كهيئة البوق ، وقالت فرقة : الصُّور جمع صورة ، كَتَمْرَةٍ وَتَمْرٍ وَجَمْرَةٍ وَجَمْرٍ ، والأول أشهر ، وفي الأحاديث المتداولة أن إسرافيل عليه السلام هو صاحب الصُّور ، وأنه قد جثا على ركبته الواحدة وأقام الأخرى وأمال خده والتقم القرن ينتظر متى يُؤمر ويؤذن له بالنفخ ، وهذه النَّفْخَةُ المذكورة في هذه الآية هي نفخة الفزع ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن المَلَكَ له ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصَّعق ، ونفخة القيام

(١) قال بعض العلماء : « الظاهر أن هذا من باب ما حُذِفَ من أوله ما أُثْبِتَ في مُقَابِلِهِ ، وحُذِفَ من آخره ما أُثْبِتَ في أوله ، فالتقدير : جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتصرفوا فيه ، فالإظلام ينشأ عن السكون ، والإبصار ينشأ عن التصرف في المصالح ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، فالسكون علةٌ لجعل الليل مظلماً ، والتصرف علةٌ لجعل النهار مبصراً » ، وقد ذكروا هذا إجابة عن سؤال يرد هنا وهو : لماذا لم يقع التَّقَابِلُ في جعل النهار بالنَّصِّ على عِلَّتِهِ فيكون التركيب : « والنَّهَارُ لِيُبْصِرُوا فِيهِ » بل جاء بقوله تعالى : [مُبْصِرًا] قيداً في جعل النهار لا علةً للجعل ؟

من القبور (١) . وقالت فرقة : إنما هما نفختان ، كأنهم جعلوا الفرع والصعق في نفخة واحدة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢) ، وقالوا : أُخْرَى لا تقال إلا في الثانية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأول أصح ، وأخرى تقال في الثالثة ، ومنه قول ربعة بن مقروم :

* وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخِرِ ثَالِثٍ * (٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ (٤) ، وأما قول الشاعر :

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشْمٍ وَآخَرَ مِنْ ثُمَامَةٍ (٥)

فهو يحتمل أن يريد ثانياً أو ثالثاً فلا حجة فيه .

(١) روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخ) ، قلت : يا رسول الله ما الصور ؟ (قال : قرْنٌ والله عظيم ، والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض ، فينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفرع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين) . ذكره علي بن معبد ، والطبري ، والثعلبي وغيرهم ، وصححه ابن العربي ، وقد روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما مثله .

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الزمر) .

(٣) ربعة بن مقروم أحد شعراء مضر المعدودين في الجاهلية والإسلام ، أسلم فحسن إسلامه وشهد القادسية وغيرها من الفتوح ، وله ترجمة في الإصابة وفي الخزانة . وشفع الشيء شَفَعًا : ضمَّ مثله إليه ويقال : كان وترأ فشَفَعْتُهُ بآخر ، والشاهد هنا أن أُخْرَى تقال في المرة الثالثة ولا يلزم أن تكون هي الثانية كما يقول بعض اللغويين .

(٤) الآية (٢٠) من سورة (النجم) .

(٥) النَّشْمُ بالتحريك : شجر جبليٌ تُتَخَذُ منه القسيُّ ، وهو من عُشُق العيدان ، واحدته نَشْمَةٌ ، وهو مثل النَّبَع في الصلابة ، والثُمَامُ : شجر ، واحدته ثُمَامَةٌ ، وبها سُمِّي الرجل ثُمَامَةٌ ، وهو نبت ضعيف له خوصٌ أو شبيه بالخوص ، وربما حشي به وسدَّ به خصاص البيوت ، وهو قصير لا يطول . والشاهد وضحه المؤلف .

وقوله تعالى : [فَفَزَعَ] - وهو أمرٌ لم يقع - يُعَدُّ إشعاراً بصحة وقوعه ، وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناءً فيمن قضى الله تعالى من ملائكته وأنبيائه وشهداء عباده ألا ينالهم فزع النَّفْخِ في الصُّور ، وقال أبو هريرة : هي في الشهداء ، وذكر الرُّمَّانِي أَنَّهُ النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الفزع مقاتل : هي في جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت ، وإذا كان الأكبر لا ينالهم فهم حَرِيُونَ أَلَّا ينالهم هذا (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

على أن هذا في وقت تَرْقُبُ وذلك في وقت أَمْن ؛ إذ هو إطباق جهنم على أهلها .

وقرأ جمهور القراء : ﴿وَكُلُّ آتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ على وزن فاعلوه ، وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : [آتَوْهُ] على صيغة الفعل الماضي ، وهي قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة ، وقرأ قتادة : [آتَاهُ] على الإفراد إِتْبَاعاً للفظ [كُلُّ] ، وإلى هذه القراءة أشار الزَّجَّاج ولم يذكرها .

(١) وقيل : هم المؤمنون ؛ لقوله تعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ بَوْمَسِيدِ آمِنُونَ﴾ ، وقال بعض العلماء : لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل ، وقال القرطبي تعليقاً على ذلك : « وخفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعمل عليه لأنه نصٌّ في التعيين وغيره اجتهاد ، والله أعلم » .

و «الدَّاحِرُ» : المتذلل الخاضع ، قال ابن عباس ، وابن زيد : الدَّاحِرُ : الصاغر ، وقرأ الحسن : [دَخِرِينَ] بغير ألف ، وتظاهرت الروايات بأن الاستثناء في هذه الآية إنما أريد به الشهداء ؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهم أهل للفرع لأنهم بشر لكنهم فضّلوا بالأمن في ذلك اليوم .

قوله عز وجل :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَنْ فَنِي أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيْتَهُ فَتَعَرَّفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هذا وصف حال الأشياء يوم القيامة عقب النفخ في الصور ، والرؤية هي بالعين (١) ، وهذه الحال للجبال في أول الأمر تسير وتموج ،

(١) ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين .

وأمر الله تبارك وتعالى بنسفها ونفسها خلال ذلك فتصير كالعهن ،
ثم حتى تصير في آخر الأمر هباءً منثوراً ، و «الجمود» : التّصامُّ
في الجوهر ، قال ابن عباس : [جَامِدَةٌ] : قائمة ، ونظيره قول الشاعر :
بَارِعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحَسَّبُ أَنَّهُمْ وَقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرَّكَابُ تَهْمَلِجُ (١)
و ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدر معرف ، والعامل فيه فعل مضمّر من لفظه ،
وقيل : هو نصبٌ على الإغراء ، بمعنى : انظروا صنِعَ اللَّهُ (٢) ، و «الائْتِقَانُ» :
الإحسان في المعاملات ، وأن تكون حسناً وثيقة القوة ، وقرأ أبو جعفر ،
وأبو عمرو ، وابن عامر : [يَفْعَلُونَ] بالياء ، وقرأ الباكون : [تَفْعَلُونَ]
بالتاء على الخطاب .

(١) البيت للناطقة الجعدي ، وهو في وصف جيش ، والأرعن : المضطرب لكثرة مع
حركته ، وقيل : شبهه بالجلبل الضخم ذي الرعان ، وهي الفضول والتتواتر البارزة بعنف
من الجبل ، والأنف العظيم المتقدم من الجبل يُسَمَّى رعن . والطَّوْدُ : الجبل العظيم ،
وتَحَسَّبَ : من القياس ، والحاجُ : جمع حاجةٍ ، وتَهْمَلِجُ : تمشي الهَمَلِجَةَ ، وهي
سيرٌ سريعٌ حسن ، والشاهد أنك ترى الشيء الضخم العظيم ساكناً وهو يتحرك ، يخيل إليك
أن السفينة الكبيرة في البحر واقفة مع أنها تتحرك ، وكذلك الجيش الضخم بعددِه وسلاحه .
والضمير في «أَنَّهُمْ» للجنود في الجيش .

(٢) القول الأول هو قول الخليل وسيبويه ، وذلك لأن الله تعالى لما قال : ﴿وَهِيَ تَمُرُّ
مَرًّا السَّحَابِ﴾ دلّ على أنه سبحانه قد صنع ذلك صنْعاً ، وعلى هذا الرأي لا يوقف على
[السَّحَابِ] ، وعلى الرأي الثاني وهو النصب على الإغراء يجوز أن تقف على [السَّحَابِ] .
ويجوز الرفع على تقدير : ذلك صنِعَ اللهُ ، ذكر ذلك القرطبي ، وأكد الزمخشري رأي سيبويه
فقال : ﴿صُنِعَ اللهُ﴾ من المصادر المؤكدة ، كقوله : ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ و ﴿صِيغَةَ اللهُ﴾
إلا أن المؤكّد محذوف .

و [أَلْحَسَنَةَ] : الإِيمَان ، وقال الحسن ، وابن عباس ، والنَّخَعِي ،
 وقتادة : هي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ورُوي عن علي بن الحسين أنه قال :
 كنت في بعض خلواتي ، فرفعت صوتي ب (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ، فسمعت
 قائلاً يقول : إنها الكلمة التي قال الله فيها : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ
 خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ، وقوله : ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يحتمل أن يكون للتفضيل ،
 ويكون في قوله : [مِنْهَا] حذف مضاف تقديره : خيرٌ من قدرها أو
 استحقاقها ، بمعنى أن الله تعالى تفضل عليه بفوق ما تستحق حسنته ،
 وقال ابن زيد : يعطى بالواحدة عشرة ، والداعيةُ إلى هذا التقدير
 أن الحسنة لا يُتصور بينها وبين الثواب تفضيل ، ويحتمل أن
 يكون [خَيْرٌ] ليس للتفضيل ، بل اسمٌ للثواب والنعمة ، ويكون
 قوله : [مِنْهَا] لابتداء الغاية ، أي : هذا الجزاء الذي يكون له هو
 من حسنته وبسببها ، هذا قول الحسن ، وابن جريج ، وقال عكرمة :
 ليس شيءٌ خيراً من لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وإنما له الخير منها .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿مِنْ فَزَعٍ
 يَوْمَئِذٍ﴾ بالإضافة ، ثم اختلفوا في فتح الميم وكسرها من [يَوْمَئِذٍ] ،
 فقرأ أكثرهم بفتح الميم على بناء الظرف لما أضيف إلى غير ممكن ،
 وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع بكسر الميم على إعمال الإضافة ؛

وذلك أن الظروف إذا أُضيفت إلى غير ممكن جاز بناؤها وإعمال الإضافة فيها ، ومن ذلك قول الشاعر :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَضْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ (١)

فإنه يُروى : « على حين » بفتح النون ، و « على حين » بكسرها ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ مِنْ فَزَعٍ ﴾ بالتنوين وترك الإضافة ، ولا يجوز - مع هذه القراءة - إلا فتح الميم من [يَوْمئذٍ] .

و [السَّيِّئَةُ] التي في هذه الآية هي الكفر والمعاصي مِمَّنْ حَتَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْمَشِيبَةِ بِدُخُولِ النَّارِ ، و [كُبَّتْ] معناه : تَلَّتْ فِي النَّارِ ، وَجَاءَ هَذَا كَبًّا مِنْ حَيْثُ خَلَقَهَا فِي الدُّنْيَا يَعْطِي ارْتِفَاعَهَا ، وَإِذَا كُبَّتِ الْوُجُوهُ فَسَائِرُ الْبَدَنِ أُدْخِلَ النَّارَ ؛ إِذِ الْوَجْهَ مَوْضِعَ الشَّرَفِ وَالْحَوَاسِّ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ بِمَعْنَى : فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَهَذَا عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ بِمَعْنَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ : إِنَّمَا أُمِرْتُ ، و « الْبَلَدَةُ » الْمَشَارُ إِلَيْهَا مَكَّةُ ، وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ ،

(١) الشاعر هو النابغة الذبياني ، والبيت من قصيدة له قالها يمدح النعمان ويعتذر إليه مما وشتت به بنو قُرَيْبِ بْنِ عَوْفٍ مِنْ تَمِيمٍ ، وَهُوَ فِي الدِّيْوَانِ ، وَابْنُ الشَّجَرِيِّ ، وَابْنُ يَعِيشَ ، وَالْمَنْصَفُ ، وَشَرَحَ شَوَاهِدَ الْمَعْنَى ، وَالْمَجْمَعُ ، وَالْعَيْنِيُّ ، وَ (عَلَى) فِي الْبَيْتِ بِمَعْنَى (فِي) ، وَالْمَعْنَى : كَصَكَّفْتُ دَمْعِي فِي وَقْتِ عِتَابِي لِنَفْسِي فِي حَالَةِ مَشِيبَتِهَا ، وَكَانَ عِتَابُهُ لِنَفْسِهِ عَلَى مَا فَعَلَتْ فِي صَبَاهِ مِنْ طَرْبٍ ، وَالْوَازِعُ : النَّاهِي الزَّاجِرُ ، وَإِسْنَادُ الْوَزْعِ إِلَى الشَّيْبِ مَجَازٌ ، أَمَّا الشَّاهِدُ هُنَا فَقَدْ وَضَحَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ .

وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود : ﴿الَّتِي حَرَّمَهَا﴾ ، وَأَضَافَ - في هذه الآية - التحريم إلى الله تعالى من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه ، وَأَضَافَ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك إلى إبراهيم في قوله : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ) (١) من حيث كان ظاهر ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأُمَّته ، فليس بين الآية والحديث تعارض ، وفي قوله : [حَرَّمَهَا] تعديد للنعمة على قريش في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ معناه : بالملك والعبودية . وقرأ جمهور الناس : ﴿وَأَنْ أَتْلُو﴾ عطفاً على قوله : ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ ،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والمدينة والبيوع والأنبياء والمغازي والأطعمة والدعوات والاعتصام ، ومسلم في الحج ، وأبو داود في المناسك ، والترمذي في المناقب ، والنسائي في الحج ، وابن ماجه في المناسك ، والموطأ في المدينة ، وأحمد في المسند في مواطن كثيرة ، ولنظفه كما في المسند (١-١١٩) عن أبي حسان أن علياً رضي الله عنه كان يأمر بالأمر فيؤتى فيقال : قد فعلنا كذا وكذا ، فيقول : صدق الله ورسوله ، قال : فقال له الأشتر : إن هذا الذي تقوله قد تَفَشَّحَ في الناس (انتشر) ، أَفَشَيْتُ عَهْدَهُ إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قال علي رضي الله عنه : ما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً خاصة دون الناس ، إلا شيء سمعته منه فهو في صحيفة في قراب سيفي ، قال : فلم يزالوا به حتى أخرج الصحيفة ، قال : فإذا فيها : (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل) ، قال : وإذا فيها : (إن إبراهيم حرم مكة ، وإني أحرم المدينة ، حرام ما بين حرمتيها وحماها كله ، لا يختل خكلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها إلا لمنن أشار بها . ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بغيره ، ولا يُحْمَلُ فيها السلاح لقتال) ، قال : وإذا فيها : (المؤمنون تنكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، ألا لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده) .

وقرأ ابن مسعود : ﴿وَأَنْ أتلُ الْقُرْآنَ﴾ (١) بمعنى : وأن قيل لي : اتلُ القرآن ، و «اتلُ» معناه : تابع بقراءتك بين آياته واسرُدْ ، وتلاوة القرآن سبب الاهتداء إلى كل خير .
 وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ معناه : من تكسب الهدى والإيمان ونظر نظراً ينجيه فلنفسه سعيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فنسبة الهدى والضلال إلى البشر من هذه الأمة إنما هي بالتكسب والحرص والحال التي عليها يقع الثواب والعقاب ، والكل أيضاً من الله تعالى بالاختراع .
 وقوله تعالى : ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ توعد بعذاب الدنيا كبدر والفتح ونحوه ، وبعباب الآخرة . وقرأ جمهور القراء : ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء من فوق على مخاطبتهم .

كَمَلْ تفسیر سورة النمل والحمد لله رب العالمين

(١) قال في البحر توضيحاً لها : وهي أمرٌ من (تلا) ، وجاز أن تكون (أن) مصدرية وُصِلَتْ بالأمر ، وجاز أن تكون مفسرة على إضمار : وأمرت أن اتلُ . وقال الفراء في معاني القرآن : «وفي إحدى القراءتين ﴿وَأَنْ اتلُ﴾ بغير واوٍ مجزومة على جهة الأمر ، وقد أسقطت منها الواو للجزم على جهة الأمر » ، ونقل القرطبي عن النحاس قوله : «ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة ، وهي مخالفة لجميع المصاحف» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



تفسير سورة القصص

هذه السورة مكية إلا قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (١) ، نزلت هذه بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قال ابن سلام وغيره ، وقال مقاتل : فيها من المدني : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ (٢) إلى قوله تعالى : ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

(١) الآية (٨٥) من السورة .

(٢) الآية (٥٢) من السورة .

(٣) الآية (٥٥) من السورة . وقد قال الحسن ، وعطاء ، وعكرمة : السورة مكية كلها .

قوله عز وجل :

﴿ طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا
يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما أغنى عن الإعادة ،
فمن قال : « إن هذه الحروف من أسماء الله تبارك وتعالى » قال : إن
الطاء من الطول الذي لله سبحانه ، والسين من السلام ، والميم من
المنعم ، أو من الرحيم ، ونحو هذا . وقوله : [تِلْكَ] يتقدر موضعها
بحسب كل قول من الأقوال في الحروف ، فمن جعل [طَسَمَ] مثلاً
لحروف المعجم جاءت الإشارة بـ [تِلْكَ] إلى حروف المعجم ، ومن
قطعها قال : [تِلْكَ] في مواضع هذه ، وساغ هذا من حيث لم تكن
حاضرة عتيده (١) ، بل هي أقوال تقتضي بعضها شيئاً فشيئاً ، فسائغ
أن يقال في الإشارة إليها : [تِلْكَ] .

(١) العتيد : المهيب والحاضر ، وفي التنزيل الكريم : ﴿ مَا يَنْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي حاضر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأصل أن (تلك) إشارة إلى ما غاب ، و (هذه) إشارة إلى ما حضر ، وقد تتداخل متى كان في الغيبة حصول وثقة به يقوم مقام الحضور ، ومتى كان في الحضور بُعداً ما يقوم مقام الغيبة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١) لما كان موسى لا يرى ربه تعالى ، فهو وعصاه في منزل غيب ، فساغ ذلك . ومن النقيض قول المؤلف لكتاب : «هذا كتاب» ، وما جرى هذا المجرى فنتبعه ، ويشبهه في آيتنا هذه أن تكون [تِلْكَ] بمنزلة : هذه آيات الكتاب المبين ، ويشبهه أن تكون متمكنة من حيث الآيات كلها وقت هذه المخاطبة لم تكن عتيدة . و [نَتَلُو] معناه : نَقُصُّ ونتابع القصص (٢) ، وخصّ المؤمنين في قوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ من حيث أنهم هم المنتفعون بذلك دون غيرهم (٣) .

و ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من عَلُو الطغيان والتغلب . وقوله تعالى : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر وموضع ملكه ، ومتى جاءت الأرض هكذا عامةً فإنما يُراد بها الأرض التي تشبه قصة القول المسوق ؛

(١) الآية (١٧) من سورة (طه) .

(٢) ومفعول [نَتَلُو] هو ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ ، أي : بعض نبي ، ف [مِنْ] للتبعض ، و [بِالْحَقِّ] متعلق بـ [نَتَلُو] ، أي : نَتَلُو مُحَقِّقِينَ ، أو في موضع الحال من [نَبِيٍّ] ، أي : مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ .

(٣) ذلك لأنهم يصدقون بالقرآن ، ويعلمون أنه من عند الله تعالى فينتفعون بذلك ، أما من لم يؤمن فلا يصدق أنه حق ، وبالتالي لا ينتفع به .

لأن الأنبياء التي تعم الأرض كلها قليلة ، والأكثر ما ذكرناه ،
و «الشَّيْعُ» : الفِرْقُ ، وكان هذا القول من فرعون بأن جعل القبط
ملوكاً ، وبني إسرائيل مستخدمين ، وهم كانوا الطائفة المُسْتَضْعَفَة .
و [يُذَبِّحُ] مضعف للمبالغة والعبارة عن تكرار الفعل ، قال قتادة :
كان هذا الفعل من فرعون لأنه قال له كهنته وعلماءه : إن غلاماً لبني
إسرائيل يفسد مُلكك ، وقال السدي : رأى في ذلك رؤياً فأخذ بني
إسرائيل بِذَبْحِ الأَطْفال سنين ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح
عاماً ويستحي عاماً ، فولد هارون عليه السلام في عام الاستحياء ،
وولد موسى عليه السلام في عام الذَّبْح ، وقرأ جمهور القراء : [يُذَبِّحُ]
بضم الياء وكسر الباء على التكثير ، وقرأ أبو حيوه ، وابن محيصن
بفتح الياء والباء وسكون الذال . قال وهب بن منبه : بلغني أن فرعون
ذبح في هذه المحاولة سبعين ألفاً من الأَطْفال ، وقال النقاش : جميع
ما قتل ستة عشر طفلاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

طمع بجهله أن يرُدَّ القدر (١) ، وأين هذا المنزع من قول النبي
صلى الله عليه وسلم لعمر : (إن يَكُنْه فلن تقدر عليه) يعني ابن صياد ،
وباقى الآية بين .

(١) قال الزجاج : العجب أنه من حمقه لم يدُر أن الكاهن إن صدَّقَ فالقتلُ لا ينفع ،
وإن كذب فلا معنى للقتل .

قوله عز وجل :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
الْوَارِثِينَ ﴿٧٠﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٧١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ
فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴿٧٢﴾ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِذْ يَبْعَثُ الْجَنَّةَ مِنَ الْمَرْسَلِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

المعنى : يستضعف فرعونُ ونحن نريد أن نُنعِم ونُعظم المنَّة على
المستضعفين ، و «الأئمة» : ولاة الأمور ، قال قتادة : ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ
الْوَارِثِينَ ﴾ يريد : أرض مصر والشام ، وقرأ الأعمش : [وَلِنُمَكِّنَ]
بلام ، وقرأ الجمهور : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ ﴾ بضم النون وكسر الراء
وفتح الياء ونصب [فِرْعَوْنَ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن مسعود :
[وَيُرِي] بالياء وفتح الراء وسكون الياء على الفعل الماضي وإسناد الفعل
إلى فرعون ومن بعده ، والمعنى : ويقع فرعون وقومه وجنده فيما خافوه
وحذروه من جهة بني إسرائيل وظهورهم . وهامان هو وزير فرعون
وأكبر رجاله ، وذكر لمحلّه من الكفر ولشباهته في قومه ، فله في
هذا الموضع صغار ولعنة لا شرف .

وهذا الوحيُّ إلى أمِّ موسى - قالت فرقة : كان قولاً في منامها ،
وقال قتادة : كان إلهاماً ، وقالت فرقة : كان بِمَلَكٍ تَمَثَّلَ لها ، وأجمع
الكل على أنها لم تكن نبيَّة ، وإنما إرسال المَلَك لها على نحو تكليم
المَلَك للأبرص والأقرع في الحديث المشهور (١) وغير ذلك مما رُوِيَ
من تكليم الملائكة للناس من غير نُبُوَّة .

وجملة أمر أمِّ موسى أنها علمت أن الذي وقع في نفسها هو من
عند الله ووعد منه ؛ يقتضي ذلك قوله تعالى : ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْهٍ
تَقَرَّرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (٢) ، وهذا معنى قوله :
﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : بالوعد . وقال السدي وغيره : أمرت
أن ترضعه عقب الولادة ، وأن تصنع به ما في الآية ؛ لأنَّ الخوف
كان عقب الولادة ، وقال ابن جريج ؛ أمرت برضاعه أربعة أشهر
في بستان ، فإذا خافت أن يصيح لأنَّ لبنها لا يكفيه صنعت به هذا .

(١) الحديث في البخاري ومسلم ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه أن أبا هريرة
سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن ثلاثة في بني إسرائيل ، أبرص وأقرع وأعمى ،
فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحبُّ إليك ؟
فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قدرني الناس ...) إلى آخر الحديث
حيث حثَّ الله لكل واحد ما يريد امتحاناً وابتلاءً ، ولم يوفق إلى فعل الخير منهم إلا الأعمى
فحفظ الله عليه نعمته ، وردَّ كلا من الأبرص والأقرع إلى ما كان عليه .

(٢) الآية (١٣) من هذه السورة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول أظهر ، إِلَّا أَنَّ الْآخِرَ يَعْضِدُهُ أَمْرَانِ : أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ :
﴿فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ﴾ و [إِذَا] ظرف لما يُستقبل من الزمان ، والآخر
لأنه لم يقبل المراضع ، والطفل إثر ولادته لا يفعل ذلك ، اللهم
إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْهُ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَهَا عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ يَا أَبَاهَا
بِخِلَافِ سَائِرِ الْأَطْفَالِ ، وَقَرَأَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ (١) : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾
بكسر النون اعتباطاً لا تخفيفاً ، والتخفيف الفاشي فتح النون ،
قاله ابن جنِّي (٢) ، ونسب المهدي هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه ، و [أَلَيْمٌ] : جمهور الماء ومعظمه ، والمراد نيل مصر .
وروي في قصص هذه الآية أَنَّ أُمَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - واسمها
يوحانة (٣) - أَخَذَتْهُ وَلَفَّتَهُ فِي ثِيَابِهِ ، وَجَعَلَتْ لَهُ تَابُوتًا صَغِيرًا ،
وَشَدَّتْهُ عَلَيْهِ بِقِفْلٍ وَعَلَّقَتْ عَلَيْهِ مِفْتَاحَهُ وَأَسْلَمَتْهُ ثِقَةً بِاللَّهِ وَانْتَظَرًا
لوعده ، فلما غاب عنها عاودها خوفها ، وانشغلت عليه ، وأقنطها

(١) نَسَبَهَا فِي الْقُرْطُبِيِّ إِلَى عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَطَطَ ، وَذَكَرَ صَاحِبُ
الْبَحْرِ أَنَّهَا لِلثَّانِيْنِ : عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

(٢) قَالَ ابْنُ جَنِّي : كَمَا قَرَأَ ابْنُ مَحِيصِنٍ : ﴿فَجَاءَتْهُ أَحَدَاهُمَا﴾ ، وَكَمَا قَالَ اللَّهُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ ، وَلَوْ كَانَ عَلَى التَّخْفِيفِ الْقِيَاسِيُّ لَقَالَ :
﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ، بَفَتْحِ النُّونِ بِحَرَكَةِ الْحَمْزَةِ مِنْ [أَرْضِعِيهِ] .

(٣) وَقِيلَ : اسْمُهَا «لُوحَا بِنْتُ هَانِدِ بْنِ لَأْوِي بْنِ يَعْقُوبَ» ، وَقِيلَ : يُوْحَانِدُ ، وَقِيلَ :

الشیطان ، فاهتمت به وكادت تفتضح ، وجعلت الأخت تقصه ،
أي : تطلب أثره .

قوله عز وجل :

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءِالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ قُصِّيهٖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٣﴾

الالتقاط : اللقاء عن غير قصد ، ومنه قول الشاعر :

ومنهلي وردته التقاطا
لم ألقى إذ وردته فراطا (١)

(١) البيتان من مشطور الرجز ، وقد ذكرهما في (اللسان - لقط) ، ونسبهما لنقادة الأسدي ، قال : « لقيته التقاطاً : إذا لقيته من غير أن ترجوه أو تحسبه ، قال نقادة الأسدي : وذكر البيتين وبعدهما الثالث وهو :

إلا الحمّام الورق والغطاطا

وقال سيبويه : التقاطاً : أي فجأة وهو من المصادر التي وقعت أحوالا ، نحو جاء ركضاً ...
وحكى ابن الأعرابي : لقيته لقاطاً : مؤاجهته ، والبيت الأول مذكور في الصحاح ، =

و ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾ : أَهْلُهُ ، ويروى أَن آسية امرأة فرعون رأت التَّابوت يعوم في اليمِّ فَأَمَرَتْ بِسَوْقِهِ وَفَتَحِهِ ، فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبته ، وقال السدي : إن جواريتها كان لهن فُرْضَةٌ (١) في القصر على النيل ، يدخل الماء فيها إلى القصر حتى ينلنه في المرافق والمنافع ، فبينما هُنَّ يغسلن في تلك الفُرْضَةِ إذ جاء التابوت فحملنه إلى مولاتهن ، وقال ابن إسحق : رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه ، وآسية جالسة معه ، فكان ما تقدم .

وقوله : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ هي لام العاقبة ، لا أن القصد بالالتقاط كان لأن يكون عدوًّا ، وقرأ الجمهور : [وَحَزَنًا] بفتح الحاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [وَحُزْنًا] بضم الحاء وسكون الزاي ، و «الْحَاطِيُّ» : مُتَعَمِّدُ الخَطِّ ، والمُخْطِئُ : الذي لا يتعمده .

واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون : ﴿قُرَّةُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ - فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاط التابوت لما

= والمفائيس ، والكتاب لسبويه بدون نسبة . والمتنهَّلُ : الموردُ : وفُرَّاطُ القَطَا : متقدماتها إلى الوادي والماء ، والغَطَّاطُ بفتح الغين : القَطَا ، وقيل : ضربٌ منه ، والواحدة غَطَّاطَةٌ ، والشاعر يتحدث عن مورد ماءٍ وَرَدَهُ فجأةً دون أن يحتسب ذلك ، ولم يجد عنده فُرَّاطُ القَطَا اللهم الا الحمام الورق وبعض الغطاط .

(٢) الفُرْضَةُ من النهر : مشرب الماء منه ، ومن البحر : محط السفن .

أشعرت فرعون به ؛ إذ سبق إلى وهمه أنه من بني إسرائيل ، وأن ذلك قُصِدَ بِهِ التَّخَلُّصَ مِنَ الذَّبْحِ ، فقال : عَلِيٌّ بِالذَّبَّاحِينَ ، فقالت امرأته ما ذُكِرَ ، فقال فرعون : أَمَا لِي فَلَا ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لو قال : نعم لآمن بموسى ولكان قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ) (١) ، وقال السدي : بَلِ رَبَّتُهُ حَتَّى دَرَجَ ، فرأى فرعون فيه شهامة ، وظنَّه من بني إسرائيل ، وأخذه في يده ، فمدَّ موسى عليه الصلاة والسلام يده وبتف لحيته فرعون ، فَهَمَّ حِينَئِذٍ بِذَبْحِهِ ، وحينئذ خاطبته بهذا ، واختبرته له في الجمرة والياقوتة فاحترق لسانه ، وقوله : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أي بأنه الذي يَفْسُدُ الْمُلْكُ عَلَى يَدَيْهِ ، قاله قتادة وغيره ، وقرأ ابن مسعود : « لا تَقْتُلُوهُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَكَأَنَّكَ » ، قدَّم وأخَّر .

وقوله : [وَأَصْبَحَ] عبارة عن دوام الحال واستقرارها ، وهي كظَلٍّ ، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح : «لقد أصبح مُلْكُ ابنِ أَخِيكَ عَظِيمًا» ، يريد : استقرَّ به حاله عظيمًا ، وقرأ جمهور الناس : [فَارِغًا] من الفراغ ، واختُلفَ في معنى ذلك - فقال ابن عباس رضي الله عنهما : فارغًا من كل شيءٍ إِلَّا من ذِكْرِ موسى عليه السلام ، وقال مالك : هو ذهاب العقل .

(١) في خبر طويل أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن السدي ، وذكره في الدر المنثور أن الذي قال ذلك هو ابن عباس رضي الله عنهما . (راجع تفسير الطبري ٢١-٣٤ - والدر المنثور ٥٠١٨) ، ولم يشر أحدهما إلى أنه رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كقوله تعالى : ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ (١) . وقالت فرقة : فارغاً من الصبر ، وقال ابن زيد : فارغاً من وعد الله تبارك وتعالى ووحيه إليها ، أي : تناسته بالهم وفتّر أثره في نفسها ، وقال لها إبليس : فررت به من قتل لك فيه أجر ، وقتلته بيدك ، وقال أبو عبيدة : فارغاً من الحزن ؛ إذ لم يغرق ، وقرأ فضالة بن عبيد - ويقال : ابن عبيدة (٢) - ، والحسن : [فزعاً] من الفزع - بالفاء والزاي - ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «قرعاً» بالقاف والراء ، من القارعة ، وهي الهم العظيم (٣) ، وقرأ بعض الصحابة رضي الله عنهم : [فرغاً] بالفاء

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة (إبراهيم) : ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ .

(٢) هو في المحتسب ٢-١٤٧ : فضالة بن عبد الله ، وقال محقق المحتسب : « هو فضالة الليثي ، وقيل : هو ابن عبد الله ، وقيل : ابن وهب ... ويعرف بالزهراني » ، وقد اعتمد في ذلك على الإصابة ٣-٢٠٢ . وفي تقريب التهذيب ذكر ابن حجر العسقلاني فضالة الليثي الزهراني هذا ، وذكر قبله فضالة بن عبيد - هكذا بدون التاء - قال : « هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري ، أول ما شهد أحد ، ثم نزل دمشق وولي قضاءها ، ومات سنة ثمان وخمسين ، وقيل قبلها . (تقريب التهذيب ٢-١٠٩) .

هذا وقرأة فضالة هذه هي أيضاً قرأة أبي هذيل ، ويزيد بن قطيب السكوني الشامي .

ذكر ذلك ابن جني .

(٣) قيل : إنها ترجع إلى نفس معنى قرأة الجماعة (فارغاً) : لأن الرأس الخالي من الشعر

يقال له : أقرع لفراغه من الشعر .

المكسورة والراء الساكنة والغين المنقوطة ، ومعناها : ذاهباً هدرأً تالفاً
من الهم والحزن ، ومنه قول طلحة الأسديّ :
فَإِنْ يَكُ قَتَلِي قَدْ أُصِيبَتْ نَفُوسُهُمْ فَلَنْ يَذْهَبُوا فِرْعَاً بِقَتْلِ حِبَالِ (١)
أي : هدرأً تالفاً لا ينفع . وقرأ الخليل بن أحمد : [فِرْعَاً] بضم الفاء
والراء .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي أمر ابنها ، ورؤي أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (كادت أم موسى أن تقول :
وا ابناه ، وتخرج صائحة على وجهها) (٢) . «والربط على القلب» تأنيسه
وتقويته ، ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضائق : رابط الجأش ،

(١) هو طلحة بن خويلد الأسدي ، وقد كثر الاختلاف في رواية البيت ، فرواية ابن
عطية تنفق مع رواية أبي حيان في البحر إلا في كلمة (فِرْعَاً) - وهي موضع الشاهد ، فقد رواها
أبو حيان (فِرْعَاً) بالفاء المكسورة والزاي المنقوطة والغين المنقوطة ، والمعنى واحد ، ورواية
اللسان (فِرْعَاً) تنفق مع ما في المحتسب ، وهي :

فَإِنْ تَكُ أَذْوَادٌ أُصِيبْنَ وَنِسْوَةٌ فَلَنْ تَذْهَبُوا فِرْعَاً بِقَتْلِ حِبَالِ

إلا أن اللسان قال : (أُخِيدْنَ) بدلا من (أُصِيبْنَ) . والأذواد : جمع ذؤود ، وهي من
الإبل من الثلاثة إلى العشرة ، مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها ، وحبال بكسر الحاء هو أخوه ،
وقيل ابنه . والمعنى على جميع الروايات أن الشاعر يتوعد الأعداء ، ويقول : إنهم لن يفلتوا
من العقاب لقتلهم حبال .

(٢) أخرج القرطبي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ،
وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه من طرق ، أخرجوا جميعاً هذا الخبر عن ابن عباس
رضي الله عنهما غير مرفوع . (راجع الدر المنثور) ، وليس في هذا الخبر قوله : (وتخرج
صائحة على وجهها) .

قال قتادة : ربط على قلبها بالإيمان . وقوله تعالى : ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين بوعد الله تبارك وتعالى ، وبما أوحى إليها به . ثم قالت لأخت موسى طمعاً منها وطلباً له : [قُصِيهِ] ، والقصص : طلب الأثر ، فيروى أن أخته خرجت في سلك المدينة تبحث متخفية ، فرأتها عند قوم من حاشية آل فرعون يطلبون له امرأة ترضعه حين لم يقبل المراضع ، و ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أي : ناحية من غير قصد ولا قرب يشعرها به ، ويقال : «عن جنابة» و «عن جناب» ، ومنها قول الشاعر :

لَقَدْ ذَكَرْتَنِي عَنْ جَنَابِ حَمَامَةٍ بِعُسْفَانَ أَهْلِي وَالْفُؤَادُ حَزِينٌ (١)

ومن الجنابة قول الأعشي :

أَتَيْتُ حُرَيْثًا زَائِرًا عَنْ جَنَابَةٍ وَكَانَ حُرَيْثٌ عَنْ عَطَائِي جَامِدًا (٢)

(١) البيت لأعرابي لم يذكر اسمه ، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرها شهاب الدين الحموي في «معجم البلدان» ، وعُسْفَانُ بضم العين منهلة من مناهل الطريق بين مكة والحجفة ، وقيل : هي على مرحلتين من مكة ، وسُمِّيَتْ عُسْفَانُ من : عسفت المفازة وهو يعسفها ، وهو قطعها بلا هداية أو قصد ، وكذلك كل أمر يُركب بغير رواية ، وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم بني لحيان بعُسْفَانَ ، والأبيات الثلاثة هي :

لَقَدْ ذَكَرْتَنِي عَنْ حُبَابِ حَمَامَةٍ بِعُسْفَانَ أَهْلِي وَالْفُؤَادُ حَزِينٌ
فَوَيْحَكَ كَمْ ذَكَرْتَنِي الْيَوْمَ أَرْضَنَا لَعَلَّ حِمَامِي بِالْحِجَازِ يَتَكُونُ
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا اخْضَرَ مِنْ عُودِ الْأَرَاكِ فُنُونُ

هكذا رويت (حُبَاب) بدلا من (جَنَاب) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

(٢) البيت من قصيدة له بمدح هوزة بن علي الحنفي ، ويذم الحارث بن وعلة الرقاشي ، وحُرَيْثُ تصغير الحارث ، صغره تحقيراً له ، وجَنَابَةٌ : بُعد ومن غير قصد ، وهو الشاهد ، وجامد : لا يلين ولا يعطي ، وتروى : جاحداً ، والشاهد قوله : عَنْ جَنَابَةٍ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذه الألفاظ : عن مكان جُنُب ، أو عن بُعْد ، ومعنى الآية :
 عن بُعْد ، لم تَدُنْ منه فيشعر بها ، وأنشد أبو عبيدة لعلقمة :
 فَلَا تَحْرِمَنِي نَائِلًا عَنْ جَنَابَةِ فَإِنِّي امرؤُ وَسَطَ الْقِبَابِ غَرِيبٌ (١)
 وقرأ قتادة : ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ بفتح الجيم وسكون النون ، وهي
 قراءة الحسن ، والأعرج ، وقرأ ﴿عَنْ جَانِبٍ﴾ النعمان بن سالم ،
 وقرأ الجمهور : ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ بضم الجيم والنون . وقوله : ﴿وَهُمْ
 لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه : لا يشعرون أنها أخته ، وهذا من جملة لطائف الله
 تبارك وتعالى له ولائمه حسب الوعد الذي أوحى إليها . ويقال :
 بصرتُ بالشيءِ وأبصرتُ بمعنى واحد متقارب ، قال المهدي : وقيل :
 ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ معناه : عن شوق ، وهي لغة لجذام ، يقولون : جنبت

(١) البيت من قصيدة علقمة الفحل التي قالها في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام
 بعد الواقعة المعروفة باسم «يوم حايمة» ، وقد أسر فيها عدد من بني تميم ، وفيهم شاس
 أخو الشاعر ، فذهب علقمة إلى الحارث مادحاً طالباً لإطلاق سراح أخيه ، وفعلاً نجح في مسعاه ،
 وأطلق الملك سراح أخيه ومن معه من الأسرى .

والنائل : العطاء ، ويريد به هنا إطلاق سراح أخيه ، والجنابة : البعد والغربة ، يقول :
 لا تحرمني وتمنع عني العفو عن الذنب الذي جئتك راجياً مستشفعاً فيه ، فإنني امرؤ غريب
 في هذه الديار .

إلى لقائك ، أي اشتقت إليه ، وقال قتادة : معنى ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أنها تنظر إليه كأنها تريده .

قوله عز وجل :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ يقتضي أن الله تعالى خصه من الامتناع من ثدي النساء بما يشدُّ به عن عرف الأطفال ، وهو تحريم تبغيض ، و «المراضع» جمع مُرْضِع ، واستعمل دون هاء التأنيث لأنه لا يلتبس بالرجال . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من أول أمره ، و [قَبْلُ] مبني ، والضمير في [فَقَالَتْ] لا تخت موسى ،

قال النقاش : اسمها مريم ، و [يَكْفُلُونَهُ] معناه : يُحَسِّنُونَ تربيته وإرضاعه . وعلم القوم أَنَّ مُكَلَّمَتَهُمْ من بني إسرائيل ، وكان ذلك عرف بني إسرائيل ، أَنَّ يكونوا مراضع وخدمة . وقوله : ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ يحتمل أَنَّ الضمير يعود على الطفل ، فقالوا لها : إِنَّكَ قد عرفته فَأخبرينا من هو ؟ فقالت : ما أردت إِلَّا أَنَّهُمْ ناصحون للملك ، فتخلصت منهم بهذا التأويل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أَنَّ يعود الضمير على الطفل ولكن يكون النصح له بسبب الملك وحرصاً على التزلف إليه والقرب منه ، وفي الكلام هنا حذف يقتضيه الظاهر ، وهو أَنَّها حملتهم إلى أم موسى وكلموها في ذلك ، فَدَرَّتْ عليه وَقَبَلَهَا ، وحظيت بذلك ، وأحسن إليها وإلى أهل بيتها ، وَقَرَّتْ عينها ، أَي سُرَّتْ بذلك ، وروي أَنَّ فرعون لعنه الله تعالى قال لها : ما سبب قبول هذا الطفل ؟ قالت له : «إِنِّي طيبة الرائحة طيبة اللبن ، ودمع الفرع بارد ، وعين المهوم حرى سخنة» ، فمن هذا المعنى قيل : قَرَّتْ العين وسخنت (١) ، وقرأ يعقوب : [نُقِرَّ]

(١) ومن ذلك قول أبي تمام :

فَأَمَّا عِيُونَ الْعَاشِقِينَ فَأَسْخِنَتْ وَأَمَّا عِيُونَ الشَّامِتِينَ فَقَرَّتْ

بنون مضمومة وكسر القاف . و «وَعَدُ اللَّهِ» تعالى المشار إليه هو الذي أوحاه إليها أولاً ، إِمَّا بِمَلَكٍ أَوْ تَمَثَّلَهُ ، وإِمَّا بِاللَّهَامِ حسب اختلاف المفسرين في ذلك ، والقول باللإلهام يضعف أن يقال فيه : «وَعَدُ» . وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يريد القبط . و «الْأَشَدُّ» جمع شدة ، من السنين ، فقالت فرقة : بلوغ الحُلْمِ ، وهي مدة خمسة عشر عاماً ، وقالت فرقة : ثمانية عشر عاماً ، وقال السدي : عشرون ، وقالت فرقة : خمسة وعشرون ، وقالت فرقة : ثلاثون ، وقال مجاهد وابن عباس : ثلاثة وثلاثون ، وقالت فرقة عظيمة : ستة وثلاثون ، وقال مجاهد وقتادة : الاستواء : أربعون سنة ، وقال مكي : وقيل هو ستون سنة ، وهذا ضعيف ، والأشدُّ : شِدَّةُ الْبَدَنِ واستحكام أسرهِ وقوته ، [وَأَسْتَوَى] معناه : تكامل عقله وحزمه ، وذلك - عند الجمهور - مع الأربعين ، و «الْحُكْمُ» : الْحِكْمَةُ ، و «الْعِلْمُ» : المعرفةُ بشرع إبراهيم عليه السلام ، وهي مقدمات لنبوته عليه السلام .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ - فقال السدي : كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّق بفرعون ، وكان يركب مواكبه حتى أنه كان يدعى موسى بن فرعون ، قالوا : فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن

مصر يقال لها منف ، ثم علم موسى عليه السلام بركوب فرعون
فركب بعده ولحق بتلك المدينة في وقت القائلة ، وهو حين الغفلة ،
قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال أيضاً : هو بين العشاء والعمة ،
وقال ابن إسحق : بل المدينة مصرُ نفسها ، وكان موسى في هذا الوقت
قد بدت منه مجاهدة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فكان مختفياً بنفسه
مخوفاً منهم ، فدخل متنكراً مغتفلاً للناس ، وقال ابن زيد : بل كان
فرعون قد نابذه وأخرجه من المدينة وغاب عنها سنين ففشا أمره ،
وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره وبعده عهدهم به ، وقيل :
كان يوم عيد . وقوله تعالى : [يَقْتَتِلَانِ] في موضع الحال ، أي :
مُقتتلين . و «شيعته» : بنو إسرائيل ، و «عدوه» : القبط . وذكر
الأخفش سعيد بن مسعدة (١) أنها «فاستعانه» بالعين غير معجمة (٢) ،

(١) هو المعروف بالأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ثم
البري ، أبو الحسن ، نحوي ، عالم باللغة والأدب ، من أهل بلخ ، وسكن البصرة ، وأخذ
العربية عن سيويه ، وصنف كتباً منها : «تفسير معاني القرآن» ، و «شرح أبيات المعاني» ،
وهما مخطوطان ، وزاد في العروض بحر الحَبَب ، وكان الخليل قد جعل البحور خمسة عشر
بحراً فأصبحت بذلك ستة عشر بحراً . (وفيات الأعيان - الفهرست لابن النديم - معجم الأدباء) .
(٢) هي قراءة سيويه ، وابن مقسم ، والزرعفراني ، وهي بالعين المهملة بدلا من الغين ،
وبالنون بدلا من الثاء ، ومعناها : طلب منه أن يُعينه على خصمه ، قال أبو القاسم يوسف
ابن جبارة : الاختيار قراءة ابن مقسم ؛ لأن الإعانة أولى في هذا الباب . (راجع البحر المحيط) .

وهي تصحيف لا قراءة^(١). وذكر الثعلبي أن «الذي من شيعته» هو السامري ، وأن الآخر طباخ فرعون .

وقوله تعالى : [هَذَا] ، [وهذا] حكاية حال قد كانت حاضرة ، ولذلك عبر بـ [هَذَا] عن غائب ماض ، و «الوَكْزُ» : الضرب باليد مجموعاً كعقد ثلاث وسبعين . وقرأ ابن مسعود : [فَلَكَزَهُ] ، والمعنى واحد إلا أن «اللَّكْزُ» في اللّحي ، و «الوَكْزُ» على القلب ، وحكى الثعلبي أن في مصحف ابن مسعود : «فَنَكَزَهُ» ، والمعنى واحد . و «قَضَى عَلَيْهِ» معناه : قَتَلَهُ ، وكان موسى عليه الصلاة والسلام لم يُرد قتل القبطي لكن وافقت وكزته الأجل وكان عنها موته ، فندم موسى عليه السلام ، ورأى أن ذلك من نزع الشيطان في يده ، وأن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكزة كان من الشيطان ومن همزه ، وهو نص على ذلك ، وبهذا الوجه جعله من عمله^(٢) ، وكان فضل قوته عليه السلام بما أفرط في وقت غضبه بأكثر مما يقصد .

(١) قال أبو حيان الأندلسي : «ولست تصحيفاً ؛ فقد نقلها ابن خالويه عن سيبويه ، وابن جبارة عن ابن مقسم والزّعفراني» .

(٢) كأن ابن عطية يردُّ بهذا التحليل على قول من قال : إن الضمير في قوله تبارك وتعالى : [فَقَضَى] يرجع إلى الله ، والمعنى : فقضى الله عليه ، وعلى قول من قال : إنه يعود على المصدر المفهوم من الكلام ، والمعنى : فقضى الوكزُ عليه .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ - إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي آسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

ثم إن ندامة موسى عليه السلام حملته على الخضوع لربه تعالى ، والاستغفار عن ذنبه ، فغفر له خطاه ذلك ، قال قتادة : عرف - والله - المخرج فاستغفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم يزل عليه السلام يُعيد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غُفِرَ له ، حتى أنه في القيامة يقول : (وقتلتُ نفساً ولم أُؤمر بقتله) حسب ما صحَّ في حديث الشفاعة .

ثم قال عليه السلام معاهداً لربه عز وجل : « رَبِّ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألا أكون مُعيناً للمجرمين » ، هذا أحسن ما تُؤوَّل ، وقال الطبري : « إِنَّهُ قَسَمَ ، أَقْسَمَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » ، ويضعفه صورة جواب القسم ؛ فإنه غير متمكن في قوله : « فَلَنْ أَكُونَ » ؛ لأنَّ القسم لا يتلقى بـ (لَنْ) ، والفاء تمنع

أَنْ تُنَزَّلَ (لَنْ) منزلة (لا) أو (ما) فتأمّله ، واحتج الطبري بأن في قراءة عبد الله : «فَلَا تَجْعَلَنِي ظَهِيْرًا» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في [منع] (١) خدمة أهل الجور ومعاونتهم في شيء من أمرهم ، ورأوا أنها تتناول ذلك ، نص عليه عطاء بن أبي رباح .

وقوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ عبارة عن كونه دائم الخوف في كل أوقاته ، كما تقول : أصبح زيد عالماً . و [يترقب] معناه : عليه رقيب من فعله في القتل فهو يتحسس ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فمرّ وهو بحالة الترقب وإذا ذلك الإسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل آخر من القبط ، وكان قتل القبطي قد

(١) هذه الكلمة سقطت من الأصل ، والمعنى بدونها قد يفهم بما يمكن أن يكون ضدّاً للمقصود ، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط ، فقد نقل القرطبي نص كلام عطاء بن أبي رباح وهو : « لا يحل لأحد أن يعين ظالماً ، ولا يكتب له ، ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين » ، وفي الحديث : (ينادي مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة ، حتى من لاق لهم دواة ، أو برى لهم قلماً ، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم) . ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبتت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ، يوم تزل فيه الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحّض فيه الأقدام) ، وفي الحديث : (من مشى مع ظالم فقد أجرم) .

خفي عن الناس واكتتم ، فلما رأى موسى الإسرائيلي استصرخه الإسرائيلي ، بمعنى صاح به مستغيثاً ، ومنه قول الشاعر :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِحُ فَرِيعُ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرَعَ الظَّنَابِيبَ (١)

فلما رأى موسى عليه السلام قتاله لذلك الآخر أعظم ذلك ، وقال له معاتباً ومؤنباً : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وكانت إرادة موسى - مع ذلك - أن ينصر الإسرائيلي ، فلما دنا منهما وجس الإسرائيلي وفرع منه ، وظن أنه ربما ضربه ، وفرع من قوته التي رأى بالأمس ، وشهد أمر القتل .

قوله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١١) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْمُرُونَ بِكَ لِتُكْتَلَبَ بِمَا كُنتَ تَعْمَلُ فَاخْرُجْ إِنِّي أَنَا مِنَ الْمُنْصَحِينَ ﴿١٢﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾

(١) البيت لسلامة بن جندل ، والصَّارِحُ : المستغيث ، وفي المثل : « عبْدٌ صرِيحُه أمةٌ » ، أي : ناصره أذلُّ منه ، والصَّرَاخُ : الإغاثة والنجدة ، وفي التزويل العزيز : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي ﴾ ، والظَّنَابِيبُ جمع ظنوب ، وهو حرف العظم اليابس من السَّاق ، والبيت في (اللسان - ظنَّبَ) ، قال بعد أن ذكر البيت : « عَتَى بِذَلِكَ =

قرأ جمهور الناس : [يَبْطِشَ] بكسر الطاء ، وقرأ الحسن ، وأبو جعفر : [يَبْطُشَ] بضم التاء ، وهما لغتان ، فقال الإسرائيلي لموسى معنى الآية بلسانه وفر منه فشهراً أمر القتل . والجابرة شأنهم قتل الناس بغير حق ؛ فلذلك جعله الإسرائيلي كذلك ونفى عنه الإصلاح . قال الشعبي : من قتل رجلين فهو جبار ، قال الشعبي : ولما اشتهر أن موسى قتل القتل ، وكان قول الإسرائيلي يغلب على النفوس تصديقه على موسى مع ما كان لموسى عليه السلام من المقدمات أنه المشار إليه بفساد المملكة ، فأنفذ فرعون إليه من يطلبه من جنده ويأتي به للقتل ، فخرج على الطريق الأعظم ، وأخذ رجل - يقال : إنه مؤمن آل فرعون ، ويقال : إنه غيره - في بُنَيَات الطريق^(١) قصداً إلى موضع موسى فبلغه وقال له : ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ ﴾ الآية .

و [يَسْعَى] معناه : يُسرع في مشيه ، قاله الزجاج وغيره ، وهو دون الجري ، وقال الزجاج : معناه : يعجل وليس بالشَّد .

= سُرْعَة الإجابة ، وجعل قَرَعَ السَّوْطَ على ساق الحُفِّ في زجر الفرس قرعاً للظنوب . ثم قال : « قَرَعَ الظُّنْبُوبَ أن يقرع الرجل ظنوب راحلته بعصاه إذا أناخها ليركبها ركوب المُسْرَعِ إلى الشيء » . هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت (الجزء الثامن ص ٢٢٨ هامش ١) .

(١) بُنَيَات الطريق : تصغير بنات ، والمراد بها السكك أو الطرق الصغيرة تشعب من الطرق الكبيرة ، وقد سلكها هذا الرجل ليصل بسرعة إلى موسى عليه السلام ، وليخفي أمره حتى لا يعرف أحد أنه يريد إبلاغ موسى بالخبر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه نزعة مالك رحمه الله في سعي الجمعة ، والأول عندي
أظهر في هذه الآية .

و [يَأْتَمُرُونَ] وزنه يَفْتَعِلُونَ ، وَيَفْتَعِلُونَ يأتي كثيراً بمعنى
يَتَفَاعَلُونَ ، ومنه ازدوج بمعنى تزأوج ، وذهب ابن قتيبة إلى أنه
بمعنى : يأمر بعضهم بعضاً ، قال : لو كان ذلك لكان «يتأمرون» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذهب عنه أن يَفْتَعِلَ بمعنى يَتَفَاعَلُ ، وفي القرآن : ﴿وَأْتَمِرُوا
بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ (١) ، وقد قال النمر بن تولب :
أَرَى النَّاسَ قَدْ أَحْدَثُوا شِيْمَةً وفي كُلِّ حَادِثَةٍ يُؤْتَمَرُ (٢)

(١) من الآية (٦) من سورة (الطلاق) .

(٢) استشهد أبو عبيدة بهذا البيت في «مجاز القرآن» ، والنمر بن تولب شاعر مخضرم ،
شاهد تغييراً في القيم الاجتماعية ، ورأى أن الناس قد أحدثوا أموراً جديدة لم يرها من قبل ،
فقد نزعوا إلى الجدل في أمور العقائد كالقضاء والقدر ، وشئون السياسة والحكم كالخلافة ،
وإلى ذلك كله يشير بقوله : (أحدثوا شيمَةً) ، وهي الأخلاق التي لم تعرف من قبل في
حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي حياة الخلفاء الراشدين ، والائتمار هو التشاور والجدل
وعرض الآراء المختلفة ، وكل هذه كانت شواهد على الفرقة والتشيع .

وَأَنشُدِ الطَّبْرِي :

مَا تَأْتَمِرُ فِينَا فَأَمْ رُكَّ فِي يَمِينِكَ أَوْ شَمَالِكَ (١)

ومنه قول ربيعة بن جشم :

أَحَارِ بْنِ كَعْبٍ كَأَنِّي خَمِيرٌ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرُ (٢)

فخرج موسى عليه السلام وأفلت من القوم فلم يجدوه ، وخرج بحكم فزعه إلى الطريق إلى مدين ، وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام ، وكان موسى عليه السلام لا يعرف ذلك الطريق ، ولم يصحب أحداً ،

(١) البيت في الطبري غير منسوب ، يقول : « يا موسى إن أشراف قوم فرعون ورؤساءهم يتآمرون بقتلك ، ويتشاورون ويرتثون فيك ، ومنه قول الشاعر : (ما تأتمر فينا ... البيت) » ، فهو يراه من التآمر وهو التشاور وتبادل الرأي ، والمعنى على ما رآه وسار عليه ابن عطية : إن ما يتشاور فيه أهل الرأي فهو أمر نافذ لا يعترض عليه . وإن كان الطبري قد قال بعد أن ذكر البيت : « يعني : ما ترتثي وتهمُّ به » ، وعلى هذا فهو من الرأي القائم على الاستبداد ، ولا تشاور فيه ، ويمكن أن يفهم المعنى على أن ما تتشاور معنا فيه نحترمه ، وأنت إنسان لك قدرك ووزنك ورأيك ينبع من نفسك فلا يفرضه عليك أحد .

(٢) البيت في (اللسان - أمر) ، وقد نقل عن أبي عبيدة أنه من قول النمر بن توبل - وأن لفظه : (أحار بن عمرو فؤادي خمير) - ثم ذكر أن غير أبي عبيدة ينسبه لامرئ القيس ، وأن روايته : (أحار بن عمرو كأني خمير) ، والبيت في ديوان امرئ القيس ، وهو مطلع قصيدة له يصف فرسه وخروجه للصيد ، ومنها بيته المشهور :

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ خَيْفَانَةَ كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

والخَمِيرُ: الذي خالطه الداءُ أو السكرُ أو الحُبُّ ، وَيَعْدُو : يَعُودُ ويرجع متعباً ، وما =

فركب مجهلتها واثقاً بالله تعالى ومتوكلاً عليه . قال السدي ومقاتل :
 فرُوي أن الله تعالى بعث إليه جبريل عليه السلام - وقيل : ملكاً غيره -
 فسَدَّده إلى الطريق وأعطاه عصاً يقال هي كانت عصاه ، ورُوي أن
 عصاه إنما أخذها لرعية الغنم في مدين ، وهو أصحُّ وأكثر ، وبين
 مدين ومصر ثمانية أيام ، قاله ابن جُبَيْر والناس ، وكان مُلْك مدين
 لغير فرعون ، وحكى الطبري عن ابن جُرَيْج ، أو ابن أبي نُجَيْح -
 شكَّ الطبري^(١) - أنه قال : إن الذي أراد أن يبطش هو الإسرائيليُّ ،
 فنَهَاهُ موسى عن ذلك بعد أن قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، ففزع
 الإسرائيليُّ عند ذلك من موسى عليه السلام وخاطبه بالفصيح ، وكان
 موسى من الندامة والتَّوبَةِ في حين لا يُتَصَوَّر معه أن يريد البطش بهذا
 الفرعوني الآخر ، وروى ابن جريج أن اسم الرجل الساعي من أقصى
 المدينة شمعون ، وقال ابن إسحق : سمعان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتَّثَبُّتُ في هذا ونحوه بعيد .

= يَأْتَمِرُ : ما يُدَبَّرُ من سوءٍ ويتأمر به على غيره ليوقعه فيه ، قال أبو عبيدة : معناه : الرجل
 يعمل الشرَّ بغير رويَّة ولا تثبُّت ولا نظر في العاقبة فيندم عليه ، وقال الجوهري : ما تأمره به
 نفسهُ فيرى أنه رشَدٌ وربما كان هلاكه في ذلك ، والشاهد أن الائتمار بمعنى التأمُر .

(١) قال الطبريُّ بعد ذلك : « وهو في الكتاب ابن أبي نُجَيْح » .

قوله عز وجل :

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا
وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ
تَذُدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾
فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

ولما خرج عليه السلام فاراً بنفسه منفرداً حافياً لا شيء معه
رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وخطوه من زادٍ وغيره فاستند إلى
الله تبارك وتعالى وقال : ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ،
وهذه الأقوال منه تقتضي أنه كان عارفاً بالله تعالى ، عالماً بالحكمة
والعلم الذي آتاه الله تعالى ، و [تَوَجَّهَ] : ردَّ وجهه إليها ، و [تَلْقَاءَ]
معناه : إلى ناحية ، أي إلى الجهة التي يلقي فيها الشيء المذكور ،
و ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معناه : وسطه ، وفي هذا الوقت بعث الله الملك
المُسَدَّدَ حسب ما ذكرناه قَبْلُ ، وقال مجاهد : أراد بـ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾
طريقَ مَدْيَنَ ، وقال الحسن : أراد سبيلَ الهدى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أبرع ، ونظيره قول الصديق رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا الذي يهدي السبيل » الحديث (١) ، فمشى عليه السلام حتى ورد مدين ، أَي : بَلَّغَهَا ، وَوَرُوْدُهُ الْمَاءُ مَعْنَاهُ : بَلُوغُهُ ؛ لِأَنَّهُ دَخَلَ فِيهِ ، وَلَفْظَةُ الْوُرُودِ قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى الدَّخُولِ فِي الشَّيْءِ ، وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى الْإِطْلَالِ عَلَيْهِ وَالْبَلُوغَ إِلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ ، فَوُرُودُ مُوسَى هَذَا الْمَاءُ كَانَ بِالْوَصُولِ إِلَيْهِ ، وَهَذِهِ الْوُجُوهُ فِي اللَّفْظَةِ تَتَنَاوَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (٢) . و [مَدِين] لَا تُصْرَفُ إِذْ هِيَ بَلَدَةٌ مَعْرُوفَةٌ . و « الْأُمَّةُ » : الْجَمْعُ الْكَثِيرُ ، و [يَسْقُونَ] مَعْنَاهُ : مَاشَيْتَهُمْ ، و ﴿ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ مَعْنَاهُ : مِنْ نَاحِيَةِ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي جَاءَ مِنْهَا ، فَوَصَلَ إِلَى الْأَمْرَاتَيْنِ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَى الْأُمَّةِ ، وَهَكَذَا هُمَا مِنْ

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ، وأحمد في مسنده (٣-١٢٢ ، ٢١١ ، ٢٨٧) ، ولفظه كما في المسند عن أنس قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب وأبو بكر رديفه ، وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام ، وكان يمرُّ بالقوم فيقولون : من هذا بين يديك يا أبا بكر ؟ فيقول : هادي يهديني ، فلما دنوا من المدينة بعث إلى القوم الذين أسلموا من الأنصار ، إلى أبي أمامة وأصحابه ، فخرجوا إليهما فقالوا : ادخلوا آمنين مطاعين ، فدخلا ، قال أنس : فما رأيت يوماً قطُّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر المدينة ، وشهدتُ وفاته فما رأيت يوماً قطُّ أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه .

(٢) من الآية (٧١) من سورة (مريم) .

دونهم بالإضافة إليه ، و [تَذُودَانَ] معناه : تَمَنَعَانِ وَتَحَبَّسَانِ ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (أَلَا لِيُذَادَنَّ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي) الحديث (١) ، وشاهد الشعر في ذلك كثير ، وفي بعض المصاحف «أَمْرَاتَيْنِ حَابِسَتَيْنِ تَذُودَانِ» ، واختلف في الذُّود - فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره : تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السُّقَاةِ الأَقْوِيَاءِ ، وقال قتادة : تذودان الناس عن غنمهما ، فلما رأى موسى عليه السلام المرأتين قال : ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ؟ أي : ما أمركما وشأنكما ؟ وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب أو مضطهد أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الأمر ، فكأنه بالجملة في شر ، فأخبرتهما بخبرهما ، وأن أباهما شيخ كبير ، فالمعنى أنه لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمهما ، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأولياء ، وأن عادتهما التائي حتى يُصدر الرعاء - أي الناس - عن الماء ويخلو ، وحينئذ تَرِدَانِ ، وقالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ،

(١) أخرجه مسلم ومالك في الطهارة ، وابن ماجه في الزهد ، ولفظه كما في مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة ، فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال : أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ، فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال : أرأيت لو أن رجلاً له خيل غرٌّ مُحَجَّجَاتٌ بين ظهري خيل دُهْمٍ بِهِمْ ألا يعرف خيله؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنهم يأتون غرّاً مُحَجَّجِينَ من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض ، ألا لِيُذَادَنَّ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي كما يزداد البعير الضال ، أناديهم ألا هلم ، فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، فأقول : سَحَقًا سَحَقًا .

وكان زَحْمٌ (١) الناس يمنعهما ، فلما أن أراد موسى أن يسقي لهما زَحَمَ الناسَ وغلبهم على الماء حتى سقى ، فعن هذا الغلب الذي كان منه وَصَفَتُهُ إِحْدَاهُمَا بِالْقُوَّةِ . وقالت فرقة : بل كانت آبارهم على أفواهاها حجارة كبار ، وكان ورد المرأتين يتبع ما في صهاريج الشرب من الفضلات التي تبقى للسقاة ، وأن موسى عليه السلام عمد إلى بئر كانت مُغَطَّةً والناس يسقون من غيرها ، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة ، قاله ابن زيد . وقال ابن جريج : عشرة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ثلاثون ، وقال الزَّجَّاجُ : أربعون ، فرفعه موسى عليه السلام وسقى للمرأتين ، فعن رفع الصخرة وَصَفَتَهُ بِالْقُوَّةِ ، وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة ؛ إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات .

وقرأ الجمهور : [نَسْقِي] بفتح النون ، وقرأ طلحة : [نُسْقِي] بضمها ، وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر : ﴿حَتَّى يَصُدِّرَ﴾ بفتح الياء وضم الدال ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر ، وقتادة ، وقرأ الباقون : [يُصْدِرَ] بضم الياء وكسر الدال على حذف المفعول ، تقديره : مواشيهم ، وحذف المفعول كثير في القرآن والكلام ، وهي قراءة الأعرج ، وطلحة ، والأعمش ، وابن أبي إسحق ، وعيسى . و [الرَّعَاءُ] جمع راعٍ .

(١) زَحَمُ النَّاسِ : دَفَعُهُمْ ، يقال : زَحَمَهُ زَحْمًا وَزَحْمَةً : دفعه في مضيق .

وتولى موسى عليه السلام إلى ظلِّ سَمرة ، قاله ابن مسعود ، وتعرض لسؤال ما يَطْعَمُهُ بقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، ولم يصرح بسؤال ، هكذا روى سائر المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكان قد بلغ به الجوع ، واخضرَّ لونه من أكل البقل ، وضعف حتى لصق بطنه بظهره ورؤيت خضرة البقل في بطنه ، وإنه لأكرم الخلق يومئذ على الله عزَّ وجلَّ ، ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدمه ، وفي هذا معتبر وحاكم بهوان الدنيا على الله تبارك وتعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَعِجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نُنْفِئُكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكُمْ وَأَنْ تَجْرِيَ الْمَنِيَّ جِجْجًا فَإِنْ أُتْمِمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

في هذا الموضع اختصارٌ يدل عليه الظاهر ، قدره ابن إسحق : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي ،

فحدثناه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه -
وقيل الصغرى - أن تدعوه له ، فجاءت على ما في هذه الآية ، وروي
أن اسم إحداهما (ليا) والأخرى (شرفا) ، وروي أن اسم زوجة
نبي الله موسى عليه السلام (صفورة) ، وقيل : اسمها (صوريا) ،
وقال وهب بن منبه : زوجة الكبرى ، وروي عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه زوجة الصغرى ، ذكره الثعلبي ومكي من طريق أبي ذر
رضي الله عنه (١) ، وقال النقاش : كانتا توأمين وولدت الأولى قبل
الأخرى بنصف نهار .

وقوله : [تَمْشِي] حال من [إِحْدَاهُمَا] ، وقوله : ﴿ عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ ﴾
أي خَفِرَةٌ قد سترت وجهها بكم درعها ، قاله عمر بن الخطاب رضي
الله تعالى عنه ، وقال عمرو بن ميمون : لم تكن سَلْفَعًا (٢) من النساء
خِرَاجَةً وَلَا جَةً .

واختلف الناس في الرجل الداعي لموسى ، من هو ؟ - فقال الجمهور :
هو شعيب عليهما السلام ، وهما ابنتاه ، وقال الحسن : هو ابن أخي

(١) نص الحديث كما ذكره في القرطبي : عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل : خيرهما وأوفاهما ، وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل : الصغرى ، وهي التي جاءت خلفه ، وهي التي قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .
(٢) أي : لم تكن جريئة على الرجال .

شعيب واسمه ثروان ، وقال ابن أبي عبيدة : يثرون ، وقيل : هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب ، وقيل : إن المرأتين إنما كان مرسلهما عمهما ، وهو كان صاحب الغنم ، وهو المزوج ، لكن عبر عن العم بالأب في جميع الأمر إذ هو بمثابة ، وروي أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة أجاب ، فقام يتبعها إلى أبيها ، فهبت ريح ضمت قميصها إلى بدنها فوصفت عجيزتها ، فتخرج موسى عليه السلام من النظر إليها ، فقال لها : ارجعي خلفي وأرشدني الطريق ، ففهمت عنه ذلك فوصفته بالأمانة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما . فوصل موسى عليه السلام إلى داعيه ، فقص عليه أمره من أوله إلى آخره ، فأتته بقوله : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون ، فلما فرغ كلامهما قالت الابنة التي ذهبت عنه : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ الآية ، فلما وصفته بالقوة والأمانة قال لها أبوها : ومن أين عرفت هذا منه ؟ فقالت : أما قوته ففي رفع الصخرة ، وأما أمانته ففي تخرجه عن النظر إلي وقت هبوب الرياح ، قاله ابن عباس ، وقاله ابن زيد وغيرهم .

قال له الأب عند ذلك : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ الآية ،

قال ابن عباس : فزوجه التي دعته ، و «تأجر» معناه : تشيب ، وقال

مكي : في هذه الآية خصائص في النكاح ، منها أنه لم يُعَيَّن الزوجة ، ولا حدَّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم يَنْقُدْ شيئاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة ، وإنما عرض الأمر مجملاً ، وعيّن بعد ذلك ، وأما ذِكْرُ أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه ، بل هو مسكوت عنه ؛ فإما رسماه وإلا فهو من وقت العقد ، وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد قرّره شرعنا ، وجرى به في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن (١) ، وذهب بعض العلماء إلى أن ذلك خاصٌّ ، وبعضهم إلى أنه منسوخ ، ولم يجوّز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة ، وجوّزها ابن حبيب وغيره ، إذا كانت الأجرة تصل إلى الزوجة . (٢)

(١) في هذا الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي رغب في تزوج هذه المرأة : (ما تحفظ من القرآن) ؟ فقال : سورة البقرة والتي تليها ، قال : (فعَلَّمَهَا عشرين آية وهي امرأتك) ، والعلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : المنع ، وهو قول ابن القاسم ، والكراهة ، وهو قول مالك ، والجواز ، وهو قول ابن حبيب والشافعي وأصحابه ، وأما أبو حنيفة فقال : لا يصح ، ولكنه جوّز أن يتزوجها بأن يُخدمَهَا عَبْدَهُ سنة ، أو يُسكنَهَا داره سنة ؛ لأن العبد والدار مالٌ ، أما خدمتها بنفسه فليست مالا ، والله أعلم بالصواب .

(٢) نقل الطبري كلام ابن عطية هنا في الردّ الذي أجاب به عن تساؤلات مكي دون أن ينسبه إليه ، واكتفى بأن قال : قال علماؤنا - ولكن ابن عطية لم يوضح الحديث عن النقطة الرابعة ، وهي أن موسى دخل ولم يَنْقُدْ شيئاً من المهر ، وخلاصة ما ذكره القرطبي أن بعض العلماء يقولون : إنه دخل بزوجه حين سافر ، ولم يدخل بها حين عقّد العقد ، وعلى القول بأنه دخل بها حين تم العقد فقد نقد الشروع في الخدمة وهي رعي الغنم .

قيل : ومن لفظ شعيب عليه السلام حسن في لفظ العقود في النكاح :
« أَنْكَحَهَا إِيَّاهَا » أكثر من « أَنْكَحَهَا إِيَّاهُ » ، وهذا مُعْتَرَض . وجعل شعيب
عليه السلام الثمانية الأعوام شرطاً ووكل العامين إلى المروءة .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيْبْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكَابِلٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ
نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ
النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يُمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَن أَتِيَ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ
مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ بِدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ؕ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ *

لما فرغ كلام شعيب كرهه موسى عليهما السلام ، وكرره على
جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثماني حجج . و [أيما] استفهام

نصب بـ [قَضَيْتُ] ، و [مَا] صلة للتأكيد . وقرأ الجمهور : ﴿فَلَا
عُدْوَانَ﴾ بضم العين ، وقرأ أبو حيوة : ﴿فَلَا عِدْوَانَ﴾ بكسر العين ،
والمعنى : لا تبعه عليّ من قولٍ ولا فعلٍ ، و «الوكيلُ» : الشاهد القائم
بالأُمور . قال ابن زيد : ولما كمل هذا النكاح بينهما أمر شعيب
موسى عليهما السلام أن يسير إلى بيت له فيه عصيٌّ ، وفيه هذه العصا ،
فروى أن العصا وثبت إلى موسى فأخذها ، وكانت عصا آدم عليه
السلام ، وكانت من غير ورقة الريحان ، فروى أن شعيباً أمره بردها
ففعل وذهب يأخذ غيرها فوثبت إليه ، وفعل ذلك ثالثة ، فلما رأى
شعيب ذلك علم أنه مرشح للنبوة فتركها له ، وقيل : إنما تركها
لأنه أمر موسى بتركها فأبى موسى عليه السلام ذلك ، فقال له شعيب :
نمُدَّ إليها جميعاً فمن طاوعت له فهي له ، فمدَّ إليها شعيب فثقلت ،
ومدَّ موسى فخفَّت ووثبت إليه ، فعلمنا أن هذا من الترشيح ، وقال
عكرمة : إن عصا موسى إنما رفعها إليه جبريل عليه السلام ليلاً عند
توجهه إلى مدين .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ ، قال سعيد
ابن جبير : سألتني رجل من النصارى : أي الأجلين قضى موسى ؟
فقلت : لا أدري حتى أقدم على خير العرب ، أعني ابن عباس - رضي

الله عنهما - ، فقدمتُ عليه فسألتُه ، فقال : قضى أكملهما وأوفاهما ،
 إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال وفّى ، فعدت فأعلمتُ
 النصراني ، فقال : صدق والله هذا العالمُ ، وروي عن ابن عباس
 أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل عليه السلام ، فأخبره
 أنه قضى عشر سنين ، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشرًا
 وعشرًا بعدها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وفي قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما قضى الأجل أراد
 أن يسير بأهله إلى مصر وقومه ، وقد كان لا محالة أحسن بالترشيح
 للنبوة ، وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرفاق ، فكان في بعض طريقه
 ليلة مظلمة ، قال النقاش : كانت ليلة جمعة ، ففقدوا النار ،
 وأصلد الزناد (١) ، وضلُّوا الطريق ، واشتد عليهم الخصر (٢) ، فبينما
 هو كذلك إذ رأى ناراً ، وكان ذلك نوراً من نور الله تعالى قد التبس
 بشجرة ، قال وهب : كانت عليقاً ، وقال قتادة : كانت عوسجاً ،

(١) أصلد الزناد : صوت ولم يُور .

(٢) الخصر : شدة البرد ، أو ألم البرد في الأطراف .

وقيل : زعروراً ، وقيل : سُمرة ، قاله ابن مسعود . و [آنسَ] معناه :
أَحسَّ ، والإحساس ها هنا بالبصر ، ومن هذه اللفظة قوله تعالى :
﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ (١) ، ومنها قول حسان :

انظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جِلْقِ هَلْ تُوْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ (٢)
وكان هذا الأمر كله في جانب الطور ، وهو جبل معروف بالشام ،
والطُّور : كلُّ جبل ، وخصَّصه قوم بأنّه الذي لا ينبت ، فلما رأى
موسى النار سُرَّ ، فقال لأهله : أقيموا فقد رأيت ناراً ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ
مِنْهَا بِخَبْرٍ ﴾ عن الطريق ، أين هو ، ﴿ أَوْ جَذْوَةً ﴾ أي : قطعة من
النار في قطعة عودٍ كبيرة لا لهب لها ، إنما هي جمرة ، ومن ذلك
قول الشاعر :

باتت حواطبٌ ليلى يلتَمِسْنَ لها جزلَ الجِذا غيرَ خوارٍ ولا دَعِرٍ (٣)

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء) .

(٢) جَلَّقَ : دمشق ، وهي بفتح اللام المشددة أو بكسرهما ، والبلقاء : من أعمال دمشق ،
والبيت في اللسان ، وفي الديوان ، وفي تاريخ ابن عساكر ، ويروى : بِيَطْنِ جِلْقِ ،
ويروى : انظُرْ نهاراً ، وهي رواية ابن عساكر ، وفي تاريخ ابن عساكر من رواية ابن دريد :
انظر حبيبي ، والشاهد فيه أن (تونس) بمعنى : تَرَى ، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في
تفسير سورة النمل عند قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لأهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَاتِيكُمْ
مِنْهَا بِخَبْرٍ ﴾ (ص ١٦٩ هامش ٢) .

(٣) البيت لثميم بن مقبل ، وهو في «اللسان - جذا» ، وفي «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ،
وفي «الطبري» و «التاج» ، و «مجمع البيان» ، و «القرطي» ، والحواطب : جمع حاطبة ، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأحسب أن أصل الجذوة أصول الشجر ، وأهل البوادي يوقدونها
أبدأ ، فهي الجذوة في الحقيقة ، ومنه قول السلمي يصف الصلّى : (١)
حما حُبُّ هذا النَّارِ حُبُّ خَلِيلِي وَحُبُّ الْعَوَانِي فَهُوَ دُونَ الْحَبَائِبِ
وَبُدِّلَتْ بَعْدَ الْمِسْكِ وَالْبَانَ شِقْوَةٌ دُخَانَ الْجِذَا فِي رَأْسِ أَشْمَطٍ شَا حِبِ (٢)
وقرأ الجمهور : [جذوة] بكسر الجيم ، وقرأ حمزة ، والأعمش :
[جذوة] بضمها ، وقرأ عاصم : [جذوة] بفتحها ، وهي لغات ،
والصلّى : حرُّ النار ، و [تصطلون] تفتعلون ، أبدلت التاء طاءً .

= وهي الأمة تجمع الحطب ، والجَزَلُ : ما عَظُمَ من الحطب ويبس ، وفي الحديث : (اجمعوا
له حطباً جزلاً) ، والجذآ : أصول الشجرة ، قال الأصمعي : جِذْمٌ كُلُّ شَيْءٍ وَجِذِيهِ :
أصله ، والجذاء : أصول الشجرة العظام التي يلي أعلاها وبقي أسفلها ، والحَوَارُ : الضعيف
الذي يسهل كسره ، والدّعيرُ : العود الذي يكثر دخانُه ولا تتقد ناره ، وقيل : الدّعيرُ
من الحطب : البالي .

(١) الصلّى : النَّارُ ، والوقود .

(٢) السلمي هو أشجع بن عمرو السلمي ، أبو الوليد ، له ترجمة في الأغاني ، والشعر
والشعراء ، والخزانة ، والتبريزي على الحماسة ، وتهذيب ابن عساكر ، والشاهد في البيت الثاني
حيث استعمل الجذآ في الجمرة التي تكون في طرف أصول الشجرة . والمِسْكِ : ضربٌ
من الطيب يتخذ من دم الغزلان ، والبَانُ : شجر يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل ،
وله ثمرة تشبه قرون اللوبيا إلا أن خضرتها شديدة ، ولها حَبٌّ يُسْتَخْرَجُ منه دهن البان .
والأشْمَطُ : الذي اختلط فيه البياض بالسواد ، ولعله يريد الجبل الذي اختلط فيه لون الصخور
البضاء بالصخور السوداء ، والشاعر يندب سوءَ حظّه ، فقد أصبح يستخدم جذوة النار التي
ينبعث دخانها في هذا المكان القفر بعد أن كان يمزج خشب البان بأنواع الطيب .

فلما أتى موسى ذلك الضوء الذي رآه وهو في تلك الليلة ابن أربعين سنة نبيّ صلى الله عليه وسلم ، فرُوي أنه كان يمشي إلى ذلك النور فكان يبعد منه ، تمشي به الشجرة وهي غُضَّةٌ خضراء حتى نودي ، والشَّاطِئُ والشَّطُّ : ضفة الوادي ، وقوله : [الْأَيْمَنَ] يحتمل أن يكون من الْيُمْنِ صفةً للوادي أو الشاطئ ، ويحتمل أن يكون معادلاً (١) لليسار ، فذلك لا يوصف به الشاطئ إلا بالإضافة إلى موسى في استقباله مهبط الوادي ، أو بعكس ذلك ، وكل ذلك قد قيل ، وبركة البُقعة هي ما خُصَّتْ به من آيات الله تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام ، والناسُ على ضمِّ الباء من «بُقعة» ، وقرأ بفتحها الأشهب العقيلي (٢) ، قال أبو زيد : سمعت من العرب : «هذه بقعة طيبة» بفتح الباء ، وقوله تعالى : ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ يقتضي أن موسى عليه السلام سمع ما سمع من جهة الشجرة ، وسمع وأدرك غير مكيف ولا محدود (٣) . وقوله تعالى : ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ يحتمل أن تكون [أَنْ] مفسرة ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر . وقرأت فرقة : ﴿أَنْيَ أَنَا اللَّهُ﴾ بفتح الهمزة من [إِنِّي] .

(١) في الأصول : «ويحتمل أن يكون معادل لليسار» .

(٢) في الأصول : «أبو الأشهب» ، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط وكتب القراءات .

(٣) قال الأستاذ أبو إسحق : «اتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه

السلام معنى من المعاني أدرك به كلامه كان اختصاصه في سماعه ، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه» .

ثم أمره تعالى بإلقاء العصا فألقاها فانقلبت حية عظيمة ، ولها اضطراب الجان ، وهي صغير الحيات ، فجمعت هول الثعبان ونشاط الجان . وقالت فرقة : بل الجان يُعمُّ الصغير والكبير ، وإنما شبه بالجان جملة العصا لاضطرابها فقط ، وولى موسى عليه السلام مدبراً فزعاً منها ، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه : لم يرجع على عقبه من تولّيه ، فقال الله تبارك وتعالى له : ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ، وهذا من تأمين الله تعالى إياه ، ثم أمره بأن يدخل يده في جيبه ، وهو فتح الجبة من حيث يخرج رأس الإنسان ، ورؤي أن كم الجبة من حيث يخرج رأس الإنسان ، ورؤي أن كم الجبة كان في غاية الضيق فلم يكن له جيب يدخل يده فيه إلا في جيبه . و [أَسْأَلُكَ] معناه : أدخل ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ فِي مَسْكَ مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْآفَاقِ مِهْدَاجِ (١)

(١) البيت لأبي وجزة السعديّ ، وهو في (اللسان - مسك ، وهَدَاج) ، مع بيت قبله ، قالهما أبو وجزة في وصف حُمُر الوحش :

مَا زِلْنَا يَنْتَسِبْنَ وَهَنَا كُلِّ صَادِقَةٍ بَاتَتْ تُبَاشِرُ عُرْمًا غَيْرَ أَزْوَاجِ

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ فِي مَسْكَ مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْآفَاقِ مِهْدَاجِ

يصف الحُمُر حين أت الماء ليلاً فأثارت القَطَا ، فصاحت : قَطَا قَطَا ، جعلها صادقة لأنها خبرت باسمها ، كما يقال : أصدق من القَطَا ، وقوله : تباشِرُ عُرْمًا ، عتّى به بينضهما ، والأعرم : الذي فيه نُقَطٌ بياض ونُقَطٌ سواد ، وكذلك بيض القَطَا ، وقوله : غير أزواج : يريد أن بيض القَطَا يكون أفراداً ولا يكون أزواجاً ، والشوَى : قوائم الحُمُر الوحشية ، والمسك هنا : الماء الذي سارت فيه الأتُنُ ووضعت قوائمها فيه فصار حولها كالمسك =

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أَي : مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا مِثْلِهِ ، وَرُوِيَ أَنَّ يَدَهُ كَانَتْ تُضِيءُ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ شَمْسٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ ، ذَهَبَ مُجَاهِدٌ ، وَابْنُ زَيْدٍ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ عَلَى الْمَجَازِ وَالِاسْتِعَارَةِ ، وَأَنَّهُ أَمَرَهُ بِالْعِزْمِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ ، وَأَنَّهُ كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : « أَشَدُّ حِيَازِيْمِكَ ، وَارْبِطْ جَأْشَكَ » ، أَي : شَمِّرْ فِي أَمْرِكَ ، وَدَعْ الرَّهْبَ ، وَذَلِكَ لَمَّا كَثُرَ تَخَوُّفُهُ وَفِزَعُهُ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَالسُّدِّيُّ : هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الْعَصَا وَالْيَدِ .

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَنَافِعٌ ، وَأَبُو عَمْرٍو ، وَالنَّاسُ : [أَلرَّهْبِ] بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالْهَاءِ ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ ، وَقَتَادَةُ : [أَلرَّهْبِ] بِسُكُونِ الْهَاءِ ، وَقَرَأَ حَمْزَةٌ ، وَالْكَسَائِيُّ ، وَابْنُ عَامِرٍ ، وَعَاصِمٌ أَيْضاً : [أَلرُّهْبِ] بِضَمِّ الرَّاءِ وَالْهَاءِ . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَأَبُو عَمْرٍو : [فَذَانِكَ] بِشَدِّ النَّونِ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ : [فَذَانِكَ] بِالتَّخْفِيفِ بِالنَّونِ ، وَقَرَأَ شَبْلٌ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ : [فَذَانِيكَ] بِبَيَاءٍ بَعْدَ النَّونِ الْمُخَفَّفَةِ ، أَبْدَلَ إِحْدَى النَّونِيْنَ يَاءً كِرَاهَةً التَّضْعِيفِ ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ : [فَذَانِيكَ] بِالْيَاءِ أَيْضاً مَعَ شَدِّ النَّونِ ،

= وَهُوَ السَّوَّارُ ، قَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ : اسْتِعَارَهُ أَبُو وَجْزَةَ فَجَعَلَ مَا تُدْخَلُ فِيهِ الْأَتْنُ قَوَائِمَهَا مِنَ الْمَاءِ مَسْكاً ، وَقَوْلُهُ : جَوَابَةُ الْآفَاقِ : يَرِيدُ الرِّيحَ ، وَيَقُولُ : إِنَّ الْمَاءَ مِنْ نَسْلَهَا ، لِأَنَّ الرِّيحَ تَسْتَدِرُّ السَّحَابَ وَتُلْقِيهِ فَيَمْطُرُ ، فَالْمَاءُ مِنْ نَسْلَهَا ، وَالْمَهْدَاجُ : الَّتِي لَهَا صَوْتٌ وَحْنِيْنٌ ، فَهِيَ رِيحٌ سَرِيعَةٌ الْحَرَكَةُ فِي الْآفَاقِ ، وَهِيَ رِيحٌ لَهَا صَوْتٌ وَحْنِيْنٌ ، وَالشَّاهِدُ هُنَا أَنَّ (سَلَكْنَ) فِي الْبَيْتِ بِمَعْنَى : أَدْخَلْنَ ، يَعْنِي أَنَّ الْأَتْنَ أَدْخَلْنَ قَوَائِمَهُنَّ فِي الْمَاءِ الَّذِي صَارَ حَوْلَهَا كَالسَّوَّارِ .

وهي لغة هذيل ، وحكي المهدي أن لغتهم تخفيف النون ، و [بُرْهَانَانِ] :
حُجَّتَانِ وَمُعْجَزَتَانِ . وباقي الآية بَيْن .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ
أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
قَالَ سَنْشُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِأَيِّنَّا أَنْتُمَا
وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ
بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى
الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلٰهَ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ
﴿٣٨﴾ وَأَسْكَبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴿

كان موسى عليه السلام قد امتحن بمخاوف فطلب شد العضد
بأخيه هارون ؛ لأنه كان فصيح اللسان سمح الخلق ، وقرأ الجمهور :
[رِدْءًا] بالهمز ، وقرأ نافع وحده : [رِدًّا] بتنوين النون دون همز ،

وهي قراءة أبي جعفر ، وذلك على التخفيف من «رِدِّي» ، والرَّدُّ :
الوزير المعين والذي يستند إليه في الأمر ، وذهبت فرقة إلى أنها من
معنى الزيادة ، كما قال الشاعر :

وَأَسْمَرَ خَطِيًّا كَانَ كَعُوبِهِ نَوَى التَّسْبِ قَدْ أَرْدَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ (١)
وهذا على ترك الهمز ، وأن يكون وزنه فعلاً .

وقرأ جمهور القراء : [يُصَدِّقُنِي] بالجزم ، وذلك على جواب
[أَرْسَلُهُ] ، وقرأ عاصمٌ وحده : [يُصَدِّقُنِي] ، أي : مصداقاً ، فهو
صفة للرَّدِّ ، أو حالٌ .

و «شَدُّ الْعَضْدِ» استعارةٌ في المعونة والإنهاض ، وقرأ الحسن بضم
العين من [عَضْدَكَ] ، وقرأ عيسى بن عمر بفتح العين والضاد .
و «السُّلْطَانُ» : الْحُجَّةُ . وقوله : [بِآيَاتِنَا] يحتمل أن تتعلق الباء بقوله :

(١) البيت في اللسان (قَسَب) ، وفي القرطبي ، وذكر صاحب اللسان أن ابن بَرِّي قال :
هذا البيت يذكر أنه لحاتم الطائي ، ثم قال تعقيباً على ذلك : ولم أجده في شعره . ورواية اللسان :
«أَرْمَى» بدلا من «أَرْدَى» ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، وفي القرطبي : «ويجوز أن يكون
ترك الهمز من قولهم : أَرْدَى على المائة ، أي : زاد عليها ، وكأن المعنى : أَرْسَلَهُ معي زيادةً
في تصديقي ، قاله مسلم بن جندب ، وأنشد قول الشاعر : وَأَسْمَرَ خَطِيًّا ... البيت ، كذا
أنشده الماوردي ، وأنشده الغزنوي والجوهرى في الصحاح : أَرْمَى . والبيت في وصف الرمح ،
والخَطِيُّ : الرُّمْحُ المنسوب إلى الخَطِّ ، وهو موضع باليمامة ، وهو خَطُّ هجر تُنسب
إليه الرُّمَاحُ الخطية ؛ لأنها تُحمل من بلاد الهند فَتَسْمَوُ بِهِ . ونَوَى التَّسْبِ : أصْلَبَ التَّنَوَى ،
والتَّسْبِ : الصُّلْبُ الشديد ، والتَّسْبِ : تمر يابسٌ يَتَمَسَّتْ فِي التَّمِّ صلب النواة ، وعلى رواية
«أَرْمَى» فإنها لغة في «أَرْبَى» أي : زاد أيضاً .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ﴾ ، أو ب [يَصِلُونَ] وتكون باء السبب ، ويحتمل أن تتعلق بقوله : [الْغَالِبُونَ] ، أي : تغلبون بآياتنا (١) ، و «الآيات» ها هنا معجزاته عليه السلام .

ولمَّا كذبه ورموه بالسحر قارب موسى عليه السلام في احتجاجه ، وراعه تكذيبهم ، فردَّ الأمر إلى الله ، وعوّل على ما يظهره الله تعالى في شأنهم ، وتوعدهم بنقمة من الله تعالى منهم . وقرأ ابن كثير : ﴿قَالَ مُوسَى﴾ بغير واو ، وقرأ غيره وجميع السبعة : ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ بواو ، وقرأ الجمهور : ﴿تَكُونُ لَهُ﴾ بالتاء ، وقرأ حمزة والكسائي : [يَكُونُ] بالياء على التذكير ، إذ هي بمنزلة العاقب .

واستمر فرعون على طريق مخرقته على قومه ، وأمر هامان أن يطبخ له الآجر ، وأن يبني له صرحاً ، أي سطحاً في أعلى الهواء ، وليس الصرح إلا ما له سطح ، ويحتمل أن يكون الإيقاد على الطين كالبُراني (٢) ، وترجى بزعمه أنه يطلع في السماء ، فروي عن السدي أنه بناه أعلى ما يمكن ، ثم صعد فيه ، ورمى بالنبل فردّها الله تعالى

(١) قال ذلك الأنخفش والطبري ، وقال المهدوي : «وفي هذا تقديم الصلة على الموصول» إلا أن يقدر : أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

(٢) البراني : جمع برنيّة ، وهي إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين . (المعجم الوسيط) .

إليه مخضوبة بالدم ليزيدهم عمى وفتنة ، فقال فرعون حينئذ :
 إِنِّي قَتَلْتُ إِلَهَ مُوسَى ، ثم قال : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يريد
 في أن موسى راسله ، فالظن على بابه ، وهو في معنى إيجاب الكفر له
 بمنزلة المصمم على التكذيب .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، ونافع : ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ، وقرأ الباقون
 والحسن : ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم .

قوله عز وجل :

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾
 وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ
 الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[نَبَذْنَاهُمْ] معناه : طرحناهم ، ومنه نبذ النواة ، ومنه قول الشاعر :

نَظَرْتُ إِلَىٰ عُنْوَانِهِ فَنَبَذْتُهُ كَنَبْدِكَ نَعْلًا مِنْ نَعَالِكَ بِأَلْبَا (١)

(١) هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي ، وهو في الطبري ، والبحر المحيط ، ومجاز القرآن
 لأبي عبيدة . والنَّبْدُ : طرحك الشيء من يدك أمامك أو خلفك ، ويقال : نبذت الشيء إذا
 رميته وأبعدته ، والنَّعْلُ : الحذاء ، والبالي : القديم المتقطع الذي فقد صلاحيته للاستعمال . =

وقوم فرعون وإن كانوا ساروا إلى البحر ودخلوه باختيارهم فإنَّ ما ضمَّهم من القدر السابق [وإغراقهم في البحر] (١) هو نبذ الله تعالى إياهم فيه . و «اليَمِّ» هو بحر القلزم في قول أكثر الناس ، وقالت فرقة : كان غرقهم في نيل مصر . والأول أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ وهم أئمة من حيث اشتهروا وبقوا قدوة لكل كافر وعاتٍ إلى يوم القيامة . و [الْمَقْبُوحِينَ] : الذين يَقْبُحُ كُلُّ أمرهم ، قولاً لهم وفِعْلاً ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الذين قبحوا بسواد الوجوه وزرقة العيون . و [يَوْمَ] ظرفٌ مقدم . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ إخبارٌ عن أنه أنزل التوراة على موسى بعد إهلاك فرعون وقومه ، وبعد هذه الأئمة التي تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها ، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأئمة ، وقالت فرقة : الآية متضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأئمة ؛ فلم يعذب أمة

= ومن الواضح أن النَّبَذَ تعبير يدل على الاستهانة بالشيء المنبوذ، أو احتقاره ، ويؤيد هذا في الآية قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وفي البيت التشبيه بنذ النعل البالي .

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة عن البحر الذي نقل عبارة ابن عطية كاملة دون أن

يشير إليه .

بعد نزول التوراة إلا القرية التي مسخت قرده فيما روي ، وقوله :
 [بَصَائِرًا] نصب على الحال ، أي : طرائق هادية ، وقوله تعالى :
 ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : على ترج ، وما تعطيه من تأمیل ، ورُوي
 عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : « ما أهلك الله تعالى
 أمة بعذاب بعد أن أنزل التوراة إلى الأرض غير القرية التي مسخت
 قرده » (١) أي : الذين تعدوا في السبت ، وهذا التعذيب من سبب
 شرع موسى ؛ فكأنه لا ينقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأرض .
 قوله عز وجل :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤)
 وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
 ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن
 رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

(١) أخرجه البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد موقوفاً ، وأخرج البزار ،
 وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه — عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه —
 من وجه آخر — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمةً
 ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت
 قرده ، ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
 الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ . (الدر المنثور) .

المعنى : لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي نخبر بها ، ولكنها صارت إليك بوحينا ، أي : فكان الواجب أن يُسارع إلى الإيمان بك ، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها زمناً زمنياً ، فعزبت حلومهم ، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم .

و [قَضَيْنَا] معناه : أنفذنا وصرفنا ، و [الْأَمْر] يعني التوراة . وقالت فرقة : يعني به ما أعلمه الله تبارك وتعالى من أمر محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأويل حسن يلتئم معه ما بعده من قوله : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ﴾ .

و « الثَّأْوِي » : المقيم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ يريد : وقت إنزال التوراة إلى موسى ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه نودي يومئذ من السماء : يا أمة محمد ، استجبت لكم قبل أن تدعوني ، وغفرت لكم قبل أن تسألوني» (١) ،

(١) أخرجه الفريابي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل — عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى :

فحينئذ يسأل موسى عليه السلام أن يكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : إذ نادينا بأمرك ، وأخبرناك بنبوتك . وقوله : [رَحْمَةً] نصب على المصدر ، أو على المفعول من أجله ، وقوله : [وَلَكِنْ] جعلناك وأنفذنا أمرك قديماً رحمةً من ربك ، أي : ويكون المعنى : ولكن أعلمناك رحمةً منا لك وإفضالاً ، وقرأ الناس : [رَحْمَةً] بالنصب ، وقرأ عيسى : [رَحْمَةً] بالرفع . ويريد بالقوم «الذين لم يأتهم نذير» معاصريه من العرب ، وباقي الآية بين ، وقال الطبري : «معنى قوله : ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ بَأَنَّ ﴿سَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾ (١) الآية .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ ، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً . (الدر المنثور) .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، وأبو نصر السجزي في الإبانة ، والدبليمي - عن عمرو بن عبسة - قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ ما كان النداء؟ وما كانت الرحلة؟ قال : (كتاب كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى : يا أمة محمد ، سبقت رحمتي غضبي ، أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، فمن لقبني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة ، (الدر المنثور) . (١) من الآيتين (١٥٦ ، ١٥٧) من سورة الأعراف .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۗ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَكُنَّا فَاعِلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

«المُصِيبَةُ» : عذاب في الدنيا على كفرهم ، وجواب [لَوْلَا] محذوف ، تقديره : لما أُرسلنا الرسل . وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يريد : القرآن ومحمداً صلى الله عليه وسلم ، والمقالة التي قالتها قريش : ﴿ لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾ كانت من تعليم اليهود لهم ، قالوا لهم : لِمَ لا يأتي بآية باهرة كالعصا واليد وشق الجبل وغير ذلك ، فعكس قولُ الله تعالى عليهم قولهم ، ووقفهم على أنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاء في هذه ، فالضمير في قوله : [يَكْفُرُوا] لليهود .

وقرأ الجمهور : [سَاحِرَانِ] ، والمراد بهما موسى وهارون ، قاله مجاهد ، وقال الحسن : موسى وعيسى ، وقال ابن عباس : موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحسن أيضاً : عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والأول أظهر . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [سِحْرَانِ] ، والمراد بهما التوراة والإنجيل ، قاله عكرمة ، وقال ابن عباس : التوراة والفرقان ، وقرأ ابن مسعود : ﴿سِحْرَانِ أَظَاهَرَا﴾ (١) ، وهي قراءة طلحة والضحاك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يريد بـ ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أمر محمد - عليهما الصلاة والسلام - الذي هو في التوراة ، كأنه يقول : وما يطلبون من أن يأتي بمثل ما أُوتِيَ موسى وهم قد كفروا - في التكذيب بك - بما أُوتِيَ موسى عليه السلام من الإخبار بك ، وقالوا : إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ . وقوله تعالى : ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ يؤيد هذا التأويل . و [تَظَاهَرَا] معناه : تعاونا .

(١) أي : بهمزة الوصل وشدّ الظاء ، وأصلها : (تَظَاهَرَا) فأدغم التاء في الظاء فاجتلبت همزة الوصل لأجل سكون التاء المدغمة . وقد قرأ الأعمش أيضاً بهذه القراءة ، قاله في «البحر» ولم ينسبها للضحاك .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَاتُوا بِكِتَابِ ﴾ الآية ، هذه حجة أمره الله تعالى أن يصدع بها ، أي : أنتم أيها المكذبون بهذه الكتب التي قد تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق ، ونهت عن الكفر والنقائص ، ووعد الله تعالى عليها الثواب الجزيل ، إن كان تكذيبكم لمعنى فاتوا بكتاب من عند الله عز وجل يهدي أكثر من هدى هذه أتبعه معكم . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ - وقد علم أنهم لا يستجيبون - على معنى الإيضاح لفساد حالهم ، وسياق القياس : «لأنهم متبعون لأهوائهم» . ثم عجب تعالى من اتباع الهوى بغير هداية ولغير مقصد بين ، وقرر ذلك على جهة البيان ، أي : لا أحد أضل منه .

قوله عز وجل :

﴿ * وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿١٩﴾ *

الذين وصل إليهم القول قريش ، قاله مجاهد وغيره ، وقال أبو رفاعة القرظي : «نزلت في اليهود في عشرة أنا أحدهم» ، ذكره الطبري .

وقال الجمهور : معناه واصلنا لهم في القرآن وتابعناه موصولاً
بعضه ببعض في المواظ والزجر والدعاء إلى الإسلام ، قال الحسن :
وفي ذكر الأمم المهلكة ، وصلت لهم قصة بقصة حسب مرور الأيام ،
وذهب مجاهد إلى أن معنى [وَصَلْنَا] : فَصَّلْنَا ، أي : جعلناه أوصالاً من
حيث كان أنواعاً من القول في معانٍ مختلفة ، ومعنى اتصال بعضه
ببعض حاصل من جهة أخرى ، لكن إنما عدد عليهم ها هنا تقسيمه
في أنواع من القول . وذهب الجمهور إلى أن هذا التوصل الذي وصل
لهم القول معناه : وصل المعاني من الوعظ والزجر ، وفي الأجر وغير
ذلك ، وذهبت فرقة إلى أن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الألفاظ ،
أي الإعجاز ، فالمعنى : ولقد وصلنا لهم قولاً معجزاً دالاً على نبوتك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى الأول تقديره : ولقد وصلنا لهم قولاً تضمن معاني من
اهتدى ، وقرأ الحسن : ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا﴾ بتخفيف الصاد . وقوله :
﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام ، أو
يتذكرون محمداً فيؤمنوا به .

ثم ذكر تعالى القوم الذين آمنوا من أهل الكتاب مباحياً بهم
قريشاً ، واختلف ، إلى من الإشارة ؟ فقليل : إلى جماعة من اليهود

أسلمت وكانت تلقى من الكفار أذى ، وقيل : إلى بحيرى الراهب ،
وقال الزهري : إلى النجاشي ، وقيل : إلى سلمان ، وابن سلام ،
وأسند الطبري عن علي بن أبي رفاعة قال : خرج عشرة رهط من
أهل الكتاب ، فيهم أبو رفاعة - يعني أباه - فأسلموا ، فأؤذوا ،
فنزلت فيهم هذه الآية . والضمير في [قَبْلَهُ] يحتمل أن يعود على
النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يعود على القرآن ، وما بعدُ
يؤيد هذا ، وهو قوله : ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ . وقوله : ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ
قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يريدون الإسلام المتحصل لهم من شريعة موسى وعيسى
عليهما السلام^(١) . وإيتاء أجرهم مرتين معناه : على ملتين ، ولإيمانهم
بشريعتين ، وهذا المعنى هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه
وآمن بي ، والعبد الناصح في عبادة ربه وخدمة سيده ، ورجل كانت
له أمة فآدبها وعلمها ثم أعتقها وتزوّجها)^(٢) .

(١) قيل في ذلك : إن الإسلام صفة كل موحد مصدق بالوحي .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ، وقال الشعبي للخراساني : خذ هذا الحديث بغير شيء ، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة .

قال العلماء : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ، فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيِّه ، ثم إنه خوطب من جهة نبيِّنا فأجابته واتبعه =

وقوله تعالى : ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عام في صبرهم على ملتهم ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار في ذلك . وقوله تعالى : ﴿وَيَذَرُون﴾ معناه : يدفعون ، وهذا وصف لمكارم الأخلاق ، أي : يتعاونون ، ومن قال لهم سوءًا لَا يَنْوَهُ وَقَابَلُوهُ مِنَ الْقَوْلِ الْحَسَنِ بِمَا يَدْفَعُهُ ، وهذه آية مهادنة ، وهي في صدر الإسلام ، وهي مما نسخته آية السيف ، وبقي حُكْمُهَا فيما دون الكفر تتعاطاه أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ مدحٌ لهم بالنفقة في الطاعات ، وعلى رسم الشرع ، وفي ذلك حُضٌّ عَلَى الصَّدَقَاتِ وَنَحْوِهَا .

و «اللَّغْوُ» لَغْوُ الْقَوْلِ ، وَالْيَمِينُ لَغْوٌ ، حَسَبَ الْخِلَافِ فِيهِمَا ، وَكَلَامٌ مَسْتَمَعُ الْخُطْبَةِ لَغْوٌ ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ - مَا كَانَ سَبًّا وَأَذَى وَنَحْوَهُ ، فَأَدَّبَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ ، وَالْقَوْلُ - عَلَى جِهَةِ التَّبَرِّيِّ - ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ :

= فله أجر الملتين ، والعبد مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربية أمته وأدبها فقد أحياءا إحياء التربية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياءا إحياء الحرية التي ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام بما أمر فيها ، فأجر كل واحد منهما أجرين ، ولذلك قيل : إن العبد الذي يؤدي حق ربه وحق سيده أفضل من الحر ، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (للعبد المملوك المصلح أجران) .

اللَّغُوها هنا ما كان بنو إسرائيل كتبوه في التوراة مما ليس من عند الله تبارك وتعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه المهادنة هي لبني إسرائيل ، الكفار منهم ، و ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا الموضع ليس المقصود بها التحية ، لكنه لفظ التحية قصد به المِتَارَكَة ، وهو لفظ مؤنس مستنزل لسامعه ؛ إذ هو في عرف استعماله تحية ، قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال ، و ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ معناه : لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمسابة .

قوله عز وجل :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَرْتُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا نُسِكْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۗ وَكَا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أجمع جُلُّ المفسرين على أن قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إنما نزلت في شأن أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال أبو هريرة ، وابن المسيب ، وغيرهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه وهو يجود بنفسه ، فقال له : أَيُّ عَمٍّ ، قل : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كلمةً أشهد لك بها عند الله ، وكان بحضرتة عبد الله بن أمية ، وأبو جهل لعنهما الله تعالى ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب يا أبا طالب ؟ فقال له : يا محمد ، لولا أنني أخاف أن يُعَيَّرَ بها ولدي من بعدي لأقررتُ بها عينك ، ثم قال أبو طالب : أنا على ملة عبد المطلب والأشياخ ، فتفجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج عنه ، فمات أبو طالب على كفره ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى أبي طالب (١) .

والضمير في قوله : [وَقَالُوا] لقريش ، قال ابن مسعود : والمتكلم بذلك منهم الحرث بن نوفل ، وقصد الإنخبار بأن العرب تنكر

(١) هذا الحديث مروى عن أبي هريرة ، وعن ابن المسيب كما قال ابن عطية ، أما عن أبي هريرة فقد أخرجه عبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل . وأما عن ابن المسيب فقد أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي . وقد تقدم ذلك في تفسير سورة براءة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ... ﴾ وهي من الآية رقم (١١٣) .

عليهم رفض الأوثان وفراق حكم الجاهلية بتخطفهم من أرضهم ،
 وقوله : [الْهُدَى] معناه : على زعمك ، وحكى الثعلبي عنه أنه قال : إنا
 لنعلم أن الذي تقول حق ، ولكن إن اتبعناك يتخطفنا العرب ،
 فقطعهم الله تعالى بالحجة ، أي : أليس كون الحرم لكم مما يسرناه
 وكفطنا عنكم الأيدي فيه ؟ فكيف بكم لو أسلمتم واتبعتم شرعي
 وديني ؟ وروي عن أبي عمرو : [نُتَخَطَّفُ] بضم الفاء ، وأمن الحرم
 هو ألا يُغزى ولا يودی فيه أحد . وقوله تعالى : ﴿يُجَبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ
 كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : يُجمع ويُجلب . وقرأ نافع وحده : [تُجَبَى] بالتاء
 من فوق ، وقرأ الباقون : [يُجَبَى] أي : يجمع بالياء من تحت ،
 ورويت التاء عن أبي عمرو ، وأبي جعفر ، وشيبة بن نصاح .
 وقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ يريد مما به صلاح حالهم وقوام أمرهم ،
 وليس العموم فيه على الإطلاق ، وقرأ أبان بن تغلب : [ثُمَّرَاتِ]
 بضم التاء والميم .

ثم توعّد تعالى قريشاً بضرب المثل بالقرى المهلكة ، أي : فلا
 تغتروا بالحرم الآمن والثمرات التي تُجبي ؛ فإن الله تعالى مهلك الكفرة
 على ما سلف في الأمم . و [بَطِرَتْ] معناه : سفهت وأشرت وطمغت ،
 قاله ابن زيد وغيره ، و [مَعِيشَتَهَا] نصبت على التفسير^(١) ، مثل قوله :

(١) وقيل : هي مفعول به على تضمين [بَطِرَتْ] معنى فعل متعد ، أي : خسرت
 معيشتها ، وهذا على مذهب أكثر البصريين ، وقيل : هي مشبه بالمفعول على مذهب بعض =

(سَفِهَ نَفْسَهُ) (١) ، وقال الأخفش : هو على إسقاط حرف الجر ،
أي : بَطِرَتْ في معيشتها ، ثم أحالهم على الاعتبار في خراب ديار
الأُمم المَهْلِكَة كحجر ثمود وغيره ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ وَإِنَّا لَمَّا كُنَّا
مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا
فَهُؤُلَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

إن كانت الإبادة للقرى بالإطلاق في كل زمن فأئمتها في هذا
الموضع عظيمها وأفضلها التي هي بمثابة مكة في عصر محمد صلى الله
عليه وسلم ، وإن كانت مكة أم القرى كلها أيضاً من حيث هي أول
ما خلق الله من الأرض ، ومن حيث فيها البيت ، ومعنى الآية أن
الله تبارك وتعالى يقيم الحجة على عباده بالرسول ، فلا يعذب إلا بعد

= الكوفيين ، ويجوز أن تكون منصوبة على الظرفية ، على تقدير : أيام معيشتها ، كقولك :
جئت خفوق النجم ، وهذا على مذهب الزجاج .
(١) من الآية (١٣٠) من سورة (البقرة) .

إنذاره ، وبعد أن يتمادى أهل القرى في ظلم وطغيان . والظلم - هنا - يجمع الكفر والمعاصي والتقصير في الجهاد ، وبالجملة وضع الباطل موضع الحق .

ثم خاطب تعالى قريشاً محقراً لما كانوا يفخرون به من مال وبنين وغير ذلك من قوة لم تكن عند محمد صلى الله عليه وسلم ولا عند من آمن به ، فأخبر الله تعالى قريشاً أن ذلك متاع الدنيا الفاني ، وأن الآخرة وما فيها من النعيم الذي أعد الله لهؤلاء المؤمنين خيراً وأبقى ، ثم وبَّخهم بقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، وقرأ الجمهور : [يَعْقِلُونَ] بالياء ، وقرأ أبو عمرو وحده : [تَعْقِلُونَ] بالثاء من فوق ، وهي قراءة الأعرج ، والحسن ، وعيسى (١) .

(١) أجمعت كتب القراءات ، وكتب التفسير على أن قراءة الجمهور : [تَعْقِلُونَ] بالثاء على خلاف ما ذكر ابن عطية هنا ، ولعل الخطأ من النسخ ، أما القراءة بالياء فهي قراءة أبي عمرو ، ذكر ذلك القرطبي صراحة ، أما البحر المحيط فقد ذكر أن قراءة الجمهور بالثاء من فوق ، ثم قال : « ونسب هذه القراءة أبو علي في الحجة إلى أبي عمرو وحده » ، وبهذا نعرف المصدر الذي أخذ عنه ابن عطية نسبة القراءة بالثاء إلى أبي عمرو وحده ، ثم رأيت في كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجذري ما يوضح الحقيقة ، قال : « روى الدوري عن أبي عمرو بالغيب - أي بالياء - واختلف عن السوسي عنه ، فالذي قطع له به كثير من الأئمة أصحاب الكتب الغيب كذلك ، وهو اختيار الداني وشيخه أبي الحسن بن غلبون ، وابن شريح ، ومكي ، وغيرهم . وقطع له آخرون بالخطاب ، كالأستاذ أبي طاهر بن سوار ، والحافظ =

ثم زادهم توبيخاً بقوله : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ ﴾ الآية ، وقوله :
 ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ ﴾ آية يعم معناها جميع العالم ، لكن اختلف الناس
 فيمن نزلت - فقال مجاهد : الذي وعد الوعد الحسن هو محمد صلى الله
 عليه وسلم ، وضده أبو جهل لعنه الله ، وقال مجاهد : نزلت في
 حمزة رضي الله تعالى عنه وأبي جهل ، وقال قتادة : نزلت في المؤمن
 والكافر ، كما أن معناها عام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونزولها عام بين الاتساق بما قبله من توبيخ قريش .

و ﴿ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ معناه : في عذاب الله تعالى ، قاله مجاهد
 وقتادة ، ولفظة [مُحْضَرِينَ] مشيرة إلى سوق وجر ، وقرأ طلحة :
 [أَمَّنْ وَعَدْنَاهُ] بغير فاء ، وقرأ مسروق : « أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ نعمة منا
 فهو لاقية » .

= أبي العلاء ، وقطع جماعة له وللدوري وغيرهما عن أبي عمرو بالتخيير بين الغيب والخطاب
 على السواء ، كأبي العباس المهدي ، وأبي القاسم الأزلي - قلت : والوجهان صحيحان عن
 أبي عمرو من هذه الطرق ومن غيرها ، إلا أن الأشهر عنه بالغيب ، وبهما أخذ في رواية السوسي
 لثبوت ذلك عندي عنه نصاً وأداءً ، وبالخطاب قرأ الباقرون ، ويتضح من هذا كله أمران :
 الأول : أن قراءة الجمهور بالتاء من فوق - والثاني أن المنقول عن أبي عمرو موضع خلاف ،
 فمن القراء من نقل القراءة بالتاء كابن عطية ، ومنهم من نقل القراءة بالياء ، ومنهم من نقل
 التخيير بين التاء والياء . والله أعلم .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمُ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ
لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

التقدير : واذكر يوم ، وهذا النداء يحتمل أن يكون بواسطة ،
ويحتمل أن يكون بغير ذلك ، والضمير المتصل بـ [يُنَادِي] لِعِبَادِ
الْأَصْنَامِ ، والإشارة إلى قريش ، وقوله : [أَيْنَ] على جهة التوبيخ
والتقريع ، وقوله : [شُرَكَائِيَ] أي : عَلَى قَوْلِكُمْ وَزَعْمِكُمْ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولما كان هذا السؤال مُسَكِّتاً لَهُمْ مَهِيناً فَكَأَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِجَمْهُورِ
الْكُفْرَةِ ، بل بِالْمُغْوِينَ لَهُمْ ، وبِالْأَعْيَانِ وَالرُّعُوسِ مِنْهُمْ ، وبِالشَّيَاطِينِ
الْمُغْوِينَ ، فَكَأَنَّ هَذِهِ الْفِئَةِ الْمُغْوِيَةَ إِنَّمَا أَتَتْ الْكُفْرَةَ عَلَى عِلْمٍ بِأَنَّ الْقَوْلَ
عَلَيْهَا مُتَحَقِّقٌ ، وبأن كلمة العذاب ماضية ، لكنهم طمعوا في التبري
من أولئك الكفرة الأتباع فقالوا : ربنا هؤلاء أضللناهم كما ضللنا

نحن باجتهاد لنا ولهم ، وأرادوا هم اتباعنا ، وأحبوا الكفر كما أحببناه ، فنحن نتبرأ إليك منهم ، وهم لم يعبدونا إنما عبدوا غيرنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا التوقيف يعم جميع الكفرة ، والمجيبون هم جميع المغوين ، كل داع إلى كفر ، من الشياطين الجن ، ومن الإنس العرفاء والروساء والسادة .

وقرأ الجمهور : [غَوَيْنَا] بفتح الواو ، ويقال : غَوَى الرجل يَغْوِي بكسر الواو ، وروي عن ابن عامر ، وعاصم [غَوَيْنَا] بكسر الواو . ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يقال للكفرة العابدين للأصنام الذين اعتقدوهم آلهة : ﴿ اَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي الأصنام التي كنتم تزعمون أنهم شركاء لله ، وأضاف الشركاء إليهم لما كان ذلك الاسم بزعمهم ودعواهم ، فهذا القول أصل من الاختصاص ، وأضاف الشركاء إليهم ثم أخبر أنهم دَعَوْهم ، فلم يكن في الجمادات ما يجيب ، ورأى الكفار العذاب . وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ ، ذهب الزجاج وغيره من المفسرين إلى أن جواب [لَوْ] محذوف تقديره : لما نالهم العذاب ، أو : لما كانوا في الدنيا عابدين للأصنام ، ففي

الكلام - على هذا التأويل - تأسف عليهم ، وذلك محتمل مع تقديرنا الجواب : «لما كانوا عابدين للأصنام» ، وفي تقديرنا الجواب : «لما نالهم العذاب» نعمة منا ، وقالت فرقة : [لو] متعلقة بما قبلها ، تقديره : فودوا لو أنهم كانوا يهتدون .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وهذا النداء أيضاً كالأول في احتمالاه الواسطة من الملائكة ، وهذا النداء أيضاً للكفار يوقفهم على ما أجابوا به المرسلين الذين دعواهم إلى الله تعالى . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ ﴾ أي : أظلمت الأمور ، فلم يجدوا خبراً يخبرون به مما لهم فيه نجاة ، وساق الفعل في صيغة الماضي لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ ، وَأَنَّهُ تَعَيَّنَ ، وَالْمَاضِي مِنَ الْأَفْعَالِ مُتَيَقِّنٌ ؛ فَلِذَلِكَ تَوَضَّعَ صَيْغَتُهُ بِدَلِّ الْمُسْتَقْبَلِ الْمُتَيَقِّنِ فَيَقْوَى وَقُوعِهِ وَصَحْتَهُ ، وَمَعْنَاهُ : أَظْلَمَتْ جِهَاتُهَا ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : [فَعَمِيَتْ] بضم العين

وشد الميم ، وروي في بعض الحديث : (كان الله في عماء) (١) وذلك قبل أن يخلق الأنوار وسائر المخلوقات . و [الأنباء] جمع نَبَأٍ . وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره : بالأرحام والمنتاب الذي عرّفه في الدنيا أن يُتَسَاءَلَ به ؛ لأنهم قد أيقنوا أنهم كلّهم لا حيلة لهم ولا مكانة ، ويحتمل أن يريد أنهم لا يتساءلون عن الأنبياء لتيقن جميعهم أنه لا حجة لهم .

ثم انتزع تعالى من الكفرة من تاب من كفره ، وآمن بالله ورسله ، وعمل بالتقوى ، ورجى عزّ وجلّ أنهم يفوزون ببغيتهم ويبقون في النعيم الدائم ، وقال كثير من العلماء : « عسى » من الله واجبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ظن حسن بالله تعالى يشبه فضله وكرمه ، واللازم من « عسى » أنها ترجية لا واجبة ، وفي كتاب الله عزّ وجلّ : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ (٢) .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في المسند (٤-١١ ، ١٢) ، ولفظه كما في المسند : عن أبي رزّين قال : قلتُ : يا رسول الله ، أين كان ربّنا عزّ وجلّ قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : (كان في عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق عرشه على الماء) .

(٢) من الآية (٥) من سورة (التحریم) .

وقوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآية ، قيل : سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقول بعضهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (١) فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازع ، ورد الله تعالى عليهم ، وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاء ، وأنه يختار لرسالته من يريد ويجعل فيه المصلحة ، ثم نفى أن يكون الاختيار للناس في هذا ونحوه ، هذا قول جماعة من المفسرين (٢) ، قالوا : والظاهر أن [مَا] نافية ، أي : ليس لهم الخيرة عن الله تبارك وتعالى ، فتجيء الآية كقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يريد : ويختار الله تعالى الأديان والشرائع ، وليس لهم الخيرة في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة ، ويؤيد هذا التأويل قوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

(١) من الآية (٣١) من سورة (الزخرف) ، روي أن الذي قال ذلك هو الوليد بن المغيرة ، وكان يعني نفسه ، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، فأيتنا هنا رد عليه ، أو جواب لقوله .
(٢) منهم الزجاج ، وعلي بن سليمان ، والنحاس ، وهم يرون أن الوقف على قوله : (وَيَخْتَارُ) .

(٣) من الآية (٣٦) من سورة (الأحزاب) .

وذهب الطبريُّ إلى أن [مَا] في قوله : ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ﴾ مفعولة ،
قال : والمعنى أن الكفار كانوا يختارون من أموالهم لأصنامهم خيارها ،
فأخبر الله تعالى أن الاختيار إنما هو له وحده ، يخلق ويختار من الرُّسل
والشرائع ما كان خيراً للناس ، لا كما يختارون هم ما ليس لهم ،
ويفعلون ما لم يُؤمروا به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واعترض الطبريُّ عن الرفع الذي أجمع عليه القراء في قوله تعالى :
﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ بأقوالٍ لا تتحصل (١) ، وقد ردَّ الناسُ عليه
في ذلك ، وذكر عن الفراء أن القاسم بن معن أنشده بيت عنتره :
أَمِنْ سُمِّيَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ لَوْ كَانَ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ (٢)

(١) قال الطبريُّ : « فإن قال قائل : فإن كان الأمرُ كما وصفتَ من أن [ما] اسم منصوب
بوقوع قوله : [يَخْتَارُ] عليها ، فأين خير [كَانَ] ؟ فقد علمتَ أن ذلك إذا كان كما قلت
إن في [كان] ذكراً من [ما] ، ولا بدَّ لـ [كان] إذا كان كذلك من تمام ، وأين التمام ؟ قيل :
إن العرب تجعل لحروف الصفات إذا جاءت الأخبارُ بعدها أحياناً أخباراً كفعالها بالأسماء إذا جاءت
بعدها أخبارها ، وذلك كما في بيت عنتره حيث رفع (معروفاً) بحرف الصفة ، وهو لاشك
خيراً لـ (ذا) . » وبيت عنتره هو الذي ذكره ابن عطية هنا بعد قليل .

(٢) البيت في الديوان مطلع قصيدة قالها لحادثة وقعت له مع امرأة أبيه ، وكان اسمها
سُهَيْبَةَ ، وقيل : سُمِّيَّة ، إذ كانت قد حرشت عليه أباه قبل أن ينسبه إلى نفسه ، وقالت لأبيه : =

وقرن الآية بهذا البيت ، والرواية في البيت : (لَوْ أَنَّ ذَا) ، ولكن على ما رواه القاسم يَتَّجِه في بيت عنتره أن يكون في كان ضمير الأمر والشأن ، فأما في الآية فلا يكون بجملة فيها محذوف ، وفي هذا كله نظر . والوقف على ما ذهب إليه جمهور الناس في قوله تعالى : [وَيَخْتَارُ] ، وعلى ما ذهب إليه الطبري لا يوقف على ذلك .

ويَتَّجِه عندي أن تكون [مَا] مفعولة إذا قدرنا [كَانَ] تامة ، أي أن الله تعالى يختار كل كائن ، ولا يكون شيء إلا بإذنه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ جملة مستأنفة معناها تعديد النعمة عليهم في اختيار الله تعالى لهم لو قبلوا وفهموا .

= إنه يراودني عن نفسه ، فغضب أبوه من ذلك غضباً شديداً ، وضربه ضرباً عنيفاً ، ثم ضربه بالسيف ، فلما رأت امرأة أبيه ذلك وقعت عليه وكفت أباه عنه ، ولما رأت جراحه بكت ، فقال عنتره هذه الأبيات ، والقصة في الأغاني عن الأخفش الصغير ، وتذريف : من ذرفت عليه عينه تذرف ذريفاً ، وهو الدمع الذي يكاد يتصل في نزوله ، وقوله : (لو كان ذا منك قبل اليوم معروف) يريد أنه ينكره منها اليوم ، ولو كان معروفاً منها قبل ذلك لما أنكره . والشاهد أنه جعل قوله (معروف) خبراً بعد الصفة التي في الجار والمجرور (مِنْكَ) ، وهي خبر عن (ذا) . كأنه يقول : إن حرف الصفة موضوع موضع ضمير مبتدئ ، و (معروف) خبره ، وفي هذا كثير من التعسف والتكلف ، على أن رواية البيت في الديوان هي : (لو أن ذا مِنْكَ قبل اليوم معروف) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه كما قال ابن عطية ، والشاهد يأتي على رواية القاسم بن معن القاضي التي ذكرها الفراء ، والبيت غير مذكور في (معاني القرآن) للفراء ، ولعله ذكره في كتاب آخر له .

قوله عز وجل :

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ
اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
﴿٦٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ
اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ذكر تعالى في هذه الآيات أموراً يشهد عقل كل مفطور بأن الأصنام لا شركة لها فيها ، فمنها علم ما في النفس وما يهجس بالخواطر . و [تُكِنُّ] معناه : تستر ، وقرأ ابن محيصة : [تُكِنُّ] بفتح التاء وضم الكاف ، وعبر عن القلب بالصدر حيث كان محتويّاً عليه ، ومعنى الآية أن الله تعالى يعلم السرّ والإعلان .

ثم أفرد نفسه بالألوهية ونفاها عما سواه ، وأخبر أن الحمد له في الدنيا والآخرة ؛ إذ له الصفات التي تقتضي ذلك ، والحكم له . وهو - في هذا الموضع - الفصل والقضاء في الأمر ، ثم أخبر تعالى بالرجعة إليه والحشر .

ثم أخبر تعالى نبيه أن يوقفهم على أمر الليل والنهار ، وما منح الله تعالى فيهما من المصالح والمرافق ، وأن يوقفهم على إنعامه تعالى

بتوفيق الليل والنهار ، وأنه لو مدَّ أحدهما سرمداً لما وجد من يأتي بالآخر . و « السَّرْمَد » من الأشياء : الدائم الذي لا ينقطع . وقرأت فرقة هي الجمهور : [بِضِيَاءٍ] بالياء ، وقرأ ابن كثير في رواية قبل : [بِضِيَاءٍ] بهمزتين ، وضعفه أبو علي . ثم ذكر عزَّ وجلَّ انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاء الفضل بالمشي والتصرف ، وهذا هو الغالب في أمر الليل والنهار ، فعدَّد النعمة بالأغلب ، وإن وُجد من يسكن بالنهار وابتغي فضل الله بالليل فشاؤ نادرٌ لا يُعتدُّ به . وقال بعض الناس : قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ إنما عبر به عن الزمان ، فكأنه لم يقصد لتقسيم ، أي : في هذا الوقت الذي هو ليلٌ ونهارٌ يقع السكون وابتغاء الفضل .

وقوله : [وَلَعَلَّكُمْ] أي على نظر البشر ، من يرى هذا التلطف والرفق يرى أن ذلك يستدعي الشكر ولا بُدَّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٥﴾ وَتَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

التقدير : واذكر يوم يناديهم ، وكرر هذا المعنى إبلاغاً وتحذيراً ، وهذا النداء عند ظهور كل ما وعد الرحمنُ على ألسنة المرسلين من وجوب الرحمة لقوم والعذاب لآخرين ، ومن خضوع كل جبار ودُّلَّة

لعزة رب العالمين ، فيتوجه حينئذ توبيخ الكفار ، فيقول الله تعالى لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ على معنى التقرير .

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يُخرج في ذلك اليوم من كل أمة شهيداً يُمَيِّزُ بينه وبين الناس ، وهذا هو النَّزْعُ ، أي : يُمَيِّزُ بين شيئين فينزع أحدهما من الآخر ، وقال مجاهد : أراد بـ «الشَّهيد» الذي يشهد على أمته ، وقال الرماني : وقيل : أراد عُدولاً من الأُمم وأخياراً (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهم حملة الحججة الذين لا يخلو منهم زمن ، و «الشَّهيدُ» - على هذا التأويل - اسم الجنس ، وفي هذا الموضع حذف يدل عليه الظاهر ، تقديره : يشهد الشهيد على الأُمة بخيرها وشرها ، فيحق العذاب على من كفر ، ويقال لهم - على جهة استبراء الحجَّة والإعذار في المحاولة - : ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ ، أي حجتكم على ما كنتم عليه في الدنيا إن كان لكم ، فيسقط حينئذ في أيديهم ، ويعلمون أن الحق متوجه له سبحانه عليهم في تعذيبهم ، وينكشف لهم ما كانوا بسبيله في الدنيا من كذب مختلق وزور في قولهم للأصنام : هذه آلهة ، وفي تكذيبهم الرُّسل ،

(١) أظهر الأقوال في المراد بالشهيد أنه نبي كل أمة ، لأنه هو الذي يشهد على قومه ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ ، قال العلماء : والشهيد : الحاضر ، فيكون المعنى : أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم .

وغير ذلك . ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إرادة الحكم :
أبقيت لك حجة ؟

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا قَرُونٌ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِينِ ﴿٧٧﴾ ﴾

قارون : اسم أعجمي ، فلذلك لم ينصرف ، واختلف الناس في قرابة قارون لموسى عليه السلام - فقال ابن إسحق : هو عمه ، وقال ابن جريج ، وإبراهيم النخعي : هو ابن عمه ، وهذا أشهر ، وقيل : ابن خالته ، فهو بإجماع رجل من بني إسرائيل ، كان ممن آمن بموسى ، وحفظ التوراة ، وكان من أقرأ الناس لها ، وكان عند موسى عليه السلام من عباد المؤمنين ، ثم لحقه الزهو والإعجاب ، فبغى على قومه بأنواع من البغي ، فمن ذلك كفره بموسى واستخفافه به ، ومطالبته له بأن يجعل له شيئاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

إنه عمد إلى امرأة مُوسَى (٢) ذات جمال ، وقال لها : أنا أحسنُ إليك ، وأحفظك في أهلي على أن تجيئي في مَلَأٍ من بني إسرائيل عندي فتقولِي: يا قارون اكفني أمر موسى فإنه يتعرض لي في نفسي ، فجاءت المرأة ، فلما وقفت على المَلَأِ أحدث الله تعالى لها توبة ، فقالت : يا بني إسرائيل ، إن قارون قال لي كذا وكذا ، ففضحته في جميع القصة ، وبرأ الله بقدرته نبيه موسى عليه السلام من مطالبته ، وقيل : بل قالت المرأة ذلك عن موسى ، فلما بلغه الخبر وقف بالمرأة بمحضر من بني إسرائيل ، فقالت : يا نبي الله ، كذبتُ أنا عليك ، وإنما دفعني قارون إلى هذه المقالة . وكان من بغيه أنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس ، قاله شهر بن حوشب ، إلى غير ذلك مما يصدر عن فسد اعتقاده ، وكان من أعظم الناس مالاً ، وسميت أمواله كنوزاً إذ كان ممنوعاً من أداء الزكاة ، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أول عداوته .

والمفاتيح : ظاهرها أنها التي يفتح بها ، ويحتمل أن يريد بها الخزائن والأوعية الكبار ، قاله الضحاك : لأن المفتاح في كلام العرب الخزانة (٢).

(١) يقال : امرأة مُومِسٌ ومُومِسَةٌ : فاجرة جهاراً ، (عن اللسان) .

(٢) المفاتيح : جمع مِفْتَحٍ بالكسر ، وهو ما يُفْتَحُ به ، وأما من قال : إن المفاتيح هي الخزائن فواحدها مَفْتَحٌ بالفتح ، (راجع اللسان) قال : « المِفْتَحُ والمِفْتَحُ : مفتاح الباب ، وكل ما فتح به - والمَفْتَحُ : الخِزَانَةُ ، وعن الجوهري : المَفْتَحُ : الكَنْزُ . »

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأكثرَ المفسرون في شأن قارون ، فروي عن خيشمة أنه قال :
نجد في الإنجيل مكتوباً : « إن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل ،
وكان المفتاح نصف شبر ، وكانت وقر ستين بغلاً أو بعيراً ، لكل
مفتاح كنز » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وروي غير هذا مما يقرب منه ، وذلك كله ضعيف ، والمنظر يشهد
بفساد هذا ، ومن الذي كان يميز بعضها من بعض ؟ وما الداعي
لهذا ؛ وفي الممكن أن ترجع كلها إلى ما يحصى ويقدر على حمله بسهولة ؟
وكان يلزم - على هذا - أن تكون « مفاتيح » بياض ، وهي قراءة الأعمش ،
والذي يشبهه هو : إما أن تكون المفاتيح من الحديد ونحوه ، وعلى هذا
تنوء بالعصبة ؛ إذ كانت كثيرة لكثرة مخازنه ، أو تكون « المفاتيح »
الخزائن ، قال أبو صالح : كانت خزائنه تحمل على أربعين بغلاً .
وأما قوله : [تنوء] فمعناه : تنهض بتحامل ، ومن ذلك قول الشاعر
يصف رامياً :

حَتَّى إِذَا مَا التَّامَتْ مَفَاصِلُهُ وَنَاءً فِي شِقِّ الشَّمَالِ كَاهِلُهُ (١)

(١) استشهد الفراء بهذين البيتين على رأيه في معنى قوله تعالى : ﴿ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ ﴾ ،
قال : نوؤها بالعصبة أن تثقلهم ، أي : تُميلهم من ثقلها ، فإذا أدخلت الباء قلت : تنوء
بهم وتئيء بهم ، كما قال : ﴿ آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ ، والمعنى : ائتوني -

والوجه أن يقال : إن العُصْبَةَ تنوؤٌ بالمفاتيح المثقلة لها ، وكذلك قال كثير من المتأولين : إن المراد هذا ، لكنه قلب كما تفعل العرب كثيراً ، فمن ذلك قول الشاعر :

فَدَيْتُ بِنَفْسِي وَمَالِي وَمَا آلُوكَ إِلَّا مَا أُطِيقُ (١)

= بِقِطْرٍ أَفْرَغَ عَلَيْهِ ، فإذا حذفَت الباءَ زدتَ في الفعل ألفاً في أوله ، ومثله : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴾ ، معناه : فجاءَ بها المخاضُ ، وقد قال رجلٌ من أهل العربية : إن المعنى : ما إنَّ العُصْبَةَ لَتَنوؤٌ بمفاتيحها ، فحول الفعل إلى المفاتيح ، كما قال الشاعر :

إِنَّ سِرَاجاً لِكَرِيمٍ مَفْخَرُهُ تَحْتَلِي بِهِ الْعَيْنُ إِذَا مَا تَجَهَّرُهُ

وهو الذي يَحْتَلِي بالعين ، فإن كان الرجل قد سمع أثراً بهذا فهو الوجه ، وإلا فإن الرجل جهل المعنى ، وأنشدني بعض العرب :

حَتَّى إِذَا مَا التَّامَّتْ مَوَاصِلُهُ وَنَاءَ فِي شِقِّ الشَّمَالِ كَنَاهِلُهُ

يعني الرامي لما أخذ القوسَ ونزعَ مالَ على شِقِّهِ ، فذلك نَوؤُهُ عليها ، ونرى أن قول العرب : « ما ساءك وناءك » من ذلك ، ومعناه : ما ساءك وأناءك ، إلا أنه ألقى الألف ، لأنه مُتَّبِع لـ « ساءك » ، كما قالت العرب : أَكَلْتُ طَعَاماً فَهَتَّأَنِي وَمَرَّأَنِي ، ومعناه - إذا أفردت - : وأمراًئِي ، فحذفت منه الألف لما أن أتبعَ ما لا ألف فيه . وقد استشهد بهما أيضاً الطبري ، ونقل كلام الفراء بنصه ، وكذلك نقل صاحب اللسان كلام الفراء كاملاً مع ما استشهد به ، هذا والرواية كما في أصول ابن عطية : « التَّامَّتْ مَوَاصِلُهُ » ، وفي بعض النسخ : « اعتدلت مفاصله » ، وفي معاني القرآن واللسان : « التَّامَّتْ مَوَاصِلُهُ » .

(١) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في « مجاز القرآن » ، قال : ﴿ مَا إِنْ مَفَاتِحَهُ لَتَنوؤٌ ﴾ ، أي : مفاتيح خزائنه ، ومجازه : ما إنَّ العُصْبَةَ ذوي القوة لَتَنوؤٌ بمفاتيح نعمه ، يقال في الكلام : (إنها لتنوؤ بها عَجِيزَتُهَا) ، وإنما هي تنوؤٌ بعجزتها ، كما ينوؤ البعير بحمله ، والعرب قد تفعل هذا ، قال : فَدَيْتُ بِنَفْسِي ... البيت ، ومعنى البيت : فدبت بنفسه بنفسي ومالي ، لكن الشاعر قَتَّاب ، أما قوله : (ما آلُوكَ) فمعناه : ما أستطيع ، يقال : جاءني فلانٌ في حاجةٍ فما استطعتُ ردهً ، وأتاني في حاجةٍ فَأَلَوْتُ فيها ، أي : اجتهدت . وفي الشطر الثاني التفتُّ من الغيبة إلى التكلم ، فقد تحدث أولاً عن حبيبه بضمير الغيبة ، ثم التفت فتحدث بضمير الخطاب في قوله : آلُوكَ .

وقول الآخر :

وَتَرَكَبُ خَيْلًا لَا هَوَادَّةَ بَيْنَهَا وَتَشْقَى الرَّمَاحُ بِالضِّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ (١)

وهذا البيت لا حُجَّةَ فيه ؛ إذ يتَّجه على وجهه فتأمله ، ومن ذلك

قول الآخر :

مَا كُنْتَ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانَ مُغَمَّرًا إِذْ شَبَّ حَرُّ وَقُودِهَا أَجْدَالَهَا (٢)

(١) قال هذا البيت خيدآشُ بنُ زهير بن صعصعة ، من شعراء قيس المجيدين في الجاهلية ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يره ، والبيت في (اللسان - ضطر) ، والضياطرة : جمع ضيَطر ، وهم العظماء من الرجال ، ومن كلام الإمام علي رضي الله عنه : « من يعذرني مع هؤلاء الضياطرة » ، والمعنى في البيت أن الضياطرة الحُمْر يشقون بالرماح ، يعني : يُقتلون بها ، لكن الشاعر قلب وجعل الرِّمَاح هي التي تشقى بالضياطرة ، وهذا هو الشاهد ، على أن ابن عطية يقول : « هذا البيت لا حُجَّةَ فيه ؛ إذ يتَّجه على وجهه » ، يعني يصح أن يقال : إن الرماح تشقى بهم فعلا ؛ لأنهم لا يحسنون حملها ولا القتال بها ، وعلى هذا المعنى لا حُجَّةَ في البيت ولا شاهد ، وقول الشاعر : لا هوادة بينها ، يعني لا موادة ولا مصالحة . وقد وضَّح ابن سيده الاحتمالين في البيت ، ونقل ذلك صاحب اللسان .

(٢) البيت للأعشى ، قيس بن ميمون بن ثعلبة ، قاله من قصيدة يمدح بها قيس بن معديكرب ، وقبله يقول :

فَتَأْتَمَّرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهُورَ عِلَامَةً قَدَرًا ، فَبَيَّنَ نِصْفَهَا وَهَلَالَهَا

والحربُ العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة ، كأنهم جعلوا المرة الأولى بكرًا ، والمُغَمَّرُ : الجاهل الذي لم يُجَرَّبْ الأمور ، وشبَّ النار : أوقدَها ، والأجدال : جمع جذل ، وهو ما عظم من أصول الشجر المقطوع يُجعل حطباً ووقوداً للنار ، يقول الشاعر : أقسم بمن جعل الشهور علامة للناس أنك ما كنت في الحرب الشديدة التي تتكرر مرة بعد مرة جاهلا بأمورها وإدارتها حتى تنتصر على الأعداء حين أوقد حرها الأجدال ، وهنا يكون الشاهد ، إذ أن الحطب الجذل ، أو أجدال الشجر هي التي تشب حرَّ النَّار ، ولكن الشاعر قلب المعنى ، وجعل حرَّ النار هو الذي يوقد الأجدال والحطب .

وقال سيبويه والخليل : التقدير : لَتُنِيءُ الْعُصْبَةَ ، فجعل بدل ذلك تعدية الفعل بحرف الجر ، كما تقول : نَاءَ الْحِمْلُ وَأَنَاتُهُ وَنَوْتُ بِهِ بِمَعْنَى : جعلته يَنْوُّ ، والعرب تقول : نَاءَ الْحِمْلُ بِالْبَعِيرِ إِذَا أَثْقَلَهُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يُسْنَدَ [تَنْوُّ] إلى المفاتيح مجازاً ، لأنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها ، وهذا مطرد في قولهم : نَاءَ الْحِمْلُ بِالْبَعِيرِ ، ونحوه ، فتأمله .

واختلف الناس في «العُصْبَةَ» ، كم هي ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ثلاثة ، وقال قتادة : العُصْبَةُ : من العشرة إلى الأربعين ، وقال مجاهد : خمسة عشر ، وقيل : أحد عشر حملاً على إخوة يوسف ، وقيل : أربعون .

وقرأ بُدَيْلُ بْنُ مَيْسَرَةَ : [لَيْنُو] بالياء ، ووجهها أبو الفتح على علي أنه يقرأ : [مَفَاتِحُهُ] جمعاً (١) ، وذكر أبو عمرو الداني أن بُدَيْلَ

(١) قال أبو الفتح : كأنه ذهب إلى «ذلك القَدْرُ والمَبْلَغُ» ، فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه ، ومثله قول الراجز :

• مِثْلُ الْفِرَاحِ نُتِفَتِ حَوَاصِلُهُ •

أي حواصل ذلك ، أو حواصل ما ذكرنا ، وأخبرنا شيخنا أبو علي قال : قال أبو عبيدة لرؤية في قوله :

ابن ميسرة قرأ : ﴿ مَا إِنَّ مِفْتَاحَهُ ﴾ على الأفراد ، فيستغنى على هذا عن توجيه أبي الفتح .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ متعلق بقوله : [فَبَغَى] (١) ، ونهوه عن الفرح المطغي الذي هو انهماك وانحلال نفس وأشر وإعجاب ، و [لَا يُحِبُّ] - في هذا الموضع - صفة فعل (٢) ؛ لأنه أمر قد وقع فمحال أن يرجع إلى الإرادة ، وإنما هو لا يُظهر عليهم بركته ، ولا يهبهم رحمته . ثم وصوه بأن يطلب بما له رضى الله وآخوته . وقولهم : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ اختلف المتأولون فيه - فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - والجمهور : معناه : لا تضيع عمرك في الآل تعمل عملاً صالحاً في دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فينبغي ألا تهمله .

= فيها خُطوطٌ مِن سَوَادٍ وَبَلَقَ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّجُ النَّبَهَقِ
 إن كنت أردت الخطوط فقل : كأنها ، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل : كأنهما ، فقال
 رؤبة : أردت : كأن ذلك ، ويملك ، هذا مجموع الحكاية .

(١) قال أبو حيان في البحر : « وهذا ضعيف لأن بغيه لم يكن مُقَيِّداً بذلك الوقت » ، وقال الزمخشري : « ومحل [إذ] منصوب بـ [تَسْوَأُ] . وعلق عليه أبو حيان أيضاً فقال : « وهذا ضعيف جداً لأن إنقال المفاتيح العصبية ليس مُقَيِّداً بوقت قول قومه : ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ ، وفي رأي الخوفي أن [إذ] منصوب بمحذوف تقديره : اذكر .

(٢) أي : ليست صفة ذات بمعنى الإرادة ، لأن الفرح أمر قد وقع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالكلام كله - على هذا التأويل - شدة في الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه : ولا تُضيع حظك أيضاً من دنياك في تمتعك بالحلال بطلبك إياه ، ونظرك إلى عاقبة دنياك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالكلام - على هذا التأويل - هو في الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعظة خشية النبوة من الشدة . وقال الحسن : معناه : قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به ، وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف ، وحكى الثعلبي أنه قيل : أرادو بنصيبه الكفن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وعظ متصل كأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن ، ونحو هذا قول الشاعر :

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ رِدَاعَانِ تُلَوَّى فِيهِمَا وَحَنُوطٌ (١)

(١) تُلَوَّى : تُلَفُّ ، وقد يكون في اللَّيِّ معنى السَّتْرِ ، وَالْحَنُوطُ وَالْحِنَاطُ : كلُّ ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وصندل وكافور وعنبر . ومثل هذا البيت قول الشاعر :

وهي القننعة لا تبغي بها بدلا
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعتها
فيها النعيم وفيها راحة البدن
هل راح منها بغير القطن والكفن؟

وقوله : ﴿وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أمر بصلة المساكين وذوي الحاجة . وباقي الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَلدُّنْيَا لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

القائل قارون لما وعظه قومه وندبوه إلى اتقاء الله تعالى في المال الذي أعطاه تفضلاً منه عليه ، أخذته العزة بالإثم فأعجب بنفسه ، وقال لهم على جهة الرد عليهم والروغان مما ألزموه فيه : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ، ولكلامه هذا وجهان يحملهما ، وبكل واحد منهما قالت فرقة من المفسرين :

فقال الجمهور منهم : إنه ادعى أن عنده علماً استوجب به أن يكون ذلك النعيم له ولذلك المال ، ثم اختلفوا في العلم الذي أشار إليه ، ما هو ؟ فقال بعضهم : علم التوراة وحفظها ، قالوا : وكانت

هذه مغالطة منه ورياءً ، وقال أبو سليمان الداراني (١) : أراد العلم بالتجارات ووجوه تمييز المال ، فكأنه قال : أوتيته بإدراكي ويسعي ، وقال ابن المسيب : أراد علم الكيمياء . وقال ابن زيد (٢) وغيره : إنما أراد : أوتيته على علم من الله تعالى وتخصيص من لدنه قصدني به ، فلا يلزمي فيه شيء مما قلتم ، ثم جعل قوله : [عندي] كما تقول : « في معتقدي وعلى ما أراه » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى كلا الاحتمالين معاً فقد نبه القرآن على خطئه في اغتراره ، وعارض منزهه بأن من معلومات الناس المتحققة عندهم أن الله تعالى قد أهلك من الأمم والقرون والملوك من هو أشد من قارون قوة وأكثر جمعاً ، إما للمال أو للحاشية . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يرجح أن قارون تشبّع بعلم نفسه على زعمه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ . قال محمد ابن كعب : هو كلام متصل بمعنى ما قبله ، والضمير في [ذُنُوبِهِمْ] عائدٌ على مَنْ أهلك من القرون ، أي : أهلكوا ولم يُسأل غيرهم

(١) في البحر المحيط : أبو سليمان الداني .

(٢) هذا هو الاحتمال الثاني ، والاحتمال الأول هو الذي قال به الجمهور .

بعدهم عن ذنوبهم ، أي : كلُّ أحدٍ إنما يُسألُ ويعاقبُ بحسب ما يخصه .
وقالت فرقة : هو إخبارٌ مستأنفٌ عن حالهم يوم القيامة ، معناه أن
المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم ، أي أن الملائكة لا تسأل عن ذنوبهم ؛
لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السواد والتشويه ونحو ذلك ، كقوله
تبارك وتعالى : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي آيات الله ما يقتضي أن الناس يوم القيامة يُسألون ، كقوله
تبارك وتعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُؤُونَ ﴾ (٢) ، وغير ذلك ، وفيه
آيات تقتضي أنه لا يُسأل أحدٌ ، كقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ
عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٣) ، وغير ذلك ، ويمكن أن تكون الآيات
التي توجب السؤال إنما يريد بها أسئلة التوبيخ والتقدير ، والذي ينفيه
يراد بها أسئلة الاستفهام على جهة الحاجة إلى علم ذلك من المسؤولين ،
أي أن ذلك لا يقع ؛ لأن العلم بهم محيط ، وسؤال التوبيخ غير
مُعْتَدٌ بِهِ .

(١) من الآية (٤١) من سورة (الرحمن) .

(٢) الآية (٢٤) من سورة (الصفّات) .

(٣) الآية (٣٩) من سورة (الرحمن) .

ثم أخبر تعالى أن قارون خرج على قومه وقد أظهر قدرته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا ، قال جابر ومجاهد : خرج في ثياب حمر ، وقال ابن زيد : خرج هو وحشمه في ثياب مُعَصْفرة^(١) ، وقيل : في ثياب الأُرْجوان^(٢) ، وقيل غير هذا ، وأكثر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها - مما لا صحة له - فاختصرته ، وباقى الآية في اغترار الجهلة والأغمار^(٣) من الناس بين .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(١) الثيابُ المعصفرة هي التي صبغت بالمعصفر ، وهو نبات صيفي من الفصيلة المركبة أنبوية الزهر ، ويستعمل زهره تابلاً ، ومنه يستخرج صبغ أحمر يُصبغ به الحرير ونحوه ، (المجمع الوسيط عن المجمع اللغوي) .

(٢) الأُرْجوان: الصبغ الأحمر ، أو الثوب المصبوغ به ، يقال : أحمر أرجواني : قان (مع) .

(٣) الأغمار : جمع غممر ، والرجل الغممر هو الذي لم يجرب الأمور ، أو الذي أصابته الغمرة ، وهي الضلالة التي تغمر صاحبها .

أخبر تعالى عن الذين أوتوا العلم والمعرفة بالله تعالى وبحق طاعته والإيمان به أَنَّهُمْ زَجَرُوا الْأَعْمَارَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا حَالَ قَارُونَ ، وحملوهم على الطريقة المثلَى من أَن النظر والتَمَنَّى إنما يكون في أمور الآخرة ، وَأَن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ثواب الله خَيْرٌ من حال كلِّ ذي دنيا . ثم أخبر تعالى عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير في الدين أَنَّهُ لَا يُلَقَّاهَا ، أَي : لَا يُمَكِّنُ مِنْهَا وَيُخَوِّلُهَا إِلَّا الصَّابِرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وعن شهوات نفسه ، وهذا هو جماعُ الخير كله ، والضمير في [يُلَقَّاهَا] عائد على ما لم يتقدم له ذكر من حيثُ الكلامُ دالٌّ عليه ، فلذلك يجري مجرى : ﴿ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (١) ، و ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَِا فَاِنَّ ﴾ (٢) . وقال الطبري : الضمير عائد على الكلمة ، وهي قوله : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ، أَي : لَا يُلَقَّى هذه الكلمة إِلَّا الصابرون ، وعنهم تصدر .

وروي في الخسف بقارون وداره أَن موسى عليه السلام لما أمَّضه فعلُ قارون به ، وتعدَّيه عليه ، ورميه بأمر المرأة ، وغير ذلك من فعله ، استجار بالله تعالى وبكى وطلب النصرة ، فأوحى الله تعالى إليه : لَا تَهْتَمُ فَإِنِّي أَمَرْتُ الْأَرْضَ أَنْ تَطِيعَكَ فِي قَارُونَ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ،

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) ، فمن الواضح المعروف أن الضمير يعود على الشمس .

(٢) الآية (٢٦) من سورة (الرحمن) ، ومن المعروف أن الضمير يعود على الأرض .

فقال موسى عليه السلام للأرض : خُذِيهِمْ ، فَأَخَذَتْ مِنْهُمْ إِلَى الرَّكْبِ ،
 فاستغاثوا بموسى ، يا موسى ، فقال : خُذِيهِمْ ، فَأَخَذَتْهُمْ شَيْئاً فَشِيئاً ،
 وهم يستغيثونَ به كلَّ مرَّةٍ ، وهو يُلجُّ إلى أن تَمَّ الخسفَ بهم ، فأوحى
 اللهُ تعالى إليه : يا موسى ، استغاثوا بك فلم ترحمهم ، لَوْ بِي استغاثوا
 وَإِلَيَّ تابوا لرحمتهم وكشفت ما بهم ، وقال قتادة ، ومالك بن دينار :
 رُوي لنا أنه يخسف به كل يوم قامة فهو يتجلجل إلى يوم القيامة .
 و «الْفَيْئَةُ» : الجماعة الناصرة التي يفِيءُ إليها الإنسان الطالب
 للنُّصرة .

وقصة قارون هي بَعْدَ جوازهم اليمِّ ؛ لَأَنَّ الرُّوَاةَ ذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ
 مِنْ حَفِظِ التَّوْرَةِ ، وَكَانَ يَقْرَأُهَا .

ثم أخبر تعالى عن حال الذين تمنَّوا مكانه بالأمس ، وندمهم
 واستشعارهم أن الحول والقوة لله تعالى ، وقوله : [وَيَكَّانَ] ، مذهب
 سيبويه والخليل أن (وَيَ) حرف تنبيه ، وهي منفصلة عن (كَانَ) ،
 لكن أُضيفت في الكتابة لكثرة الاستعمال ، [والمعنى أن القوم انتبهوا
 فتكلموا على قدر علمهم ، أو نُبِّهُوا فقبل لهم : أما يُشبه أن يكون هذا
 عندكم هكذا] (١) ، فقالوا على جهة التَّعَجُّبِ والتَّندِمِ : فَإِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ .

(١) الكلام ما بين العلامتين [....] غير واضح في الأصل ، وفيه تخليط ، وقد نقلناه
 مصوباً عن الكتاب لسبويه (٢-١٥٥) .

وقال أبو حاتم وجماعة من النحويين : (وَيْكَ) هي وَيْلَكَ ،
 حذفت لامه (١) وجرت في الكلام كذلك ، ومنه قول عنتره :
 وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ : وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِم (٢)
 فكأن المعنى : وَيْلَكَ ، اعلم أَنَّ الله ، ونحو هذا من الإضمار للفعل (٣) .
 وقالت فرقة من النحويين : [وَيْكَانَ] بِجُمَلِهَا دُونَ تَقْدِيرِ انْفِصَالٍ -
 كَلِمَةٌ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ : أَلَمْ تَرَ أَنَّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وَيَقَوَى الانفصال فيها على ما قاله سيبويه ؛ لأنها تجيء مع (أَنَّ)
 ومع (أَنَّ) ، وأنشد سيبويه :

(١) سقطت كلمة (لامه) من الأصل ، والمعنى يقتضيها .
 (٢) البيت من معلقته المعروفة ، وشَفَى نَفْسِي : اشتفيت حيث قالوا لي أَقْدِم فَأَقْدِمْتُ ،
 ويقال : سَقِمَ وَسَقِمَ ، مثل : عُدِمَ وَعُدِمَ ، وَنُجِلَ وَنُجِلَ ، و (وَيْكَ) معناه :
 وَيْلَكَ ، فأسقط اللام ، وهو الشاهد هنا ، و (قِيلُ) فاعل بالفعل شَفَى ، و (عَنْتَرُ)
 فيه فتحُ الراءِ على الترخيم ، وضمُّها على أنه منادى مفرد ، وموضع (أَقْدِم) مجزوم على الأمر ،
 والياء فيه عند من أثبتها صلةً لكسر الميم ، كقول امرئ القيس : (أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ
 أَلَا انْجَلِي) ، قاله الأنباري في شرح القصائد السبع . والذي قال له أَقْدِم أبوه ، قال له :
 وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِم ، فقال : العبد لا يُحسن الكرَّ ، إلا الحكَّابَ والصَّرَّ ، فلما اشتدت المعركة
 وخاف أن يضيع كل شيء قال له : أَيُّ بُنْيَّ : أما تَرَى ؟ قال عنتره : الآنَ نَعَم ، وعندها
 قال : وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا .

(٣) أنكر النحاس وجماعة ذلك ، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه ؛ لأن القوم لم يخاطبوا
 أحداً فيقولوا له : ويلىك ، ولو كان كذلك لكان : إنَّه بكسر الهمزة ، وأيضاً فإن حذف اللام
 من (وَيْلَكَ) لا يجوز . وقد نقل القرطبي ذلك .

وَيِ كَأَنَّ مِنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحِبُّ بَبٌ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشُ عَيْشَ ضُرٍّ (١)
وهذا البيت لزيد بن عمرو بن نُفَيْل .

وقرأ الأعمش : ﴿لَوْلَا مَنْ أَلَّه﴾ بحذف (أَنْ) ، ورؤي عنه :
﴿لَوْلَا مَنْ﴾ برفع النون ، وبالإضافة إلى [أَلَّه] . وقرأ الجمهور :
[لَخُسِفَ] بضم الخاء وكسر السين ، وقرأ عاصم بفتح الخاء والسين ،

(١) البيت في اللسان ، والكتاب ، وابن يعيش ، والمتمتع ، والأشُموني ، والخزانه ،
والخصائص ، وشرح شواهد الشافية ، وعيون الأخبار ، والبُحلاء ، وشرح القصائد السبع
الطوال للأبباري ، وفيها أن الشاعر هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وقيل : إنه لنيبه
ابن الحجاج ، وقبل البيت بقول الشاعر :

تِلْكَ عِرْسَايَ تَنْطِقَانِ عَلَيَّ الْعَهْ
دِ إِلَى الْيَوْمِ قَوْلَ زُورٍ وَهَيْتُرِ
سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأْتَانِي قَلَّ مَالِي ، قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرٍ

الهِتُرُ : الباطل ، والسقط من الكلام ، والكذب ، والأمر العجب . وكل هذا وارد هنا .
وعلى هذا فالضمير في (سَأَلْتَانِي) يعود على زوجته في البيت الأول ، وسأل مخفف من سأل
بإبدال همزة ألفاً ، والنُّكْرُ بضم النون هو المنكر . والنَّشَبُ : المال ، والشاهد فيه أن [وَيَكُنْ] [وَيَكُنْ] [وَيَكُنْ]
عند الخليل وسيبويه مركبة من (وَيِ) للتنبيه ، و (كَأَنَّ) للتشبيه ، وابن عطية يختار هذا الرأي
لأن (كَأَنَّ) هنا جاءت بالنون الساكنة الخفيفة ، وقد استشهد بالبيت كل من الطبري والقرطبي
والبحر ، وهو في معاني القرآن للفراء ، ولكنه يرى أن قوله تعالى : [وَيَكُنْ] [وَيَكُنْ] [وَيَكُنْ]
أما ترى إلى صنع الله ؟ - قال : وأخبرني شيخ من أهل البصرة ، قال سمعتُ أعرابية تقول
لزوجها : أبن ابْنِكْ وَيَلْتِكْ ؟ فقال : وَيَكُنْ أَنَّهُ وراء البيت ، معناه : أما تَرَيْنَهُ وراء البيت ؟
وقد يذهبُ بعض النحويِّين إلى أنهما كلمتان ، يريد : وَيَكُنْ أَنَّهُ ، أراد : وَيَلْتِكْ ، فحذف
اللام وجعل (أَنَّ) مفتوحةً بفعل مضمر ، كأنه قال : ويكُنْ ، اعلم أَنَّهُ وراء البيت ، فأضمر
(اعلم) ، ولم نجد العرب تُعمل الظنَّ والعلم بإضمار مضمر في أَنَّ .

وقرأ الأعمش ، وطلحة بن مصرف : «لَا نُخْسِفُ» كأنه فعل مطاوع أراد به أن الأرض كانت منفعة ، وروى عن الكسائي أنه كان يقف على [وَيَ] ، ويبتدئ [كَأَنَّ] ، وروى عنه الوصل كالجماعة ، وروى عن أبي عمرو أنه كان يقف على [وَيْكَ] ، ويبتدئ (إِنَّ اللَّهَ) ، وعلى هذا المعنى قال الحسن : إن شئت : «وَيْكَ أَنْ» أو «وَيْكَ إِنَّ» بفتح الهمزة وبكسرها ، فكذلك في [وَيْكَأَنَّهُ] .

قوله عز وجل :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلَاقِيَكَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴿٨٦﴾ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾

هذا إخبار مستأنف من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، يُراد به إخبار جميع العالم وحضهم على السير بحسب ما تضمنته الآية ، وهذا الحضر يتضمن الإنحاء على قارون ونظرائه ، والمعنى

أَنَّ الآخِرَةَ لَيْسَتْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ قَارُونَ ، إِنَّمَا هِيَ لِمَنْ صَفَتْهُ كَذَا وَكَذَا .
و « الْعُلُوُّ » مَذْمُومٌ ، وَهُوَ الظُّلْمُ وَالتَّجَبُّرُ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
(وَذَلِكَ أَنْ تُرِيدَ أَنْ يَكُونَ شَرَاكَ نَعْلِكَ أَفْضَلُ مِنْ شَرَاكِ نَعْلِ أَخِيكَ) (١) ،
و « الْفَسَادُ » يَعْمُ جَمِيعَ الْوُجُوهِ مِنَ الشَّرِّ ، وَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ : هُوَ أَخَذَ
الْمَالَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خَبْرٌ مَنْفَعِلٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ مَعْنَاهُ : إِمَّا فِي
الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ وَلَا بُدَّ ، فِيهِ وَصْفٌ أَمْرٌ جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَنَّهُ مِنْ
عَمَلٍ صَالِحٍ فَلَهُ خَيْرٌ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي يَقْتَضِي النَّظْرُ أَنَّهُ مُوَازٍ لِذَلِكَ
الْفِعْلِ ، هَذَا عَلَى أَنْ تُجْعَلَ الْحَسَنَةُ فِي التَّفْضِيلِ ، وَفِي الْقَوْلِ حَذْفُ

(١) أثبت الإمام السيوطي في الدر المنثور هذا القول للإمام علي رضي الله عنه ، قال :
أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب رضي
الله عنه قال : « إن الرجل ليحب أن يكون شيسع نعله أفضل من شيسع نعل صاحبه فيدخل في
هذه الآية : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا ﴾ . » ، ولم نجده بهذا اللفظ مرفوعاً . أما الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم
فهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده (١-٣٩٩) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : (لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان
في قلبه مثقال حبة من كبر) ، فقال رجل : يا رسول الله ، إنني لسيء عجبني أن يكون ثوبي غسيلة ،
ورأسي دهيناً ، وشراكي نعلي جديداً ، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه - أفمن الكبر
ذلك يا رسول الله ؟ قال : (لا ، ذاك الجَمَالُ ، إن الله يحب الجمال . ولكن الكبر من سفه
الحق وازدري الناس) .

مضاف ، أي : مِنْ ثوابها الموازي لها ، ويحتمل أن تكون [مِنْ] لابتداء الغاية ؛ أي : له خير بحسب حسنته وَمِنْ أَجْلِهَا ، وأخبر تبارك وتعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة .
 وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ ﴾ معناه : أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ وَأَثَبْتَهُ ، وَالْفَرَضُ أَصْلُهُ عَمَلٌ فَرَضَهُ فِي عَوْدٍ أَوْ نَحْوِهِ ، فَكَأَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَثَبَتْ وَتَمَكَّنَتْ وَتَبَقَّى تَشْبَهُ ذَلِكَ الْفَرَضِ . وقال مجاهد : معناه : أعطاك القرآن ، وقالت فرقة : في هذا القول حذف مضاف ، والمعنى : فَرَضَ عَلَيْكَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ .

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ - فقال جمهور المتأولين : أراد : إلى الآخرة ، أي : باعثك بعد الموت ، فالآية - على هذا - مقصدها إثبات الحشر ، والإعلامُ بوقوعه . وقال ابن عباس ، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم : وغيرهما : الْمَعَادُ : الجنة ، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة : المعادُ : الموتُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكَأَنَّ الْآيَةَ - على هذا - واعظةٌ ومذكرةٌ .

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد : المعادُ مكة ، وهذه الآية نزلت

بالجحفة ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالآية - على هذا - مُعْلَمَةٌ بغيب قد ظهر للأُمَّة ، ومؤنسة بفتح ،
و «المعاد» : الموضع الذي يعاد إليه ، وقد اشتهر به يوم القيامة لأنه
مَعَادٌ لكل .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ ﴾ الآية ، آية متاركة للكفار وتوبيخ ،
وأسند الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قال : الجنة ،
وسمّاها معاداً إمّا من حيث قد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم في
الإسراء والمعراج وغيره ، وإمّا من حيث قد كان فيها آدم عليه السلام ؛
فهي معادٌ لذريته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قال هذا من حيث تعطي لفظة «المعاد» أن المخاطب قد كان
في حال يعود إليها ، وهذا وإن كان مما يظهر في اللفظة فيتوجه أن
يُسمى معاداً ما لم يكن المرء فيه مجوزاً ؛ ولأنها أحوالٌ تابعة للمعاد
الذي هو النشور من القبر .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو ﴾ الآية . قال بعض المفسرين :

هذا ابتداءً كلام مضمّنه تقدير النعمة على محمد صلى الله عليه وسلم ،

وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ رَحِيمٌ لَمْ يَحْتَسِبْهَا وَلَا بَلَّغَهَا أَمْلُهُ ، وَقَالَ
بَعْضُهُمْ : بَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو ﴾ الْآيَةَ كَلَامٌ مَعْلُقٌ بِقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ أَي : وَأَنْتَ بِحَالٍ مِنْ لَا يَرْجُو
ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُلْقَى إِلَيْكَ ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ إِعْلَانِ النَّبُوءَةِ وَتَبْلِيغِ
الْقُرْآنِ ، كَمَا تَقُولُ : أَلْقَى فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ بِالرِّيَاسَةِ ، وَنَحْوِ هَذَا ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ نَصَبٌ عَلَى اسْتِثْنَاءٍ مُنْقَطِعٍ ،
وَ « الظَّهِيرُ » : الْمُعِينُ ، أَي : اشْتَدَّ يَا مُحَمَّدُ فِي تَبْلِيغِكَ ، وَلَا
تَلِنُ ، وَلَا تَفْشَلُ ، فَتَكُونُ مَعُونَتُهُ لِلْكَافِرِينَ بِهَذَا الْوَجْهِ ، أَي :
بِالْفِتْوَرِ عَنْهُمْ .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَّ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ ٨٨ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ ﴾ أَي : بِأَقْوَالِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَأَذَاهُمْ ،
فَلَا تَلْتَفِتْ نَحْوَهُ وَأَمْضِ لَشَأْنِكَ ، وَقِرَاءُ يَعْقُوبُ : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ ﴾

بجزم النون (١) ، وقوله : ﴿وَأذْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وجميع الآية - يتضمنن المهادنة والموادة ، وهذا كله منسوخ بآية السيف .
وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه من تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطان في أمنيته أمر الغرائيق .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نهي عما هم بسبيله ، فهم المراد وإن عري اللفظ من ذكرهم ، وقوله سبحانه : ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قالت فرقة : هي عبارة عن الذات ، والمعنى : هالك إلا هو ، قاله الطبري وجماعة منهم أبو المعالي رحمه الله ، وقال الزجاج : إلا إياه ، وقال سفيان الثوري : المراد : إلا ما أدي لوجهه ، أي : ما عمل لذاته من طاعة ، وتوجه به نحوه ، ومن هذا قول الشاعر :
رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ (٢)

(١) قراءة الجمهور بشد النون ، وقراءة يعقوب بتسكين النون ، والقراءتان على أن الفعل مضارع (صَدَّ) ، وقرئ [يُصِدُّنَكَ] من (أَصَدَّ) بمعنى (صَدَّ) ، وهي لغة في كلب ، قال ذو الرمة :

أَنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ
صُدُودَ السَّوَاقِي عَنْ أَنْوْفِ الْحَوَائِمِ

(٢) هذا عجز بيت ، وهو من الأبيات الخمسين التي استشهد بها سيبويه ولم يعرف قائلها ، وهو شاهد عند النحويين على أن أصله : (أستغفر الله من ذنب) ، ثم أسقط الجار ، فاتصل =

ومنه قول القائل : «أردتُ بفعلي وجهَ اللهِ تعالى» . ومنه قوله عزَّ وجلَّ :
 ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (١).
 وقوله تعالى : ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي فضل القضاء وإنفاذه في الدنيا
 والآخرة ، وقوله : ﴿وَالِيَهُ تَرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ بالحشرِ والعودة من
 القبور . وقرأ الجمهور : [تُرْجَعُونَ] بالتاء وفتح الجيم ، وقرأ عيسى :
 [يُرْجَعُونَ] بفتح الياء وكسر الجيم ، وقرأ أبو عمرو بالوجهين .

كامل تفسير سورة القصص والحمد لله رب العالمين
 والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

= المجرور بالفعل ، فنصب مفعولا به ، ولكن الشاهد هنا أن الوجه بمعنى : ما عمِل لذات الله ،
 والبيت بتمامه :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ التَّوَجُّهُ وَالْعَمَلُ

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الأنعام) ، ومثلها قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة
 (الكهف) : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة العنكبوت

هذه السورة مكية إلا الصدر منها ، العشر آيات ، فإنها مدنية ،
نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة ، وفي هذا اختلاف (١) .

قوله عز وجل :

﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢٩﴾﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣٠﴾﴾

(١) خلاصة هذا الاختلاف أن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد يقولون : كلها مكية .
وابن عباس في واحد من قولين له ومعه قتادة يقولان : كلها مدنية ، وفي قول آخر لابن عباس
أنها مكية إلا عشر آيات في أولها ؛ فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان بمكة من المسلمين ،
وهو قول يحيى بن سلام . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نزلت بين مكة والمدينة ،
وآياتها تسع وستون آية .

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقرأ ورش :
﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ بفتح الميم من غير همز بعدها ،
وذلك على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على الميم (١) .

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار
من قريش يؤذونهم ويُعذبونهم على الإسلام ، فكانت صدورهم تضيق
لذلك (٢) ، وربما استنكر أن يُمكن الله الكفرة من المؤمنين ، قال مجاهد
وغيره : نزلت هذه الآية مُسَلِّية ومعلّمة أن هذه السيرة هي سيرة الله
تبارك وتعالى في عباده اختباراً للمؤمنين وقتئذ ؛ ليعلم الصادق ويرى
ثواب الله تعالى له ، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية - وإن كانت نزلت بهذا السبب ، وفي هذه الجماعة -
فهي بمعناها باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجودٌ حُكْمُهَا

(١) الأوضح في رسم الكلمات على قراءة ورش هذه أن تكتب هكذا : (ألف لام ميم
حَسِبَ) ، وقد ضعف ابن جني هذه القراءة ؛ لأن حروف التهجّي مبنية على الوقف
في حال الوصل ؛ فإذا كانت في الإدراج ساكنة لم يَلِيقُ بها إلقاء الحركة عليها ؛ لأن إلقاء الحركة
إنما يكون لما من عادته أن يُحرِّك في الوصل لالتقاء الساكنين ، وأنت تقول ﴿مِيمٌ أَحْسِبَ﴾
فتجتمع بين الساكنين ، الياء والميم ، فإذا كان الساكنان يجتمعان في الوصل ضعف إلقاء حركة
الهمزة عليها (راجع المحتسب ٢-١٥٨) .

(٢) قال العلماء : من هؤلاء المؤمنين الذين كانوا بمكة سلمة بن هشام ، وعياش بن أبي
ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وأبوه ياسر ، وأمه سُمَيَّة ، وغيرهم .

بقية الدهر ، وذلك أَنَّ الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكايه العدو وغير ذلك ، وإذا اعتبر أيضاً كلُّ موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ، ولكن التي تُشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه مع أمر العدو في كل ثغر (١) .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في عمار ابن ياسر - ؛ إذ كان يُعذب في الله - ونظرائه . وقال الشعبي : سبب الآية ما كُلفه المؤمنون ، أمَّا الفتنة فهي الهجرة التي لم يتركوا دونها ؛ لا سيما وقد لحقهم بسببها أن اتبعهم الكفار وردوهم وقاتلوهم ، فقتل من قُتل ونجا من نجا . وقال السدي : نزلت في مسلمين كانوا بمكة وكرهوا الجهاد والقتال حين فرض على النبي صلى الله عليه وسلم .

و [حَسِبَ] معناه : ظَنَّ ، و [أَنَّ] نصب بـ [حَسِبَ] ، وهي والجملة التي بعدها تَسُدُّ مسدًّا مفعولي [حَسِبَ] ، و [أَنَّ] الثانية في موضع نصب على تقدير إسقاط حرف الخفض ، وتقديره : «بأن يقولوا» ، ويحتمل أن يقدر : «لأن يقولوا» ، والمعنى في الباء واللام مختلف ، وذلك أنه في الباء كما تقول : «تركت زيدا بحاله» ، وهو

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا ، وعلّق عليه بقوله : «ما أحسن ما قاله ، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه» .

في اللام بمعنى : « مِنْ أَجْلِ » ، أي : حسبوا أن إيمانهم علةٌ للترك .
و (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يريد بهم المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر .
وقرأ الجمهور : [فليعلمن] بفتح الياء واللام الثانية ، ومعنى
ذلك : ليُظهرنَّ علمه ويُوجد ما علمه أزلاً ، وذلك أن علمه بهذا أزلاً
قديم ، وإنما هو عبارة عن الإيجاد بالحالة التي تضمنها العلم القديم ،
والصدق والكذب على بابهما ، أي : مَنْ صَدَقَ فعَلَهُ وقولُهُ وَمَنْ كَذَبَ .
وقالت فرقة : إنما هي استعارة ، وإنما أراد بهما الصلابة في الدين ،
والاضطراب فيه وفي جهاد العدو ، ونحو هذا ، ونظير هذا قول زهير :
لَيْثٌ بَعَثَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا (١)
قال النقاش : وقيل : إن الإشارة بـ [صَدَقُوا] إلى مهجع مولى عمر بن
الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ لأنه أول قتيل قُتل من المؤمنين
يوم بدر (٢) .

(١) البيت من قصيدة لزهير يمدح بها هريم بن سنان . والليث هو الأسد ، وأراد بكلمة
(ليث) الأولى هرماً ، وعثر : موضع ، والأقران : جمع قرين وهو الصاحب ، أو المثل
في الشجاعة والقتال . يقول : إن هرماً في الشجاعة والقتال مثل الأسد الذي يصطاد الرجال
في عثر ، ولكن إذا حمي القتال ، وكذب الأسد وخانته شجاعته فإن هرماً يبقى على شجاعته
لا يتجبن ولا يفر من المعركة .

(٢) رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (سيد الشهداء
مهجع ، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة) .

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١) : [فَلْيُعْلَمَنَّ] بضم الياء
وكسر اللام الثانية ، وهذه القراءة تحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها أن
يُعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنالهم من ثوابه وعقابه ،
وبأعمالهم في الدنيا ، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم (٢) . والثاني
أن يُعلم الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين ، أي : يفضحهم
ويشهرهم ، هؤلاء في الخير ، وهؤلاء في الشر ، وذلك في الدنيا والآخرة (٣) ،
والثالث أن يكون ذلك من العلامة ، أي : يضع لكل طائفة علماً
تُشهر به (٤) ، فالآية - على هذا ينظر إليها قول النبي صلى الله عليه
وسلم : (من أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها) . وعلى كل معنى منها ففيها
وعُدُّ للمؤمنين الصادقين ، ووعيدٌ للكافرين .

وقرأ الزهري الأُولى كقراءة الجماعة ، والثانية كقراءة علي بن
أبي طالب رضي الله عنه .

(١) وقرأ بها أيضاً جعفر بن محمد .

(٢) فالفِعْل (يُعلم) مضارع (علم) المتعدية إلى مفعول واحد ، والثاني محذوف ،
وتقديره كما قال ابن عطية : يعلمهم منازلهم وأعمالهم .

(٣) المحذوف هنا هو المفعول الأول ، ويظهر في تقدير ابن عطية : يُعلم الناس والعالم .

(٤) الفعل هنا متعدٍ إلى مفعول واحد .

قوله عز وجل :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦١﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

[أَمْ] معادلة للألف في قوله : [أَحْسِبُ] ، وكأنه عز وجل قرّر الفريقيين ، قرّر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات بتعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون عقاب الله تعالى ويُعجزونه .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ - وإن كان الكفار المراد الأول بحسب النازلة التي الكلام فيها - فإن لفظ الآية يعم كل عاصٍ وعامل سيئة من المسلمين وغيرهم . وقوله : ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يجوز أن تكون [مَا] بمعنى الذي ، فهي في موضع رفع ، ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير : ساء حكماً يحكمونه (١) . وفي هذه

(١) إذا كانت [ما] موصولة في موضع رفع فإن صلتها هو قوله : [يَحْكُمُونَ] ، وإذا كانت في موضع نصب فهي تمييز ، و [يَحْكُمُونَ] صفة ، والمخصوص بالدم محذوف ، والتقدير : حكمتهم . وقال ابن كيسان : [مَا] مصدرية ، والتقدير : بشس حكمهم ، وعلى هذا يكون التمييز محذوفاً ، أي : ساء حكماً حكمتهم .

الآية وعيدٌ للكفرة ، وتأنيس للمؤمنين يظهر في وعده بالنصر في
القيامة ، وبأنه آتٍ ؛ إذ قد أَجَّلَهُ اللهُ تعالى وأخبر به .

وفي قوله : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ تشبیهٌ ، أي : من كان
على هذا الحق فليوقن بأنه آتٍ وليزدد بصيرة ، وقال أبو عبيدة :
[يَرْجُو] هنا بمعنى : يخاف^(١) ، والصحيح أن الرجاء هنا على بابهِ ،
وقال الزجاج : المعنى : يرجو لقاء ثواب الله ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ معناه : السميع لأقوال كلِّ فرقة ، العليم بالمعتقدات
التي لهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ إعلامٌ بأن كل
أحد مجازى بفعله الحسن ، فهو حظُّه الذي ينبغي ألا يفرض فيه ،
فإن الله غني عن جهاده وعن العالمين بأسرهم .

وهاتان الآيتان كأنهما [.....] (٢) على سواءٍ إلى الطائفة المرتابة
المتردة في فتنة الكفار ، التي كانت تنكر أن ينال الكفار المؤمنين
بمكروه ، وترتاب من أجل ذلك ، فكأنهم قيل لهم : من كان يؤمن

(١) ورد ذلك في كلام العرب ، وقد استشهد العلماء لهذا من كلام الشعراء بقول الهذلي
في وصف عسأل :

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَتَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبِ عَوَامِلٍ

(٢) بين العلامتين [.....] كلمة لم نستطع قراءتها .

بالبعث فإن الأمر حق في نفسه ، والله تعالى بالمرصاد ، أي : هذه بصيرة لا ينبغي أن يعتقدها لوجه أحد . وكذلك من جاهد فثمرة جهاده له ، فلا يَمُنُّ ذلك على أحد ، وهذا كما يقول المناظر عند سوق حجته : من أراد أن ينظر إلى الحق فإن الأمر كذا وكذا ، ونحو هذا فتأمله .

وقيل : معنى الآية : ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله ، فإنما جهاده لنفسه لا لله تعالى ، وليس لله حاجة بجهاده .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ذكره المفسرون ، وهو قول ضعيف .
 وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية ، إخبار عن المؤمنين المجاهدين الذين هم في أعلى رتبة من البدار إلى الله تبارك وتعالى ، أشاد بهم عز وجل وبحالهم ليقيم بهم نفوس المتخلفين عن الهجرة ، وهم الذين فتنتهم الكفار - إلى الحصول في هذه المرتبة ، و « السَّيِّئَةُ » : الكفر وما اشتمل عليه ، ويدخل في ذلك المعاصي من المؤمنين مع الأعمال الصالحة واجتناب الكبائر ، وفي قوله عز وجل : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ﴾ حذف مضاف تقديره : ثواب أحسن الذي كانوا يعملون (١) .

(١) قال أبو حيان تعقيماً على ذلك : « وهذا التقدير لا يسوغ ؛ لأنه يقتضي أن أولئك يجزون ثواب أحسن أعمالهم ، وأما ثواب حسناتها فمسكوت عنه ، وهم يجزون ثواب الأحسن والحسن ؛ إلا إذا أخرجت [أحسن] عن بابها من التفضيل فإنه يسوغ ذلك » .

قوله عز وجل :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكَ فَإِنَّيُّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ آللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله تعالى : [وَوَصَّيْنَا] الآية . روي عن قتادة أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنه هاجر ، فحلفت أمه ألا تستظل بظل حتى يرجع إليها ويكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، فلج (١) هو في هجرته ، ونزلت الآية (٢) . وقيل : بل نزلت في عياش بن

(١) لجَّ في الأمر بلحاجة : لازمه وأبى أن ينصرف عنه .

(٢) روي عن سعد رضي الله عنه أنه قال : « كُنتُ بَارَأً بِأُمِّي ، فَأَسْلَمْتُ ، فَقَالَتْ : لَتَدَعَنَّ دِينَكَ أَوْ لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّى تَمُوتَ فَتُتَعَيَّرَ بِي ، وَيُقَالُ : يَا قَاتِلَ أُمِّهِ ، وَبَقِيَتْ يَوْمًا وَيَوْمًا ، فَقُلْتُ : يَا أُمَّاهُ ، لَوْ كَانَتْ لَكَ مِائَةُ نَفْسٍ ، فَخَرَجْتَ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ دِينِي هَذَا ، فَإِنْ شِئْتَ فَكُلِّي ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَأْكُلِي ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَكَلَتْ ، وَنَزَلَتْ : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ الآية . (أسباب النزول) للواحدي .

أبي ربيعة ، وذلك أنه اعتراه في دينه نحو من هذا ؛ إذ خدعه أبو جهل لعنة الله عليه وردّه إلى أمّه ... الحديث في كتاب السيرة (١) .
 ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام والهجرة ، فكأن القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا الأمر العظيم ، ولما كان برُّ الوالدين وطاعتهما من الأمور التي قررتها الشريعة وأكّدها ، وكان من الأمر القوي الملزم عندهم ، قدم تعالى على النهي عن طاعتهما في الشرك بالله قوله : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ، على معنى : إنا لا نحل عقوق الوالدين ، لكننا لا نسلط ذلك على طاعة الله تعالى ، لاسيما في معنى الإيمان والكفر .

وقوله : [حُسْنًا] يحتمل أن ينتصب على المفعول ، وفي ذلك تجوُّز ، ويسهله كونه عامًّا لمعان ، كما تقول : وصيتك خيراً ، وأوصيتك

(١) عيَّاش بن أبي ربيعة هو أخو أبي جهل لأمّه ، وقد أسلم وهاجر مع عمر رضي الله عنه ، وكانت أمّه شديدة الحبِّ له ، وحلفت على مثل ما حلفت عليه أم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، فتحبّل عليه أبو جهل وأخوه الحارث ، فشدّاً وثاقه حين خرج معهما من المدينة إلى أمّه قاصداً أن يراها ، وجلده كل منهما مائة جلدة وردّاه إلى أمّه ... وذلك في خبر طويل في السيرة ، ذكره الطبري ، والواحدي .

شراً ، عَبَّرَتْ بِذَلِكَ عَنْ جَمَلَةٍ مَا قَلَّتْ لَهُ ، وَيُحَسِّنُ ذَلِكَ دُونَ حَرْفِ الْجُرِّ
 كَوْنُ حَرْفِ الْجُرِّ فِي قَوْلِهِ : [بِوَالِدَيْهِ] ، لِأَنَّ الْمَعْنَى : وَوَصِينَا الْإِنْسَانَ
 بِالْحَسَنِ فِي فِعْلِهِ مَعَ وَالِدَيْهِ ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

عَجِبْتُ مِنْ دَهْمَاءٍ إِذْ تَشْكُونَا وَمِنْ أَبِي دَهْمَاءٍ إِذْ يُوصِينَا
 خَيْرًا بِهَا كَأَنَّهَا جَافُونَا (١)

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي فِي قَوْلِهِ : [بِوَالِدَيْهِ] ، وَيَنْتَسِبُ
 [حُسْنًا] بِفِعْلِ مَضْمَرٍ تَقْدِيرُهُ : يَحْسِنُ حَسَنًا ، وَيَنْتَسِبُ انْتِصَابًا
 الْمَصْدَرِ ، وَقَرَأَ عَيْسَى وَالْجَحْدَرِيُّ : [حَسَنًا] بِفَتْحَتَيْنِ ، وَقَالَ الْجَحْدَرِيُّ :
 فِي الْإِمَامِ مَكْتُوبٌ : «بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا» ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : يَعْنِي كَالْأَحْقَافِ ،
 وَقَالَ التَّغْلِبِيُّ : فِي مَصْحَفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : [إِحْسَانًا] .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنِّي مَرْجِعُكُمْ﴾ وَعَمِيدٌ فِي طَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ فِي مَعْنَى الْكُفْرِ .

(١) اسْتَشْهَدَ الْفَرَاءَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثَةِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ، قَالَ : «وَالْعَرَبُ تَقُولُ :
 أَوْصَيْكَ بِهِ خَيْرًا ، وَأَمَرْتُكَ بِهِ خَيْرًا ، وَكَأَنَّ مَعْنَاهُ : أَمَرْتُكَ أَنْ تَفْعَلَ بِهِ ... ثُمَّ تَحْذِفُ (أَنْ) فَتُوصِلُ
 الْخَيْرَ بِالْوَصِيَّةِ وَبِالْأَمْرِ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَاتِ » . وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْحَطِيبَةِ يُوصِي ابْنَتَهُ بِرَّةَ :

وَصَّيْتُ مِنْ بَرَّةَ قَلْبًا حُسْرًا بِالْكَذِبِ خَيْرًا وَبِالْحِمَامَةِ شَرًّا

وَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : [بِوَالِدَيْهِ] ، وَفِي قَوْلِ الشَّاعِرِ الَّذِي
 يَعْجَبُ مِنْ دَهْمَاءٍ وَمِنْ وَالِدَيْهَا : (بِهَا) ، وَفِي قَوْلِ الْحَطِيبَةِ : (بِالْحِمَامَةِ وَبِالْكَأَبِ) ظَرْفِيَّةٌ بِمَعْنَى
 (فِي) ، وَالتَّأْتِدِيرُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : «وَوَصِينَا الْإِنْسَانَ فِي أَمْرِ وَالِدَيْهِ بِخَيْرٍ» ، وَقَدْ وَضَحَ ابْنُ
 عَطِيَّةٍ ذَلِكَ . وَتَأْمَلُ الْمَفَارِقَةَ فِي بَيْتِ الْحَطِيبَةِ حِينَ يَفْضَلُ الْكَأَبُ عَلَى الْحِمَامَةِ .

ثم كرّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين ليحرّك النفوسَ إلى نيل مراتبهم ، وقوله تعالى : ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مبالغة ، على معنى : الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته ، وإذا تحصّل للمؤمنين هذا الحكم تحصل ثمره ، وجزاؤه هو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الآية إلى قوله : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ، نزلت في قوم من المسلمين كانوا بمكة مختفين بإسلامهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فلما خرج كفار قريش إلى بدر أخرجوا مع أنفسهم طائفة من هؤلاء ، فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : كانوا أصحابنا وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ (١) الآية ، قال : فكتب المسلمون لمن بقي بمكة هذه الآية ، وألاً عذر لهم ، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة وردوهم إلى مكة ، فنزلت فيهم الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية (٢) ، فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا ويئسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا

(١) من الآية (٩٧) من سورة (النساء) .

(٢) هي آيتنا التي نحن بصدد تفسيرها .

مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ ،
فكتب المسلمون إليهم بذلك ، وأن الله تعالى قد جعل لكم مخرجاً
فخرجوا ، فلحقهم المشركون فقاتلوهم ، فنجا من نجا ، وقُتل
من قُتل (٢) .

وقال ابن زيد : نزل قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾ في منافقين
كفروا لما أودوا .

وقوله تعالى : ﴿ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي : صعب عليه أذى
الناس حين صدوه ، وكان حقه ألا يلتفت إليه ، وأن يصبر عليه
في جنب نجاته من عذاب الله تعالى . ثم أزال تعالى موضع تعلُّقهم
ومغالطتهم إن جاء نصر ، ثم قرَّره على علم الله تعالى بما في صدورهم ،
أي : لو كان يقيناً تاماً وإسلاماً خالصاً لما توقفوا ساعة ، ولركبوا كل
هول إلى هجرتهم وراء نبيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾
تفسيره على حد ما تقدّم في نظيره .
وهنا انتهى المدني من هذه السورة .

(١) الآية (١١٠) من سورة (النحل) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في
سُنَّته عن ابن عباس رضي الله عنهما ، (الدر المنثور) . هذا وقد سبق الاستشهاد به في سورة
(النساء) عند تفسير الآية (٩٧) ، راجع الجزء الرابع صفحة ١٩٠ وما بعدها .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ
مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ
وَلِيُسْئَلَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ
فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ
وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

رُوي أن قائل هذه المقالة الوليد بن المغيرة ، وقيل : بل كانت شائعة من كفار قريش ، قالوا لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم : ادخلوا في أمرنا ، وأقروا بآلهتنا واعبدوها ، ونحن ليقيننا أنه لا بعث بعد الموت ولا رجوع نضمن لكم خطاياكم ، ونحملها عنكم فيما دعوناكم إليه إن كان في ذلك درك كما تزعمون أنتم ، وقولهم : [وَلنَحْمِلُ] إخبار أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل ، ولكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازات ، وهذا نحو قول الشاعر :

فَقُلْتُ ادْعِي وَأَدْعُ فَإِنَّ أُنْدَى لِيصَوْتٍ أَنْ يُنَادِي دَاعِيَانِ (١)

(١) البيت في (اللسان - ندى) - وهو ليدثار بن شيبان النَمْرِي ، قال صاحب اللسان : « النَّدَى : بُعْدُ الصَّوْتِ ، وَنَدَى الصَّوْتِ : بُعْدُ مَذْهَبِهِ ، وَفُلَانٌ أَنْدَى صَوْتاً مِنْ فُلَانٍ ، =

ولكونه خبراً حَسُنَ تكذيبهم فيه ، فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن جميع ذلك باطلٌ ، وأنهم لو فعلوه لم يُتَحَمَلْ عن أحد من هؤلاء المغتربين بهم شيءٌ من خطاياهم التي تختص به .

وقرأ الجمهور : [وَلِنَحْمِلُ] بجزم اللام ، وقرأ عيسى ونوح القارئ : [وَلِنَحْمِلُ] بكسر اللام . وقرأ داود بن أبي هند : ﴿ مِنْ خَطِيئِهِمْ ﴾ بكسر الياء وفتح الطاء (١) ، وحكى عنه أبو عمرو أنه قرأ : ﴿ مِنْ خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ بكسر الطاء وهمزة وتاء بعد الألف . وقال مجاهد : الحملُ هنا من الحَمالة لا من الحَمَل على الظهر (٢) .

= أي : أبعد مذهباً وأرفع صوتاً ، وأنشد الأصمعي لِدِثَارِ بْنِ شَيْبَانَ التَّمْرِيِّ :

تَقُولُ خَلِيلَتِي لَمَّا اشْتَكَيْتَنَا سَيِّدُ رِكْنَاتِي بَنِي الْقَوْمِ الْهَيْجَانِ
فَقُلْتُ ادْعِي وَأَدْعُ فَإِنَّ أُنْدَى لِيصَوْتُ أَنْ يُنَادِي دَاعِيَانِ

وفي شرح الشواهد للعيني قال : تعليقا على البيت : « قاله الأعشى أو الخطيئة فيما زعم ابن يعيش ، أو ربيعة بن جشم فيما زعم الزمخشري ، أو دثار بن شيبان التَّمْرِيُّ فيما زعم ابن بري ، وهو من الوافر ، والشاهد في (وَأَدْعُو) حيث نصب الواو فيه بتقدير : وَأَنْ أَدْعُو ، وپروي : (وَادْعُ) على الأمر بحذف اللام ، إذ أصله : وَاَدْعُ » . اهـ .

وفي (معاني القرآن) للفراء : « [وَلِنَحْمِلُ] هو أمرٌ فيه تأويل جزاء ، وهو كثير في كلام العرب ، قال الشاعر ... فقلت ادْعِي وَأَدْعُ ... البيت - أراد : وَاَدْعُ ، كأنه قال : إِنَّ دَعْوَتَ دَعْوَتُ » اهـ .

(١) معنى كسر الياء في هذه القراءة هو تسهيل الهمزة ، أي أن الأصل همزة سهلت فصارت شبيهة بالياء ، وروي عن داود بن هند هذا فيما ذكر أبو الفضل الرازي أنه قرأ : ﴿ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ ﴾ بالإفراد .

(٢) يريد بالحَمالة : تحمل المسئولية والاضطلاع بها خيراً كانت أو شراً .

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفرة أنهم يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، أي : أثقالاً من كفرهم الذي اخترعونه ويتلبسون به ، ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يريد : ما يلحقهم من أعوانهم وأتباعهم ؛ فإنه يلحق بكلِّ داعٍ إلى ضلالةٍ كِفْلٌ منها حسب الحديث المشهور ، (أيما داعٍ دعا إلى هُدًى فاتَّبِع عليه فله مثل أجور من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً ، وأيما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ ...) الحديث (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما كانت مع أثقالهم لكونها بسبب غيرهم وعن غير كفر تلبسوه ، فرَّق بينها وبين أثقالهم ، ولم ينسبها إلى غيرهم ، بل جعلها في رُتبةٍ أُخرى فقط ، فهم فيها إنما يَزِرُونَ وِزْرَ أَنفُسِهِمْ ، وقد يترتب حمل أثقال الغير بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : (فإن لم يبق

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه ، ولفظه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أيماً داعٍ دعا إلى هُدًى ، فاتَّبِع عليه وعمل به ، فله مثل أجور الذين اتبعوه ، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، وأيماً داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتَّبِع عليها وعمل بها ، فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ، ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً) ، قال عون : وكان الحسن رضي الله عنه مما يقرأ عليها : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إلى آخر الآية ، (الدر المنثور) .

للظالم أخذ من سيئات المظلوم فاطرح فطرح عليه (١) . وقوله تعالى :
 [وَلَيْسَ لَنَا] على جهة التوبيخ والتقريع ، لا على جهة الاستفهام والاستعلام ،
 و [يَفْتَرُونَ] معناه : يختلقون من الكفر ودعوى صاحبة الولد وغير
 ذلك لله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الآية . قصة فيها تسلية
 لمحمد صلى الله عليه وسلم عما تضمنته الآيات فيها من تعنت قومه ،
 وفتنتهم للمؤمنين وغير ذلك ، وفيها وعيد لهم بتمثيل أمرهم بأمر
 قوم نوح ، والواو في قوله : [وَلَقَدْ] عاطفة جملة كلام على جملة
 كلام ، والقسم فيها بعيد (٢) . وقوله تعالى : [أَرْسَلْنَا] ، [فَلَبِثَ] ،
 هذا العطف بالفاء يقتضي ظاهره أنه لبث هذه المدة رسولاً يدعو ،

(١) أخرج ابن حاتم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 (يَا كَافِرُ وَالظَّالِمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : وَعِزَّتِي لَا يَجِيزُنِي الْيَوْمَ ظَلَمٌ ، ثُمَّ ينادي مناد فيقول :
 أَيْنَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ؟ فَيُؤْتِي ، فَيَتْبَعُهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ مِثْلَ الْجِبَالِ ، فَيَشْخَصُ النَّاسَ إِلَيْهَا أَبْصَارَهُمْ ،
 ثُمَّ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ الْمُنَادِي بِنَادِي : مَنْ كَانَتْ لَهُ تَبَاعَةٌ أَوْ ظُلَامَةٌ عِنْدَ فُلَانِ
 ابْنِ فُلَانٍ فَهَلُمَّ ، فَيَقُومُونَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا قِيَامًا بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ ، فَيَقُولُ الرَّحْمَنُ : اقضُوا
 عَن عَبْدِي ، فَيَقُولُونَ : كَيْفَ نَقْضِي عَنْهُ ؟ فَيَقُولُ : خذوا لهم من حسناته ، فلا يزالون يأخذون
 منها حتى لا تبقى منها حسنة ، وقد بقي من أصحاب الظلمات ، فيقول : اقضوا عن عبدي ،
 فيقولون : لم يبق له حسنة ، فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه) ، ثم نزع النبي صلى الله
 عليه وسلم بهذه الآية : ﴿وَلَيْسَ لَنَا أَثَقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ .

(٢) يعني أن يكون المُقسَّم به قد حذف ، وبقي حرف القسم والجواب ، وسبب البعد
 أن في ذلك حذفاً للمجرور وإبقاءً للجار ، وحرف الجر لا يُعلَّق عن عمله ، بل لا بد من ذكره .

وقد يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته ، من لدن مولده إلى غرق قومه (١) ، وأما على التأويل الأول فاختُلف في سنّه التي بُعث عندها - فقيل : أربعون ، وقيل : ثمانون ، وقال عون بن أبي شَدَّاد (٢) : ثلاثمائة وخمسون ، ولذلك يحتمل أن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بِبَيسير ، وقد رُوي أنه عمّر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاماً ، وأنه عاش ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة (٣) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ يقتضي أنه أخذ قومه فقط ، وقد اختلف في ذلك - فقالت فرقة : إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح ، وقالت طائفة - هي الجمهور - : إنما غرقت المعمورة كلها .

(١) قال أبو حيان : « ليس عندي محتملاً ؛ لأن اللبث متعقب بالفاء الدالة على التعقيب » .
 (٢) هو عون بن أبي شَدَّاد العَقِيلِي - بفتح أوله - وقيل : العبدِي : أبو مَعْمَرِ البَصْرِي ، قال عنه في (تقريب التهذيب) : « مقبول ، من الخامسة » .
 (٣) تساءل بعض العلماء : ما فائدة الاستثناء في قوله : ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ، ولماذا لم يقل : « تسعمائة وخمسين » ؟ وأجابوا عن ذلك بأمرين : الأول أن المراد تكثير العدد ، وذكر الألف أفخم في اللفظ ؛ لأنه رأس الأعداد . والثاني - وهو عن الزجاج - أن الاستثناء في كلام العرب يفيد التأكيد ، فلو قلت : « جاء إخوتك إلا زيداً » فقد أكدت مجيء الجميع باستثناءك زيداً ، ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلا قليلاً من كثير ، ومن القبيح استثناء نصف الشيء ، لا يجوز أن تقول : عندي دينارٌ إلا نصفه ، ولكن تقول : عندي دينارٌ إلا دراهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو ظاهر الأمر ؛ لاتخاذ السفينة ، ولبعثه الطير تترتاد زوال الماء ، ولغير ذلك من الدلائل ، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال : كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض ؟ فالوجه في ذلك أن يقال : إن اختصاص نبيٍّ بأمةٍ ليس هو بالأى يهدي غيرها ، ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالى ، وإنما هو بالأى يأخذ بقتال غيرها ، ولا يبث العبادة فيهم ، ولم يكن الناس يومئذ كثيرين بحكم القرب من آدم عليه السلام ، فلا محالة أن دعاءه إلى توحيد الله تعالى قد كان بلغ الكل ، فنالهم الغرق لإعراضهم وتماديهم .

و [الطُوفَانُ] : العظيم الطَّامِي ، ويقال ذلك لكل طامٍ خرج عن العادة من ماءٍ أو نارٍ أو موت ، ومنه قول الشاعر :

* أَفْنَاهُمْ طُوفَانٌ مَوْتٌ جَارِفٌ * (١)

(١) هذا البيت من مشطور الرجز استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ؛ ويتفق مع هذا ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ ، قال : (الموت) ، وفي اللسان « الطوفان : مصدر مثل الرجحان والنقصان ، ولا حاجة به إلى أن يطلب له واحداً » ، ونقل ابن سيدة عن الأنخفش أن الطوفان جمع طوفانة ، قال ابن سيدة : « والأنخفش ثقة ، وإذا حكى الثقة شيئاً لزم قبوله » . و (جارف) من قولهم : جرف السيلُ الشيءَ : ذهب به كله أو جُلَّه .

وطوفان وزنه فُعلان بناءً مبالغة من : طاف يطوف إذا عمَّ من كل جهة ، ولكنه كثر استعماله في الماء خاصة ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ يريد : بالشرك .

و ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ تقدم في غير هذه السورة الخلاف في عددهم ، وهم بنوهم وقوم آمنوا ، والضمير في قوله : [وَجَعَلْنَاهَا] يحتمل أن يعود على السفينة ، و « الآية » هنا العبرة والعلامة على قدرة الله تبارك وتعالى في شدة بطشه ، قال قتادة : أبقاها آيةً على الجودي .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
 إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يجوز أن يكون [إِبْرَاهِيمَ] معطوفاً على [نُوحٍ] ، ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في [أَنْجَيْنَاهُ] ، ويجوز أن ينصبه فعل تقديره : واذكر إبراهيم . وهذه القصة أيضاً تمثيل لقريش ، وكان نمرود وأهل مدينته عبدة أصنام ، فدعاهم إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، ثم قرر لهم ما هم عليه من الضلال .

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَخْلُقُونَ إِفْكَاً﴾ ، وقرأ ابن الزبير ، وفضيل (١):
 [أَفْكَاً] على وزن (فَعِل) ، وهو مصدر كالكَذِبِ وَالضَّحِكِ ونحوه (٢) ،
 واختلف في معنى [تَخْلُقُونَ] - ف قيل : هو نَحَتِ الأصنام وخلقها ،
 سماها إِفْكَاً توسعاً من حيث يُفْتَرى بها الإفك في أنها آلهة ، وقال
 مجاهد : هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان ، وغير ذلك . وقرأ أبو
 عبد الرحمن السُّلَمي ، وَعَوْنُ الْعَقِيلِي ، وقتادة (٣) ، وابن أبي ليلى :
 ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً﴾ بفتح الخاء وشد اللام وفتحها ، و «الإفك» -
 على هذه القراءة - الكذب .

ثم وقفهم على جهة الاحتجاج عليهم بأمر يفهمه عامتهم وخاصتهم ،
 وهو أمر الرزق ، فقرّر أن الأصنام لا ترزق ، وأمر الخير عند الله
 تبارك وتعالى ، وخصّص الرزق لمكانته من الخلق ، فهو خير يدل
 على جنسه كلّهُ . ويقال : شكرتُ لك ، وشكرتُك ، بمعنى واحد .
 ثم أخبرهم بالمعاد والحشر إليه .

(١) هو فضيل بن زرقان .

(٢) قال الرمخشري : « ويحتمل أن يكون صفة على فَعِل ، أي : خَلَقْنَا أَفْكَاً ، أي :
 ذا إفك وباطل » .

(٣) في البحر المحيط : (عبادة) بدلا من قتادة ، وهو أقرب إلى الصواب .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمٌّ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُسِينُ ﴿١٨﴾
 أَوْلَدَ يَرَوْنَ كَيْفَ يُبْدِي اللَّهُ أَنْخَلَقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ
 سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ أَنْخَلَقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا ﴾ الآية ... وعيدٌ ، أي : قد كذب
 غيركم وعُذِّب ، وإنما على الرسول البلاغ ، وكلُّ أحد - مع ذلك -
 مأخوذ بعمله .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم - بخلاف عنه - : ﴿ أَوْ لَمْ
 تَرَوْا ﴾ بالتاء ، وقرأ الباقون : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا ﴾ بالياء ، الأولى على
 المخاطبة ، والثانية على الحكاية عن الغائب ، وقرأ الجمهور : [يُبْدِي] ،
 وقرأ الزبير ، وعيسى ، وأبو عمرو - بخلاف عنه - : [يَبْدَأُ] (١) .
 وهذه الإحالات على ما يظهر على الإخبار من إحياء الأرض والنبات
 وإعادته ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور والحشر ،
 ويحتمل أن يريد : أو لم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد

(١) قراءة الجمهور [يُبْدِي] من (أبدأ) ، والقراءة الثانية مضارع (بدأ) . وقرأ
 الزهري : (يبدأ) بغير همزة مُحَقَّقَةٌ ، بل هي مُخَفَّفَةٌ كما قال ابن جني .

الله تبارك وتعالى الأجسام بعد الموت ، وهذا تأويل قتادة . وقال الربيع ابن أنس : المعنى : كيف يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده إلى أحوالٍ أُخر حتى إلى التراب . وقال مقاتل : الخلق في هذه الآية الليل والنهار .

ثم أمر الله تعالى نبيه - ويحتمل أن يكون محمداً إن كان في قصة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام اعتراض بين كلامين - بأن يأمرهم - على جهة الاحتجاج - بالسير في الأرض ، والنظر في كل قطر ، وفي كل أمة قديماً وحديثاً ، فإن ذلك يُوجد ألا خالق إلا الله تبارك وتعالى ، ولا مبتدئاً بالخلق سواه ، ثم ساق - على جهة الخبر - أن الله تعالى هو المبتدئُ لنشأة القيامة من القبور (١) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [النَّشْأَةَ] على وزن (الْفَعَالَةَ) ، وهي قراءة الأعرج ، وهذا كما تقول : رَأْفَةٌ ورَأْفَةٌ ، وقرأ الباقون : [النَّشْأَةَ] على وزن (الْفَعْلَةَ) ، وقرأ الزهري : «النَّشَّةُ» بشين مشددة

(١) في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ... ﴾ الآية صرح الله تعالى باسمه في قوله ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ ، ثم أضمر في قوله : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، وفي الآية التي بعدها عكس ، فأضمر في قوله : ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ ، ثم أبرزه في قوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ ﴾ حتى لا تخلو الجملتان من صريح اسمه تبارك وتعالى ، ودل إبرازه في الآية الثانية على تفخيم النشأة الآخرة ، وتعظيم أمرها ، وتقرير وجودها ؛ إذ كان نزاع الكفار فيها ، فكأنه قيل : ثم ذلك الذي بدأ الخلق هو الذي يُنْشِئُ النشأة الآخرة : فكأن التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه . ذكر ذلك أبو حيان في البحر .

في جميع القرآن . والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه ،
وأخبرت الشرائع بوقوعه ووجوده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُوءُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

المعنى : يُيسِّرُ من يشاء لأعمالٍ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَييسِّرُ
من يشاء لأعمالٍ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّعَادَةُ ، فَيَتَعَلَّقُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ
بِالْاِكْتِسَابِ الْمُقْتَرَنِ بِالْاِخْتِرَاعِ الَّذِي لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَعْمَالِ الْعَبِيدِ .
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ إِلَيْهِ الْمُنْقَابُ ، وَأَنَّ الْبَشَرَ لَيْسَ بِمُعْجِزٍ وَلَا مُفْلِتٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالسَّمَاءِ الْهَوَاءَ عُلُوًّا ، أَيْ :
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ حِيلَةٌ صَعَدَ أَوْ نَزَلَ ، حَكَى نَحْوَهُ الزُّهْرَاوِيُّ . وَيَحْتَمِلُ
أَنْ يَرِيدَ السَّمَاءَ الْمَعْرُوفَةَ ، أَيْ : لَسْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي السَّمَاءِ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : مَعْنَاهُ : وَلَا مَنْ فِي السَّمَاءِ مُعْجِزٌ إِنْ عَصَى ،
وَنظَرُوهُ - عَلَى هَذَا - بِقَوْلِ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ :

أَمَّنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ ؟ (١)

(١) البيت من قصيدته التي قالها يهجو بها أبا سفيان قبل فتح مكة ، وقد روي : (فَمَنْ
يَهْجُو) فِي الدِّيْوَانِ ، وَرُوِيَ فِي ابْنِ هِشَامٍ ، وَأَمَّا الْمُرْتَضَى كَمَا هُنَا : (أَمَّنْ يَهْجُو) . =

والتأويل الأوسط أحسنها ، ونحوه قول الأعشى :

وَلَوْ كُنْتَ فِي جُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً وَرُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ
لَيْسْتَ دَرَجَتِكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْرَهُ وَتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكَ لَسْتُ بِمُلْجَمٍ (١)

والوليُّ أخصُّ من النصير . وقرأ يحيى بن القعقاع ، وابن الحرث (٢) :

[يَيْسُوا] بغير همز .

= والبيت من شواهد الفراء في معاني القرآن ، قال : « وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ يقول القائل : وكيف وصفهم أنهم لا يعجزون في الأرض ولا في السماء وليسوا من أهل السماء ؟ فالمعنى والله أعلم : ما أنتم بمعجزين في الأرض ، ولا من في السماء بمعجز ، وهو من غامض العربية ، للضمير الذي لم يظهر في الثاني ، ومثله قول حسَّان : فمن يهجو ... البيت ، أراد : ومن ينصره ويمدحه ، فأضمر (مَنْ) ، وقد يقع في وهم السامع أن المدح والنصر لـ (مَنْ) هذه الظاهرة ، ومثله في الكلام : أكرم من أتاك وأتى أباك ، « وأكرم من أتاك ولم يأت زيدا » ، تريد : ومن لم يأت زيدا » اهـ .

(١) البيتان من قصيدة له قالها يهجو عُمَيْرَ بن عبد الله بن المنذر بن عبدان حين جمع بينه وبين جهنم ليهاجيه ، والرواية في الديوان : (لئن كنتَ في جُبِّ) ، وهو جواب قسم في أبيات سابقة يخلف فيه بالراقصات من النِّياق في الطريق إلى منى ، بأنه لو نزل في باطن الأرض إلى أشد الأعماق ، ولو صعد في الفضاء ، إلى أقصى ما يمكن فلن يفلت من هجائه . (واستدرجه القول) معناه : صيره إلى أن يدرج ، يقال : استدرجه بمعنى : أدناه منه على التدرج فتدرج هو ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، والشاعر يريد هنا أنه سيأخذة قليلا قليلا من حيث لا يحتسب . وفي رواية : (لَيْعَشَوْرَتُكَ الْقَوْلِ) بمعنى : ليأخذنك من كل جانب ويتداولك ، و (حَتَّى تَهْرَهُ) أي : حتى تكفره ، ويمكن أن يكون (تَهْرَهُ) بالضم من الهُرَّارِ ، يقال : هَرَّ يَهْرُ هُرَّاراً : أطلقه من بطنه حتى مات . و (لَسْتُ بِمُلْجَمٍ) أي : ليس في قَمِي لِحْجَامٍ يمنعني من هجائك ، بل أنا قادر على ذلك متمكن منه ، والشاهد أن الشاعر استعمل السماء هنا بمعنى الهواء أو الفضاء العالي حين قال له : لئن اختفيت في الأرض أو صعدت في السماء فلن تفلت من هجائي .

(٢) في « البحر المحيط » أنها قراءة الذماري وأبي جعفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ذمَّ الله تعالى قوماً هانوا عليه فقال : ﴿أُولَئِكَ يَسُؤُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما تقدم من قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ إلى هذه الآية يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم ومحاورة لقومه ، وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه .

قوله عز وجل :

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قرأ الجمهور : [جَوَابَ] بالنصب ، وقرأ الحسن : [جَوَابُ]

بالرفع ، وكذلك سالم الأفطس (١) . وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لما

(١) هو سالم بن عجلان الأفطس ، الأموي ، مولاهم ، أبو محمد الحراني ، ثقة ، رمي بالإرجاء ، من السادسة ، قتل صبراً سنة اثنتين وثلاثين للهجرة . (تقريب التهذيب) .

بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحُجَجَ ، وَأَوْضَحَ أَمْرَ الدِّينِ ، رَجَعُوا إِلَى الْغَلْبَةِ ، وَعَدَلُوا عَنْ طَرِيقِ الْاِحْتِجَاجِ حِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ قَبْلَ ، فَتَسَامَرُوا فِي قَتْلِهِ وَتَحْرِيقِهِ بِالنَّارِ ، وَأَنْفَذُوا أَمْرَ تَحْرِيقِهِ حَسْبَمَا قَدْ أُفِيضَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَأَنْجَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نَارِهِمْ ، وَجَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ : لَمْ يَحْرُقْ بِالنَّارِ إِلَّا الْحَبْلَ الَّذِي أَوْثَقُوهُ بِهِ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً وَعِبْرَةً ، وَدَلِيلًا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ لِمَنْ شَرَحَ صَدْرَهُ وَيَسَّرَهُ لِلْإِيمَانِ ، أَي : هَذَا الصَّنْفُ يَنْتَفِعُ بِالْآيَةِ ، وَالْكَفَّارُ هِيَ عَلَيْهِمْ عَمَى وَإِنْ كَانَتْ فِي نَفْسِهَا آيَةً لِلْكَلِّ .

ثم ذكر تعالى أن إبراهيم قرَّرهم على أن اتخاذهم الأوثان والأنصاب إنما كان أتباعاً من بعضهم لبعض ، وحفظاً لموداتهم ومحباتهم الدنياوية ، وأنهم يوم القيامة يجحد بعضهم بعضاً ويتلاعنون ؛ لأن توادهم كان على غير تقوى ، و ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وقرأ عاصم - في رواية الأعمش عن أبي بكر عنه - : [مَوَدَّة] بالرفع [بَيْنَكُمْ] بالخفض ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم - في رواية أبي بكر - وأبو عمرو - في رواية أبي زيد - : ﴿ مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ ﴾ بالتنوين والنصب ، ونصب (بَيْنَ) (٢) ، أما قراءة رفع [مَوَدَّة] فوجهها

(١) الآية (٦٧) من سورة (الزُّحْرُفِ) .

(٢) هناك قراءات أخرى كثيرة لا تخرج عن رفع (مَوَدَّة) أو نصبها منونة وغير منونة ،

مع النصب في (بَيْنَ) أو الخفض .

أن تكون [مَا] بمعنى (الذي) ، وفي قوله : [أَتَّخَذْتُمْ] ضمير عائد على (الذي) ، وهذا الضمير هو مفعول أول [أَتَّخَذْتُمْ] ، و [أَوْثَانًا] مفعول ثانٍ ، و [مَوَدَّةٌ] خبر [إِنَّ] في قراءة من نَوَّنَهَا ، وفي قراءة من لم ينونها . ويجوز أن تكون [مَا] كAFFة ، ولا يكون في قوله : [أَتَّخَذْتُمْ] ضمير ، ويكون قوله : [أَوْثَانًا] مفعولاً بقوله : [أَتَّخَذْتُمْ] ، ثم يقتصر عليه ، ويُقَدَّر الثاني : «آلِهَةً» أو نحوه ، كما يقدر في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ أَي : «إِلَهًا» ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (١) ، ويكون قوله : [مَوَدَّةٌ] خبر ابتداءٍ تقديره : «هِيَ مَوَدَّةٌ» ، وفي هذه التأويلات مجازٌ واتساعٌ في تسمية الأوثان مودة ، أو يكون ذلك على حذف مضاف .

وأما من نصب [مَوَدَّةٌ] فعلى أن [مَا] كAFFة ، وعلى خَلْوٍ [أَتَّخَذْتُمْ] من الضمير ، والاقتصار على المفعول الواحد كما تقدم ، ويكون نصب «المودة» على المفعول من أجله .

ومن أضاف «المودة» إلى «الْبَيْنِ» في القراءتين بالنصب والرفع فقد تجوز في ذلك وأجرى الظرف مجرى الأسماء ، ومن نصب [بَيْنَكُمْ] في القراءتين - النصب والرفع - في [مَوَدَّةٌ] فكذلك يحتمل

(١) من الآية (١٥٢) من سورة (الأعراف) .

أن ينتصب انتصاب الظروف ، ويكون معلقاً بـ [مَوَدَّة] ، وكذلك ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ظرفٌ أيضاً متعلق بـ [مَوَدَّة] ، وهو مصدرٌ عمل في ظرفين من حيث افتراق الزمان والمكان ، ولو كان لواحد منهما لم يجز ذلك ، تقول : « رأيت زيدا أمس في السوق » ، ولا تقول : « رأيت زيدا أمس البارحة » ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدَ الظرفين جزءاً للآخر ، تقول : « رأيت زيدا أمس عشية » . ويجوز أن ينتصب [بَيْنَكُمْ] على أنه صفة «المودة» (١) ، وهنا محذوف مقدر ، تقديره : « مودة ثابتة بينكم » ، وفي الظرف ضمير عائد على [مَوَدَّة] ، لما حذف « ثابتة » استقر الضمير في الظرف نفسه . وقوله : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ظرف في موضع الحال من الضمير الكائن في [بَيْنَكُمْ] بعد حذف « ثابتة » ، وهذه الحال متعلقة بـ [مَوَدَّة] ، وجاز تعلقها بها وهي قد وصفت لأن معنى الفعل فيها ، وإن وصفت فلا يمتنع أن يعمل معنى الفعل إِلَّا في المفعول ، فأما في الظرف وفي الحال فيعمل ، قال مكِّي : ويجوز أن يكون ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ صفة ثانية لـ [مَوَدَّة] ، ويكون فيها مقدر « مستقرة » ، وفيها ضمير ثانٍ عائد إلى [مَوَدَّة] ، فالتقدير – على هذا – مودة بينكم مستقرة في الحياة الدنيا .

(١) قال أبو حيان في البحر : « وهو لا يجوز ؛ لأن المصدر إذا وُصف قبل أخذ متعلقاته لا يعمل » ، وحجة ابن عطية ومن وافقه أنه يتوسع في الظرف مالا يتوسع في غيره كالمفعول مثلاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أن يكون قوله : [مَوَدَّة] في قراءة من نصب مفعولاً ثانياً بقوله : [أَتَّخَذْتُمْ] ، ويكون في ذلك اتساعٌ ، فتأمله . وفي مصحف أبي : «مَوَدَّةَ بَيْنَهُمْ» بالهاء ، وفي مصحف ابن مسعود : «إِنَّمَا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» .

قوله عز وجل :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي
الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤَنُّونَ
الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

[آمن] معناه : صدق ، وهو فعل يتعدى بالباء وباللام ، والقائل

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هو إبراهيم عليه السلام ، قاله قتادة ، والنخعي .

وقالت فرقة : هو لوط عليه السلام .

ومما صحَّ من القصص أن إبراهيم ولوطاً هاجرا من قريتهما «كوشى»

وهي في سواد الكوفة من أرض بابل إلى بلاد الشام ، وفلسطين وغيرها ،

قال ابن جريج : هاجرا إلى حران ، ثم أمرا بعدُ إلى الشام ، وفي هذه

الهجرة كانت سارة في صحبة إبراهيم ، واعتراها أمر الملك . و «المهاجر» :
النازع عن الأمر ، وهي في عرف الشرع من ترك وطنه رغبة في رضى
الله تعالى ، وقد ذهب بهذا الاسم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم
قبل الفتح . وقوله : ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مع الهجرة إليه صفتان
بليغتان تقتضي (١) استحقاق التوكل عليه . وفي قوله : ﴿إِلَى رَبِّي﴾
حذف مضاف ، تقديره : إلى رضى رَبِّي ، أو نحو هذا .

وإسحق ابن إبراهيم هو الذي بُشِّرَ به ، وبُشِّرَ بيعقوب من ورائه ،
وهو ولد إسحق ، و [الْكِتَاب] هو اسم جنس ، أي : جعل الله تعالى
في ذرية إبراهيم عليه السلام جميع الكتب المنزلة : التوراة والإنجيل
والزبور والفرقان ، وعيسى عليه السلام من ذريته ، وقوله : ﴿أَجْرَهُ
فِي الدُّنْيَا﴾ يريد : في حياته بحيث أدرك ذلك وسُرَّ به ، والأجر الذي
آتاه الله تعالى العافية من النار ، ومن الملك الجائر ، والعمل الصالح ،
والثناء الحسن . قاله مجاهد . وَأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَتَوَلَّاهُ ، قاله ابن جريج .
والولد الذي قرَّتْ به العين بحسب طاعة الله تعالى ، قاله الحسن .
ثم أخبر عنه أنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضى الله
تبارك وتعالى ، وفازوا برحمته وكرامته العليا .

(١) لعله أراد : تقتضي كل منهما ...

وقوله تعالى : [وَلُوطًا] نصب بفعل مضمر ، تقديره : واذكر لوطاً (١) ،
و [أَلْفَاحِشَةَ] : إتيان الرجال في الأدبار ، وهي معصية ابتدعتها قوم لوط .
قوله عز وجل :

﴿ أُنِىْكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ ۚ إِلَّا أَن قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَابِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى
قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

تقدم ذكر القراءات في [أُنِىْكُمْ] ، واختلف الناس في «قَطَعَ
السبيل» المشار إليه هنا - فقالت فرقة : كان قطع الطريق بالسلب
فاشياً فيهم ، وقال ابن زيد : كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلب
الفاحشة ، فكانوا يحيفون . وقالت فرقة : بل أراد قطع سبيل النسل
في ترك النساء وإتيان الرجال . وقالت فرقة : أراد أنهم بفتح الأُحدوثة
عنهم يقطعون سبيل الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها . و «النَّادِي» :

(١) قال الكسائي : « ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ : أجبنا لوطاً ،
أو أرسلنا لوطاً » . قال القرطبي : وهذا الوجه أحبُّ إليَّ .

المجلس الذي يجتمع الناس فيه ، وهو اسم جنس ؛ لأن الأندية في المدن كثيرة ، كأنه قال : وتأتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم ، واختلف الناس في [المُنكَرَ] - فقالت فرقة : كانوا يخذفون (١) الناس بالحصى ، ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم ، وروته أم هانئ عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وكانوا لا يربطهم دين ولا مروءة ، وقال مجاهد ، ومنصور : كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً ، وقال القاسم بن محمد : منكرهم أنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم ، ذكره الزهراوي ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان يتظارطون في مجالسهم ، وقال مجاهد أيضاً : كان من أمرهم

(١) (خَدَفَ) : بالخاء والذال المعجمتين - هو الرَّمْيُ بالحصى أو النواة تأخذها بين إصبعيك وترمي بها ، أو تَتَّخِذُ مِخْدَفَةً من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة . وأما (حَدَفَ) بالخاء المهملة فهو يستعمل في الرمي والضرب بالعصا .
 (٢) أخرجه أحمد في مسنده ، والطبري وحسنه ، والسيوطي في الدر المنثور ، وقال : أخرجه - غير السابقين - الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت ، وابن المنذر ، والشاشي ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي وغيرهم ، ولفظه كما أثبتته القرطبي : قالت أم هانئ : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي تَأْدِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، قال : (كانوا يخذفون من يمرُّ بهم ويسخرون منه ، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه) . وقد زاد من رواه : النحاس ، والثعلبي ، والمهدوي ، والماوردي ، والطيالسي .

لعب الحمام ، وتطريف الأصابع بالحناء ، والصفير ، والحذف ،
ونبذ الحياء في جميع أمورهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد توجد هذه الأشياء في بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه
وسلم ، فالتناهي واجب .

فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب
واللجاج ، أي : ائتنا بالعذاب ، فإن ذلك لا يكون ، ولا تقدر عليه ،
وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه (١) ، وليس
يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا ، [ثم استنصر لوط عليه
السلام ربه ، فبعث عليهم ملائكة لعذابهم] (٢) ، فجاءوا إبراهيم عليه
السلام أولاً مبشرين بإسحق ، ومبشرين بنصرة لوط على قومه ،
وكان لقاءهم لإبراهيم على الصورة التي بينت في غير هذا الموضع ،
فلفظة «البُشْرَى» - في هذا الموضع - تتضمن أمر إسحق ونصرة لوط
عليهما السلام ، فلما أخبروه بإهلاك القرية على ظلمهم أشفق إبراهيم
عليه السلام على لوط عليه السلام ، فعارضهم بحسب ما يأتي .

(١) في الأصل «اعتقاد كذبهم» ، والمعنى لا يستقيم إلا بما أثبتناه .

(٢) ما بين العلامتين زيادة غير موجودة بالأصل ويقتضيها التعبير ، وقد نقلناها عن القرطبي
الذي نقل بدوره عن ابن عطية كل كلامه في هذا المقام .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَةً كَانَتْ
مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا
لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ
عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مَنَآءَ آيَةٍ
بَيْنَهُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام لما علم من قبل الملائكة أن قوم لوط يُعذَّبون أشفق على المؤمنين فجادل الملائكة ، وقال : أرايتم إن كان فيهم مائة بيت من المؤمنين أتركونهم ؟ قالوا : ليس فيهم ذلك ، فجعل ينحدر حتى انتهى إلى عشرة أبيات ، فقالت له الملائكة : ليس فيها عشرة ، ولا خمسة ، ولا ثلاثة ، ولا اثنان ، فحينئذ قال إبراهيم عليه السلام : إن فيها لوطاً ، فراجعوه حينئذ بأننا نحن أعلم بمن فيها ، أي : لا تخف أن يقع حيف على مؤمن . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [لَنَنْجِيَنَّهُ] بفتح النون الوسطى وشد الجيم ، و [مُنْجِيُكَ] بفتح النون وشد الجيم (١) ، وقرأ

(١) وهي قراءة عاصم في رواية حفص عنه .

حمزة ، والكسائي : [لُنُنَجِيْنَهُ] بسكون النون وتخفيف الجيم ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم في رواية أبي بكر : [لُنُنَجِيْنَهُ] بالتشديد ، و [مُنْجُوْكَ] بالتخفيف ، وقرأت فرقة : [لُنُنَجِيْنَهُ] بسكون النون الأخيرة من الكلمة ، وهذا إنما يجيء على أنه خفف النون المشددة وهو يريد بها .

وامرأة لوط هذه كانت كافرة ، تنبه على أضيافه ، و «الغابرين» : الباقي ، ومعناه : من الغابرين في العذاب ، وقالت فرقة : «مِنَ الْغَابِرِينَ» أي : مَمَّنْ غَبَرَ وَبَقِيَ مِنَ النَّاسِ وَعَسَى فِي كَفْرِهِ (١) ، والضمير في [بِهِمْ] في الموضعين عائد على الأضياف الرُّسُل ، وذلك بخوفه من قومه عليهم ، فلما أخبروه بما هم فيه فُرِّجَ عنه . وقرأ عامة القراء : [سِيءٌ] بكسر السين ، وقرأ عيسى وطلحة بضمها ، و «الرَّجْزُ» : العذاب ، وقوله تعالى : «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» أي : عذابهم بسبب فسقهم ، وكذلك كل أُمَّةٍ عَذَّبَهَا اللهُ فَإِنَّمَا عَذَّبَهَا عَلَى الْفَسْقِ وَالْمَعْصِيَةِ ، ولكن بآن يقترن ذلك بالكفر الذي يوجب عذاب الآخرة . وقرأ أبو حيوة ، والأعمش : [يَفْسُقُونَ] بكسر السين .

(١) يقال : عَسَى فِي كَفْرِهِ : كَبُرَ فِيهِ وَأَسَنَّ . والمصدر : عَسَوْا وَعُسُوْا وَعَسَاءٌ وَعُسِيَاءٌ ، (المعجم الوسيط) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ ، أي : من خبرها وما بقي من آثارها ، ف [مِنْ] لابتداء الغاية ، ويصح أن تكون للتبعيض ، على أن تريد ما ترك من بقايا تلك القرية ومنظرها ، والآية موقع العبرة ، وعلامة القدرة ، ومزدجر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالى .

وقرأ جمهور القراء : [مُنْزِلُونَ] بتخفيف الزاي ، وقرأ ابن عامر : [مُنْزِلُونَ] بشد الزاي ، وهي قراءة الحسن وعاصم - بخلاف عنهما - ، وقرأ الأعمش : « إِنَّا مُرْسِلُونَ » بدل [مُنْزِلُونَ] ، وقرأ ابن محيصة : [رُجْزًا] بضم الراء .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ وَعَادًا وَنَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ ^ط وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

نصب [شُعَيْبًا] بفعل مضمر يحسن مع التقدير : وبعثنا أو أرسلنا ، فأمر شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى ، والإيمان بالبعث واليوم الآخر ، ومع الإيمان به يصح رجاؤه ، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى :

وخافوا . و [تَعَثُوا] معناه : تفسدون ، يقال : عَثَا يَعْتُو ، وعَاثَ يَعِيثُ ، وَعَثِيَّ يَعْتِي إِذَا أَفْسَدَ . وَأَهْلُ مَدِينٍ : قومٌ شعيب ، وهذا على أنها اسم البلدة ، وقيل : مَدِينٌ : اسم القبيلة . و «أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ» غيرُهم ، وقيل : هم بعضهم ومنهم ، وذلك لأن معصيتهم في أمر الموازين والمكاييل كانت واحدة . و [الرَّجْفَةُ] : ميد الأرض بهم ، وزلزلتها عليهم ، وتداعيتها بهم ، وهذا نحو من الخسف ، ومنه الإرجاف بالأخبار ، و «الجُثُومُ» - في هذا الموضع - تشبيه ، أي : كان همودهم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان ، ومنه قول لبيد :
فَعَدَوْتُ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ وَطَيْرُهُ عَصَبٌ عَلَى خَصَلِ العِضَاهِ جُثُومٌ (١)
وقوله : [وَعَادًا] منصوب بفعل مضمَر ، تقديره : واذكر عاداً ، وقيل : هو معطوف على قوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٢).

(١) البيت من قصيدة قالها لبيد بن ربيعة في أوائل حياته الشعرية ، ولما سمعها النابغة قال له : أنت أشعر قيس ، أو قال : هوأزن كلها ، وهي من الكامل ، والرواية في الديوان :

قَدُّ قُدْتُ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ وَطَيْرُهُ عَصَبٌ عَلَى فَتَنِ العِضَاهِ جُثُومٌ

ويروى : على خَصَلِ ، وغلَسُ الظَّلَامِ : أوَّلُ الصَّحْبِ ، والفَتْنُ : الغُصْنُ ، والخَصَلُ : المُبْتَلُ بالنَّدَى ، والعِضَاهُ : كلُّ شَجَرٍ لَهُ شوكٌ صَغُرُ أو كَبُرُ ، والواحدة : عِضَاهَةٌ ، وجُثُومٌ : واقعةٌ على الشجر في سكون ، وهو موضع الشاهد هنا .

(٢) من الآية رقم (٣) من هذه السورة .

وقرأ : [وَثَمُودًا] عاصم (١) ، وأبو عمرو ، وابن وثاب . وقرأ : [وَثَمُودًا]
بغير تنوين أبو جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وقرأ يحيى بن وثاب :
﴿ وَعَادٍ وَثَمُودٍ ﴾ بالخفض فيهما والتنوين (٢) .

ثم دلَّ عزَّ وجلَّ على ما تعطيه العبرة في بقايا مساكنهم ورسوم
منازلهم ودنوا آثارهم . وقرأ الأعمش : « وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مَسَاكِنُهُمْ »
دون [مِنْ] . وقوله تعالى : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمْ ﴾ عطف جملة من الكلام على
جملة ، و [السَّبِيل] هي طريق الإيمان بالله تعالى ورسله ، ومنهج النجاة
من النار ، وقوله : [مُسْتَبْصِرِينَ] ، قال ابن عباس ، ومجاهد ،
والضحاك : معناه : لهم بصيرة في كفرهم ، وإعجابٌ به ، وإصرارٌ
عليه ، فذمَّهم بذلك . وقيل : لهم بصيرة في أن الرسالة والآيات حق ،
ولكن كانوا - مع ذلك - يكفرون عناداً ، ويردُّهم الضلال إلى مجاهله
ومتالفه ، فيجري هذا مجرى قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا
أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (٣) . وتزيينُ الشيطان هو بالوسواس ومناجاة
ضمائر الناس ، وتزيينُ الله تعالى الشيء هو بالاختراع ، وخلق محبته
والتلبس به في نفس العبد .

(١) الذي في البحر أن قراءة عاصم [ثَمُودًا] بغير تنوين ، ولعل سبب الاختلاف
أن قراءة عاصم رويت من طريقين : طريق حفص ، وطريق أبي بكر .

(٢) هذه القراءة تراعي العطف على (مَدِينَةٍ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدِينَةٍ ﴾ ،
والتقدير : وأرسلنا إلى عادٍ وثمودٍ .

(٣) من الآية (١٤) من سورة (التَّمَلُّ) .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
 وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّن
 أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْظِمَهُمْ
 وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

نصب [قَارُونَ] إمَّا بفعل مضمر تقديره : اذكر ، وإمَّا بالعطف على ما تقدم ، وقارون من بني إسرائيل ، وهو الذي تقدمت قصته في الكنوز وفي البغي على موسى بن عمران عليه السلام ، وفرعون مشهور ، وهامان وزيره ، وهو من القبط . و «الْبَيِّنَات» : المعجزات والآيات الواضحة ، و [سَابِقِينَ] معناه : مفلتين من أخذنا وعقابنا ، وقيل : معناه : سابقين من أوليائنا ، وقيل : معناه : سابقين الأئمة إلى الكفر ، أي : قد كانت تلك عادة الأئمة مع الرسل .
 و «الَّذِينَ أُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْحَاصِبُ» - قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم قوم لوط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن يدخل قوم عاد في الحاصب ؛ لأن تلك الرياح لا بد أنها كانت تحصبهم بأُمور مؤذية . و «الْحَاصِبُ» : هو العارض من

ريح أو سحاب أو رمي بشيء ، ومنه قول الفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ القُطْنِ مَنُثُورِ (١)

ومنه قول الأخطل :

تَرْمِي العِضَاهَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثَلْجِهَا حَتَّى يَبِيَّتَ عَلَى العِضَاهِ جُفَالَا (٢)

و «الذين أخذتهم الصيحة» قومُ ثمود ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة :

هم قوم شعيب ، و «الخسف» كان بقارون ، قاله ابن عباس رضي

الله عنهما .

(١) البيت من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ، ويهجو يزيد بن المهلب ، وقبله

يقول :

إِلَيْكَ مِنْ نَفَقِ الدَّهْنِ وَمَعْقَلَةٍ خَاضَتْ بِنَا اللَّيْلَ أَمْثَالُ القُرَاقِيرِ

والقراقير : جمع قرقور وهي السفينة الطويلة ، يشبه بها النياق التي خاضت بهم الليل مستقبلين شمال الشام إلى الممدوح ، والحاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء ، وكنديف القطن هو القطن المنذوف أي الذي ضرب بالمنذف وهو خشبة معينة بنحيط متين يستعملها النداف في ضرب القطن ليريق . والبيت من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن على أن الحاصب هو العارض من ريح .

(٢) قال الأخطل هذا البيت من قصيدة يهجو بها جريراً ، ويفتخر على قيس ، وقبله يقول :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ إِذَا العِشَارُ تَرَوَّحَتْ هَدَجَ الرِّثَالِ تَكْبُهُنَّ شَمَالَا

والعشار : جمع عشراء من الإبل ، وهي التي أتى عليها عشرة أشهر وهي حامل ، وتروّحت : عادت إلى حظائرها في الرواح وهو العودة من المرعى ، والمهودج : مشي في ارتعاش ، أو عدو متقارب ، والرثال : جمع رأل وهو ولد النعامة ، وتكبهن : تدفعهن ، والعضاه : كل شجر له شوك صغيراً كان أو كبيراً ، أو الشجرة واسعة الظل ، والمفرد : عضاهة . والجفّال : ما تراكم من الثلج وتراكب ، والشاهد في البيت مثله في البيت الذي قبله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن يكون أصحاب الرجفة في هذا النوع من العذاب ،
و «الغرق» كان في قوم نوح ، وبه فسر ابن عباس ، وفي فرعون وحزبه ،
وبه فسر قتادة .

وظلمهم أنفُسهم كان بالكفر ووضع العبادة في غير موضعها ،
وقدم المفعول على [يَظْلِمُونَ] للاهتمام ، وهذا نحو : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (١)
وغيره ، وحكى الطبري أن رجفة قوم شعيب كانت صيحة أرجفتهم
في هذا مع ثمود .

قوله عز وجل :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ
أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا
إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

شبه تبارك وتعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع
أمورهم على ذلك بالعنكبوت التي تبني وتجتهد ، وأمرها كله ضعيف

(١) من الآية (٥) من سورة (الفاتحة) . والواضح أن التقديم في آية الفاتحة للتخصيص ،
فيكون المعنى : نخصك وحدك بالعبادة .

متى مسته أدنى هامة أودهمته ، وكذلك أمر أولئك وسعيهم مضمحلٌ
لا قوة له ولا معتمد ، ومن حديث ذكره النقاش : (العنكبوت شيطان
مسخه الله تعالى فاقتلوه) (١) ، ورؤي عن علي رضي الله عنه أنه قال :
« طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت ، فإن تركه يورث الفقر » ،
وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن
حالهم ونسبتهم من الحق هذه الحالة (٢) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ . قرأ أبو عمرو ، وسلام : ﴿ يَعْلَمُ مَا ﴾ بالإدغام ، وقرأ

(١) أخرجه أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد بلفظ (العنكبوت شيطان مسخها الله
فمن وجدها فليقتلها) ، (فتح القدير ، والدرر المنثور) .

(٢) يرى الزمخشري أن الغرض من التشبيه هو تشبيه المتخذ بالبيت ، لا تشبيه المتخذ
بالعنكبوت ، وعلق عليه أبو حيان بقوله : والذي يظهر هو تشبيه المتخذ من دون الله ولياً
بالعنكبوت المتخذة بيتاً ، أي : فلا اعتماد للمتخذ على وليه من دون الله ، كما أن العنكبوت
لا اعتماد لها على بيتها في استظلال وسكنى ، بل لو دخلت فيه خرقتة ، وقال الفراء : هو
مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها
حرّاً ولا برداً ، وقال : ولا يحسن الوقف على [العنكبوت] ، لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي
لا يقيها من شيء شُبّهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به ، وجوز الأخفش الوقوف على
[العنكبوت] ، وغلظه ابن الأنباري ، قال : « لأن [اتخذت] صلة لـ [العنكبوت] » ،
كأنه قال : كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول .
والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وتُجمع على عناكب وعنكبوتات ،
وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسيجاً رقيقاً ، وقد يقال لها عنكببات ، ومنه قول الشاعر :

كَأَنَّمَا يَسْقُطُ مِنْ لُغَامِهَا بَيْتُ عَنكَبَاتٍ عَلَى زِمَامِهَا

عامة القراء بالفكّ ، وقرأ الجمهور : [تَدْعُونَ] بالتاء من فوق ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم - بخلاف - [يَدْعُونَ] بالياء من تحت على الغيبة . فأمّا موضع [ما] من الإعراب ، فقليل : معناه أن الله يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأشياء أن حالهم هذه ، وأنهم أمرٌ لا قدر له ، وقيل : قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ إخبار تامّ ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ متصل به ، واعترض بين الكلامين ﴿ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، وذلك على هذا النحو من النظر ، ويحتمل معنيين : أحدهما أن تكون [ما] نافية ، أي : لستم تدعون شيئاً له بال ولا قدر ، فيصلح أن يُسمّى شيئاً ، وفي هذا تعليق [يَعْلَمُ] ، وفيه نظر ، والثاني أن تكون [ما] استفهاماً ، كأنه قرّر - على جهة التوبيخ - على هذا المعبود من جميع الأشياء ما هو إذ لم يكن الله تعالى ، أي : ليس لهم - على هذا التقدير - مَقْنَعٌ إليه ، ف [مِنْ] على القول الأول والثالث للتبعية المجرد ، وعلى القول الوسط هي زائدة في الجحد ، ومعناها التأكيد ، وقال أبو علي : [ما] استفهام نصب ب [يَدْعُونَ] ، ولا يجوز نصبها ب [يَعْلَمُ] ، والجملة التي هي منها في موضع نصب ب [يَعْلَمُ] ، والتقدير : إن الله تعالى يعلم أوثاناً تدعون من دونه أو غيرها لا يخفى ذلك عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ إشارة إلى هذا المثل ونحوه ،
و [نَضْرِبُهَا] مأخوذ من الضَّرْبِ ، أي النوع ، كما تقول : « هذان
من ضَرْبٍ واحدٍ » ، « وهذا ضَرْبٌ هذا » أي قرينه وشبيهه ، فكأن
« ضَرْبُ الْمَثَلِ » هو أن تجعل الأمر المُمَثَّل ضريب . وباقي الآية بيِّن .
وقال جابر : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا
أَلْعَالِمُونَ ﴾ : (العاقلُ من عَقَلَ عن الله تعالى ، وعمل بطاعته ، وانتهى
عن معصيته) .

قوله عز وجل :

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤١﴾ أَتْلُ مَا أَوْحَى
إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿

نَبَّهَ فِي ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى أَمْرٍ يُوقِعُ الذَّهْنَ عَلَى
صِغَرِ قَدْرِ الْأَوْثَانِ وَكُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :
[بِالْحَقِّ] أَي : بِالْوَاجِبِ النَّيِّرِ ، لَا لِلْعِبْثِ وَاللَّعْبِ ، بَلْ لِيَدُلَّ عَلَى
سُلْطَانِهِ ، وَيُثَبِّتَ شَرَائِعَهُ ، وَيَضَعُ الدَّلَائِلَ لِأَهْلِهَا ، وَيَعْمُ الْمَنَافِعَ ،
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَى عَدًّا .

ثم أمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالخضوع لأمره ، وتلاوة القرآن الذي أوحى إليه ، وإقامة الصلاة ، أي إدامتها والقيام بحدودها . ثم أخبر - حكماً منه - أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يديه ، وأن قلبه وإخلاصه مطّلع عليه مرقوب ، صلحت لذلك نفسه وتذلت ، وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالى ، فاطردت لذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يكدر يفتر من ذلك حتى تظلمه صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة ، وهذا معنى هذا الإخبار ؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون . ورؤي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرّ لونه ، فكلم في ذلك فقال : إنني واقف بين يدي الله تبارك وتعالى ، وحق لي هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع ملك الملوك ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذه صلاة تنهى - ولابد - عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجراء ، لا خشوع فيها ولا تذكّر ولا فضائل ،

فذلك يترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاصٍ تبعده عن الله تعالى تهادى على بعده ، وعلى هذا يُخَرَّج الحديث عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، والأعمش ، وهو قولهم : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعْداً) (١) ، وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك غير صحيح السند ، سمعتُ أبي رضي الله عنه يقول : فإذا قدرناه ، ونظرنا معناه فغير جائز أن يقول : إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله تعالى حتى كأنها معصية ، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى ، بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء ، والمنكر البُعد ، فلم تزدُه الصلاة إلا تقرير ذلك البُعد الذي كان سبيله ، فكأنها بَعَدَتْهُ حين لم تكفْ بَعْدَهُ عن الله تعالى . وقيل لابن مسعود رضي الله عنه :

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما - من طريق ليث بن أبي سُلَيْم - وقد أخرجه الطبري من رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - موقوفاً عليه ، ومن رواية ابن مسعود - رضي الله عنه - موقوفاً عليه ، قال ابن كثير ، « والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن وقتادة ، والأعمش ، وغيرهم » ، ولكن الحديث ضعيف السند في المرفوع من أجل ليث بن أبي سُلَيْم ، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تضعيف متن الحديث في فتاويه ، وهو ما ذكره ابن عطية هنا عن والده ، وهو تحليل دقيق فاهم ، وقد نقله عنه القرطبي . وانتهى العلماء إلى أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتزيد الإنسان قرباً من الله إذا كانت على وجهها ، والدليل على ذلك الحديث الذي رواه أنس بن مالك وذكره ابن عطية بعد ذلك .

إن فلاناً كثير الصلاة ، فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها . وقرأ الربيع بن أنس : « إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر » . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : الصلاة - هنا - القرآن ، وقال حماد ابن أبي سليمان ، وابن جريج ، والكلبي : إن الصلاة تنهى مادمت فيها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عجمة ، وأين هذا مما رواه أنس بن مالك ؟ قال : كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه ، ف قيل ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (إنَّ صلاته ستنهاه) ، فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ) ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، قال ابن عباس ، وأبو الدرداء ، وسلمان ، وابن مسعود ، وأبو قررة رضي الله عن الصحابة أجمعين : معناه : ولذِكْرُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ أَكْبَرُ من ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ (١) ، وقيل :

(١) اختار الطبري هذا القول ، وروى مرفوعاً من حديث موسى بن عَقْبَةَ عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ : (ذكر الله إِيَّاكُمْ أَكْبَرُ من ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ) ، وبهذا القول قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد . وذكر السيوطي الحديث في الدر المنثور من رواية ابن السنِّي ، وابن مردويه ، والديلمي ، وقال ابن كثير : « رُوي هذا من غير وجه عن ابن عباس ، وروي أيضاً عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم » .

معناه : ولذكرُ الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر ، وقال ابن زيد ، وقتادة : لذكرُ الله أكبر من كل شيء ، وقيل لسلمان : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، كأنه يحضُّ عليه في هذين التأويلين الأخيرين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعندي أن المعنى : ولذكرُ الله أكبر على الإطلاق ، أي : هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل في غير الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرِ الله مراقبٍ له ، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى ، كما في الحديث : (مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ) (١) . والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهْي ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغه إلا من الله تعالى ، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى ، وذكْرُ الله تعالى للعبد هو

(١) أخرجه مسلم في الذكر ، والبخاري في التوحيد ، والترمذي في الدعوات ، وابن ماجه في الأدب ، وأحمد في مسنده في أماكن كثيرة ، ولفظه كما في مسلم : (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيراً منهم ، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) .

إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربّه . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (١) ، وباقى الآية ضربٌ من التَّوَعُّدِ والحث على المراقبة .
قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢)

قرأ الجمهور : [إِلَّا] على الاستثناء ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [أَلَا] بفتح الهمزة وتخفيف اللام ، واختلف المفسرون في المراد بهذه الآية .

فقال ابن زيد : معناها : لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب (٢) ، فكأنه قال : «أهل الكتاب المؤمنين» ، ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلكم ، وغير ذلك ، وقوله تعالى - على هذا التأويل - : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يريد به من بقي على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من بني قريظة والنضير وغيرهم ، فالآية - على هذا - مُحْكَمَةٌ غير منسوخة .

(١) من الآية (١٥٢) من سورة (البقرة) .

(٢) كعبد الله بن سلام ومن آمن معه .

وقال مجاهد : المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى والباقيون على دينهم . أمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم إلا بالأحسن : من الدعاء إلى الله تعالى ، والتنبيه على آياته ؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ، وقوله - على هذا التأويل - : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه : ظلموكم ، وإلا فكلُّهم ظلَّمة على الإطلاق ، فیرادُ به مَنْ لم يُؤدِّ جِزِيَةَ ، ونَصَبَ الحرب ، ومَنْ قال وصرَّحَ بأنَّ لله ولداً ، أو له شريك ، أو يده مغلولة ، فالآية - على هذا - منسوخة في مهادنة من لم يحارب ، قال قتادة : هي منسوخة بقول الله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١) الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يتوجَّه في معنى الآية إنما يتضح في معرفة الحال في وقت نزول الآية ، وذلك أن السورة مكِّيَّة من بعد الآيات العشر الأولى ، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ولا غير ذلك ، وكانت اليهود بمكة وفيما جاورها ، فربما وقع بينهم وبين المؤمنين جدالٌ واحتجاجٌ في أمر الدين وتكذيب ، فأمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم بالمحاجة إلا بالحسنى دعاءً إلى الله تعالى ومُلاينة ، ثم استثنى

(١) من الآية (٢٩) من سورة (التوبة) .

مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنِينَ ، إِمَّا بِفِعْلٍ وَإِمَّا بِقَوْلٍ ، وَإِمَّا بِإِذَايَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِمَّا بِإِعْلَانِ كُفْرٍ فَاحِشٍ ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ ، وَنَحْوِ هَذَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ اسْتَشْنِي لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مَعَارِضَتَهَا بِالْخُرُوجِ مَعَهَا عَنِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا بَعْدُ بِآيَةِ الْقِتَالِ وَالْجِزْيَةِ . وَهَذَا قَوْلُ قِتَادَةَ .

قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا ﴾ الآية . قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، فيفسرونها بالعربية للمسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ ، وَقُولُوا : ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾) (١) . وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا ، إِمَّا أَنْ تُكْذِبُوا بِحَقِّ وَإِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ) (٢) .

(١) أخرجه البخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، (الدر المنثور) ، وفي تفسير ابن كثير بعد أن نقل رواية البخاري للحديث : « وهذا الحديث تفرد به البخاري » .

(٢) أخرجه ابن جرير عن عبد الله ، قال ابن كثير : « وهو ابن مسعود » - وفي آخره زيادة على ما هنا : (فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال) . وفي الدر المنثور : أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود ، وزاد في آخره على ما هنا : =

قوله عز وجل :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۚ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

تقدم القول في الآية التي قبل هذه ما يتضمن نزول شرع وكتاب من الله تعالى على أنبيائه قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فحسن لذلك عطف ﴿ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ على ما في الضمن ، أي : وكاننا على من تقدمك كذلك أنزلنا إليك الكتاب ، و [الْكِتَابَ] : القرآن . وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يريد التوراة والإنجيل ، أي : فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأوتوه حينئذ يؤمنون به ، أي : كانوا مصدقين بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك ، فالضمير في [بِهِ] عائد على القرآن . ثم أخبر عن معاصري محمد صلى الله عليه

= (فإن كنتم سائلهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه) . وأخرج البيهقي في سننه وفي الشعب ، والديلمي ، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حديثاً بنفس اللفظ الذي أخرجه ابن عطية هنا ، وزاد في آخره : (والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني) ، قال ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور .

وسلم أن منهم من يؤمن به . ولم يكونوا آمنوا بعد ، ففي هذا الإخبار
يُغَيَّبُ بَيْنَهُ الوجود بعد ذلك ، ثُمَّ أُنْحَى عَلَى الجاحدين مِنْ أُمَّةٍ قَدْ
آمَنَ سَلْفُهَا فِي القَدِيمِ وبعضها في الحديث ، وحصل الجاحدون منهم
فِي أَحْسَنِ رُتْبَةٍ مِنَ الضلال ، وَيُشْبِهُ أَنْ يُرَادَ أَيْضاً فِي هَذَا الانحاء
كفَّار قريش مع كفَّار بني إسرائيل .

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى الحُجَّةَ عَلَى المُبْطِلِينَ المَرْتَابِينَ ، وَأَوْضَحَ أَنَّ مِمَّا
يُقَوِّي نَزُولَ هَذَا القُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ بِهِ فِي غَايَةِ الإِعْجَازِ وَالطُّولِ وَالتَّضَمُّنِ لِلْغُيُوبِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَا يَتْلُو كِتَابًا ، وَلَا يَخُطُّ حَرْفًا ،
وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى التَّعَلُّمِ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَقْرَأُ لَارْتَابَ المُبْطِلُونَ ،
وَلَكَانَ لَهُمْ فِي ارْتِيَابِهِمْ تَعَلُّقٌ ، وَأَمَّا ارْتِيَابُهُمْ مَعَ وَضُوحِ هَذِهِ الحُجَّةِ
فَظَاهِرٌ فِسَادُهُ . قَالَ مَجَاهِدٌ : كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَجِدُونَ فِي كِتَابِهِمْ أَنَّ
مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَخُطُّ وَلَا يَقْرَأُ كِتَابًا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ،
وَذَكَرَ النِّقَاشُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مَاتَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَتَبَ » ، وَأَسْنَدٌ أَيْضًا حَدِيثًا لِأَبِي كَبْشَةَ
السُّلُوبِيِّ ، مُضَمَّنَةً أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَرَأَ صَحِيفَةً لِعِيْنَةَ بْنِ
حِصْنٍ ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَاهَا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف . وقول الباجي رحمه الله منه (١) .
 وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ إضرابٌ عن مُقَدَّرٍ من
 الكلام يقتضي ما تقدّم ، كأنه قال : « ليس الأمر كما حسبوا ،
 بل هو... » ، وهذا الضمير يحتمل أن يعود على القرآن ، ويؤيده
 أن في قراءة ابن مسعود : « بَلْ هِيَ آيَاتٌ » ، ويحتمل أن يعود على
 محمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده قراءة من قرأ : « بَلْ هُوَ آيَةٌ
 بَيِّنَةٌ » على الأفراد (٢) ، وقال : المراد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل
 أن يعود على أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يَتَلْ ولا خَطَّ ، وبكلِّ

(١) قال القاضي أبو الوليد الباجي ما خلاصته أن النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كتب يوم
 الحديدية ، واستند في ذلك إلى ما وقع في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديدية أن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه : (اكتب الشرط بيننا ، بسم الله الرحمن الرحيم ،
 هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) ، فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله بايعناك -
 وفي رواية تابعتك - ولكن اكتب : محمد بن عبد الله ، فأمر علياً أن يمحوها ، فقال علي :
 والله لا أمحاه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أرني مكانها) ، فأراه فمحها
 وكتب : ابن عبد الله . وقد رواه البخاري بأظهر من هذا ، فقال : (فأخذ رسول الله صلى الله
 عليه وسلم الكتاب فكتب) . فقال جماعة منهم الباجي ، وأبو ذر (عبد الله بن أحمد الهروي) ،
 والسمناني (أبو عمرو الفلسطيني) ، قالوا بجواز هذا الظاهر ، وأنه صلى الله عليه وسلم كتب
 بيده ، واشتد نكير الفقهاء في المشرق والمغرب على قول الباجي هذا ، وإليه يشير ابن عطية .
 (٢) قال العلماء : ويؤيده أيضاً قراءة ابن مسعود وابن السميع : « بَلْ هَذَا آيَاتٌ
 بَيِّنَاتٌ » ، وكان صلى الله عليه وسلم آيات لا آية واحدة .

احتمال قالت فرقة ، وكون هذا كله آيات - أي علامات في صدور العلماء من المؤمنين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم - يراد به مع النظر والاعتبار .

و [الظالمون] و [المبطلون] قيل : يعم لفظهما كل مكذب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن معظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم ، قاله مجاهد . وقال قتادة : [المبطلون] : اليهود . قوله عز وجل :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

الضمير في [قالوا] لقريش وبعض اليهود ؛ لأنهم كانوا يعلمون قريشاً هذه الحجة : لم يأتكم بمثل ما جاء به موسى من العصا وغيرها . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وعلي بن نصر عن أبي عمرو : ﴿ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : [آيات] ، فأمر الله تعالى نبيه

عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم أن هذا الأمر بيد الله تبارك وتعالى لا يستنزله الاقتراح والتمني ، وأنه بُعث نذيراً ، ولم يؤمر بغير ذلك . وفي مصحف أبي : « لو ما يأتينا بآيات من ربه قل إنما الآيات » .

ثم احتج عليهم في طلبهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات ، ومعجز الجن والإنس ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ ، ثم قرّر ما فيه من الرحمة والذكرى للمؤمنين ، فقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ جواب لمن قال : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ ﴾ .

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود الذين أخبروهم بشيء من التوراة ، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : (كفى بهذا ضلالة ، قوم رغبوا عما أتاهم به نبيهم إلى ما أتى به غيره) ، ونزلت الآية بسببه (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتأويل الأول أجرى مع نسق الآيات .

(١) رواه الطبري ، من طريق يحيى بن جعدة ، قال الحافظ بن حجر في التقریب عن جَعْدَةَ : « ثقة » ، وزاد الإمام السيوطي في (الدر المنثور) الدارمي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وأورده السيوطي أيضاً في (الدر المنثور) من رواية الإسماعيلي في معجمه ، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستناد إلى أمر الله تبارك وتعالى ، وأن يجعله حسبه شهيداً وحاكماً بينه وبينهم بعلمه وتحصيله جميع أمورهم ، وقوله : [بِالْبَاطِلِ] يريد : بالأصنام والأوثان وما يتبع أمرها من المعتقدات (١) ، والباطل هو أن يفعل فعل يُراد به أمر ما ، وذلك الأمر لا يكون عن ذلك الفعل ، والأصنام أريد بأمرها الأكمل والأنجح في زعم عبّادها ، وليس الأكمل والأرجح إلا رفضها ، فهي إذاً باطلٌ ، وباقي الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ يريد كفّار قريش في

قولهم : ﴿ فَأَنتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ (٢) وغير ذلك من استعجالهم - على جهة

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما : الباطل : غير الله ، وقال مقاتل : ﴿ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾

أي : بعبادة الشيطان ، وقال يحيى بن سلام : بإبليس . والمعروف في اللغة أن الباطل هو نقيض الحق ، وأنه يجمع - على غير قياس - على أباطيل ، وقال أبو حاتم : يُجْمَعُ بِتَوَاطُلِ .

(٢) تكررت في الآيات : (٧٠ ، ٧٧) من سورة (الأعراف) ، (٣٢) من سورة (هود) ،

(٢٢) من سورة (الأحقاف) ، ولكنها كانت من أقوام عاد وثمود .

التعجيز والتكذيب - بعذاب الله تعالى الذي توعدهم محمد صلى الله عليه وسلم . ثم أخبر تعالى أنه يأتيهم بغتة ، أي : فجأة ، وهذا هو عذاب الدنيا ، وهو الذي ظهر يوم بدر ، وفي السنين السبع . ثم ذكر تعالى أن تأخره إنما هو بحسب الأجل المقدر السابق . وذكر المفسرون عن الضحاك أن الأجل المسمى بهذه الآيات الآجال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف يرده النظر ، والآجال لا محالة أجلٌ مسمى ، ولكن ليس هذا موضعها .

ثم توعدهم تبارك وتعالى بعد بعذاب الآخرة في قوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ ، كرر فعلهم وقبحه ، وأخبر أن وراءهم إحاطة جهنم بهم . وقال عكرمة - فيما حكى الطبري - أن جهنم ها هنا أراد بها البحر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ ﴾ ظرفٌ يعمل فيه قوله : [مُحِيطٌ] . و [يَغْشَاهُمْ] معناه : يغطيهم من كل جهة من جهاتهم . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [وَيَقُولُ] ، أي : ويقول الله . وقرأ

ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [وَنَقُولُ] بالنون ، فإِذَا أَنْ
تكون نون العظمة ، أو نون الجماعة ، جماعة الملائكة . وقرأ ابن
مسعود : [وَيُقَالُ] بياءٍ وألفٍ ، وهي قراءة ابن أبي عبلة .
وقوله تعالى : [ذُوقُوا] توبيخٌ ، ويُشَبَّهُهُ مُسُّ الْعَذَابِ بِالذُّوقِ
ومنه قوله تعالى : ﴿ ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (١) ، ومنه قول
أبي سفيان : « ذُوقْ عَقَقٌ » ، ونحو هذا كثير ، وقوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ ، أي : بما في أعمالكم من اكتسابكم .

قوله عز وجل :

﴿ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَايْبِي فَاَعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَٰئِقَةُ الْمَوْتِ ۚ
ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمٌ أَعْزَمُ الْعَمَلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ ﴾

هذه الآيات نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا كانوا بمكة على
الهجرة ، فأخبرهم تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء في بقعة على أذى
الكفار ليس بصواب ، بل الصواب أن تلتمس عبادة الله تعالى في

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الدخان) .

أرضه . وقال ابن جبير ، وعطاء ، ومجاهد : إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، وتلزم الهجرة عنها إلى بلدٍ حتى ، وقاله مالك ، وقال مُطَرِّفُ بن الشَّخِير (١) : قوله : ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ عدةٌ بسعة الرزق في جميع الأرض .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : [يَا عِبَادِي] بفتح الياء ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بسكونها ، وكذلك قرأ نافع وعاصم : [أَرْضِي] ساكنةً . وقوله تعالى : [فَأَيَّايَ] منصوب بفعل مقدر يدلُّ عليه الظاهر ، تقديره : « فَأَيَّايَ اعْبُدُوا فاعبدون » (٢) ، على الاهتمام أيضاً في التقدير .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ الآية ، تحقير لأمر الدنيا ومخاوفها ، كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة ما يلحقه في خروجه من وطنه أنه يموت أو يجوع ونحو هذا ، فحقر الله تعالى شأن الدنيا ، أي : أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلى الله تبارك وتعالى ، فالبدار إلى طاعة الله تعالى والهجرة إليه أولى ما يمثل .

(١) مُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشَّخِير ، العامري ، الحَرَشِييُّ ، أبو عبد الله البصري ، قال عنه الحافظ بن حجر في التقریب : ثقةٌ عابِدٌ فاضلٌ من الثانية ، مات سنة خمس وسبعين .
(٢) هو من باب الاشتغال ، وعلى ذلك فالتقدير : فاعبدوا إِيَّايَ فاعبدون .

وقرأ الجمهور : [تُرْجَعُونَ] بالتاء من فوق ، ورويت عن عاصم
بالياء من تحت ، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو ، وقرأ أبو حيوة :
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ ﴾ بالتنوين [أَلْمُوتَ] بالنصب .

ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى ،
وذكر الجزاء الذي ينالونه ، وقرأ جمهور القراء : [لَنُبَوِّئَنَّهُمْ] بالياء ،
أَي : لَنُنزِلَنَّهُمْ وَلَنُمَكِّنَنَّاهُمْ لِيُدُومُوا فِيهَا ، و [غُرْفًا] مفعول ثان ؛
لأنه فعل يتعدى إلى مفعولين . وقرأ حمزة : [لَنُنْثَوِيَنَّهُمْ] ، من
أثوى يُثوي ، وهو مُعَدَى ثَوَى بِمَعْنَى أَقَامَ ، وهي قراءة علي بن أبي
طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، والربيع بن خُثَيْم (١) ، وابن
وثاب ، وطلحة ، وقرأها بعضهم بفتح الثاء وتشديد الواو مُعَدَى
بالتضعيف لا بالهمزة . وقوله : [غُرْفًا] نصب بإسقاط حرف الجر ،
والتقدير : في غُرْفٍ . وقرأ يعقوب : [لَنُنْبَوِيَنَّهُمْ] بالياء من تحت ،
وروي عن ابن عامر : [غُرْفًا] بضم الغين والراء .

ثم وصفهم تعالى بالصبر والتوكل ، وهاتان جماعُ الخير كُلِّه ،
أَي : الصبر على الطاعات ، وعن الشهوات .

(١) الربيع بن خُثَيْم ، قال في التقريب : « بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ابن عائذ بن
عبد الله الثوري ، أبو يزيد الكوفي ، ثقة عابد محضرم ، من الثانية ، قال له ابن مسعود :
لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك ، مات سنة إحدى وستين ، وقيل : ثلاث
وستين » ، وفي الخلاصة ضبطه (خَيْثَم) بفتح الخاء والثاء ، وسكون الياء .

قوله عز وجل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّن خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤْفِكُونَ ﴿١١٠﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾

[كَأَيِّن] بمعنى (كَمْ) ، وهذه الآية تحريض على الهجرة ؛ لأن بعض المؤمنين فكَّر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة ، وقالوا : غربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار ولا من يطعم ، فمثل لهم بأكثر الدواب التي تتقوت ولا تدخر ولا تروى في رزقها ، والمعنى : فهو يرزقكم أنتم ، ففضلوا طاعة الله تعالى على كل شيء . وقوله تعالى : [لَا تَحْمِلُ] يجوز أن يريد : من الحمل ، أي : لا تنقل ولا تنظر في ادخاره ، قاله أبو مجلز ، ومجاهد ، وعلي بن الأَقرم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والادخار ليس من خلق الموقنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنهما : (كيف بك إذا بقيت في

حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ يَخْبِتُونَ رِزْقَ سَنَةِ بَضْعَفِ الْيَقِينِ (١) ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ مِنَ الْحِمَالَةِ ، أَي : لَا تَتَكَفَّلُ بِرِزْقِهَا وَلَا تَرَوَى فِيهِ (٢) .

ثُمَّ خَاطَبَ تَعَالَى نَبِيَّهٗ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِ الْكُفَّارِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنْ سَأَلُوا عَنِ الْأُمُورِ الْعِظَامِ الَّتِي هِيَ دَلَائِلُ الْقُدْرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا التَّسْلِيمُ بِأَنَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَ [يُؤَفِّكُونَ] مَعْنَاهُ : يَصْرِفُونَ ، وَنَبَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَسْخِيرِ الْكَوَاكِبِ ، وَذَكَرَ عَظَمَهَا ، وَنَبَّهَ تَعَالَى عَلَى بَسْطِ الرِّزْقِ وَقَدْرِهِ لِقَوْمٍ ، وَإِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهَذِهِ عِبْرَةٌ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ بِالنَّجَاةِ وَالْمَعْتَقِدِ الْأَقْوَمِ ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهٗ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَمْدِهِ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ لِعَقُولِهِمْ ، وَحَكْمِهِمْ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَا يَبْدُو مِنْهُمْ نَظَرٌ .

(١) أَسَدُ الْوَاحِدِيِّ عَنِ عَطَاءٍ ، عَنِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُمَا ، قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى دَخَلَ بَعْضُ حَيَّاتِ الْأَنْصَارِ ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ مِنَ الثَّمَارِ وَيَأْكُلُ ، فَقَالَ : (يَا بَنُ عَمْرٍ ، مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ) ؟ فَقُلْتُ : لَا أَشْتَهِيهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : (لَكِنِّي أَشْتَهِيهِ ، وَهَذِهِ صَبِيحَةٌ رَابِعَةٌ لَمْ أَذُقْ طَعَامًا ، وَلَوْ شِئْتُ لَدَعَوْتُ رَبِّي فَأَعْطَانِي مِثْلَ مَلِكِ كَسْرَى وَقَيْصَرَ ، فَكَيْفَ بَكَ يَا بَنُ عَمْرٍ إِذَا بَقِيَتْ فِي قَوْمٍ يَخْبِتُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ وَيَضَعِفُ الْيَقِينَ) ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا بَرِحْنَا حَتَّى نَزَلَتْ : ﴿ وَكُتِّبَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يُرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، وَقَدْ عَلَّقَ عَلَيْهِ الشُّوْكَانِيُّ بِقَوْلِهِ : وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ نِكَارَةٌ شَدِيدَةٌ لِمُخَالَفَتِهِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ كَانَ يُعْطِي نِسَاءَهُ قَوْتَ الْعَامِ كَمَا ثَبَتَ فِي كِتَابِ الْحَدِيثِ الْمَعْتَبَرَةِ وَفِي إِسْنَادِهِ أَبُو الْعَطُوفِ الْجَوْزِيُّ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ .

(٢) لَا تَفَكَّرُ فِي الْأَمْرِ وَلَا تَنْظُرُ فِيهِ .

قوله عز وجل :

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ۗ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۗ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وصف الله تعالى الدنيا في هذه الآية بأنها لهوٌ ولعب ، أي : ما كان منها لغير وجه الله تعالى ؛ فإن ما كان لله تعالى فهو من الآخرة ، وأما أمور الدنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات فإنما هو لهوٌ ولعب ، وتأمل ذلك في الملابس والمطاعم والمشارب والأقوال وغير ذلك .

وانظر إلى حاجة الغني والفقير في الأمور الضرورية فإنها واحدة ، كالتنفس في الهواء ، وسدّ الجوع ، وستر العورة ، وتوقّي الحر والبرد ، وهذه كلها عظم أمر العيش .

و [الْحَيَوَانُ] والحياة بمعنى ، وهو عند سيبويه والخليل مصدر كالهيمان ونحوه (١) ، والمعنى : لا موت فيها ، قاله مجاهد ، وهو

(١) هو مصدر يدل على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والجولان ، وكل حيّ

كثير الحركة .

حسن . وأصله : حَيَّان ، فأبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثلين .
ثم وقفهم تعالى على حالهم في البحر عند الخوف العظيم ، فإن
كل بشرٍ يَنْسَى كل صنم وغيره ، ويتمسك بالدعاء والرغبة إلى الله
تبارك وتعالى ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي : يرجعون إلى
ذكر أصنامهم وتعظيمها ، وقوله : [لِيَكْفُرُوا] نصب بلام كي .
وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : [وَلَيَتَمَتَّعُوا] بكسر
اللام ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : [وَلَتَتَمَتَّعُوا] بسكون
اللام على صيغة الأمر التي هي للوعيد والتهديد ، والواو - على هذا -
عاطفة جملة كلام لا عاطفة فعلاً على فعل ، وفي مصحف أبي بن كعب :
« فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » ، وفي قراءة ابن مسعود : « فَلَسَوْفَ »
باللام .

ثم عدّد تعالى على كفره قريش نعمته عليهم في الحرم في أنه جعله
لهم آمناً لا خوف فيه من أحوال العرب وعاداتهم وسوء أفعالهم ،
من القتل وأخذ الأموال ونحوه ، وذلك هو « التَّخَطُّفُ » الذي كان الناس
بسبيله ، ثم قررهم - على جهة التوبيخ - على إيمانهم بالباطل وكفرهم
بالله ونعمته . وقرأ جمهور القراء : [يُؤْمِنُونَ] بالياء من تحت ،
وكذلك [يَكْفُرُونَ] ، وقرأهما بالتاء من فوق الحسن ، وأبو عبد الرحمن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قررهم عزَّ وجلَّ على حال من افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ، وهذه كانت حالهم ، وأعلمهم أنه لا أحد أظلم منه ، وهذا في ضمنه وعيدٌ شديد ، ثم بين الوعيد أيضاً بالتقرير على أمر جهنم ، والمثوى : موضع الإقامة . وألفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإيجاز وجمع المعاني .

ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه ، وقرن ذلك بذكر الكفرة الظلمة لِيُبَيِّنَ تباين الحالين ، وقوله تعالى : [فِينَا] معناه : في مرضاتنا وبغية ثوابنا . قال السدي وغيره : نزلت هذه الآية قبل فرض القتال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهي قبل الجهاد العرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين الله تعالى وطلب رضائه . وقال الحسن : الآية في العباد ، وقال ابن عباس والحسن وإبراهيم بن أدهم : هي في الذين يعملون بما يعلمون ، وقد

قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ اللهُ ما لم يَعْلَمْ) ،
 ونزع بعض العلماء إلى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ (١) ،
 وقال بعض العلماء لِعُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه : « إنما قصر بنا
 عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا » ، وقال أبو سليمان
 الداراني : « ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدو فقط ، بل هو نصرُ
 الدين ، والرَّدُّ على المبطلين ، وقَمْعُ الظالمين ، وعُظْمُهُ الأَمْرُ بالمعروف
 والنَّهْيُ عن المنكر » ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالى ، وهو
 الجهاد الأكبر ، قاله الحسن وغيره ، وفيه حديث عن النبي صلى الله
 عليه وسلم : (رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) ، وقال
 سفيان بن عُيَيْنَةَ لابن المبارك : « إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك
 بالمجاهدين وأهل الثغور ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا
 لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . وقال الضحاك : معنى الآية :
 والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبيل الثبوت على الإيمان » (٢)
 و « السَّبِيلُ » هنا يحتمل أن يكون طرق الجنة ومسالكها ، ويحتمل أن
 يكون سبيل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النيرة . وقال يوسف

(١) من الآية (٢٨٢) من سورة (البقرة) .

(٢) وللكلامه بقية أوردتها القرطبي ، وهي : « مَثَلُ السُّنَّةِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْجَنَّةِ فِي الْعُقْبَى ،

من دخل الجنة في العقبى سلم ، ومن لزم السُّنَّةَ فِي الدُّنْيَا سلم » .

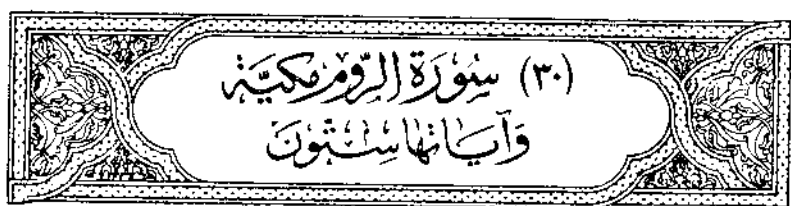
ابن أسباط : «هي إصلاح النية في الأعمال ، وحبُّ التزُّيد والتفهم ، وهذا هو أن يُجازى العبد على حُسْنِه بازدياد حُسْنِه ، ويُعَلَّم بجديد من عِلْمٍ مقدم ، وهي حالٌ من رضي الله عنه . وباقى الآية وعُدُّ .
و [مَع] يحتمل أن تكون هنا اسماً ؛ ولذلك دخلت عليها اللام للتأكيد ، ويحتمل أن تكون حرفاً ، ودخلت اللام لما فيها من معنى الاستقرار ، كما دخلت في : إنَّ زيدا لفي الدار (١) .

كامل تفسير سورة العنكبوت والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

(١) (مَع) إذا سكنت فهي حرف لا غير ، وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً وأن تكون حرفاً ، والأكثر أن تكون حرفاً جاء لمعنى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكيّة ، لا خلاف أحفظه في ذلك (١) .

قوله عز وجل :

﴿الْمَ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣
فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ
اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

(١) أخرج عبد الرزاق وأحمد - قال السيوطي : « بسند حسن » - عن رجل من الصحابة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح ، فقرأ فيها سورة الروم . وأخرج البزار
عن الأغر المزني مثله ، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير أن النبي صلى الله
عليه وآله وسلم قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم ، وأخرج ابن الضريع ، والنحاس ، وابن
مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، من طريق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « نزلت
سورة الروم بمكة » . (فتح القدير ، والدر المنثور) .

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما فيه كفاية .
 وقرأ الجمهور : [غَلَبَتْ] بضم الغين . وقالوا : معنى الآية أنه طراً
 بمكة أن الملك كسرى هزم جيش ملك الروم ، قال مجاهد : في الجزيرة ،
 وهو موضع بين العراق والشام ، وقال عكرمة : بأذرعات ، وهي بين
 بلاد العرب والشام ، وقال مقاتل : بفلسطين والأردن ، فلما طراً
 ذلك سر الكفار ، فبشر الله تبارك وتعالى عباده بأن الروم سيغلبون
 في بضع سنين ، وتكون الدولة لهم في الحرب .

وقرأ أبو سعيد الخدري ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ،
 ومعاوية بن قرة ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : [غَلَبَتْ] بفتح
 الغين واللام ، وتأويل ذلك أن الذي طراً يوم بدر إنما كان أن الروم
 غَلَبَتْ ، فعز ذلك على الكفار من قريش ، وسر المسلمون ، فبشر الله
 تبارك وتعالى عباده بأنهم سيغلبون أيضاً في بضع سنين ، ذكر هذا
 التأويل أبو حاتم . والرواية الأولى ، والقراءة بضم الغين أصح .
 وأجمع الناس على [سَيَغْلِبُونَ] أنه بفتح الياء (١) ، يراد به الروم ،
 ورؤي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ أيضاً : [سَيُغْلِبُونَ]

(١) عقب أبو حيان على هذا بعد أن نقله بقوله : « وقوله : (أجمعوا) ليس كذلك ،
 ألا ترى أن الذين قرءوا : [غَلَبَتْ] بفتح الغين هم الذين قرءوا : [سَيُغْلِبُونَ] بضم الياء
 وفتح اللام ؟ وليست هذه مخصوصة بابن عمر رضي الله عنهما .

بضم الياء ، وفي هذه القراءة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات .
و ﴿ أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ معناه : أقرب الأرض ، فإن كانت الوقعة
في أذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها
امروء القيس في قوله :

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَدْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرُ عَالٍ (١)

وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ،
وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم ، قال أبو حاتم :
وَقُرِئَ ﴿ أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ (٢) ، وقرأ جمهور الناس : [عَلَيْهِمْ] بفتح
اللام ، كما يقال : « اَحْلَبُ حَلْبًا لَكَ شَطْرُهُ » (٣) ، وقرأ ابن عمر
رضي الله عنهما بسكونها ، وهو مصدر أُضيف إلى المفعول (٤) .

(١) هو من قصيدته المشهورة التي قالها يتنزل ويصف مغامراته وصيده وسعيه إلى المجد ،
والتي قال في مطلعها :

أَلَا عِمُّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَابِي وَهَلْ يَعِمَّنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي ؟

(٢) هكذا في الأصول بدون ضبط ، ولم نجد ضبطاً لها في كتب القراءات والتفسير ، وإن
كان أبو حيان قد ذكر في البحر أنها قراءة الكلبي .

(٣) هذا مثل يضرب في الحث على الطلب ، والمساواة في المطلوب ، قال ذلك ابن الأثير
في « مجمع الأمثال » ، وقال الزمخشري في « المستقصى في أمثال العرب » : معناه : اعمل عملاً
لك بعضه . والشاهد فيه هنا هو فتح اللام في « حَلْبًا » .

(٤) قراءة السكون هي أيضاً قراءة ابن السميّقع وأبو حيوة ، والفتح والسكون لغتان في
المصدر ، مثل : الطَّعْنُ وَالطَّعَنُ ، وقد حكى الأصمعي : طَرَدَ طَرْدًا ، وَجَلَبَ جَلْبًا ، =

وروي في قصص هذه الآية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره أن الكفار لما فرحوا بمكة بغلب الروم ، بشر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الروم سيغلبون في بضع سنين ، أي : من الثلاثة إلى التسعة ، على مشهور قول اللغويين ، كأنه تبضيع العشرة ، أي : تقطيعها . وقال أبو عبيدة : من الثلاث إلى الخمس ، وقوله مردود ، فلما بشرهم بذلك خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المسجد ، فقال لهم : « أسركم أن غلبت الروم ؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين » ، فقال له أبي ابن خلف وأمية أخوه - وقيل : أبو سفيان بن حرب - : تعال يا أبا فصيل - يعرضون بكنته بالبكر^(١) - فلنتناخب - أي نتراهن - في ذلك ، فراهنهم أبو بكر ، - قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار - وجعل الرهان خمس قلائص ، والأجل ثلاث سنين ، فأخبر

= وحلب حلباً ، وغلب غلباً ، وفي ذلك رد على ما قاله الفرّاء ؛ إذ زعم أن الأصل : (من بعد غلبتهم) ، فحذفت التاء كما حذفت في قوله تعالى : ﴿ وإقام الصلاة ﴾ ، لأن أصله : إقامة الصلاة . قال النحاس : وهذا غلط لا يخيل على أحد من النحويين ؛ لأن ﴿ إقامة الصلاة ﴾ مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله ، وجعلت التاء عوضاً من المحذوف ، أما (غلب) ومثلاتها فليس بمعتل ، ولم يحذف منه شيء .

(١) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والبكر : الفتى القوي من الإبل ، فهم

بهذا يسخرون من أبي بكر رضي الله عنه .

النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له : إن البِضْعَ إلى التُّسْعِ ، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل ، ففعل أبو بكر رضي الله عنه ، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ، فَغَلَبَتِ الروم في أثناء الأجل ، فروي عن أبي سعيد الخدري أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر ، وروي أن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَّةِ ، وأن الخبر بذلك وصل يومَ بيعة الرضوان ، رُوي نحوه عن قتادة ، وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالى للمؤمنين .

وذكر الناسُ أن سبب سرور المسلمين بَغَلَبَةِ الروم وهمهم أن تَغَلِبَ ، وكون المشركين من قريش على ضدِّ ذلك ، إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، والفرس أهل الأوثان ونحوه من عبادة النار ككفار قريش والعرب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويُشبهه أن يقال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر : لأنه أيسر مؤونة ، ومتى غَلَبَ الأكبر كثر الخوف منه ، فتأمل هذا مع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجاه من ظهور دينه وشرع الله تعالى عزَّ وجلَّ الذي بعثه به ، وغلبته على الأمم ،

وإرادة كفار مكة أن يرميه الله تعالى بملك يستأصله ويُرِيحهم منه (١).
 و «سنين» يجمع كجمع من يعقل عوضاً عن النقص الذي في
 واحده ؛ لأن أصل سنة : سنهة ، أو سنة ، وكُسرت السّين منه دلالة
 على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ ، أخبر تبارك وتعالى
 بانفراده بالقدرة ، وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هو منه
 وبإرادته وقدرته ، فقال : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ ﴾ ، أي : إنفاذ الأحكام ،
 ﴿ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أي : من قبل هذه الغلبة ومن بعدها ، و «قَبْلُ»
 و «بَعْدُ» ظرفان بُنِيَا على الضَّمِّ ؛ لأنهما تعرفا بحذف ما أُضيف إليهما
 وصارا مُتَضَمِّنَيْنِ ما حُذِفَ ، فخالفا تعريف الأسماء وأشبهها الحروف
 في التضمين فَبُنِيَا ، وخصاً بالضَّمِّ لشبههما بالنادى المفرد ، وأنه
 إذا نُكِّرَ أو أُضيف زال بناؤه ، فكذلك هما ، فُضُمَّا كما أَنَّ النّادى
 مبني على الضم ، وكذلك قيل في ذلك أيضاً : إن الفتح تعذر فيهما
 لأنه حالهما عند إضافتهما إلى المتكلم ، وتعذر السكون لأن ما قبل

(١) قال النحاس : وقول آخر في سبب سرور المؤمنين - وهو أولى - كان فرحهم لإنجاز
 وعد الله تعالى ؛ إذ كان فيه دليل على الشُّبُوه ؛ لأنه تبارك وتعالى أخبر بما يكون في بضع سنين
 فكان فيه .

آخرهما ساكن ، فلم يبق إلا الضم فَبُنِيَا عليه . ومن العرب من يقول :
 مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ بِالْخَفْضِ وَالتَّنْوِينِ ، قال الفراء : « ويجوز تركُ
 التنوين فيبقى كما هو في الإضافة وإن حُذِفَ المضافُ » (١) .

وقوله تعالى : [وَيَوْمَئِذٍ] يحتمل أن يكون عطفاً على « الْقَبْلِ وَالْبَعْدِ » ،
 كأنه حصر الأزمنة الثلاثة : الماضي والمستقبل والحال ، ثم ابتداءً
 الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر (٢) ، ويحتمل أن يكون الكلام قد تمَّ
 في قوله : [بَعْدُ] ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أَنَّ يَوْمَ غَلَبَةِ
 الرُّومِ لِلْفَرَسِ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، وعلى هذا الاحتمال مشى
 المفسرون . والنصر الذي يفرح به المؤمنون يحتمل أن يُشار فيه إلى

(١) أطال الفراء القول عن « قبل وبعد » في كتابه (معاني القرآن) ، وهو من أول الأمر يرى أنهما في هذه الآية مرفوعان بغير تنوين ؛ لأنهما في المعنى يراد بهما الإضافة إلى شيء لا محالة ، فلما أدتا معنى ما أضيفتا إليه وَسَمُوهُمَا بِالرَّفْعِ وَهُمَا مَخْفُوضَتَانِ ؛ ليكون الرفع دليلاً على ماسقط مما أضيفتهما إليه ، واستشهد على ذلك بأبيات من الشعر ، وقال : فإن نويت أن تُظهِرَ المضاف إليه أو أظهرته قلت : لله الأمر من قبلٍ ومن بعدٍ ، ولو أطلقتها بالعربية فنوتت وفيهما معنى الإضافة فخفضت في الخفض ونوتت في النصب والرفع لكان صواباً ، وقد سُمِعَ ذلك من العرب ، وجاء في أشعارها ، فقال بعضهم :

وساغَ لِي الشَّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلًا أَكَادُ أَغْصُ بِالْمَسَاءِ الْحَمِيمِ

فَنَوَّنَ ، وكذلك تقول : جئتُك من قَبْلٍ فَرَأَيْتُكَ ، وكذلك قوله :
 مِكْرٌ مِيفَرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعًا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ
 فهذا مخفوض ، وإن شئت نوتت ، وإن شئت لم تنون على نيتك .

(٢) يعني يتم الكلام بقوله : [وَيَوْمَئِذٍ] ، ويبدأ الإخبار بقوله : ﴿ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

نصر الروم على فارس ، وهي نُصرة للإسلام بحكم السنين التي قد ذكرناها ، ويُحتمل أن يُشار فيه إلى نصر يخص المسلمين على عدوهم ، وهذا أيضاً غيبٌ أخبر به وأخرجه إمّا بيوم بدر ، وإمّا ببيعة الرضوان ، ويحتمل أن يُشار فيه إلى فرح المسلمين بنصر الله تعالى إياهم في أن صدق ما قال نبيُّهم عليه الصلاة والسلام في أن الروم ستغلب فارس ، فإن هذا ضربٌ من النصر عظيم .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ نصب على المصدر المؤكد ، وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يريد الكفار من قريش والعرب ، أي : لا يعلمون أن الأمور من عند الله تبارك وتعالى ، وأن وعده لا يتخلف ، وأن ما يورده نبيه - عليه الصلاة والسلام - حقٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا الذي ذكرناه هو عُمدة ما قيل . وقد حكى الطبري وغيره روايات يردُّها النظر أوَّل قول ، من ذلك أن بعضهم قال : إنما نزلت ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك ، فهذا يقتضي أن الآية مدنية ، والسورة كلها مكية بإجماع ، ونحو هذا من الأقوال .

قوله عز وجل :

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَنَفُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ
يَتَفَكَّرُونَ فِي أَنفُسِهِمْ^١ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ
مَّسُومٍ^٢ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

وصف تبارك وتعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله تعالى وصدق وعده بأنهم إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، واختلف الناس في معنى [ظاهراً] - فقالت فرقة : معناه : بيناً ، أي ما أدته إليهم حواسهم ، فكان علومهم إنما هي علوم البهائم^(١) . وقال ابن عباس ، والحسن ، والجمهور : معناه : ما فيه العلو أو الظهور في الدنيا ، من إتقان الصناعات والمباني ومظان كسب المال والفلاجات ونحوها ، وقالت فرقة : معناه : ذاهباً زائلاً ، أي : يعلمون من أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة ، ومثل هذه اللفظة قول الهدلي :

وَعَيْرَهَا الْوَأَشُونَ أَنِّي أَحِبُّهَا وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ عَنكَ عَارُهَا (٢)

(١) يعني أنها العلوم التي لا تهتم إلا بما تهتم به البهائم من الأكل والشرب والتناسل .

(٢) قال أبو ذؤيب الهدلي هذا البيت من قصيدة رثى بها نسيبة بن محرز

أحد بني حطيظ ، ومطلعها :

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ أَوْ نَهَارٌ هَا وَإِلَّا طُلُوعُ الشَّمْسِ ثُمَّ غِيَارُهَا؟ =

وقال سعيد بن جبير : إن قوله تعالى : ﴿ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
 إنما هو إشارة إلى ما يُعلم من قِبَل الكهنة مما تسترقه الشياطين ، وقال
 الرماني : كل ما يُعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهر ، وما يعلم بدليل العقل
 فهو الباطن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفيه تقع الغفلة وتقصير الجهال .

ثم وصفهم تبارك وتعالى بالغفلة والإعراض عن أمر الآخرة ،
 وكرّر الضمير تأكيداً ، وغفلة الكافر هي على الكمال ، والمؤمنُ
 المنهمك في أمور الدنيا التي هي أكبر همّه يأخذ من هذه الآية بحظٍّ .
 نور الله قلوبنا وهدى .

ثم وقفهم - على جهة التوبيخ - على أنهم قد فكروا فلم ينفعهم
 الفكر والنظر ؛ إذ لم يكن على سداد . وقوله تعالى : ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾
 يحتمل معنيين : أحدهما أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقهم
 ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع ، والثاني أن يكون قوله : ﴿ فِي ﴾

= والواشون : جمع واشٍ ، وهو الذي يَسِمُ بالإنسان ويسعى ، وأصله من الوشي وهو التمييز
 والتحسين والكذب في الكلام ونشره بين الناس . وقوله : « وتلك وشاة » أي : ذلك التعيير ،
 « ظاهر عنك عارها » : أي : زائل عنك وذاهب لا يعلّق بك ، وهو الشاهد هنا ، أي :
 أن تعيرهم لك لا يأتزق بك ، بل يبتعد عنك وينبؤ .

أَنْفُسِهِمْ ﴿ ظرفاً للفكرة في خلق السموات والأرض ، ثم أخبر عقب هذا المعنى بأن الحق هو السبب في خلق السموات والأرض ، فيكون قوله : ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ تأكيداً لقوله : [يَتَفَكَّرُوا] ، كما تقول : أَبْصِرْ بعينك واسمَعْ بأُذُنِكَ ، فقولك : «بعينك» و «بأُذُنِكَ» تأكيد . وقوله : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بسبب المنافع التي هي حقٌ وواجبٌ ، يريد : من الدلالة عليه ، والعبادة له دون فتور ، والانتصار للعبادة ومنافع الأرزاق وغير ذلك (١) . [وَأَجَلٍ] عطف على [الْحَقِّ] ، أي : وبأجل مسمى وهو يوم القيامة ، ففي الآية إشارة إلى البعث والنشور وفساد بنية من في هذا العالم ، ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفروا بهذا المعنى ، فعبر عنه بلقاء الله تبارك وتعالى ؛ لأن لقاء الله تعالى هو أعظم الأمور ، وفيه النجاة أو الهلكة .

(١) قال الإمام أبو عبد الله الرازي : «قدّم هنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفي قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ قدّم دلائل الآفاق على دلائل الأنفس . وحكمة ذلك أن المفيد يذكر الفائدة على وجه يختارها ، فإن فهمت وإلا انتقل إلى الأبين ، والمستفيد يفهم أولاً الأبين ثم يرتقي إلى الأخفى ، وفي قوله : ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ الفعل مسند إلى السامع أي المستفيد ، فبدأ تعالى بما يفهم أولاً ، ثم ارتقى إلى الأخفى الذي يفهم ثانياً ، وفي قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ﴾ الفعل مسند إلى المفيد ، فذكر أولاً الآفاق ، فإن لم يفهموا فالأنفس ؛ إذ لا ذهول للإنسان عن دلائلها لأنها في ذاته ، بخلاف دلائل الآفاق لأنه قد يذهل عنها ، وهذا مراعى في الذين يذكرون الله قياماً وعوداً ، إذ بدأ تعالى بأحوال الأنفس ثم بدلائل الآفاق . اه بتصرف .

قوله عز وجل :

﴿أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا أيضاً توقيف وتوبيخ على أنهم ساروا ونظروا ، أي أن ذلك لم ينفعهم حتى لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يتوجه للكفرة أن يعارض منهم من لم يسر فيقول : لم أسر ؛ لأن كافة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إلى من لم يسر ، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكُلِّ وقامت الحجة ، وهذا بين .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ يريد : بالمباني والحرث والحروب ، وسائر المباني التي أحدثوها هي كلها إثارة ، بعضها حقيقة وبعضها بتجوُّز ؛ لأن إثارة أهل الأرض والحيوان والمتاع إثارة للأرض . وقرأ أبو جعفر : [وَأَثَارُوا] بمدّ الهمزة ، قال ابن مجاهد : ليس هذا بشيء ، وقال أبو الفتح : وجهها أنه أشبع فتحة الهمزة فنشأت ألف ، ونحوه

قول ابن هرمة :

فَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحٍ (١)

وقال : وهذا من ضرورة الشعر لا يجيء في القرآن . وقرأ أبو حيوة :

[وَأَثَرُوا] بالمدِّ بغير ألف بعد الثاء ، من الأثرة . والضمير في [عَمَرُوهَا]

الأول للماضين ، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين ، وباقي الآية

بين يتضمَّن الوعظ والتخويف من الله تعالى .

قوله عز وجل :

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْءَىٰ ۚ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ

﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ

الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾

(١) البيت في (اللسان - نَزَح) ، وقد قاله ابن هرمة في رثاء ابنه ، والغَوَائِلِ جمع غائلة ، وهي الفسادُ والشرُّ والداهية ، يُعَزِّي نفسه فيقول مخاطباً ابنه : إنك أصبحت بعيداً عن المصائب والشر الذي يغتال الناس ، كذلك أصبحت بعيداً عن ذمِّ الناس لك ، لقد نجوت من مصائب الدنيا وما فيها من شرور . والشاهد أنه مدَّ الفتحة في الزاي من كلمة (مُنْتَزَاحٍ) فصارت ألفاً ، فقد تولدت الألف عن إشباع الفتحة ، ومثل هذا ما حدث في [آثَارُوا] من إشباع للفتحة نتجت عنها الألف في قراءة أبي جعفر . وهذه القراءة رواها الواقدي ، محمد ابن عمر بن واقد ، عن سليمان ، عن أبي جعفر ، ومن كلام أبي الفتح عليها قوله : وظهره لعمرى منكر ، إلا أن له وجهاً مآ ، وليس لحنأً مقطوعاً به ، وذلك أنه أراد : وأثَارُوا الأرضَ ، أي : شَقَقُوهَا للغرس والزرعة ، وهو أفعلوا ، من قوله سبحانه : ﴿ لا تَذْكُلُ الأرضُ تُشِيرُ الأرضُ ﴾ إلا أنه أشبع فتحة الهمزة فأنشأ عنها ألفاً . (راجع المحتسب ، ٢-١٦٣) .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [عَاقِبَةُ] بالرفع على أنها اسم [كَانَ] ، والخبر يجوز أن يكون [السُّوءَى] ، ويجوز أن يكون : ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ ، وتكون [السُّوءَى] - على هذا - مفعولاً بـ [أَسَاءُوا] ، وإذا كان [السُّوءَى] خبراً فإنَّ ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ مفعولٌ من أَجَلِه ، ولا يصح تعلقه بـ [أَسَاءُوا] ؛ لأنَّ في ذلك فصلاً بين الصلة وموصولها بخبر [كَانَ] . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [عَاقِبَةُ] بالنصب على أنها خبرٌ مقدم ، واسم كان أحد ما تقدم ، و [السُّوءَى] مصدرٌ كالرُّجْعَى والفتْيَا والشُّورَى ، ويجوز أن تكون صفةً لمحذوف تقديره : «الخلَّة السُّوءَى» . قال أبو حاتم : هذه قراءة العامة بالمدِّ على الواو وفتح الهمزة وياء التانيث ، فبعض القراء فحَم ، وبعضهم أَمال . وقرأ الحسن : [السُّوءَى] بالتذكير ، وروي عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه أنه قال : السُّوءَى والسُّوءَى ، اقرأ بما شئت ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : [أَسَاءُوا] هنا بمعنى : كفروا ، و [السُّوءَى] هي النار ، والتكذيب بآيات الله تبارك وتعالى غير الاستهزاء بها ، فلذلك عدد عليهم الفعلين .

ثم أخبر تعالى إخباراً مطلقاً لجميع العالم بالحشر والبعث من القبور .

وقرأ طلحة ، وابن مسعود : [يُبْدِي] بضم الياء وكسر الدال ، وقرأ

جمهور القراء : [تَرْجِعُونَ] بالتاء من فوق . وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم بالياء .

وقوله : [يَوْمَ] منصوب بـ [يُبْلِسُ] ، و «الإبلاسُ» : الكونُ في شرٍّ مع اليأس من الخير في ذلك الشيءِ بِعَيْنِهِ ، فإِبْلَاسُهُمْ هو في عذاب الله تعالى . وقرأ عامة القراء بكسر اللام ، وقرأ أبو عبد الرحمن (١) ، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفتحها ، وأبلس الربع إذا بلي ، وكأنه يئس من العمارة ، ومنه قول العجاج :

يا صاحِ هلْ تَعْرِفُ رَبْعاً مُكْرَساً ؟ قَسَالَ نَعَمَ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسَا (٢)

وقرأ عامة القراء : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ بالياء من تحت ، ورؤي عن نافع [تَكُنْ] بالتاء من فوق ، و «الشركاء» : المشار إليهم هم الأصنام ، أي الذين كانوا يجعلونهم شركاء الله بزعمهم . وقوله :

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ .

(٢) البيتان من مشطور الرجز للعجاج ، وهما في الديوان ، ولسان العرب ، و (معاني القرآن) للفرّاء ، و (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، والقرطبي ، والطبري ، قال في (اللسان - بلس) : «المبليس : اليأس ، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب : قد أبلس ، ثم ذكر البيت الثاني» . وقال الفرّاء : «﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يأسون من كلِّ خير ، وينقطع كلامهم وحُجَجُهُمْ . قال الشاعر ..» . ومُكْرَسٌ : اسم مفعول ، وهو الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت ، فركب بعضه بعضاً ، ويكون اسم فاعل أيضاً (كما قال أبو عبيدة) بنفس المعنى .

[وَكَانُوا] معناه أَيَكْذِبُونَ عند معاينتهم أمر الله تعالى وفساد حال الأصنام ،
فعبّر عنه بالماضي لتيقن الأمر وصحة وقوعه .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحٰنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ
﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[يَتَفَرَّقُونَ] معناه : في المنازل والأحكام والجزاء ، قال قتادة :
فُرْقَةٌ والله لا اجتماع بعدها . و [يُحْبَرُونَ] معناه : يُنْعَمُونَ ، قاله
مجاهد ، والحبرةُ والحبور : السرور والنعيم ، وقال يحيى بن أبي
كثير (١) : [يُحْبَرُونَ] معناه : يسمعون الأغاني (٢) ، وهذا نوعٌ من الحبرة ،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [يُحْبَرُونَ] : يكرمون ، وفي المثل :

(١) هو يحيى بن أبي كثير الطائي ، مولا هم ، أبو نصر اليمامي ، ثقة ثبت ، لكنه يدلّس
ويرسل ، من الخامسة ، مات سنة اثنين وثلاثين ، وقيل قبل ذلك . (تقريب التهذيب) .
(٢) قال الأوزاعي : « إذا أخذ أهل الجنة في السَّماع (يعني الغناء) لم تبق شجرة
في الجنة إلا رددت الغناء بالتسبيح والتقدیس » ، وقال : « ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً
من إسرافيل ، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم » .

«امتلات بيوتهم حبرة فهم ينتظرون العبرة» ، ومنه بيت أبي ذؤيب :
فِرَاقُ كَقَيْصِ السِّنِّ فَالصَّبْرَ إِنَّهُ لِكُلِّ أَنْسَابِ عِزَّةٍ وَحُبُورٍ (١)
هذا على هذه الرواية ، ويروى : «عثرة وجبور» ، وهي أكثر .

وذكر تعالى الروضة لأنها أحسن ما يعلم من بقاع الأرض ، وهي
حيث يكثر النبات الأخضر ، وما كان منها في المرتفع من الأرض
كان أحسن ، ومنه قول الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ خَضِرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلُ هَطْلٍ (٢)

(١) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب مطلعها :

أَمِينُ آلِ لَيْلَى بِالضَّجُوعِ وَأَهْلُنَا بِنَعْفِ اللَّوَى أَوْ بِالصُّفْيَةِ عَيْرُ
و «قَيْصُ السِّنِّ» : انشقاقها بالطول ، ويقال : «انْقَاصَتِ البِثْرُ» إذا تَشَقَّقَ طَيْهَا
وتَهَدَّم ، وقوله : «فَالصَّبْرَ» بالنصب ، أي : اصْبِرْ صَبْرًا ، وعن الأصمعي : «فَالصَّبْرُ»
بالرفع ، والمعنى : هذا فراق أبدي كانشقاق السِّنِّ فاصبر عليه ، وقال الأَخْفَشُ : إذا انشقت
السِّنُّ عَرْضًا قَبْلَ : انْقَصَمَتْ ، ورواها أبو عمرو : «كَتَغَضَ السِّنُّ» وهو تحركُ كُهَا ،
وقال : «قَاصَتِ السِّنُّ تَقْيِصُ» إذا تحركت ، وأما قوله : «عِزَّةٌ وَحُبُورٌ» فرواية نادرة ،
والرواية المشهورة وبها الديوان : «عَثْرَةٌ وَجُبُورٌ» ، أي : يَعْثُرُونَ ثم يجبرون ، وعلى
هذه الرواية المشهورة لا شاهد في البيت ، ولهذا لم يذكره الطبري ولا القرطبي ولا البحر المحيط .

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله :

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحِيلٌ . وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟

وهو واحد من ثلاثة أبيات استشهد بها المفسرون كالقرطبي والطبري وغيرهما ، وهي قوله : =

ومنه قول كثير :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ طَيِّبَةٌ الثَّرَى يَمْجُ النَّدى جَشَجَاتُهَا وَعَرَارُهَا (١)
قال الأصمعي : ولا يُقال روضة حتى يكون فيها ما يشرب فيه .

= ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِيلٌ
يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوَكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ
يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأُصْلُ
وقد أورد أبو عبيدة في مجاز القرآن البيتين الأول والثالث ، ورواية الطبري : (من رياض
الحسن) ، ورياض الحزن أطيب من رياض الأرض المنخفضة ، لأن رياض الحزن أكثر
تعرضاً للرياح التي تنشر منها الرائحة ، وأبعد من أن تطأها الأقدام ، والمسبيل : المطر ،
المطيل : الغزير ، والكوكب : قبل هو النور ، وقيل : النبات المستطيل . ومعنى الشرق -
على هذا - : الريان . والمؤزر : الذي حوله نبات آخر صار له كالإزار ، والمكتهل : الذي
قد بلغ وتم ، والنشر : تضيوع الرائحة ، والأصل : جمع أصيل ، وهو قبيل الغروب حين
تصفر الشمس ويطيب الهواء ، يقول : إن رائحة حبيته أطيب من رائحة الأزهار في هذه
الروضة التي بلغت حد الكمال في الحسن والإزهار .

(١) هذا واحد من بيتين قالهما كثير في محبوبته عزة ، وقد ذكرهما في اللسان ، (جثت) ،

وهو يتحدث عن رائحة فمها التي تفوق رائحة الأزهار في أحسن الرياض ، والبيتان هما :
فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ طَيِّبَةٌ الثَّرَى يَمْجُ النَّدى جَشَجَاتُهَا وَعَرَارُهَا
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِثَّتْ طَارِقًا وَقَدَّ أَوْقَدَتْ بِالْمِجْمَرِ اللَّدُنَ نَارُهَا
وَالثَّرَى : التراب الندي ، والجشجاء : نبات سهلي ربيعي يجف في الصيف ، وهو أخضر ،
له زهرة صفراء كأنها زهرة عرفجة طيبة الريح تأكله الإبل إذا لم تجد غيره ، واحدته جشجائة .
والعرار : بهار البر ، واحدته عرارة ، وهو نبت طيب الريح ، قيل : هو النرجس البري ،
وفيه قال الصمة بن عبد الله القشيري بيته المشهور :

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْمِيٍّ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضُّ على الصلاة في هذه الأوقات ، كأنه يقول : أدّى هذا التفرق إلى أنواع من النعم والعذاب فجرى بها المؤمن في طريق الفوز برحمة الله . وقال ابن عباس ، وقتادة ، وبعض الفقهاء : في هذه الآية تنبيه على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ، قالوا : والعشاء الآخرة في آية أخرى ، في ﴿ وَزُلْفَاءَ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ (١) ، وفي ذكر أوقات العورة (٢) . وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً وفرقة من الفقهاء : في هذه الآية تنبيه على الصلوات الخمس ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ يتضمن الصلاتين . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ اعتراض من الكلام بين وقوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ، وقرأ عكرمة : ﴿ حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ ﴾ ، والمعنى : حيناً تمسون فيه [وحيناً تصبحون فيه] (٣) .

(١) من الآية (١١٤) من سورة (هود) .

(٢) وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْأَدِنُكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْأَدِنُكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ... ﴾ الآية ، وهي رقم (٥٨) من سورة (النور) .

(٣) ما بين العلامتين [...] زيادة يقتضيها المقام ، وقد سقطت من الأصل ، قال العلماء : وقد حذف (فيه) تخفيفاً ، والقول في ذلك كالقول في ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ۝١٩ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ إِذَا حَمَلْنَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ۝٢٢ ﴾

«الحيُّ والميتُ» في هذه الآية يستعمل حقيقة ويستعمل مجازاً ،
فالحقيقة : المني يخرج منه الإنسان ، والبيضة يخرج منها الطائر ،
وهذه بعينها ميتة تخرج من حي ، وما جرى هذا المجرى ، وبهذا
المعنى فسَّر ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم . وقال الحسن :
المعنى : المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وروي هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قرأ هذه الآية
عندما كلمته بالإسلام أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط . والمجاز (١)
إخراج النبات الأخضر من الأرض ، وإخراج الطعم من النبات ،

(١) هذا هو المقابل لقول ابن عطية : «فالحقيقة : المني يخرج من الإنسان» .

وما جرى هذا المجرى . ومثل بَعْدُ بإحياء الأرض بعد موتها بالمطر .
ثم بعد هذه الأمثلة القاضية بتجويز بعث الأجساد عقلاً ساق الخبر
بأن كذلك خروجنا من القبور ، وقرأت فرقة : [يُخْرَجُونَ] بالياء
من تحت ، وقرأ عامة القراء : [تُخْرَجُونَ] بالتاء المضمومة ، وقرأ
الحسن ، وابن وثاب ، والأعمش ، وطلحة بفتح التاء وضم الراء .
و [مِنْ] في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ للتبعيض ،
وقال : [خَلَقَكُمْ] من حيث خلق أباهم آدم ، قاله قتادة . و [تَنْتَشِرُونَ]
معناه : تتصرفون وتتفرقون في الأعراض والأسفار .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يحتمل أن يريد خلقه حواء من
ضلع آدم ، فحمل ذلك على جميع الناس من حيث أنهم مخلوقة من
نفس آدم ، أي : من ذات شخصه ، ويحتمل أن يُريد : من نوعكم
وجنسكم . و «المودة والرحمة» على بابهما المشهور من التودد والتراحم ،
هذا هو البليغ ، وقال مجاهد والحسن وعكرمة : غنى بالمودة الجماع
وبالرحمة الولد .

ثم نبه تعالى على خلق السموات والأرض ، واختلاف اللغات
والألوان ، وهذه : البياض والسواد وغيرهما ، ويحتمل أن يريد
ضروب بني آدم وأنواعهم ، فتعم شخوص البشر الذين يختلفون

بالألوان ، وتعم الألسنة . وقرأ جمهور القراء : [لِلْعَالَمِينَ] بفتح اللام ، وقرأ حفص عن عاصم : [لِلْعَالَمِينَ] بكسر اللام (١) ، فالأولى على أن هذه الآية هي في نفسها منصوبة لجميع العالم ، والثانية على معنى أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم (٢) .

قوله عز وجل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

ذكر تعالى النوم بالليل والنهار وعُرف النوم إنما هو بالليل وحده ، ثم ذكر الابتغاء من فضله كأنه فيهما ، وإنما معنى ذلك أنه عم الليل والنهار فسمى الزمان ، وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعديد آية ابتغاء الفضل ، فإنهما آيتان ونعمتان يكونان في ليل ونهار ، والفرق

(١) وهي أيضاً قراءة حماد بن شعيب عن أبي بكر ، وعلقمة عن عاصم ، ويونس عن أبي عمرو .

(٢) فهي في هذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

(تحيز^١) (١) كل واحدة من نعمتين إلى محلها في الأغلب ، وقال بعض المفسرين : في الكلام تقديم وتأخير (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وإنما أراد أن يُرتب النوم لليل ، والابتغاء للنهار ، ولفظ الآية لا يُعطي ما أراد .

وقوله تعالى : [يُرِيكُمْ] فعلٌ مرتفع لما حذف (أَنْ) التي لو كانت لنصبته ، فلما حلَّ الفعل محلَّ الاسم أعرب بالرَّفع ، ومثله قول طرفة :
أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضَرَ الْوَعَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخَلِّدِي؟ (٣)

(١) هكذا بالأصل ، والمعنى قد يقبلها على قلق في التعبير .

(٢) ويكون التقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، فحذف حرف الجر في (بالنَّهَار) لاتصاله بالليل وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة . هكذا قدره القرطبي . وقال في البحر المحيط : « وهذا ضعيف ، ولفظ الآية لا يعطي ذلك » فاتفق مع ابن عطية في الرأي .

(٣) البيت من معلقة طرفة ، والبيت موضع خلاف بين البصريين والكوفيين في ضبط كلمة (أَحْضَرَ) ، فالبصريون يرفعونها ، ويرون أن (أَنْ) أضمرت قبل الفعل فذهب عملها ؛ لأنها لا تعمل مضمرة إلا في عشرة مواضع نصوا عليها ، أما الكوفيون فيرون أن (أَنْ) تعمل وهي مضمرة كأنها موجودة لقوة الدلالة عليها ، ولهذا فالرواية عندهم (أَحْضَرَ) بالنصب ، كأنه قال : أَنْ أَحْضَرَ . والوَعَى : أصوات المحاربين في المعركة ، ثم توسع فيه فأطلق على الحرب نفسها ، يقول طرفة : أيها الذي تلومني على شجاعتي وعلى تممعي باللذات هل تستطيع أن تخلدني في الدنيا إذا امتنعت عن اللذات وتخلقت عن الحروب ؟ والاستفهام يحمل معنى النفي وما يترتب على ذلك من إصرار على مبادئه .

قال الرماني : وتحتمل الآية أن يكون التقدير : «ومن آياته
آيةٌ يريكم البرق» ، وحذفت (آيةً) لدلالة [مِنْ] عليها ، ومنه
قول الشاعر :

وما الدهرُ إلا تارتانٍ فمنهُما أموتُ وأخرى أبتغي العيشَ أكدحُ (١)
والتقدير : فمنهما تارة أموت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على أن [مِنْ] للتبعيض كسائر هذه الآيات ، ويحتمل في هذه
وحدها أن تكون [مِنْ] لابتداء الغاية فلا يحتاج إلى تقدير (آية) ،
وإنما يكون الفعل مخلصاً للاستقبال .

وقوله : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، قال قتادة : خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم .

(١) البيت لتميم بن مقبل ، وهو في الديوان ، والكتاب ، ومعاني القرآن ، والحیوان ،
والكامل ، وحماسة البحري ، وخزانة الأدب ، واللمع ، والطبري ، والقرطبي . والتارة :
المرّة ، يقول : لا راحة في الدنيا ، فوقتُها قسمان : موتٌ مكروه عند الناس ، وحياةٌ
كلها مشقة ومعاناة ، والشاهد فيه أن جملة (أموت) صفة لموصوف محذوف ، والتقدير :
«تارة أموت فيها ، وتارة أخرى أبتغي العيش فيها» ، وهذا تقدير سيبويه ، وقدره الفراء
في المعاني فقال : «كأنه أراد : فمنها ساعة أموتها ، وساعة أعيشها» ، وقد أورد الزجاج
البيت عن تفسير قوله تعالى : ﴿ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾
قال : «أي قومٌ يُحَرِّفُونَ ، كهذا البيت ، والمعنى : (تارة أموت فيها) فحذف (تارة) ،
وأقام الجملة التي هي صفة نائبة عنها .»

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه ، بل الخوف والطمع لكل بشر ،
وقال الضحاك : الخوف من صواعقه ، والطمع في مطره . وقوله :
﴿ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ معناه : تَثَبَّتْ ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا
أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ (١) ، وهذا كثير ، وقيل : هو فعل مُسْتَقْبِل ،
أَحَلَّهُ محلَّ الماضي ليعطي فيه معنى الدوام الذي هو في المستقبل ،
و «الدَّعْوَةُ مِنَ الْأَرْضِ» هي البعث يوم القيامة ، و ﴿ مِنْ الْأَرْضِ ﴾
حالٌ من المخاطبين ، كأنه قال : خارجين من الأرض ، ويجوز أن
يكون ﴿ مِنْ الْأَرْضِ ﴾ صفة الدعوة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و [مِنْ] عندي ها هنا هي لانتهاء الغاية ، كما تقول : «دعوتك
من الجبل» ، إذا كان المدعُوُّ في الجبل (٢) ، والوقف في هذه الآية عند
نافع ويعقوب الحضرمي على [دَعْوَةٌ] ، والمعنى : إذا أنتم تخرجون

(١) من الآية (٢٠) من سورة (البقرة) .

(٢) اعترض أبو حيان في البحر على ذلك وقال : «وَكَوْنٌ (مِنْ) لانتهاء الغاية قول»

مردود عند أصحابنا .

من الأرض (١) ، وهذا على أن [مِنْ] لا ابتداء الغاية ، قال مكّي :
والأحسن عند أهل النظر أن الوقف في آخر الآية ؛ لأن مذهب سيبويه
والخليل في [إِذَا] الثانية أنها جواب الأولى ، كأنه قال : إذا دعاكم
خرجتم ، وهذا أسد الأقوال ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [تَخْرُجُونَ]
بفتح التاء ، وقرأ الباقر : [تَخْرُجُونَ] بضم التاء (٢) .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَنْتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿٢٧﴾ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿٢٨﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي
مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ يَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

اللام في الأولى لام الملك ، وفي الثانية لام تعدية ل (قنت) ،
وقنت بمعنى خضع في طاعته وانقياده . وهذه الآية ظاهر أمرها العموم

(١) أيضاً قال أبو حيان تعليقا على ذلك : « وهذا لا يجوز لأن فيه الفصل بين الشرط وجوابه ،
والوقف على [دَعْوَةٌ] فيه إعمال ما بعد (إذا) الفجائية فيما قبلها ، وهذا لا يجوز » .
(٢) من الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم جاءت بفتح التاء وضم الراء مثل
حمزة والكسائي .

في القُنْتُ ، والعموم في كلِّ من يعقل ، وتعميم ذلك في المعنى لا يصح ؛ لأنه خبر ونحن نجد كثيراً من الجن والإنس لا يَقْنُتُ في كثير من المَعْتَقَد والأعمال ، فلا بُدَّ أَنْ عموم ظاهر هذه الآية يراد به الخصوص ، واختلف المتأولون في الخصوص أين هو ؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو في القنوت والطاعة ، وذلك أن جميع من يعقل هو قانت لله في معظم الأمور من الحياة والموت والرزق والقدرة ونحو ذلك ، وبعضهم يخل بالعبادة والمعتقدات فلا يقنت فيها ، فكأنه قال : كلُّ له قانتون في معظم الأمور وفي غالب الشأن .

وقال ابن زيد ما معناه : إن الخصوص هو في الأعيان المذكورين ، كأنه قال : وله من السموات والأرض من مدك ومؤمن (١) .

وقوله : ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ معناه : يُنْشِئُهُ ويخرجه من العدم ، وجاء الفعل بصيغة الحال لما كان في هذا ما قد مضى كآدم وسائر القرون ، وفيه ما يأتي في المستقبل ، فكأن صيغة الحال تعطي هذا كله . و [يُعِيدُهُ] يبعثه من القبور ويُنْشِئُهُ تارةً أخرى .

(١) أوضح الآراء وأقربها إلى الصحة هنا أن من في السموات والأرض مخلوقون كإرادة الله تعالى ، لا يقدر أحد على تغيير الحلقة ، فآثار الصنعة والحلقة تدل على الطاعة ، فهي طاعة لإرادة ومشئته ، وليست طاعة عبادة ، لأن في طاعة العبادة مطيعاً وغير مطيع .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ - فقال

ابن عباس ، والربيع بن خثيم : المعنى : وهو هينٌ ، ونظيره قول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ (١)

بمعنى : لَوَجِلٌ . وقول الآخر :

. بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ (٢)

وقولهم في الأذان : « اللهُ أَكْبَرُ » (٣) ، وقول الشافعي رحمة الله عليه :

(١) البيت لِمَعْنِ بْنِ أَوْسِ الْمُزَنِيِّ ، وهو في خزنة الأدب ، والمقتضب ، والكامل ، والمنصف ، والأشموني ، وابن يعيش ، والعيني ، وشذور الذهب ، وشرح الحماسة للمرزوقي ، والتبريزي ، فضلا عن الديوان ، وهو بتمامه :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ عَلَى أَيْتَانَا تَعَدُّو الثَّمِينَةَ أَوْلُ

وهو من قصيدة قالها مَعْنٌ يستعطف بها صديقاً له هو شقيق زوجة معن ، وكان معن قد طلق أخت صديقه وتزوج غيرها ، فحلف صديقه ألا يكلمه أبداً ، فقال معن قصيدته لاسترضاء صديقه ، والشاهد هنا أَنَّ (أَوْجَل) بمعنى (وَجِل) ، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أن (أَوْلُ) بُني على الضم لحذف المضاف إليه ونِيَّةٍ معناه ، والأصل : أَوْلُ أَوْقَاتِ عَدُوِّهَا . (٢) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة يفتخر بها بقومه على جرير فيما كان بينهما

من نقائض ، وهو بتمامه :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، وكذلك الطبري ، والقرطبي . وَسَمَكَ السَّمَاءَ : رفعها عالية ، والشاهد هنا أن (أَعَزُّ وَأَطْوَلُ) جاءا بمعنى : عزيزة طويلة ، فليس هنا تفضيل ، وإنما هو مجرد وصف . والبيت في خزنة الأدب ، وابن يعيش ، والأشموني ، والعيني ، وهو أيضاً في الديوان . وقد عارضه جرير بقصيدة مثلها عدتها اثنان وستون بيتاً منها :

أَخْرَجْتَنِي الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُجَاشِعاً وَبَنَى بِنَاءَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ

(٣) لأن معناها : الله كبير . قال المبرد في الكامل : «لأنه إنما يُفاضل بين شيئين إذا كانا

من جنس واحد» ، وليس هناك من يشارك الله تعالى في هذه الصفة حتى يكون هناك تفضيل .

..... فَتِلْكَ سَبِيلِي لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ (١)

يريد : بواحد ، واستشهد بهذا البيت أبو عبيدة ، وهذا شاهد كثير ،
وفي بعض المصاحف « وَكُلُّ هَيْنٌ عَلَيْهِ » .

وقال ابن عباس أيضاً ، ومجاهد ، وعكرمة : المعنى : وهو أيسر
عليه ، وإن كان الكلُّ من اليُسْر عليه في حيزٍ واحدٍ وحالٍ متماثلة ،

(٢) هذا عجز بيت ، وهو واحد من ثلاثة أبيات في أمالي القالي (الذئيل) ، وفي شرح
المرزوقي للحماسة ، وهي منسوبة في كتاب الاختيارين للأخفش ، إلى مالك بن القيس الخزرجي ،
وقال ذلك الأستاذ عبد العزيز الميمتي في شرح ذيل الأمالي ، وقال محقق خزانه الأدب :
وهي في النسخة المطبوعة من كتاب الاختيارين بتحقيق فخر الدين قباوة ، وقد كتب بها يزيد
ابن عبد الملك إلى أخيه هشام حين بلغه أنه يتمنى موته ، كما كتب بها الوليد إلى أخيه سليمان
كما جاء في مروج الذهب ، والأبيات الثلاثة هي :

تَمَسَّنِي رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ
فَمَا عَيْشٌ مَنْ يَرْجُو رَدَّآيَ بِضَائِرِي وَمَا عَيْشٌ مَنْ يَرْجُو رَدَّآيَ بِمُخَلَّدٍ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَجَهَّزْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَسِدٍ
ومعنى (خلاف الذي قد مضى) : أن يخلفه على ميراثه أو ملكه ، قال القالي في ذيل الأمالي :
فَرَدَّ هِشَامٌ عَلَى يَزِيدَ بَيْنَيْنِ هُمَا :

وَمَنْ لَا يُغَمِّضُ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ يَمُتُ وَهُوَ عَاتِبٌ
وَمَنْ يَتَتَبَعُ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ يَجِدُهَا وَلَا يَسْلَمُ لَهُ الدَّهْرُ صَاحِبٌ
وردَّ يزيد بقصيدة معن بن أوس التي يقول فيها :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لِأَوْجَلُ عَلَى أَيَّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوْلُ
والشاهد هنا أن قوله : بأوحد معناه : بواحد ، لكن البغدادي قال في خزانه الأدب نقلا عن
أبي حيان : لا يخلو أفعل من التفضيل .

قال : ولكن هذا التفضيل بحسب معتقدات البشر ، وما يعطيهم النظر في المشاهد من أن الإعادة في كثير من الأشياء أهون علينا من البداءة ؛ للتمرُّن والاستغناء عن الرويَّة التي كانت في البداءة . وهذان القولان الضميران فيهما عائدان على الله تبارك وتعالى .

وقالت فرقة أخرى : الضمير في [عَلَيْهِ] عائد على [الْخَلْقِ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهو بمعنى «المخلوق» فقط ، وعلى التأويلين الأولين يصح أن يكون «المخلوق» ، أو يكون مصدراً من «خَلَقَ» . فقال الحسن : إن الإعادة أهون على المخلوق من إنشائه ؛ لأنه في إنشائه يصير من حالة إلى حالة ، من نطفة إلى علقة إلى مضغة ونحو هذا ، وفي الإعادة إنما يقوم في مرة واحدة ، فكأنه قال : وهو أيسر عليه ، أي : أقصر مدة وأقل انتقالاتاً .

وقال بعضهم : وهو أهون على المخلوق أن يعيد شيئاً بعد إنشائه ، فهذا عُرِفَ المخلوقين ، فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأظهر عندي عود الضمير على الله تعالى ، ويؤيده قوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ ، لما جاء بلفظ فيه استعارة واستشهاداً بالمخلوق على

الخالق ، وتشبيهه بما يعهده الناس من أنفسهم ، خلص جانب العظمة بأن جعل له المثل الأعلى الذي لا يصل إليه تكيف ولا تماثل مع شيء . والعزة والحكمة صفتان موافقتان لمعنى الآية ، فبهما يُعيد ويُنفذ أمره في عباده كيف شاء .

ثم بين تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يشركها بالله تعالى بضرب هذا المثل ، ومعناه : إنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكونهم فإنكم لا تشركونهم في أموالكم ولا في أموركم ولا في شيء على جهة استواء المنزلة ، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم ، كما يفعل بعضكم ببعض ، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون : إن من عبيده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته ، وتثبتون في جانبه مالا يليق عندكم بجوانبكم ؟ هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة ، وجاء هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير .

وقرأ الناس : ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بنصب السين ، وقرأ ابن أبي عبة بضمها . وقرأ الجمهور : [نُفُصِّلُ] بالنون حملاً على [رَزَقْنَاكُمْ] ، وقرأ عباس عن أبي عمرو : [يُفَصِّلُ] بالياء حملاً على ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ﴿٤١﴾ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٤٤﴾ *

الإضراب بـ [بَلْ] هو عما يتضمنه معنى الآية الأولى ، كأنه يقول : ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من تشريكهم مع الله تعالى ، بل اتبعوا أهواءهم جهالةً وشهوةً وقصدًا لأُمور دنياهم . ثم قرر - على جهة التوبيخ لهم - على من يهدي إذا أضل الله ؟ أي : لا هادي لأهل هذه الحال ، ثم أخبر أنه لا ناصر لهم .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بإقامة وجهه للدين المستقيم ، وهو دين الإسلام ، وإقامة الوجه هو تقويم المعتقد والقوة على الجد في أعمال الدين ، وذكر الوجه لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه (١) ، و [حَنِيفًا] معناه : معتدلاً مقوماً مائلاً عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة ،

(١) بالرفع عطفًا على (جامع) ، والمعنى : ذكر الوجه لأنه جامع ، ولأنه أشرف الإنسان .

وقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ نصب على المصدر ، كقوله : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ (١) ، وقيل : هو نصب بفعل مضمر تقديره : اتَّبِعْ وَالزَّمْ فِطْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، واختلف الناس في الفطرة ها هنا - فذكر مكي وغيره في ذلك جميع ما يمكن أن تصرف هذه اللفظة عليه ، وفي بعض ذلك قلق ، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخَلِقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدودة مُهَيَّأَةً لِأَنَّ يُمَيِّزُ بِهَا مَصْنُوعَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى رَبِّهِ جَلًّا وَعَلَا ، ويعرف شرائعه ، وَيُؤْمِنُ بِهِ ، فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فَطَرَ الْبَشَرَ ، لكن تَعْرِضُهُم الْعَوَارِضُ ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ...) الحديث (٢) ، وَذَكَرُ الْأَبَوَيْنِ إِنَّمَا هُوَ مِثَالٌ لِلْعَوَارِضِ الَّتِي هِيَ كَثِيرَةٌ .

(١) من الآية (١٣٨) من سورة (البقرة) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنايز ، وأبو داود في السنَّة ، والترمذي في القدر ، والموطأ في الجنايز ، وأحمد في ٢-٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٣٩٣ ، وروي بلفظ : (مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا يُولَدُ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ) ، رواه البخاري في تفسير سورة (الروم) ، ورواه هو ومسلم في القدر ، ورواه أحمد في المسند ٢-٣١٥ ، ٣٤٦ ، ولفظه بتمامه في الرواية الأولى (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يَهْوِدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَثَلِ الْبَيْهَمَةِ ، تُنْتَجِحُ الْبَيْهَمَةُ هَل تَرَى فِيهَا جِدْعَاءَ) ؟ ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير ، وعزاه لأبي يعلى في مسنده ، وأورده أيضاً في الدر المنثور بالرواية الثانية ، وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه - عن أبي هريرة ، وفي هذه الرواية : (ثم يقول أبو هريرة : واقْرءُوا إِن شِئْتُمْ : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ يحتمل تأويلين : أحدهما أن يريد بها مدة الفطرة المذكورة ، أي : اعلم أن هذه الفطرة لا تبدل لها من جهة الخالق ، ولا يجيء الأمر على خلافها بوجه ، والآخر أن يكون قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ إنحاءً على الكفرة ، واعترض به أثناء الكلام ، كأنه يقول : أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا ، فإن هؤلاء الكفار الذين خلق الله لهم الكفر ، ولا تبدل لخلق الله ، أي أنهم لا يفلحون . وقال مجاهد : المعنى : لا تبدل لدين الله ، وهو قول ابن جبير ، والضحاك ، وابن زيد ، والنخعي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا معناه : لا تبدل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف ، فإن كل شريعة فهي عقائدها .

وذهب بعض المفسرين في هذه الآية إلى تأويلات : منها قول عكرمة - وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ معناه : النهي عن خصاء الفحول من الحيوان . ومنها قول بعضهم في الفطرة : إنها الملة . على أنه قد قيل في الفطرة : الدين . وتؤول قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَطَرَ النَّاسَ ﴾ على الخصوص ، أي : المؤمنين . وقيل : الفطرة هي العهد الذي أخذه الله تعالى على ذرية

آدم حين أخرجهم نَسَمًا من ظهره ، ونحوه حديث معاذ رضي الله عنه حين مرَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : يا مُعَاذُ ، ما قوام هذه الأُمَّة ؟ قال : الإِخْلَاصُ ، وهو الفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا ، والصلاة وهي الدين ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر رضي الله عنه : صدقت (١) .

و [أَلْقِيْمٌ] بناءٌ مبالغة من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة .
وقوله تعالى : [مُنِيْبِيْنَ] يحتمل أن يكون حالاً من قوله : ﴿ فَطَرَ النَّاسَ ﴾ ، لا سيَّما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين ، ويحتمل أن يكون ذلك من قوله : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ ﴾ ، وجمعه لأن الخطاب بإقامة الوجه هي للنبي صلى الله عليه وسلم ولائمة ، ونظيرها قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (٢) و « الْمُنِيْبُ » : الراجع المخلص المائل إلى جهة ما تودّه نفسه ، و « الْمَشْرِكُوْنَ » المشار إليهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى ، قاله قتادة ، وقال ابن

(١) أخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له : ما قوام هذه الأُمَّة ؟ قال : ثلاثٌ ، وهُنَّ الْمُنْجِيَاتُ : الإِخْلَاصُ ، وهو الفِطْرَةُ ﴿ فَطَرَ اللهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، والصلاة ، وهي الْمِلَّةُ . والطَّاعَةُ ، وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت . (تفسير الطبري ، والدر المنثور) .

(٢) من الآية (١) من سورة (الطلاق) .

زيد : هم اليهود ، وقالت عائشة وأبو هريرة رضي الله عنهما : هي في أهل القبلة (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولفظة الإِشْرَاقِ - على هذا - فيها تجوز ، فإنهم صاروا في دينهم فِرَاقًا ، و « الشَّيْعِ » : الفِرَاقُ ، واحداها : شَيْعَةٌ ، وقوله : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ معناه أنهم مفتونون بآرائهم ، مُعْجِبُونَ بِضَلَالِهِمْ ، وذلك أَصِيلٌ فِيهِمْ . وقرأت فرقة : « فَارَقُوا دِينَهُمْ » بِالْأَلْفِ (٢) .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَانَهُمْ مِنْهُ رَحِمَهُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذا ابتداء إنحاء على عبادة الأصنام المشركين بالله تعالى غيره ، بين تعالى أنهم كسائر البشر في أنهم متى مسهم ضرر دعوا الله سبحانه ،

(١) فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ « من أهل الأهواء والبدع » ، كذا وضحه القرطبي ، ولعل هذه الجملة قد سقطت من النسخ ، وهو تأويل أبي أمامة أيضا .
(٢) هي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبها قرأ حمزة والكسائي ، والمعنى : فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه ، وهو التوحيد .

وتركوا الأصنام مطروحة ، ولهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ، فإذا أذاقهم رحمته ، أي : باشرهم أمره بها ، والذوق مستعار ، إذ هم طائفة تشرك به أصناماً ونحو هذا ، و [إِذَا] للمفاجأة ، فلذلك صلحت في جواب [إِذَا] الأولى ، فهي بمنزلة الفاء ، وهذه الطائفة هي عبدة الأصنام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويلحق من هذه الألفاظ شيءٌ للمؤمنين إذا جاءهم فرحٌ بعد شدة ، فعلقوا ذلك بمخلوق ، أو بحذق آرائهم ، أو بغير ذلك ؛ لأن فيه قلة شكر الله تبارك وتعالى ، ويسمى شركاً مجازاً .

وقوله تعالى : [لِيَكْفُرُوا] اللام لام كَيْ ، وقالت فرقة : هي لام الأمر على جهة الوعيد والتهديد . وأما قوله تعالى : [فَتَمَتَّعُوا] فأمر على جهة الوعيد والتقرير ، أي : قل لهم يا محمد : فتمتعوا .

وقرأ أبو العالية : «فَيَتَمَتَّعُوا» بياءٍ قبل التاء ، وذلك عطف على [لِيَكْفُرُوا] ، أي : لتطول أعمارهم على الكفر ، وفي حرف ابن مسعود : «فَلِيَتَمَتَّعُوا» ، ورؤي عن أبي العالية : «فَيَمَتَّعُوا» بضم الياء دون تاء أولى ، وفي مصحف ابن مسعود : «تَمَتَّعُوا» ، كذا قال هارون . وقرأ عامة الناس : [تَعَلَّمُونَ] بالتاء على المخاطبة ، وقرأ أبو العالية : [يَعْلَمُونَ] بالياء على ذكر الغائب .

وقوله تعالى : [أَمْ] هي بمعنى (بَلْ) وألف الاستفهام ، كأنه أضرب عن صدر الكلام ورجع عن هذه الحجة . و «السُّلْطَانُ» ها هنا : البرهان ،

من رسول أو كتاب ونحوه ، و السلطان في كلام العرب جمع سَلِيْطٍ ،
 كـرغيف ورُغْفان ، وغدير وغُدْران ، فهو مأخوذ من التَّسَلُّط والتَّغْلِب ،
 ولزِمَ هذا الاسم في العرف الرئيس ؛ لأنه تَسَلَّطَ بوجه الحق ، وهو
 اسم جمع من حيث هي أنواع الغلبة والملك عنده ، وقال قوم : هو
 اسم مفرد وزنه فُعْلان .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ معناه أنه يُظهر حاجتهم ، ويُغلب
 مذهبهم ، وينطق بشركهم ، قاله قتادة ، فيقوم بذلك مقام الكلام ،
 كما قال تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ (١) .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
 إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِن فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَكَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
 ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الناس متى تأتيهم شدة وضررٌ ولجؤا منه إلى
 سعة ، ذكر في هذه الآية الأمر أيضاً من الطرف الآخر بأن ذكر الرحمة

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الجنات) .

تعقبها الشدة ، فلهم في الأولى تضرعٌ ثم إشراكٌ ، ولهم في الثانية فرحٌ وبطر ثم قنوط وياسٌ ، وكلُّ أحدٍ يأخذ من هذا الخلق بقسط ، فمنهم المُقِلُّ ومنهم المُكثِرُ ، إلا من ربطت الشريعة على قلبه ، وتآدب بآدب الله تعالى ، فصبر عند الضراء ، وسكن عند السراء ، ولم يبطر عند النعمة ، ولم يقنط عند الابتلاء . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ، أي أن الله تعالى يمتحن الأُمم ، ويصيب منهم عند فشو المعاصي وظهور المناكر ، ولذلك فقد يصاب شخص لسوء أعماله بشيءٍ وخذَه ، ويعفو الله تعالى عن كثير . والقنوط : اليأسُ ، وقرأ أبو عمرو ، وجماعة : [يَقْنِطُونَ] بكسر النون ، وقرأ نافع ، والحسن ، وجماعة بفتحها .

وجواب الشرط في قوله : ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ ﴾ قوله : ﴿ إِذَا هُمْ ﴾ ، وذلك أنها للمفاجأة لا يُبتدأ بها ؛ لأنها بمنزلة الفاء ، ويجاب بها الشرط ، وأما التي للشرط أو التي فيها معنى الشرط فيبتدأ بهما .

ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره لم يياس من روح الله تعالى على حال ، وهو أن الله تبارك وتعالى يخص من شاء من عباده ببسط الرزق ، فينبغي لكل عبد أن يكون راجياً ما عند ربه ، ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أمراً تدخل الأُمة فيه ، وهذا على جهة النذبة إلى إيتاء ذي القربى حقه من صلة المال وحسن المعاشرة ولين القول .

قال الحسن : حَقُّه المَواصاةُ في اليُسْر ، قال : ومعظم ما قصد أمر المعونة بالمال ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (في المال حق سوى الزكاة) (١) ، وكذلك للمسكين وابن السبيل حق ، وبين أن حق هؤلاء إنما هو في المال وغير ذلك ، وكذلك يلتزم القريب المعدم الذي يُقضى حَقُّه أن يُقضى هو أيضاً حق قريبه في جودة العشرة ، و « وَجْهُ اللَّهِ » هنا جِهَةٌ عبادته ورضاه ، و [أَلْمُفْلِحُونَ] : الفائزون بِبُغْيَتِهِمْ ، البالغون لآمالهم .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ لِيَرْبُؤَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ ﴾ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴿

(١) أخرجه الترمذي والدارمي في الزكاة ، قال الدارمي في سننه : « أخبرنا محمد بن الطفيل ، ثنا شريك ، عن أبي حمزة ، عن عامر ، عن فاطمة بنت قيس ، قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن في أموالكم حقاً سوى الزكاة) . » .

قرأ الجمهور : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ ﴾ بمعنى : أعطيتم ، وقرأ ابن كثير :
 ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ ﴾ بغير مد ، بمعنى : ما فعلتم ، كما تقول : آتَيْتُ صواباً
 وآتَيْتُ خطأً ، وأجمعوا على المد في قوله : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾ .
 والرِّبَا : الزيادة .

واختلف المتأولون في معنى هذه الآية - فقال ابن عباس ، وابن
 جبير ، ومجاهد ، وطاوس : هذه آية نزلت في هبات الثواب .
 قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسَّلام وغيره ،
 فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تبارك وتعالى (١) .
 وقال ابن عباس أيضاً ، وإبراهيم النَّخعي : نزلت في قوم يعطون
 قراباتهم وإخوانهم على معنى تمويلهم ونفعهم والتفَضُّل عليهم ،
 وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم ، وقال الشعبي : معنى الآية
 أن ما خدم الإنسان به أحداً ، وخفَّ له لينتفع به في دنياه ، فإن ذلك
 النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كُله قريب وجزء من التأويل . ويحتمل أن يكون معنى هذه
 الآية النهي عن الربا في التجارات . لَمَّا حَصَّ عَزَّ وَجَلَّ على نفع ذوي

(١) هكذا في جميع الأصول .

القُرْبَى والمساكين وابن السبيل أَعْلَمَ أَنَّ ما فعل المرء من ربا ليزداد به مَالاً - وَفَعَلَهُ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ - فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرَبُو عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَزْكُو ، بَلْ يَتَعَلَّقُ فِيهِ الْإِثْمُ وَمَحَقُّ الْبِرْكَاتِ ، وَمَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ مِنْ زَكَاةٍ تَنْمِيَةً لِمَالِهِ وَتَطْهِيْرًا ، يَرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُجَازَى بِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً عَلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ .

وقال السُّدِّي : نزلت هذه الآية في رَبًّا ثَقِيْفًا ، لِأَنَّهْمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِالرِّبَا وَتَعْمَلُهُ فِيهِمْ قَرِيْشٌ .

وقرأ جمهور القراء السبعة : [لِيَرَبُّوا] بالياء وإسناد الفعل إلى الربا ، وقرأ نافع وحده : [لِيُرَبُّوا] بضم الياء والواو ساكنة ، بمعنى : يكونوا ذوي زيادات ، وهذه قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل المدينة ، والحسن ، وقتادة ، وأبو رجاء ، والشعبي . قال أبو حاتم : هي قراءةنا ، وقرأ أبو مالك : «لِتُرَبُّوهَا» بضمير مؤنث ، و «المُضْعِف» الذي هو ذو أضعاف من التراث ، كما أن المؤلف الذي له الألف ، وكما تقول : أخصب إذا كان ذا خصب ، وهذا كثير ، ومنه أَرَبَى المتقدم في قراءة من قرأ : [لِتُرَبُّوا] بضم التاء .

ثم كرر مخاطبة الكفرة في أمر أوثانهم ، فذكر أفعال الله تعالى التي لا شريك له فيها ، وهي الخلق والرزق والإماتة والإحياء ، ولا يمكن

أن ينكر ذلك عاقل ، ثم وقف الكفار - على جهة التقرير والتوبيخ -
 ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أي : الذين جعلتموهم شركاء ، مَنْ يفعل مِنْ
 شيءٍ من ذلك ؟ وهذا الترتيب بـ [ثُمَّ] هو في الإيجاد شيئاً بعد شيءٍ ،
 ومن هنا أدخل الفقهاء الولد مع أبيه في تعقيب الأجناس إذا كان اللفظ :
 « ثُمَّ عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، ثم على أَعْقَابِ أَعْقَابِهِمْ » . ثم نزه تبارك وتعالى
 نفسه عن مقاتلتهم في الإشراف . وقرأ الجمهور : [يُشْرِكُونَ] بالياء
 من تحت ، وقرأ الأعمش ، وابن وثاب بالتاء من فوق .

ثم ذكر تعالى - على جهة العبرة - ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي
 في قوله : ﴿ ظَهَرَ أَلْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، واختلف الناس في معنى
 « الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » في هذه الآية - فقال مجاهد : الْبَرُّ : البلاد البعيدة
 من البحر ، وَالْبَحْرُ : السَّوَاهِلُ والمدن التي على ضفة البحر والأنهار
 الكبار . وقال قتادة : الْبَرُّ : الفيافي ومواقع القبائل والصحارى ،
 وَالْبَحْرُ : المدن ، جمع بَحْرَةٌ (١) .

(١) في (اللسان - بَحْر) : « العرب تقول لكل قرية : هذه بَحْرَتُنَا ، والبَحْرَةُ :
 الأرضُ والبلدَةُ ، وفي حديث القسامة : قَتَلَ رَجُلًا بِبَحْرَةِ الرَّعَاءِ ، والبَحْرَةُ :
 البلدَةُ ، وفي حديث عبد الله بن أبي : اصطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ أَنْ يَعْصِبُوهُ بِالْعَصَابَةِ » .
 ويتضح من هذا أن البَحْرَةَ هي البلدة ، وَأَنَّهَا تُصَغَّرُ عَلَيَّ بُحَيْرَةً ، ولكن لم نجد أن البحر
 جمع لها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومنه قول سعد بن عبادة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن عبد الله بن أبي سلول : « وَلَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهَ » الحديث (١) . ومما يؤيد هذا أن عكرمة قرأ : « في البرِّ والبُحور » (٢) ، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال مجاهد أيضاً : ظهورُ الفساد في البر قتال بني آدم لأخيهما ، وفي البحر أخذ

(١) أخرجه البخاري في التفسير ، والأدب ، والاستئذان ، ومسلم في الجهاد ، وأحمد في المسند ٥-٢٠٣ ، ولفظه كما في المسند عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكية ، وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، فيهم عبد الله بن أبيّ ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا ، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فتزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبد الله بن أبيّ : أيها المرء لا أحسن من هذا ، إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذينا في مجالسنا ، وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك منا فاقصص عليه ، قال عبد الله ابن رواحة : اغشنا في مجالسنا فإننا نحب ذلك ، قال : فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم ، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال : أيُّ سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ يريد عبد الله بن أبيّ ، قال كذا وكذا ، قال : اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطاح أهل هذه البُحيرة أن يتوجَّهوا فيعصبونه بالعصاة ، فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك ، فذاك فعل به ما رأيت ، فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أي بالجمع كما نصَّ على ذلك في البحر المحيط .

السفن غضباً ، وقال بعض العُباد : البحرُ : القلبُ ، والبرُّ : اللسانُ ،
وقال الحسن : البرُّ والبحرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول صحيح .

وظهور الفساد فيهما هو ارتفاع البركات ، ونزول رزايا وحدث
فتن ، وتغلَّب عدوُّ كافر ، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الفساد في البحر : انقطاع صيده
بذنوب بني آدم ، وقلَّما توجد أمة فاضلة مطيعة مستقيمة الأعمال
لا يدفع الله عنها هذه ، والأمر بالعكس في أمر المعاصي وبطر النعمة ،
وكذلك كان أمر البلاد في وقت بعث النبي صلى الله عليه وسلم ،
قد كان الظلم عمَّ الأرض براً وبحراً ، وقد جعل الله تعالى هذه الأشياء
ليجازي بها على المعاصي ، فيُذيق الناس عاقبة ذنوبهم لعلمهم يتوبون
ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ تقديره : جزاء ما كسبت ، ويجوز
أن تتعلق الباء بـ [ظَهَرَ] ، أي : بِكَسَبِهِم المعاصي في البر والبحر ،
وهو نفس الفساد الظاهر ، والتَّرجِي في «لَعَلَّ» هو على معتقدنا ،
وَبِحَسَبِ نظرنا في الأُمور .

وقرأت عامة القراء والناس : [لِيُذَيِّقَهُمْ] بالياء ، وقرأ قنبل عن ابن كثير ، والأعرج ، وأبو عبد الرحمن السلمي بالنون (١) ، ومعناها بين ، وقرأ أيضاً أبو عبد الرحمن : «لِتُذَيِّقَهُمْ» بالتاء من فوق .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٧﴾ فَأَقَمَ لِجَهَنَّمَ أَلْقِيَامًا مِنَ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٨﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا تنبيه لقريش وأمر لهم بالاعتبار بمن سلف من الأمم وبسوء عواقبهم بكفرهم وإشراكهم ، ثم أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بإقامة وجهه ، والمعنى : اجعل قصدك ومسعاك للدين ، أي لطريقه ولأعماله واعتقاداته . و [الْقِيَام] أصله : قِيَوْم ، اجتمعت الياء والواو وسبقت الياء وهي ساكنة وأبدلت الواو ياءً وأدغمت الأو في الثانية . ثم حذره تبارك وتعالى من يوم القيامة تحذيراً يُعَمُّ العالم ، وإياهم القصد ، و ﴿ لَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ معناه : ليس فيه رجوع لعمل ولا رغبة ،

(١) وهي أيضاً قراءة أبي حنيفة ، وسهل ، وروح ، وابن حسان . وهي قراءة قنبل من طريق ابن مجاهد ، وابن الصباح ، وأبو الفضل الواسطي عنه ، ومحبوب عن أبي عمرو .

ولا عنه مرتحل ، ويحتمل أن يريد : لا يردُّه رادُّ حتى لا يقع ، وهذا ظاهر بحسب اللفظ ، و [يَصَّدَّعُونَ] معناه : يتفرقون بعد جمعهم ، وهذا هو التصدع ، ومعنى «يتفرقون» : إلى الجنة وإلى النار .
ثم قَسَمَ الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمالهم في الدنيا ، ثم عبَّر عن الكفر بـ «عَلَيْهِ» ، وهي تعطي الثقل والمشقة ، وعن العمل الصالح باللام التي هي لام الملك (١) ، و [يَمَهَّدُونَ] يُوطئون ويهيئون ، وهي استعارة منقولة من الفُرُش ونحوها إلى الأحوال والمراتب . وقال مجاهد : هذا التمهيد هو للقبر .

قوله عز وجل :

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾
وَمِنْ ءَايَاتِهِ ۗ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ۗ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ۗ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ بِجَاءِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۗ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

اللام في [لِيَجْزِيَ] متعلقة بـ [يَصَّدَّعُونَ] ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره : ذلك ، أو : فعَلَّ ذلك ليجزي ، وتكون

(١) في بعض النسخ : كَلَامِ الْمَلِكِ . أي : مثل لام الملك .

الإشارة إلى ما تقرر من قوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة ، ولكنه
بمعنى : لا يُظْهَر عليهم أماراتِ رحمته ، ولا يرضاه لهم ديناً ، ونحو هذا .
ثم ذكر تعالى من آياته أشياء تقتضي كل عقل بأنه لا مشاركة
للأوثان فيها ، وهي ما في الريح من المنافع ، وذلك أنها بُشِرى بالمطر ،
ويذيق الله بها الرحمة ، يعني الغيث والخصب ، ويلقح بها الشجر
وغير ذلك ، وتجري السفن بها في البحر ، ويبتغي الناس بها من
فضل الله تعالى في التجارات في البحر ، وفي ذَرْوِ الأَطعمة وغير ذلك .
ثم آنسَ محمداً صلى الله عليه وسلم بأن ضرب له مثل من أرسل
من الأنبياء ، ثم وعد تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم وأُمَّته النصر ؛
إِذْ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَهُ حَقًّا عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَ [حَقًّا] خَيْر [كَانَ]
قَدَّمَهُ اهْتِمَامًا ، لِأَنَّهُ مَوْضِعُ فَائِدَةِ الْجُمْلَةِ (١) ، وبعض القراء في هذه
الآية وقف على قوله : [حَقًّا] ، وجعله من الكلام المتقدم ، ثم استأنف
جملة مكونة من قوله : ﴿ عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذا قول ضعيف ؛
لأنه لم يدر قدر ما عرضه في نظم الآية . (٢)

(١) واسم [كَانَ] على هذا هو [نَصْرٌ] ، وترتيب الكلام : وكان نصر المؤمنين حقاً علينا .

(٢) الذي قرأ بالوقف على [حَقًّا] هو أبو بكر ، وتقدير الكلام ، وكان عقابنا حقاً ،

وهذا تقدير القرطبي ، وقدره الزمخشري : وكان الانتقام منهم حقاً .

قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنِيحُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لُمَلْسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

إثارة السُّحب : تحريكها من سكون وتَسْيِيرُهَا ، وَبَسَطُهَا فِي السَّمَاءِ هو نشرها في الآفاق ، و «الْكَسْفُ» : الْقِطْعُ . وقرأ جمهور القراء : [كِسْفًا] بفتح السين ، وقرأ ابن عامر : [كِسْفًا] بسكون السين ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر ، والأعرج ، وهما بناءان للجمع ، كما يقال : «سِدْرَةٌ وَسِدْرٌ» بسكون الدال ، و «سِدْرٌ» بفتح الدال ، وقال مكِّي : من أسكن السين فمعناه : يجعل السحاب قطعة واحدة ، و [الْوَدْقُ] : الماء يُمْطَرُ ، ومنه قول الشاعر :

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا وَلَا أَرْضٌ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا (١)

(١) البيت لعامر بن جُوَيْنٍ الطَّائِي ، وهو في كتاب سيبويه ، والعيني ، وابن يعيش ، وشواهد المغني ، وابن الشجري ، وهمع الهوامع ، وخزانة الأدب ، والشاعر يصف أرضاً =

و [خِلاله] : الفطور الذي بين بعضه وبعض ؛ لأنه مُتَحَلَّل الأجزاء .
 وقرأ الجمهور : ﴿ مِنْ خِلالِهِ ﴾ بكسر الخاء وألف بعد اللام ، جَمْعُ
 خَلَل كَجَبَلٍ وَجِبَالٍ ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن
 عباس ، والضحاك ، والحسن - بخلاف عنه - : ﴿ مِنْ خَلَلِهِ ﴾ ،
 وهو اسم جنس . والضمير في [خِلالِهِ] يحتمل أن يعود على «السحاب» ،
 ويحتمل أن يعود على «الكسف» في قراءة من قرأ بسكون السين ،
 وذكر الضمير مراعاةً لِللَّفْظ لا لمعنى الجمع ، كما تقول : «هذا تَمْرٌ
 جَيِّدٌ» (١) ، و ﴿ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ﴾ (٢) ، ومن قرأ : [كِسْفاً]
 بفتح السين فلا يعيد الضمير إلا على السحاب فقط (٣) .

= أخصبت لكثرة الغيث ، والمزنة : واحدة المزن ، وهو السحاب يحمل الماء ، والودق : المطر ،
 وأبقتلت : أخرجت البقتل ، وهو من النبات : ما ليس بشجر ، ويستشهد النحويون بالبيت
 على حذف التاء من الفعل (أبقتلت) لضرورة الشعر ، ويسوع ذلك أن الأرض بمعنى المكان ،
 أما ابن عطية فقد استشهد بالبيت هنا على أن (ودقت ودقها) بمعنى : أمطرت مطرها ،
 فالودق هو ماء المطر .

(١) لأن علماء اللغة يقولون : كلُّ جمع بينه وبين واحده الهاء لا غير فالتذكير فيه حسن ،
 وهذا ينطبق على «تَمْرٌ وَتَمْرَةٌ وَشَجَرٌ وَشَجَرَةٌ» .

(٢) يظهر أن في الكلام نقصاً سقط من النسخ ، وأن أصل التعبير : «هذا تمر جَيِّدٌ» ،
 ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ﴾ فقد عاد الضمير
 عليه مذكراً في قوله : ﴿ فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ . « فالضمير في (مِنْهُ) يعود
 على [الشَّجَرِ] .

(٣) لأن السحاب اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه .

قوله عز وجل : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ تأكيد أفاد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار ، وذلك أن قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان ، أي : من قبل ذلك ، أي : من قبل أن ينزل بكثير من الأيام ونحوه ، فجاء قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ بمعنى أن ذلك متصل بالمطر ، فهو تأكيدٌ مُقَيِّدٌ (١). وقرأ يعقوب ، وعيسى ، وأبو عمرو - بخلاف عنه - : [يُنْزَل] مخففة ، وقرأت عامة القراء بالثقل في الزاي ، وقرأ ابن مسعود : « عَلَيْهِمْ لَمُبْلِسِينَ » بسقوط ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ . و « الإِبْلَاسُ » : الكَوْنُ في حال سوءٍ مع اليأس من زوالها .

ثم عَجَبَهُ بمخاطبة يُرَادُ بها جميع الناس من أثر رحمة الله وهي المطر ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، [أَثَرِ] بالإفراد ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [آثَار] بالجمع ، واختلف عن عاصم . وقوله : ﴿ كَيْفَ يُحْيِي ﴾ يحتمل أن يكون الضمير الذي في الفعل للأثر ، ويحتمل أن يكون لله تعالى ، وهذا أظهر . وقرأت فرقة :

(١) وقال قطرب : إن [قَبْلُ] الأولى للإزالة والثانية للمطر ، أي : وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر ، وقيل : المعنى : من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع ، ودلَّ على الزرع الْمَطَرُ إذْ بسببه يكون ، ودلَّ عليه أيضاً : ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ ، وقيل : المعنى : من قبل السحاب من قبل رؤيته . ولكن أكثر النحويين يرون الرأي الذي ذكره المؤلف .

﴿ كَيْفَ تَحْيَا ﴾ بالتاء المفتوحة [الأَرْضُ] بالرفع . وقرأ الجحدريُّ ، وابن السَّمِيفَع ، وأبو حيوة : [تُحْيِي] بتاءٍ مضمومة على أن إسناد الفعل إلى ضمير الرحمة نصباً . قال أبو الفتح : « قوله : ﴿ كَيْفَ تُحْيِي ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال حملاً على المعنى ، كأنه قال : مُحْيِيَةً (١) » ، وهذه الحياة والموت استعارة في القحط والإعشاب . ثم أخبر تبارك وتعالى - على جهة القياس والتشبيه عليه - بالبعث والنشور ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عُمُومٌ . ﴾

قوله عز وجل :

﴿ وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ ۚ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِعَايَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(١) قال أبو الفتح ابن جنِّي : « ذهب بالتأنيث في قوله : ﴿ كَيْفَ تُحْيِي ﴾ إلى لفظ الرحمة ، وذلك لأن الرحمة قد يقوم مقامها أثرها ، كما تقول : رأيتُ عليك النعمة ، ورأيتُ عليك أثرَ النعمة » . ثم قال : « وجملة ﴿ كَيْفَ تُحْيِي ﴾ في موضع نصب على الحال ، حملاً على المعنى لا على اللفظ ، لأن اللفظ استفهام ، والحال ضرب من الخبر ، والاستفهام والخبر معنيان متدافعان ، وتلخيص كونها حالاً أنه كأنه قال : « فانظر إلى أثر رحمة الله مُحْيِيَةً الأرضَ بعد موتها » .

ثم أخبر تعالى عن حال تقلُّب ابن آدم في أنه بعد الاستبشار بالمطر إذا بعث الله ريحاً فاضفرَّ بها النباتُ ظلَّ يكفر قلقاً منه وقلةً توكلِّ وتسليم لله عزَّ وجلَّ . والضمير في [فَرَأَوْهُ] للنبات كما قلنا ، أو للأثر وهو حوَّة النبات الذي أُحييت به الأرض ، وقال قوم : هو للسحاب ، وقال قوم : هو للريح ، وهذا كله ضعيف . واللام في [لَئِنْ] مؤذنة بِمَجِيءِ الْقَسَمِ ، وهو في [لَظَلُّوا] ، فاللام لام القسم . وقوله تعالى : [ظَلُّوا] فعل ماضٍ أنزله منزلة المستقبل واستنابه منابه ؛ لأنَّ الجزاء هنا لا يكون إلا بفعل مستقبل ، لكن استعمل الماضي موضع المستقبل في بعض المواضع توثيقاً لوقوعه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ الآية ... استعارة للكفار ، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية في سورة النمل (١) . وكلُّهم قرأ : ﴿ وَلَا تَسْمِعُ ﴾ بتاءٍ مضمومة ونصب [الصَّم] ، وقرأ ابن كثير ، وعباسٌ عن أبي عمرو : [تَسْمِعُ] بتاءٍ مفتوحة [الصَّم] رفعاً . وقرأ الجمهور : ﴿ بِهَادِ الْعُمِّي ﴾ بالإضافة ، وقرأ يحيى بن الحرث ، وأبو حيوة : [بِهَادِ] بالتثنية [الْعُمِّي] نصباً . وقوله : ﴿ إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٨٠) : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ

الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ .

مَنْ يُؤْمِنُ ﴿ معناه : إِنْ تَسْمَعُ إِسْمَاعاً يَنْفَعُ وَيُجْدِي ، وَأَمَّا سَمَاعُ الْكُفْرَةِ فغَيْرُ مُجْدٍ فَاسْتَوِيَا . وقوله تعالى : ﴿ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ ، لما كان الهدى يتضمن الصرف عديت بـ [عَنْ] كما تتعدى (صرف) ، ومعنى الآية : ليس في قدرتك يا محمد ولا عليك أن تهدي . وقرأ ابن أبي عبيدة :

﴿ من ضلالتهم ﴾ (١) .

قوله عز وجل :

﴿ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِئُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذه أيضاً آية بين فيها أن الأوثان لا مدخل لها في هذا الأمر .

وقرأ جمهور القراء والناس بضم الضاد في [ضَعْفٍ] ، وقرأ عاصم ،

(١) قال الفراء : « كل صواب » ، من قال : ﴿ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ كأنه قال : ما أُنزِلت بصارف العُمي عن الضلالة ، ومن قال : [مِنْ] قال : ما أنت بمانعهم من الضلالة . (معاني القرآن ٢-٣٢٦) .

وحمزة بفتحها ، وهي قراءة ابن مسعود وأبي رجاء ، والضمُّ أصوب ، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح فردّها عليه بالضم (١) ، وقال كثير من اللغويين : ضمُّ الضاد في البدن وفتحها في العقل ، وروي عن عبد الرحمن ، والجحدري ، والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني ، وفتحوا [ضَعْفًا] (٢) ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ بضمّتين ، وهذه

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، والطبراني ، والشيرازي في الألقاب ، والدارقطني في الأفراد ، وابن عدي ، والحاكم ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه ، والخطيب في تالي التلخيص - عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قرأتُ على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ ، فقال : ﴿ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ يا بُنَيَّ . (الدر المنثور) .

(٢) قال القرطبي : « وقرأ الجحدري : ﴿ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ ﴾ بالفتح فيهما ، [ضَعْفًا] بالضم خاصة » اه . فقارن هذا بما ذكره ابن عطية . وما في البحر المحيط يوافق ما قاله ابن عطية . وقد حدث خلاف في الرواية عن عاصم ، وذكر الإمام الحافظ ابن الجندري ذلك في كتابه : « النشر في القراءات العشر » فقال : « وروينا عن حفص من طرق أنه قال : ما خالفت عاصماً في شيء من القرآن إلا في هذا الحرف ، وقد صح عنه الفتح والضم جميعاً ، فروى عنه عبيد ، وأبو الربيع الزهراني ، والفيل عن عمرو عنه الفتح رواية ، وروى عنه أبو هُبَيْرَةَ ، والقواس ، وزرعان عن عمرو عنه الضم اختياراً » ، وقال الحافظ أبو عمرو : « والاختياري في رواية حفص من طرق عمرو وعبيد الأخذ بالوجهين : بالفتح والضم ، فأتابع بذلك عاصماً على قراءته ، وأوافق به حفصاً على اختياره » . ثم علّق الحافظ ابن الجندري على ذلك فقال : « وبالوجهين قرأتُ له ، وبهما آخذ » .

الآية إنما يراد بها حال الجسم ، والضعف الأول هو كون الإنسان من ماء مهين ، والقوة بعد ذلك الشبيهة وشدة الأمر ، والضعف الثاني الهرم والشح ، هذا قول قتادة وغيره .

ثم أخبر تعالى عن يوم القيامة أن المجرمين يُقسَمون لجأجأ منهم ونشوزاً على ما لا علم لهم به ؛ أنهم ما لبثوا تحت التراب غير ساعة ، وهذا اتباع لتخيلهم الفاسد ، ونظرهم في ذلك الوقت على ما كانوا في الدنيا يبتغون ، فيؤفكون عن الحق ، أي : يُصرفون .
وقيل : المعنى : ما لبثوا في الدنيا ، كأنهم استقلوها لما عاينوا أمر الآخرة (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يضعفه قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ إذ لو أرادوا تقليل الدنيا بالإضافة إلى الآخرة لكان منزعاً شديداً ، وكان قولهم : ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ تجوزاً ، أي : في القدر والموازنة .

ثم أخبر تعالى عن الذين أوتوا العلم والإيمان أنهم يقفون في تلك الحال على الحق ، ويعرفون أنه الوعد المتقرر في الدنيا . وقال بعض

(١) وهذا كتوله تعالى : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .

المفسرين : إنما أراد : « أوتوا الإيمان والعلم » ، ففي الكلام تقديم وتأخير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يحتاج إلى هذا ، بل ذكر العلم يتضمن الإيمان ، ولا يصف
الله تعالى بعلم من لم يعلم كل ما يوجب الإيمان ، ثم ذكر الإيمان بعد
ذلك تنبيهاً عليه وتشريفاً لأمره ، كما قال : ﴿ فَآكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (١) ،
فنبه تبارك وتعالى على مكان الإيمان وخصه تشريفاً (٢) .

قوله عز وجل :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٥٧) ﴿ وَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ (٥٨) ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٩) ﴿ فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٦٠) ﴿

(١) من الآية (٦٨) من سورة (الرحمن) ، وهي قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَآكِهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ .

(٢) الذي قال بالتقديم والتأخير هو قتادة ، وحقيقة القول عنده يتضح من التقدير الذي
قده ، فقد قال : « تقديره : (أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم) ، وعلى هذا تكون
[في] بمعنى الباء ، أي : أوتوا العلم بكتاب الله » ، ونقل ذلك عنه الطبري ، ثم ابن عطية ،
ولكنهما قدراً تقديرًا آخر غير الذي ذكرناه هنا ، وقد نقل الشوكاني في فتح القدير عن
الواحدي قوله : « والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير ، على تقدير : (وقال الذين =

هذا إخبارٌ عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة ؛ في أنهم لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يُعطون عُتْبِي ، وهي الرضى ، و [يُسْتَعْتَبُونَ] بمعنى : يعتبون ، كما تقول : يملك ويستملك ، والباب في (استفعل) أنه طلب الشيء ، وليس هذا منه ؛ لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه : ولا يطلب منهم عُتْبِي (١) .

وقرأ عاصم ، والأعمش : [يَنْفَعُ] بالياء ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى ﴾ (٢) ، وحسن هذا أيضاً بالتفرقة التي بين الفعل وما استند إليه ، كما قال الشاعر :

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ثلاث الأثافي والديار البلاقع ؟ (٣)

=أوتوا العلم في كتاب الله « ، وهذا غير ما قدره قتادة في حديثه الذي رواه الطبري ، ونقله ابن عطية هنا . وقد قال أبو حيان في « البحر المحيط » أيضاً : « ولعل هذا القول لا يصح عن قتادة ؛ فإن فيسه تفكيكاً للنظم لا يسوغ في كلام غير فصيح ، فكيف يسوغ في كلام الله ، وكان قتادة موصوفاً بعلم العربية فلا يصدر عنه مثل هذا القول » .

(١) معنى هذا أن استفعل بمعنى الفعل المجرد وهو (عتب) ، أي : هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعب ، قال ذلك أبو حيان في البحر ، وقد قيل : المعنى لا يعاتبون على سيئاتهم بل يعاقبون ، وقيل : لا تطلب لهم العتبي .

(٢) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة) .

(٣) الأثافي : جمع الأثفية والإثفية ، وهي الحجر الذي توضع عليه القدر ، والعادة أن توضع القدر على ثلاثة أحجار ويترك موضع الحجر الرابع خالياً ليدفع منه الحطب تحت =

ثم أخبر تعالى عن قسوة قلوبهم ، وعجرفة طباعهم ، في أنه ضرب لهم كلّ مثل ، وبيّن عليهم بيان الحق ، ثمّ همّ مع ذلك عند الآية والمعجزة يكفرون ويُلحفون ويعمّهون في كفرهم ، ويصفون أهل الحق بالأباطيل . ثمّ أخبر تعالى أن هذا إنما هو من طبيعته وختمه على قلوب الجهلة الذين قد حتم عليهم الكفر في الأزل ، وذهب أبو عبيدة إلى أنه من قولهم : « طَبَعَ السَّيْفُ » ، أي : صَدَى أَشَدَّ صَدَى (١) .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وقوى نفسه بتحقيق الوعد ، ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم ، أو التحرك واضطراب النفس لأقوالهم ؛ إذ هم لا يقين لهم ولا بصيرة .

وقرأ ابن أبي إسحق ، ويعقوب : [يَسْتَحِقُّكَ] بحاء غير معجمة وقاف ، من الاستحقاق (٢) ، والجمهور على الخاء المعجمة والفاء ،

= القِدْر ، وثلاثة الأثافي : الجبل ؛ لأن العرب كانت إذا لم تجد حجراً ثالثاً أسندوا القدور إلى الجبل . والديار البلاقع : التي لا شيء فيها ، وقد جمعوا فقالوا : « أرضٌ بلاقع » لأنهم جعلوا كل جزء منها بلقعا ، والمكان البلقع هو الخالي ، وقد يوصف به الأنثى والجمع ، فيقال : أرضٌ بَلِّقَعٌ وديارٌ بَلِّقَعٌ ، والشاهد أن الفعل (يرجع) جاء بالياء للفرق بينه وبين ما استند إليه وهو (ثلاث ...) بفاصل من الكلام .

(١) جاء في (اللسان - طَبَعَ) : « وَأَصْلُ الطَّبَعِ الصَّدَأُ يَكْثُرُ عَلَى السَّيْفِ ... ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرها من المقايح التي تأتي على القلب » .
(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب : « أَيُّ : لا يَغْلِبُنْكَ ، فيصيروا أحقّ منك بنفسك ، هذا محمول هذه القراءة » .

من الاستخفاف ، إِلَّا أَنْ أَبِي إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ (١) سَكَّنَا النُّونَ مِنْ
 [يَسْتَخَفُّنَكَ] . وروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان في
 صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج بأعلى صوته يقرأ هذه الآية
 ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِئِنَّ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ
 وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) ، فَعَلِمَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مقصده في هذا ،
 وتعريضه به ، فأجابه وهو في الصلاة بهذه الآية : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

كامل تفسير سورة الروم والحمد لله رب العالمين
 وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(١) الذي في البحر المحيط أن الذي سَكَّنَ النون هو ابن أبي عبلة ويعقوب .

(٢) الآية (٦٥) من سورة (الزُّمَر) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبَةَ ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم

والبيهقي في سننه . (الدر المنثور) .

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور ، وفي ترتيب [تلك] مع كل قول منها . و [ألحكيم] يصح أن يكون من الحكمة ، ويصح أن يكون من الحكم . وقرأ جمهور القراء : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحال من المبهم ، ولا يصح أن يكون من [الكتاب] ؛ لأنه مضاف إليه ، وقرأ حمزة ، والكسائي بالرفع على تقدير : هو هدى ، وخصصه للمحسنين من حيث لهم نفعه ، وهم نظروه بعين الحقيقة ، وإلا فهو هدى في نفسه ، وفي قراءة ابن مسعود : « هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .

ثم وصف تعالى المحسنين بأنهم الذين عندهم اليقين بالبعث وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعندهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن صفتهم ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان ، فقال : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) الحديث (١) .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والتفسير ، ومسلم في الإيمان ، وأبو داود في السنن ، والترمذي في الإيمان ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في أماكن كثيرة ، ولفظه كما جاء في البخاري في تفسير سورة لقمان : عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر ، قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم =

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ ، رُوي أَنَّهَا نزلت في قُرَشِي اشترى جارية مُعْتَبَةً لِتُعْتَبِي بِهِجَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَبَّهُ ، فنزلت الآية في ذلك ، ورُوي أَنَّهُ ابْنُ أَخْطَلٍ ، ورُوي عن أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (شِرَاءُ الْمُغْنِيَّاتِ وَبَيْعُهُنَّ حَرَامٌ) ، وقرأ هذه الآية ، وقال : (في هذا المعنى نزلت عليَّ هذه الآية) (١) ، وبهذا فسَّرَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وابْنُ عَبَّاسٍ ، وجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، ومُجَاهِدٌ ، وقال الحسن : لَهْوُ الْحَدِيثِ : المَعَازِفُ وَالغِنَاءُ . وقال بعض الناس : نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب رستم واسفنديار ، وكان يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحدثهم بتلك الأباطيل ، ويقول : أَنَا أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ مُحَمَّدٍ (٢) ، وقال قتادة :

= رمضان ، قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ...) ثم سأله عن الساعة ، فأجابه مُبَيِّنًا أَشْرَاطَهَا ، فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هذا جبريل جاء ليُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ) .

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ، ولا خير في تجارة فيهن ، وثمنهن حرام ، في مثل هذا أنزلت الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ إلى آخر الآية . (الدر المنثور) . وفي ابن كثير : ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وضعف من رواه علي بن زيد .

(٢) قال القرطبي : « حكاة الفراء والكلمي وغيرهما » ، وجاء ذلك في أسباب النزول للواحدي عن الكلمي ومقاتل بدون سند ، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن =

الشرَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُسْتَعَارٌ ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَحَادِيثِ قُرَيْشٍ ، وَتَلَّهِمُ بِأَمْرِ الْإِسْلَامِ ، وَخَوْضِهِمْ فِي الْأَبَاطِيلِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فَكَأَنَّ تَرَكَ مَا يَجِبُ فَعَلَهُ ، وَامْتِثَالَ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ شِرَاءٌ لَهَا ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى ﴾ (١) .
وقد قال مُطَرِّفٌ : شِرَاءٌ لَهُوَ الْحَدِيثُ اسْتِحْبَابُهُ ، قَالَ قَتَادَةُ : وَلَعَلَّهُ لَا يُنْفَقُ فِيهِ مَالًا ، وَلَكِنْ سَمَاعُهُ هُوَ شِرَاؤُهُ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : لَهُوَ الْحَدِيثُ الشَّرُّكَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا : لَهُوَ الْحَدِيثُ الطُّبْلُ ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْغِنَاءِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وَالَّذِي يَتَرَجَّحُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي لَهُوَ حَدِيثٌ مُضَافٌ إِلَى كُفْرٍ ، فَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ أَلْفَاظُ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوعًا ﴾ وَبِالتَّوَعُّدِ بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ . وَأَمَّا لَفْظَةُ الشِّرَاءِ فَتَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ عَلَى مَا بَيَّنَّا ، وَ « لَهُوَ الْحَدِيثُ » كُلُّ مَا يُلْهِمِي مِنْ غِنَاءٍ

= عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يعني باطل الحديث ، وهو النضر بن الحارث بن علقمة ، اشترى أحاديث العجم وصنيعهم في دهرهم ، وكان يكتب الكتب من الحيرة والشام ويكذب القرآن ، فأعرض عنه فلم يؤمن .

(١) من الآية (١٦) من سورة (البقرة) .

وَحَنَا ونحوه ، والآية باقية المعنى في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليس لِيُضِلُّوا عن سبيل الله بكفر ، ولا لِيَتَّخِذُوا الآياتِ هُزُوءًا ، ولا عليهم هذا الوعيد ، بل لَتَعَطَّلِ عِبَادَةٌ ، وبِقَطْعِهِمْ زَمَانًا بِمَكْرُوهِ ، ولكونهم من جملة العصاة ، والنفوس الناقصة تروم تَتَمِيمَ ذلك النقص بالأحاديث ، وقد جعلوا الحديث من القِرَى ، وقيل لبعضهم : أَتَمَلُّ الحديث ؟ فقال : إِنَّمَا يَمَلُّ العتيق القديم المعاد ؛ لأنَّ الجديد من الأحاديث فيه الطرافة التي تَمْنَعُ من الملل .

وقرأ نافع ، وعاصم ، والحسن : [لِيُضِلُّ] بضم الياء ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتحها ، وفي حرف أبي : «لِيُضِلُّ الناسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [وَيَتَّخِذَهَا] بالنصب عطفاً على [لِيُضِلُّ] ، وقرأ الباقون : [وَيَتَّخِذَهَا] بالرفع عطفاً على [يَشْتَرِي] (١) .

والضمير في [وَيَتَّخِذَهَا] يحتمل أن يعود على ﴿آيَاتِ الْكِتَابِ﴾ المذكور أولاً ، ويحتمل أن يعود على «السَّبِيلِ» ، ويحتمل أن يعود على «الأحاديث» ؛ لأنَّ «الحديث» اسم جنسٍ بمعنى الأحاديث ، وكذلك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اسم جنسٍ ، وَلِكُلِّ وَجِهٍ مِنَ الْحَدِيثِ وَجْهٌ يليق به من السبيل .

(١) ويجوز أن يكون مستأنفاً .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا نُتُنَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَآتَىٰ مَسْكِرَاتٍ كَانَتْ لَا يُسْمَعُهَا كَانَتْ فِي أذُنِهِ وَاَقْرَأَ فَبِشْرِهِ
بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴿٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٧٨﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا وَعَدَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٩﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالَّتِي
فِي الْاَرْضِ رَوْسِيْ اَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ؕ وَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمٰوٰتِ مَآءً
فَاَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ ﴿٨٠﴾ هَذَا خَلَقَ اللهُ فَاَرُونِيْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِ
بَلِ الظَّالِمُوْنَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ﴿٨١﴾ ﴾

هذه دليل كفر هذا الذي نزلت فيه الآية التي قبلها . و «الوقر»
في الأذن : الثقل الذي يُغَيِّرُ إدراك المسموعات ، وجاءت البشارة بالعذاب
من حيث قيِّدت ونُصَّ عليها .

ولما ذكر عز وجل حال هؤلاء الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم
عقَّب بذكر المؤمنين وما وعدهم به من جنات النعيم ؛ لِيَتَّبِيْنَ الفرقُ .
و ﴿ وَعَدَّ اللهُ ﴾ منصوبٌ على المصدر ، و [حَقًّا] مصدرٌ مؤكد .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على
«السماء» فيكون المعنى : إن السماء بغير عمدٍ ، وأنها تُرى كذلك ،
وهذا قول الحسن والناس ، و [تَرَوْنَهَا] - على هذا القول - في موضع

نصب على الحال ، ويحتمل أن يعود الضمير على «العَمَد» ، فيكون [تَرَوْنَهَا] صفةً لِلْعَمَدِ في موضع خفض ، ويكون المعنى : إن السماء لها عَمَدٌ لكن غير مرئية ، قاله مجاهد ، ونَحَا إليه ابن عباس رضي الله عنهما ، والمعنى الأول أصح ، والجمهور عليه ، ويجوز أن تكون [تَرَوْنَهَا] في موضع رفع على القطع ، وَلَا عَمَدَ ثُمَّ .

و «الرَّوَّاسِي» هي الجبال التي بثت في الأرض ، وقوله : ﴿ أَنْ تَمِيدَ ﴾ بمعنى : أَلَّا تَمِيدَ (١) ، وَالْمِيدُ : التَّحَرُّكُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً وما قرب من ذلك . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي : من كل نوع . والزَّوْجُ في اللغة : النُّوعُ والصنف ، وليس بالذي هو ضد الفرد ، وقوله تعالى : [كَرِيمٌ] يحتمل أن يريد مدحه من جهة إتقان صنعته وظهور حسن الرتبة والتحكّم للصنع فيها ، فيَعْمُ حينئذ جميع الأنواع ؛ لأن هذا المعنى في كلها ، ويحتمل أن يريد مدحه بكرم جوهره ، وحسن منظره ، وما تقتضي له النفوس بأنه أفضل من سواه حتى يستحق الكرم ،

(١) هذا رأي الفراء ، ذكره في (معاني القرآن) ونقله عنه الطبري ، ثم ابن عطية وبعض المفسرين ، قال : «[وَأَنْ] في هذا الموضع تكفي من (لا) ، كما قال الشاعر :

والمُهْرُ يَأْبَى أَنْ يَزَالَ مُلْهَبًا

معناه : يأبى أن لا يزال «اه . والمُلْهَبُ : الشديد الجري ، وقد ألهب الفرسُ : اضطرم جريته .

فتكون الأزواج - على هذا - مخصوصة في نفائس الأشياء ومُستحسناتها ،
ولما كان عَظْمُ الموجودات كذلك خصص الحجة بها . وقوله : [أَنْبَتْنَا]
يعم أنواع الحيوان وأنواع النبات والمعادن (١) .

ثم وقف تعالى الكفار - على جهة التوبيخ وإظهار الحُجَّة - على
أن هذه الأشياء هي مخلوقات (٢) الله تبارك وتعالى ، ثم سألهم أن يوجدوا
ما خلق الأصنام والأوثان وغيرهم مِمَّنْ عُبِدَ ، أي : أنهم لم يخلقوا
شيئاً ، بل هذا الذي قريش فيه ضلالٌ مبينٌ ، ثم ذكَّروهم بالصفة
التي تُعَمُّ معهم سواهم مِمَّنْ فعل فعلهم من الأئمة ، وقوله : [مَاذَا]
يجوز أن تكون [ما] استفهاماً في موضع رفع بالابتداء ، و [ذَا] خبرها
بمعنى (الذي) ، والعائد محذوف ، ويجوز أن تكون [مَا] مفعولةً
بـ [أرُوني] ، و [ذَا] صلة ، و [مَا] بمعنى (الذي) ، والعائد محذوف ،
تقديره في الوجهين : خَلَقَهُ (٣) .

(١) في بعض النسخ : « يعم أنواع المعادن والنبات » .

(٢) لأن كلمة [خَلَقَ] في الآية الكريمة بمعنى : مَخْلُوق ، كقولهم : دِرْهَمٌ ضَرَبَ
الأمير ، أي : مَضْرُوبه .

(٣) قال أبو حيان : « ويجوز في [مَاذَا] أن تكون كلها موصولة بمعنى (الذي) ،
وتكون مفعولاً ثانياً لـ [أرُوني] ، وهذا قليل ، ذكره سيبويه » .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ
 وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ
 بِاللَّهِ ۗ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

لُقْمَانُ رَجُلٌ حَكِيمٌ بِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهِيَ الصَّوَابُ فِي الْمَعْتَقَدَاتِ ،
 وَالْفَقْهُ فِي الدِّينِ وَالْعَمَلِ (١) ، وَاخْتَلَفَ - هَلْ هُوَ نَبِيٌّ مَعَ ذَلِكَ أَوْ رَجُلٌ
 صَالِحٌ فَقَطْ ؟

فَقَالَ بِنُبُوَّتِهِ عَكْرَمَةُ وَالشَّعْبِيُّ ، وَقَالَ بِصِلَاحِهِ فَقَطْ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ ،
 وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
 (لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ عَبْدًا كَثِيرَ التَّفَكِيرِ ، حَسَنَ الْيَقِينِ ،
 أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحَبَّهُ ، فَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ ، وَخَيْرَهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ خَلِيفَةً
 يَحْكُمُ بِالْحَقِّ ، فَقَالَ : رَبُّ إِنْ خَيْرْتَنِي قَبْلْتُ الْعَافِيَةَ وَتَرَكْتُ الْبَلَاءَ ،
 وَإِنْ عَزَمْتَ عَلَيَّ فَسَمِعًا وَطَاعَةً فَإِنَّكَ سَتَعْصِمُنِي) (٢) ، وَكَانَ قَاضِيًا

(١) فِي بَعْضِ النُّسخ : « وَالْفَقْهُ فِي الدِّينِ وَالْعَقْل » ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْطُبِيِّ نَقْلًا عَنِ ابْنِ عَطِيَّة .
 (٢) أَخْرَجَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي نَوَادِرِ الْأَصُولِ عَنِ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،
 قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنْ لُقْمَانُ كَانَ عَبْدًا كَثِيرَ التَّفَكُّرِ ، حَسَنَ الظَّنِّ ، =

في بني إسرائيل ، نوبياً أسود مُشَقَّقَ الرجلين ذا مشافر ، قاله سعيد ابن المسيب ، ومجاهد ، وابن عباس . وقال له رجلٌ كان قد رعى معه الغنم : ما بلغ بك يا لقمان ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والَصَّمْتُ عما لا يعنيني ، وقال ابن المسيب : كان من سودان مصر ، من النُّوبة ، وقال خالد بن الربيع (١) : كان نجاراً ، وقيل : كان خياطاً ، وقيل :

= كثير الصمت ، أحبَّ الله فأحبَّه الله تعالى ، فمنَّ عليه بالحكمة ، نودي بالخلافة قبل داود عليه السلام ، فقيل له : يا لقمان ، هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرني ربي عزَّ وجلَّ قَبِلْتُ ، فإني أعلم أنه إن فعل ذلك أعاني وعلمني وعصمني ، وإن خيرني ربي قبلتُ العافية ولم أسأل البلاء ، فقالت الملائكة : يا لقمان لِمَ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، فيُخذل أو يُعان ، فإن أصاب فبالحرى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنَّة ، ومن يكون في الدنيا ذليلاً خيراً من أن يكون شريفاً ضائعاً ، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة . فعميت الملائكة من حُسن منطقهِ ، فنام نومة فغطَّ بالحكمة غَطّاً ، فأنبه فتكلم بها ، ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة ، فقبلها ولم يشترط شرط لقمان ، فأهوى في الخطيئة ، فصفح الله عنه وتجاوز ، وكان لقمان يوازه بعلمه وحكمته ، فقال داود عليه السلام : طوبى لك يا لقمان ، أوتيت الحكمة فصرفت عنك البليَّة ، وأوتي داود الخلافة فابتلي بالذنب والفتنة) . ذكره الإمام السيوطي في الدرِّ ، أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما فقد ذكره القرطبي بالنص الذي ذكره ابن عطية هنا ، ثم قال : وزاد الثعلبي : فقالت الملائكة ... إلى آخر ما في (الدر المنثور) من رواية أبي مسلم الخولاني .

(١) قال الحافظ بن حجر العسقلاني : « هو خالد بن الربيع العبسي الكوفي ، مقبول ،

من الثانية » . (تقريب التهذيب) .

كان راعياً . وحِكْمُ لقمان كثيرة مأثورة ، قيل له : أيُّ الناس شرٌّ ؟
قال : الذي لا يبالي إذا رآه الناس مُسيئاً .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ يجوز أن تكون [أَنْ] في موضع نصب
على إسقاط حرف الجرِّ ، أي : بأن اشكر الله ، ويجوز أن تكون مُفسِّرةً ،
أي : كانت حكمته دائرة على الشُّكر لله تعالى ومعانيه . وجميعُ العبادات
والمعتقدات داخلة في شكر الله تبارك وتعالى . ثم أخبر تعالى أن الشاكر
حظه عائد عليه ، وهو المنتفع بذلك ، والله تعالى غني عن الشكر ،
فلا ينفعه شكر العباد ، وحميدٌ في نفسه ، فلا يضرُّ كفر الكافرين .
و [حَمِيدٌ] بمعنى : محمود ، أي : هو مستحق الحمد بصفاته وذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ يحتمل أن يكون التقدير : واذكر إذ قال ،
واختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه ، واسم ابنه تاران (١) . وقرأ نافع ،
وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم :
[يَا بُنَيَّ] بالشَّدِّ والكسر في الياءِ ، في الثلاثة ، على إدغام إحدى
الياءَيْنِ في الأخرى ، وقرأ حفص ، والمفضل عن عاصم : [يَا بُنَيَّ]
بالشَّدِّ والفتح في الثلاثة ، على قولك : يا بُنَيَّا ، ويا غلاما . وقرأ
ابن أبي برة عن ابن كثير : [يَا بُنَيَّ] بسكون الياءِ ، و ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا ﴾

(١) في القرطبي : (تاران) بالثاء ، وفي بعض الأصول (تابان) بالثاء .

بكسر الياء ، و ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ بفتح الياء ، وزوى عنه قنبل بالسكون في الأولى والثالثة ، وبكسر الوُسْطَى . وظاهر قوله : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أنه من كلام لقمان ، ويحتمل أن يكون خبراً من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان ، مُتَّصِلاً به في تأكيد المعنى ، ويؤيد هذا الحديث المأثور : (إنه لما نزلت : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾) أشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أَيْنَا لَمْ يَظْلَم ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فسكن إشفاقهم (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون ذلك خبراً من الله تعالى ، وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله عز وجل ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ من الآية (٨٢) من سورة (الأنعام) ، والحديث ذكره القرطبي ، وقال عنه : « وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه » ، وذكر الإمام السيوطي في (الدر المنثور ٣-٢٦ ، ٢٧) أنه أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والدارقطني في الأفراد ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه - عن عبد الله بن مسعود ، ولفظه كما في الدر : (قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ، وأيننا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعون ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، إنما هو الشرك) . ومن هذا النص يتضح أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ من كلام لقمان ، وهو ما رجَّحه ابن عطية والمفسرون . (وقد سبق الكلام على ذلك في الجزء الخامس صفحة ٢٦٦) .

قوله عز وجل :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي
 وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
 تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ
 فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

هاتان الآيتان اعتراض أثناء وصية لقمان ، ووجه الطبري ذلك بأنها من معنى كلام لقمان ، ومما قصده ، وذلك غير متوجه ؛ لأن كون الآيتين في شأن سعد بن أبي وقاص - حسب ما ذكره بعد - يضعف أن يكون مما قاله لقمان ، وإنما الذي يشبه أنه اعتراض أثناء الموعظة ، وليس ذلك بمفسد الأول منها ولا الآخر ، ولما فرغ من هاتين الآيتين عاد إلى الموعظة على تقدير إضمار : « وقال أيضاً لقمان » ، ثم اختصر ذلك للدلالة المتقدم عليه .

وهذه الآية شرك (١) الله تعالى الأُمُّ والوالد منها في رتبة الوصية بهما ، ثم خصص الأُمُّ بدرجة ذكر الحمل ، وبدرجة ذكر الرضاع (٢) ،

(١) تأتي (شرك) بمعنى (شارك) ، يقال : شرَّكته البيع والميراث أشركه شركة ، فهو يريد أن الله تعالى جعل لكل من الأم والأب نصيباً في الوصية بهما .
 (٢) في بعض النسخ : « ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل ، وبذكر الرضاع » .

فتحصّل للأُم ثلاث مراتب ، وللأب واحدة ، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم - حين قال له رجلٌ - : من أبرُّ ؟ قال : (أُمك ، قال : ثمَّ مَنْ ؟ قال : أُمك ، قال : ثمَّ مَنْ ؟ قال : أُمك ، قال : ثمَّ مَنْ ؟ قال : ثمَّ أباك) (١) ، فجعل له الربع من المبرّة كالأية .

و ﴿ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ معناه : ضعفاً على ضعف ، وقيل : أشار إلى مشقة الحمل ومشقة الولادة بعده ، وقيل : أشار إلى ضعف الولد وضعف الأُم معه ، ويحتمل أنه أشار إلى تدرُّج حالها في زيادة الضعف ، كأنه لم يعين ضعفين ، بل كأنه قال : حملته أُمه والضعف يتزَيّد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمدّه . وقرأ عيسى الثقفي : ﴿ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ بفتح الهاء ، ورويت عن أبي عمرو ، وهما بمعنى واحد .

وقرأ جمهور الناس : [وَفِصَالُهُ] ، وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، والجحدري ، ويعقوب : [وَفَضْلُهُ] ، وأشار بالفصال إلى تحديد مُدَّة الرضاع ، فعبّر عنه بغايته ونهايته ، والناس مجمعون [على العامين] (٢) في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات ، وأما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعامين (٣) لا زيادة ولا نقص ، وقالت فرقة : العامان

(١) أخرجه البخاري ، وأبو داود ، وابن ماجه في الأدب ، وأخرجه مسلم في البر ، والإمام أحمد في مسنده (٥-٣ ، ٥) . (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) .

(٢) زيادة من القرطبي الذي نقل هذه الفقرة من كلام ابن عطية كاملة .

(٣) في القرطبي : بالتمام لا زيادة ولا نقص .

وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع في حكم واحد يحرم ، وقالت فرقة : إن فطم الصبي قبل العامين ونزل اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ يحتمل أن يكون التقدير : بأن اشكر ، ويحتمل أن تكون مفسرة ، وقال سفيان بن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما . وقوله تعالى : ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ توعد أثناء الوصية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾ الآية . روي أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص ، وذلك أن أمه - وهي حمئة بنت أبي سفيان بن أمية - حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى يفارق دينه ويرجع إلى دين آبائه وقومه ، فلجَّ سعد في الإسلام ، ويروى أنها كانت إذا أجهدها العطش شجوا فاهها ، ويروى : شجروا ، أي : فتحوه بعود ونحوه وصبوا ما يرمقها ، فلما طال ذلك ورأت أن سعداً لا يرجع أكلت ، ففي هذه القصة نزلت الآيات ، قاله سعد بن أبي وقاص والجماعة من المفسرين (١) .

(١) أخرج أبو يعلى ، والطبراني ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أبي عثمان الهندي أن سعد بن أبي وقاص قال : أنزلت في هذه الآية ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ﴾ . وقد تقدم هذا في تفسير سورة (العنكبوت) الآية رقم (٨) ، ص ٣٦٠ من هذا الجزء ، وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وواطأت الآية الأولى الأمر ببرِّ الوالدين وحكمه ، ثم حَكَمَ
بأنَّ ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي ، وجُملة هذا الباب أن طاعة
الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرة ، ولا في ترك فريضة على الأعيان ،
وتلزم طاعتها في المباحات ، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب ،
ومنه أمر الجهاد الكفاية ، والإجابة للأُم في الصلاة مع إمكان الإعادة ،
مع أن هذا أقوى من الندب ، لكن يُعلَّل بخوف هلكة عليها ونحوه
مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب ، وخالف الحسن
في هذا التفصيل ، فقال : إن منعتهُ أمه من شهود العشاء الآخرة شفقة
فلا يطعها .

وقوله : ﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ يعني : الأبوين الكافرين ،
أي : صلها بالمال ، وادعها برفق ، ومنه قول أسماء بنت أبي بكر
رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم - وقد قدمت عليها خالتها ،
وقيل : أمها من الرضاعة - فقالت : يا رسول الله ، إن أُمِّي قد قدمت
عليَّ وهي راغبة ، أفأصلُّها ؟ قال : نعم ، وراغبة ، قيل : معناه :
عن الإسلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأظهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانت لتُقدِّم على أسماء لولا حاجتها ، ووالدة أسماء هي قُتَيْلَة بنت عبد العزى بن عبد أسعد (١) ، وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وصية لجميع العالم ، كأنَّ المأمور الإنسان ، و [أَنَابَ] معناه : رجع إلى الشيء ، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين ، وحكى النقَّاش أن المأمور سعد ، والذي أَنَاب أبو بكر رضي الله عنهما ، وقال : ﴿ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا أَسْلَمَ أَتَاهُ سَعْدٌ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَعُثْمَانُ ، وَطَلْحَةُ ، وَسَعِيدٌ ، وَالزُّبَيْرُ ، فَقَالُوا : آمَنْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَنَزَلَتْ فِيهِ ﴾ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ (٢) ، فلما سمعها الستة آمنوا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) . ثم توعَّد تعالى بالبعث من القبور ، والرجوع للجزاء ، والوقوف على صغير الأعمال وكبيرها .

(١) الذي في القرطبي : « عبد العزى بن عبد أسد » .

(٢) من الآية (٩) من سورة (الزُّمَر) .

(٣) من الآيتين (١٧) ، (١٨) من سورة (الزُّمَر) .

قوله عز وجل :

﴿يَبْنِيَّٰنَ إِنهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن نَّحْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي
الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَآ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ
بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

المعنى : وقال لقمان : يا بُنَيَّ ، وهذا القول من لقمان إنما قصد
به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى ، وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه ؛
لأن الخردلة يقال : إنَّ الحِسَّ لا يُدْرِك لها ثقلا ؛ إذ لا ترجح ميزاناً .
وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بها علماً . وقوله تعالى :
﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر ، أي : قدر حبة ، وتصلح
للأعمال ، أي : ما زنته على جهة المماثلة قدر حبة ، فظاهر الآية أنه
أراد شيئاً من الأشياء خفياً قدر حبة ، ويؤيد ذلك ما روي من أن ابن
لقمان سأل أباه عن الحبة تقع في مثل البحر ، أيعلمها الله ؟ فراجعه
لقمان بهذه الآية . وذكر كثير من المفسرين أنه أراد الأعمال والمعاصي

والطاعات ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ ، أي : لا يفوت .
وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف . فيضاف ذلك إلى
تبيين قدرة الله تعالى ، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف .
ومما يؤيد قول من قال : « هي من الجواهر » قراءة عبد الكريم الجزري :
[فَتَكِنُّ] بكسر الكاف وشد النون ، من الكِنِّ الذي هو الشيء المغطى .
وقرأ جمهور الناس : ﴿ إِنَّ تَكُّ ﴾ بالتاء من فوق [مِثْقَالٌ] بالنصب
على خبر « كان » ، واسمها مضمرة تقديره : مسألتك - على ما روي -
أو : المعصية أو الطاعة على القول الثاني ، والضمير في [إِنَّهَا] ضمير
القصة ، وقرأ نافع وحده بالياء نصباً [مِثْقَالٌ] بالرفع على اسم « كان » ،
وهي التامة ، وأسند إلى المِثْقَالِ فعلاً فيه علامة التأنيث من حيث
انضمام إلى مؤنث هو منه ، وهذا كقول الشاعر :

مَشِينٌ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ النَّوَاسِمِ (١)

وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر .

(١) البيت لذي الرمة ، وقد سبق الاستشهاد به في أكثر من موضع ، وتسفَهَتْ : استخفت
واهتزت ، من السفه وهو خفة العقل وضعفه ، والنَّوَّاسِمِ : الحليفة الهبوب . يصف الشاعر
نساءً في أثناء مشيهن فيقول : إذا مشين اهتززن في مشيهن وتشنين كأنهن رماح منصوبة
مرت عليها الرياح فاهتزت وتشتت . وهو في الديوان ، وفي كتاب سيبويه . ومثله في التأنيث
بسبب الإضافة إلى مؤنث قول الشاعر :

وتشرقُ بالقولِ الذي قد أذعته كما شرقت صدرُ الفتاة من الدم

وقوله : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ ، قيل : أراد الصخرة التي عليها الأرض والحوث والماء ، وهي على ظهر ملك ، وقيل : هي صخرة في الريح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ، لا يُثبت سند ، وإنما معنى الكلام المبالغة والانتهاؤ في التفهيم ، أي : إن قدرته مثال ما يكون في تضاعيف صخرة ، وما يكون في السماء وفي الأرض . وقرأ قتادة : [فَتَكِينُ] بكسر الكاف والتخفيف : من : وَكُنْ يَكِينُ ، وتقدمت قراءة عبد الكريم [فَتَكِينُ] .
وقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ إن أراد بها الجوهر فالمعنى : يَأْتِ بِهَا إن احتيج إلى ذلك ، إن كانت رزقاً ونحو هذا ، وإن أراد الأعمال فمعناه : يَأْتِ بِذِكْرِهَا وحفظها ليجازي عليها بثواب أو بعقاب .
و ﴿ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ صفتان لا تفتان بإظهار غرائب القدرة .

ثم وصى ابنه بِعُظْمِ الطَّاعَاتِ ، وهي الصلاة والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا إنما يريد به بعد أن يَمْتَثِلَ هو في يقينه ، وَيَزْدَجِرَ عن المنكر ، وهنا هي الطَّاعَاتِ والفضائل أجمع .

وقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ يقتضي حُضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ، فهو إشعارٌ بَأَنَّ المغيِّرَ يُوذَى أحياناً ، وهذا القدر

هو على جهة الندب والقوة في ذات الله عز وجل ، وأما على اللزوم فلا .
وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ معناه : مما عزمه الله وأمر به ،
ويحتمل أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين
طريق النجاة ، والأول أصوب ، وبكليهما قالت طائفة (١) .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وابن محيصن :
﴿ وَلَا تُصَاعِرْ ﴾ . وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، والحسن ،
ومجاهد ، وأبو جعفر : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ . وقرأ الجحدري : ﴿ وَلَا تُصْعِرْ ﴾
بسكون الصاد ، والمعنى متقارب ، والصَّعَرُ : المَيْلُ ، ومنه قول الأعرابي :
« وقد أقام الدهرُ صعري بعد أن أقمتُ صعره » ، ومنه قول عمرو بن
حُنيّ التغلبي :

وَكُنَّا إِذَا الْجِبَارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقْمَنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَّوْمِ (٢)

(١) قال أبو حيان : « والظاهر أنه يريد لازمات الأمور الواجبة ؛ لأن الإشارة بـ [ذَلِكَ]
إلى جميع ما أمر به ونهى عنه » . هذا والعزم مصدر ، فيحتمل أن يراد به المفعول ، أي :
من معزوم الأمور ، ويحتمل أن يراد به الفاعل ، أي : عازم الأمور ، كقوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا
عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ .

(٢) هذا البيت مختلف في نسبه ، وفي قافيته ، ففي معجم الشعراء للمرزباني أنه لعمرو
ابن حُنيّ التغلبي ، وعمرو هذا فارس جاهلي ، قال هذا البيت من أبيات رواها محمد بن داود
في قتل التغلبيين عمرو بن هند ، وهي :

نُعَاطِي الْمُلُوكِ الْحَقَّ مَا قَصَدُوا بِنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ
أَنْفَتُ لَهُمْ مِنْ عَقْلِ عَمْرٍو بْنِ مَرْتَدِ إِذَا وَرَدُوا مَاءَ وَرْمَجِ بْنِ هَرْتَمِ
وَكُنَّا إِذَا الْجِبَارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقْمَنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَّوْمِ =

أي : فَتَقَوَّمُ أَنْتَ ، قاله أبو عبيدة ، وأنشده أبو عبيدة : (فَتَقَوَّمَا) وهو خطأ ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة ، وفي بيت آخر :

أَقَمْنَا لَهُ مِنْ خَدِّهِ الْمُتَّصِرِ (١)

فالمعنى : ولا تمل خدك للناس كبراً عليهم ، وإعجاباً ، واحتقاراً لهم ، وهذا هو تأويل ابن عباس - رضي الله عنهما - وجماعة ، ويحتمل أن يريد أيضاً الضد ، أي : ولا سؤالاً ولا ضراعة بالفقر ، والأول

= والمعنى : تَقَوَّمُ أَنْتَ ، أي : قَوَّمْ نَفْسَكَ . وكذلك نسبه الطبري والقرطبي وابن عطية لعمر بن حنبل هذا ، لكنهم اختلفوا في القافية ، فهي في القرطبي كما رواها ابن عطية هنا ، وهي في الطبري (فتقوما) كما ذكرت في مصادر متعددة ، إذ أن المرزباني نفسه يقول : ويروى هذا البيت من قصيدة المتلمس التي أولها :

يُعِيرُنِي أُمَّي رَجَالٌ وَلَنْ تَسْرَى أَحَا كَرَمٍ إِلَّا بَأْنُ يَتَكْرَمَ
وفي (مجاز القرآن) نسبه أبو عبيدة للمتلمس ، وكذلك في (اللسان - صَعَرَ) ، وفي (موسوعة الشعر العربي بيروت) ورد البيت ضمن القصيدة المذكورة للمتلمس ، وهو البيت السابع فيها ، والرواية في هذا كله : (فَتَقَوَّمَا) بالألف . وصَعَرَ معناه : أمال خدّه من الكِبَر ، والجَبَّار : العاني من الملوك ، والمعنى : إذا ما تكبّر هذا الطاغية وتجبّر قَوْمُنَا اعوجاجه فَتَقَوَّم . والشاهد أن (صَعَرَ) بمعنى أمال وجهه من الكِبَر . والصَعَرَ في الأصل داءٌ يصيب الإبل في رؤوسها حتى يلف أعناقها ويلوي رؤوسها ، وفي الحديث : (يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعّر أو أبتّر) يعني رذالة الناس الذين لا دين لهم ، على أن في البيت رواية أخرى ذكرها الشوكاني ولم ينسبها ، وهي :

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُهُ

(١) هذا عجز البيت ، وَأَقَمْنَا : أصلحنا وقومنا ، والمتصعر : المائل كبراً ، ومعنى

هذا الشطر يوحي بأن الصدر مثل البيت السابق .

أظهر بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعده ، وقال مجاهد : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾
أراد به الإعراض وهجره بسبب أخيه .

و «المرحُ» : النشاط ، و «المشيُّ مرحاً» هو في غير شغل ولغير
حاجة ، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء ، فالمرحُ مُختال
في مشيته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (مَنْ جَرَّ ثوبه خِيَلَاءَ لم
ينظر الله إليه يوم القيامة) (١) ، وقال : (بينما رجل من بني إسرائيل
يجرُّ ثوبه خِيَلَاءَ خسف الله به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم
القيامة) (٢) ، وقال مجاهد : الفخور هو الذي يعدد ما أُعطي ولا يشكر
الله تبارك وتعالى ، قال : وفي اللفظ الفخر بالنسب وغير ذلك .

ولما نهاه عن الخُلُقِ الذمِيمِ رسم له الخُلُقِ الكريم الذي ينبغي
أن يستعمله ، من القَصْدِ في المشي ، وهو ألا يتخرق في إسراع ،

(١) في ابن كثير : « عن ابن أبي ليلى ، عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعاً (مَنْ جَرَّ
ثوبه خِيَلَاءَ لم ينظر الله إليه) ، ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ،
عن ابن عمر مرفوعاً مثله . وفي رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي قال :
« وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا ينظر الله يوم
القيامة إلى من جرَّ إزاره بطراً) ، مُتَّفَقٌ عليه » اه .

(٢) ذكره الإمام أبي زكريا النووي في رياض الصالحين ، وقال عنه : مُتَّفَقٌ عليه ،
وقال ابن كثير في تفسيره : « وحدثنا محمد بن بكر ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن
أبيه ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعاً (لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره ،
وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبت نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم
القيامة) ، وروى الزهري عن سالم عن أبيه : (بينما رجل ... الخ) . اه .

ولا يُرَائِي فِي إِبْطَاءٍ وَتَضَاوُلٍ ، وَعَلَى نَحْوِ مَا قَالَ الْقَائِلُ :

كُلُّنَا يَمْشِي رُوَيْدٌ كُلُّنَا يَطْلُبُ صَيْدٌ

عَبْرَ عَمْرٍو بْنِ عَبِيدٍ (١)

وَأَلَّا يَمْشِي مَخْتَلًا مَتَبَخَّرًا ، وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا لَيْسَ بِقَصْدٍ . وَغَضُّ الصَّوْتِ
أَوْفَرُ لِلْمَتَكَلِّمِ وَأَبْسَطُ لِنَفْسِ السَّامِعِ وَفَهْمِهِ . ثُمَّ عَارِضٌ مَتَمَثِّلًا بِصَوْتِ
الْحَمِيرِ عَلَى جِهَةِ التَّشْبِيهِ ، أَي : تَلِكُ هِيَ الَّتِي بَعُدَتْ عَنِ الْغَضِّ فَهِيَ
أَنْكَرُ الْأَصْوَاتِ ، فَكَذَلِكَ كُلُّ مَا بَعُدَ عَنِ الْغَضِّ مِنْ أَصْوَاتِ الْبَشَرِ
فَهُوَ فِي طَرِيقِ تَلِكِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : (إِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا
بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا) (٢) ، وَقَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ :
صِيَاحُ كُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحٌ إِلَّا صِيَاحَ الْحَمِيرِ . وَقَالَ عَطَاءٌ : نَهْيُ الْحَمِيرِ
دَعَاءٌ عَلَى الظُّلْمَةِ .

و [أَنْكَرُ] مَعْنَاهُ : أَقْبَحُ وَأَوْحَشُ ، وَ [أَنْكَرُ] عِبَارَةٌ تَجْمَعُ الْمَذَامُ
الْلاحِقَةَ لِلصَّوْتِ الْجَهِيرِ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَفْخَرُ بِجَهَارَةِ الصَّوْتِ الْجَهِيرِ ،
عَلَى خُلُقِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

(١) سبق الاستشهاد بهذه الآيات في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ
الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ من سورة الفرقان . (ص ٦٦ هامش ١) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي عن أبي هريرة ،
ورمز له الإمام السيوطي بالصححة في (الجامع الصغير) ، ولفظه كما ذكره السيوطي : (إذا سمعتم
أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله
من الشيطان فإنها رأت شيطاناً) .

جَهِيْرُ الْكَلَامِ جَهِيْرُ الْعَطَاسِ جَهِيْرُ الرُّوَاءِ جَهِيْرُ النَّعْمِ
 وَيَعْدُو عَلَى الْاَيْنِ عَدُوَ الظَّلِيْمِ وَيَعْلُو الرُّجَالَ بِخَلْقِ عَمَمٍ (١)
 فنهى الله تعالى عن هذه الخلق الجاهلية . وقوله : ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ ﴾
 أراد بالصوت اسم الجنس ، ولذلك جاء مفرداً . وقرأ ابن أبي عبلة :
 ﴿ اِنْ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ اَصْوَاتُ الْحَمِيْرِ ﴾ بالجمع في الثاني دون لام .
 والغصُّ ردُّ طَفْحَانِ الشَّيْءِ ، كالنَّظَرِ ، وزمام الناقة ، والصوت ،
 وغير ذلك .

قوله عز وجل :

﴿ اَلَمْ تَرَوْا اَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَاَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ
 ظَهِيْرَةً وَّبٰطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجٰدِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتٰبٍ
 مُّبِيْنٍ ﴿٢٠﴾ وَاِذَا قِيْلَ لَهُمُ اتَّبِعُوْا مَا اَنْزَلَ اللّٰهُ قَالُوْا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وُجِدْنَا عَلَيْهِ اٰبَاءَنَا
 اَوْ لَوْ كٰنَ الشَّيْطٰنُ يَدْعُوْهُمْ اِلَى عَذٰبِ السَّعِيْرِ ﴿٢١﴾ ﴾

هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع ، وذلك أن تسخير
 هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح

(١) الرواء : المنظر الحسن والبهاء . والنعم : المال السائم ، وأكثر ما يقع هذا الاسم
 على الإبل ، وجمعه : أنعام وأناعم ، والأين : التعب والإعياء ، والظلم : ذكر النعام ،
 وجمعه ظلمان ، والخلق العمم : التأم الكامل ، يمدحه بهذه الصفات التي ذكرها على
 عادة العرب في الجاهلية .

والحيوان والنبات إنما هو لمسخٍ ومالك . وقرأ يحيى بن عمارة ، وابن عباس : [وَأَصْبَغَ] بالصاد على بدلها من السين ؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من أسفلها إلى علوها فتردُّها صاداً ، والجمهور قراءتهم بالسين . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، والحسن ، والأعرج ، وابن جعفر ، وابن نصاح ، وغيرهم : [نِعْمَةٌ] جمع (نِعْمَةٌ) ، كسِدْرَةٍ وسِدْرٍ بفتح الدال ، و « الظاهرة » هي الصحة وحُسن الخِلْقَةِ والمال وغير ذلك ، و « الباطنة » المعتقداتُ من الإيمان ونحوه ، والعقلُ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الظاهرة : الإسلام وحُسن الخِلْقَةِ ، والباطنةُ : ما ستر من سيئ العمل ، وفي الحديث : (قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد عرفنا الظاهرة ، فما الباطنة ؟ قال : ستر ما لو رآك الناس عليه لمقتوك) (١) .

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء رضي الله عنه قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله : ﴿ وَأَصْبَغَ عَلَيْكُم نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال : هذه من كنوز علي ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أما الظاهرة فما سوى من خاتمك ، وأما الباطنة فما ستر من عورتك ، ولو أبدأها لقلاك أهلك فمن سواهم . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي ، وابن النجار مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وزادوا في آخره : (يا ابن عباس ، إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلتهن للمؤمن : صلاة المؤمنين عليه من بعده ، وجملة ما له يثلث ماله أكفّر عنه من خطاياهم ، وسترته عليه من مساوئ عمله فلم أفضحه بشيء منها له ولا غيره أبداً لئلا يلبذه أهله فمن سواهم) . وأخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن الباطنة التنفس والهضم والتغذي ومالا يُحصى كثرة ،
ومن الظاهرة عمل الجوارح بالطاعة ، قال المحاسبي : الظاهرة : نِعَم
الدنيا ، والباطنة : نِعَم العقبى . وقرأ جمهور من الناس : [نِعْمَةً]
على الأفراد ، فقال مجاهد : المراد « لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » ، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما : أراد الإسلام ، والظاهر عندي أنه اسم جنس ،
كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (١) .

ثم عارض بالكفرة مُنْبَهًا على فساد حالهم ، وهم المشار إليهم
بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ، وقال النقاش : الإشارة إلى النضر بن
الحارث ونظرائه ؛ لأنهم كانوا ينكرون الله تعالى ويشركون الأصنام
في الألوهية ، وذلك جدالهم ، و ﴿ بِيغْيِرَ عِلْمٍ ﴾ أي : لم يُعلمهم
من يُقْبَلُ قوله ، ولا عندهم هُدَى قلبٍ ولا نُورَ بصيرة يُقيمون بها
حُجَّةً ، ولا يبتغون بذلك كتاباً من الله يبشر بأنه وحي ، بل ذلك
دعوى منهم وتخرُّص ، وإذا دُعوا إلى اتباع وحي الله رجعوا إلى التقليد
المحض بغير حجة ، فسلكوا طريق الآباء . ثم وقف الله تعالى - وهم

(١) من الآية (١٨) من سورة (النحل) .

المراد بالتوقيف - على اتباعهم دين آبائهم ، أَيْكون وهم بحال من يصير إلى عذاب السعير ؟ فكأن القائل منهم يقول : هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير ، فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف كما كان اتساق الكلام ، فتأمله .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ *

لما ذكر الله تعالى حال الكفرة أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين لِيَتَبَيَّنَ الفرقُ وتتحرك النفوس إلى طلب الأفضل . وقرأت عامة القراء : [يُسَلِّمُ] بسكون السين وتخفيف اللام ، وقرأ عبد الله بن مسلم ، وأبو عبد الرحمن : [يُسَلِّمُ] بفتح السين وشد اللام ، ومعناه : يخلص

وجهه ويستسلم به (١) ، و «الْوَجْهُ» هنا الجارحة ، استُعير للقصد ؛ لأنَّ القاصد للشيء فهو مستقبله بوجهه ، فاستُعير ذلك للمعاني ، و «المُحْسِن» هو الذي جمع القول والعمل ، وهو الذي شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإسلام (٢) . و «الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى» هي استعارةٌ للأمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إخلال ، والعُرَى موضع التعلُّق ، فكأنَّ المؤمن متعلق بأمر الله تبارك وتعالى ، فشبه ذلك بالعروة ، و [الأُمُور] جمع أمر ، وليس بالمضاد للنهي . ثم سأل عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه الصلاة والسلام عن مَوْجِدَتِهِ لكفر قومه وإعراضهم ، فأمره ألاَّ يحزن لذلك ، بل يعمد إلى ما كُفِّفَ من التبليغ ويُرجع الكل إلى الله تعالى . وقرأت فرقة : [يُحْزِنُكَ] من الرباعي ، وقرأت فرقة : [يَحْزُنُكَ] من الثلاثي ،

(١) عُدِّيَّ الفعل [يُسَلِّمُ] هنا ؛ (إلى) ف قيل : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ لأنَّ المعنى أنه سلَّم نفسه إلى الله تعالى ، كما يُسَلِّمُ المتاع إلى الرَّجُلِ إذا دُفِعَ إليه ، والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه . وعدِّيَّ باللام في قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ لأنَّ المعنى أنه جعل وجهه وهو ذاته سالماً لله ، أي : خالصاً له .

(٢) وذلك في الحديث المشهور الذي أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم ، وفيه أن جبريل عليه السلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وأجابه صلوات الله وسلامه عليه ، ثم سأله عن الساعة ، فأجابه عن علاماتها ، وكان فيما قال له عن الإسلام : (الإسلام أن تَعْبُدَ اللهَ ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) . وقد سبق ذكر هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ من هذه السورة . الآية رقم (٣) ص ٤٨٢ وما بعدها .

و «ذات الصدور» ما فيها ، والقصد من ذلك : إلى المعتقدات والآراء ،
ومن ذلك قولهم : «الذئب مغبوط بذئ بطنه» (١) ، ومنه قول أبي بكر
الصديق رضي الله عنه : ذو بطن بنت خارجة . و «المتاعُ القليلُ» هو
العُمُر في الدنيا ، و «الْعَذَابُ الْعَلِيْظُ» معناه : المغلظ المؤلم .

ثم أقام عليهم الحجة في أمر الأصنام بأنهم يُقِرُّون بأن الله تعالى
هو خالق المخلوقات ، ويدعو مع ذلك إليها غيره ، والمعنى : قل الحمد
لله على ظهور الحجة عليكم . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ إضراب
عن مقدر ، تقديره : ليست دعواهم بحق ، ونحو هذا ، وقوله :
[أَكْثَرُهُمْ] على أصله ؛ لأن منهم من شدَّ فعلم كزيد بن عمرو بن
نفييل وورقة بن نوفل . ويحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى من هو
معدُّ أن يسلم . ثم أخبر على جهة الحكم وفصل القضية بأن الله
عزَّ وجلَّ له ملك السموات والأرض وما فيهما ، أي : وأقوال هؤلاء
لا معنى لها ولا حقيقة ، والمعنى : الذي لا حاجة به في وجوده وكماله

(١) هذا مثل يقال عن الذئب ، وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً ، إنما يظن به البطنة
لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طَحَالَهُ وَيُغْبَطُ مَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعٌ

وقيل : بل قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ،
قال الشاعر :

• لَكَالذَّئْبِ مَغْبُوطُ الْحِشَا وَهُوَ جَائِعٌ •

إلى شيءٍ ، ولا نقص بجهة من الجهات ، و [الْحَمِيد] : المحمود ،
أي : كذلك هو بذاته وصفاته .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانِدَتْ
كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن اليهود
قالت : يا محمد ، كيف عُنينا بهذا القول ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) ونحن قد أُوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ،
وعندك أنها تبيان كل شيء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(التوراة قليل من كثير) ، ونزلت هذه الآية (٢) ، وهذا هو القول الصحيح ،

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الإسراء) .

(٢) قال السيوطي في (الدر المنثور) : «أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن أبي
حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما» ، وفيه اختلاف في بعض الألفاظ عما هنا ، وفي الدر
أيضاً أن ابن مردويه أخرج مثله عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً في عبارة طويلة ،
وذكره ابن كثير من رواية ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن =

والآية مدنية . وقال قوم : إن سبب الآية أن قريشاً قالت : سيتم الكلام
لمحمد وينحسر ، فنزلت . وقال السُّدي : قالت قريش : ما أكثر كلام
محمد ، فنزلت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والغرض منها الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى ، وهي في نفسها
غير متناهية ، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ؛ لأنه غاية
ما يعهده البشر من الكثرة ، وأيضاً فإن الآية إنما تضمنت أن كلمات
الله تعالى لم تكن لتنفذ ، وليس تقتضي الآية أنها تنفذ بأكثر من
هذه الأقسام والنحو .

وقال أبو علي : المراد بالكلمات - والله أعلم - ما في المقدور دون
ما خرج منه إلى الوجود . وذهبت فرقة إلى أن الكلمات هنا إشارة
إلى المعلومات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ينحو إلى الاعتزال من حيث يرون أنه مخلوق ، نور
الله تعالى قلوبنا بهداه .

= عباس ، ومحمد بن أبي محمد قال عنه الحافظ بن حجر في التقريب : « شيخ لعبد الرزاق مجهول » ،
وابن عطية هنا يؤكد أن الآية مدنية على خلاف ما ذكره ابن كثير من أن المشهور أنها مكية ،
ولا يكون سبب النزول هو ما في هذا الحديث إلا إذا كانت الآية مدنية ، والله أعلم .

وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة ، وابن أبي إسحق ، وعيسى :
 [وَأَلْبَحْرَ] بالنصب عطفاً على [مَا] التي هي اسم [أَنَّ] ، وقرأ جمهور
 الناس : [وَأَلْبَحْرُ] بالرفع على أنه ابتداء ، وخبره في الجملة التي بعده ؛
 لأن تقديره : « هذه حاله » ، كذا قدره سيبويه ، وقال بعض النحويين :
 هو عطف على [أَنَّ] ؛ لأنها في موضع رفع بالابتداء^(١) . وقرأ جمهور
 الناس : [يَمِدُّهُ] ، من (مَدَّ) ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [يُمِدُّهُ]
 من [أَمَدٌ] ، وقالت فرقة : هما بمعنى واحد ، وقالت فرقة : مدَّ الشيء

(١) استدل النحويين بهذه الآية على بطلان مادعاة الزمخشري وغيره من أن خبر (إنَّ) التي تأتي بعد (لَوْ) لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقاً ، بل يجب أن يكون فعلاً ، قالوا : هذا قول باطل ؛ لأن [أَقْلَامٌ] هنا خبر [أَنَّ] وهي واقعة بعد (لَوْ) ، وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه قول الشاعر :

وَلَوْ أَنَّهَا عَصْفُورَةٌ لَحَسِبْتَهَا مُسَوِّمَةٌ تَدْعُو عَيْدًا وَأَيْمًا

وقال آخر :

مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ لَوْ أَنَّ الْفَتَى حَجْرٌ تَنْبُو الْحَوَادِثُ عَنْهُ وَهُوَ مَلْمُومٌ
 وأما ما ذكره ابن عطية من قول بعض النحويين : إن [الْبَحْرُ] بالرفع معطوف على [أَنَّ] ؛
 لأنها في موضع رفع بالابتداء - فيحتاج إلى نظر ، وذلك لأنه لا يجوز ذلك إلا إذا كانت (أَنَّ)
 بعد [لَوْ] في موضع رفع على الابتداء ، مع أن المشهور أن (لَوْ) لا يليها المبتدأ اسماً صريحاً
 إلا في ضرورة شعر ، نحو قول الشاعر :

لَوْ بَغِيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقُ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي

وعلى هذا لا يجوز ذلك في الآية الكريمة ، وإن كان بعض النحويين يجيزه .

بعضه بعضاً ، وأمدَّ الشيءُ ما ليس منه (١) ، فكانَ الأَبْحُرُ السبعة المتوهمة ليست من البحر الموجود . وقرأ جعفر بن محمد : ﴿ وَالْبَحْرُ مِدَادُهُ ﴾ ، وهو مصدر ، وقرأ ابن مسعود : « وَبَحْرٌ يَمُدُّهُ » ، وقرأ الحسن : « مَا نَفِدَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى » .

ثم ذكر تعالى أمر الخلق والبعث أنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواء ؛ لأنه كله « بكن فيكون » ، قاله مجاهد ، وحكى النقاش أن هذه الآية في أبي بن خلف ، وأبي الأسود وبنيه ، ومنبه بن الحجاج ، وذلك أنهم قالوا : يا محمد ، إننا نرى الطفل يُخلق بتدريج وأنت تقول : الله يعيدنا دفعة واحدة ، فنزلت الآية بسببهم .

قوله عز وجل :

﴿ الرَّ تَرَأْنَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطِيلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذا تنبيه خُوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به جميع العالم ، وهذه عبرة تدل على أن الخالق المخترع أن يكون (٢) الليل

(١) يقول الفراء : « والشيء إذا مدَّ الشيء فزاد فكان زيادة فيه فهو يمدُّه » ، تقول : دجلة تمدُّ بئارنا وأنهارنا ، والله يمدُّنا بها ، وتقول : قد أمددتك بألفٍ فمددوك .
(٢) يريد : أن الخالق المخترع كَوْنَ الليل بتدرُّج .

بتدرج ، والنهار كذلك ، فما قَصُرَ من أحدهما زاد في الآخر ، ثم بالعكس ينقسم الزمان بحكمة بارئ العالم ، لا ربَّ غيره .

و [يُولِجُ] معناه : يُدْخِلُ ، و «الْأَجَلُ الْمُسَمَّى» : القيامة التي تنتقض فيها هذه البنية وتُكْوَرُ الشمس . وقرأ جمهور القراء : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء من فوق ، وقرأ عباس عن أبي عمرو [يَعْمَلُونَ] بالياء . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بَيِّنٌ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ ، الإشارة بـ [ذَلِكَ] إلى هذه العبرة وما جرى مجراها ، ومعنى ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أي : صفة الألوهية له حق ، فيحسن في القول تقدير (ذو) ، وكذلك الباب متى أُخبر بمصدر عن عَيْنٍ ، فالتقدير : ذو كذا ، و (حَقٌّ) مصدر ، ومنه قول الشاعر :

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ (١)

(١) هذا عجز بيت للخنساء ، وهو من قصيدة مشهورة ترثي فيها أخاها صخرًا ، وتحدث عن صفاته ، والضمير (هي) يعود على الناقة التي فقدت ولدها فظلت حزينة قلقة تقبل وتدبر من شدة ما بها إذا ذكرت وليدها ، وقد ذكرتها الخنساء في أبيات ، قالت :

فَمَا عَجُولٌ عَتَى بَوُّ تَحْيِيْطُ بِهِ قَدْ سَاعَدَتْهَا عَلَى التَّحْنَتَانِ أَظْأَرُ
أَوْ دَى بِهِ الدَّهْرُ عَنْهَا فَهِيَ مُرْزِمَةٌ لَهَا حَتِينَانِ إِصْغَارٌ وَلَا كِبَارُ
تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا ذَكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

والعجول : هي الواله من النساء أو الإبل التي فقدت وليدها ، لعجلتها في الذهاب والمجيء ، =

وهذا كثير . ومتى قلت : كذا وكذا حقٌ ، فإنما معناه : أتصافُ كذا بكذا حقٌ .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ ﴾ يصحُّ أَنْ يريد الأصنام ، وتكون [مَا] بمعنى (الذي) ، ويكون الإخبارُ عنها بالباطل على نحو ما قدمناه في [الْحَقُّ] ، ويصحُّ أَنْ تكون [مَا] مصدرية ، كأنه قال : وَأَنَّ دعاءكم آلهة من دونه الباطل ، أي الفعل الذي لا يُؤدِّي إلى الغاية المطلوبة به . وقرأ الجمهور : [تَدْعُونَ] بالتاء من فوق ، وقرأ : [يَدْعُونَ] بالياء ابنُ وثَّاب ، والأعمش ، وأهل مكة ، ورويت عن أبي عمرو . وباقى الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَنَّهُمْ مَقْتَصِدٌ ﴿٤٢﴾ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

= والمُرْتَمَةِ: من الإرزام ، وهو ضربٌ من حنين الناقة على وليدها حين ترأمه بصوت تخرجه من حلقها لا تفتح به فاهها ، والشاهد هنا أنها أخبرت بمصدر عن عين ، فقالت : (هي) أي الناقة ، (إقبالٌ وإدبارٌ) ، فوجب تقدير (ذات) للمؤنث كما تقدر (ذو) للمذكر ، أي : ذاتُ إقبال وإدبار .

الرُّوْيَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ رُوْيَةُ الْعَيْنِ يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا النَّظْرُ وَالْإِعْتِبَارُ ،
وَالْمُخَاطَبُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ النَّاسُ أَجْمَعُ . وَ [أَلْفُلُكَ]
جَمْعٌ وَوَاحِدٌ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ . وَقَرَأَ مُوسَى بْنُ الزُّبَيْرِ : [أَلْفُلُكَ] بِضَمِّ
الْلامِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ مَا تَحْمِلُهُ السَّفِينُ مِنْ
الطَّعَامِ وَالتَّجَارَاتِ وَالْأَرْزَاقِ ، فَالْبَاءُ لِلْإِلْصَاقِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ :
بِالرِّيحِ وَتَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى الْبَحْرَ وَنَحْوِ هَذَا ، فَالْبَاءُ بَاءُ السَّبَبِ .
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : [بِنِعْمَةٍ] ، وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ ، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ :
[بِنِعْمَاتِ] عَلَى الْجَمْعِ الْمُسَلَّمِ ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبِلَةَ : [بِنِعْمَاتِ] بِفَتْحِ
النُّونِ وَكسْرِ الْعَيْنِ .

وَذَكَرَ تَعَالَى مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِ الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ عَلَى الضَّرَائِ وَالسَّرَائِ ،
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ ، وَالشُّكْرُ نِصْفُهُ الْآخِرُ ، وَالْيَقِينُ
الْإِيمَانُ كُلُّهُ » .

وَعَشِي : غَطَّى أَوْ قَارَبَ ، وَ « الظُّلُّ » : السَّحَابُ ، وَقَرَأَ مُحَمَّدُ
ابْنَ الْحَنْفِيَّةِ : « كَالظُّلَالِ » ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ يَصِفُ الْبَحْرَ :
يُمَاشِيهِنَّ أَخْضَرُ ذُو ظِلَالٍ عَلَى حَافَاتِهِ فَلَقُّ الدَّنَانِ (١)

(١) الْبَيْتُ لِلنَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ ، وَهُوَ فِي وَصْفِ الْبَحْرِ كَمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ
فِي (مَجَازِ الْقُرْآنِ) ، وَمَعْنَى يُمَاشِيهِنَّ : يَمْتَدُّ مَعَهُنَّ فِي سَيْرِهِنَّ ، وَظِلَالِ الْبَحْرِ : أَمْوَاجُهُ ؛
لَأَنَّهَا حِينَ تَرْتَفِعُ تَغْطِي السَّفِينَةَ وَمِنْ فِيهَا فَكَأَنَّهَا تُظَلِّلُ الْجَمِيعَ ، وَالدَّنَانُ : جَمْعُ دَنْ بِالْفَتْحِ ،
وَهُوَ رَاقُودُ الْحَمْرِ الْكَبِيرِ .

ووصف تعالى في هذه الآية حالة البشر الذين لا يعتبرون حق العبرة ،
والمقصد بالآية تبين آية تشهد العقول بأن الأصنام والأوثان لا شركة
لها فيها ولا مدخل .

وقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ ، قال الحسن : منهم مؤمن
يعرف حق الله تعالى في هذه النعم ، وقال مجاهد : يريد : منهم مقتصد
على كفره ، أي : منهم من يسلم لله تعالى ويفهم نحو هذا من القدرة ،
وإن ضلَّ في الأصنام من جهة أنه يُعَظِّمُها بسيرته ولسانه .

و «الْخَتَّارُ» : القبيح الغدر ، وذلك أن نِعَمَ الله تعالى على العباد
كأنها عهودٌ ومِنٌّ يلزم عنها أداءُ شكرها والعبادة لمُسَدِّدِهَا ، فمن كفر
بذلك وجحد به فكأنه ختَر وخَانَ ، ومن الختَر قول عمرو بن معديكرب
الزبيدي :

فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرِ وَخْتَرٍ (١)
وقال الحسن : الختَارُ هو الغَدَّارُ . و [كَفُورًا] بناءً مبالغة .

(١) استشهد أبو عبيدة أيضاً بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ .
والخَتَرُ : الغَدَرُ ، أو هو أفصح أنواع الغدر والحيانة كما أشار ابن عطية ، يقول : إن أبا عمرو
هذا غدرٌ وختَرٌ مُجَسَّمَانِ ، فإذا رأيت الغدر وأنت الختَر وأمسكتهما بيديك مُجَسَّمَيْنِ
في شخصه . و [خَتَّارًا] في الآية للمبالغة ، والفعل من باب ضَرَبَ وَنَصَرَ ، تقول : خَتَرَ
يَخْتَرُ بكسر التاء ، وَخَتَرَ يَخْتَرُ بضم التاء . ويروى البيت : (وَإِنَّكَ) بالواو .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرُبَنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبَكُم بِإِلَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

[يَجْزِي] معناه : يقضي ، والمعنى : لا ينفعه بشيء ، ولا يدفع عنه شيئاً ، و ﴿هُوَ جَازٍ﴾ جملة في موضع الصفة ، أي : ولا يجزي مولودٌ قد كان في الدنيا يجزي (١) . و [الْغُرُورُ] : التطميع بما لا يتحصل ، و [الْغُرُورُ] : الشيطان ، بذلك فسّر مجاهد والضحاك ، وقال : هو الأمل والتسويق . وقرأ سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ (٢) ، وأبو حيوة : [الْغُرُورُ]

(١) قال بعض المفسرين : « لما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه بدأ به أولاً ، وأتى في الإسناد إلى الوالد بالفعل المضارع المقتضي للتجدد ؛ لأن شفقتة على الولد متجددة في كل حال ، وأتى في الإسناد إلى الولد باسم الفاعل لأنه يدلُّ على الثبوت ، والثبوتُ يصدق بالمرّة الواحدة » .

(٢) هو سِمَاكُ - بكسر السين وتخفيف الميم - بن حرب بن أوس بن خالد الذهليّ البكري الكوفي ، أبو المغيرة ، صدوقٌ ، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة ، وقد تغير بأخيرة ، فكان بما يُلقَّبُ ، من الرابعة ، مات سنة ثلاث وعشرين . (تقريب التهذيب)

بضم الغين ، وقال سعيد بن جبير : معنى الآية أن تعمل المعصية وتتمنى المغفرة .

وقرأ الجمهور : [يَجْزِي] بفتح الياء ، من (جَزَى) ، وقرأ عكرمة : [يُجْزِي] بضم الياء على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وحكى ابن مجاهد قراءة : [لَا يُجْزِي] بضم الياء وبالهمز . وفي رفع [مَوْئُودٌ] اضطرابٌ من النحاة ، قال المهدي : «ولا يكون مبتدأً لأنه نكرة وما بعده صفة له فيبقى بغير خبر» (١) . وقرأ ابن أبي عبلة ، وابن أبي إسحق ، ويعقوب : ﴿وَلَا تَغْرَنَكُمْ﴾ خفيفة النون .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ الآية . ذكر النقاش أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الخمس ، ورؤي أنه سأل عن بعضها فنزلت الآية حاصرةً لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها

(١) أما عن اضطراب النحاة في إعراب [مَوْئُودٌ] فقد نصَّ أبو حيان في البحر على جواز وجهين في إعرابه : أحدهما أن يكون معطوفاً على [وَالِدٌ] ، والجملة في قوله : ﴿هُوَ جَازٍ﴾ صفةٌ لـ [مَوْئُودٌ] . والثاني أن يكون مبتدأً ثانياً ، و﴿هُوَ جَازٍ﴾ خبره ، والجملة خبر الأول ، وأما ما ذكره المهدي من أنه لا يكون مبتدأً لأنه نكرة وما بعده صفةٌ له فيبقى بغير خبر - فقد أجاب عنه أيضاً أبو حيان بقوله : «وجاز الابتداء به وهو نكرة لوجود مُسَوِّغٍ ذلك وهو النفي ، وذهل المهدي فقال ... الخ» .

إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، ذكر ذلك مجاهد (١) ، ولن تجد من المغيبات شيئاً
إِلَّا هذه أَوْ ما يفيدُه النظر والتأويل .

و ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مصدرٌ مضافٌ إلى مفعول ، أي : كلُّ ما شأنه
أَنْ يُعْلَمَ من أمر الساعة ، ولكن الذي استأثر اللهُ به هو علم الوقت ،
وغير ذلك فذا علم ببعض منه . وكذلك نزول الغيث أمر قد استأثر
الله عَزَّ وَجَلَّ بتفصيله وَعَلِمَ وقته الخاصَّ به . وَأَمْرُ الْأَجِنَّةِ كذلك ،
وَأَفْعَالُ الْبَشَرِ وَجَمِيعُ كَسْبِهِمْ كذلك ، وموضعُ موت كل بشر كذلك
الْأَصْقَاعُ والموضع الخاص بالجسد (٢) .

(١) الحديث الذي رواه مجاهد أخرجه الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، ولفظه
كما ذكره السيوطي في الدر المنثور : (جاء رجلٌ من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى
فأخبرني ما تلد ؟ ، وبلادنا مجذبة فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني
متى أموتُ ؟ فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية . كما ذكر السيوطي
أن ابن المنذر قد أخرج مثله عن عكرمة ، وفي (أسباب النزول) ذكر الواحدي حديث مجاهد
بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي في تفسيره ، وذكره القرطبي في تفسيره عن مقاتل ،
قال : إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة ، أتى
النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن السنة قد وردت
بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب ، قال : فروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا
تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قال :
ورواه البخاري .

(٢) أسند الله تعالى العلم إلى نفسه ، وأسند الدراية للنفس لما في الدراية من معنى الحيلة ،
ولذلك يُوصف اللهُ سبحانه بالعلم فيقال : عالم ، ولا يوصف بالدراية ، فلا يقال : دارٍ .

وقرأ ابن أبي عملة : (بِأَيِّ أَرْضٍ) بفتح الياء وزيادة تاء تأنيث (١) .
و (عَلِيمٌ خَبِيرٌ) صفتان مشابهتان لمعنى الآية .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كلُّ شيءٍ أُوتِيَ نَبِيُّكُمْ إِلَّا مَفَاتِيحَ
الخمسة ، ثم تلا الآية (٢) .

وقرأ : (وَيُنزِلُ الْغَيْثَ) خفيفةً أهلُ الكوفة ، وأبو عمرو ، وعيسى ،
وقرأ : [يُنَزِّلُ] بالثقل نافع ، وأبو جعفر ، وعاصم ، وشيبة .
وذكر أبو حاتم في ترجيح الثقل رأياً .

كامل تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) جاز ذلك لأن الأرض أضيفت إلى الموت وربطت به ، وهي لغة قليلة . وقال الأخفش :
يجوز مررتُ بجارية أي جاريتي ، وشبهه سيوييه تأنيث « أي » بتأنيث « كلُّ » في قولهم : « كلتُهن » .
(٢) أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود ،
ذكر ذلك السيوطي في (الدر المنثور) ، وفي الدر أيضاً أن أحمد والطبراني أخرجا عن ابن عمر
رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أُوتِيَتْ مَفَاتِيحُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخُمْسَ :
﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴾ الآية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهي قوله :
﴿ أَقْمَنُ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ... ﴾ إلى تمام ثلاث آيات ،
ويأتي تفسيرها (١) . وقال جابر بن عبد الله : « ما كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم ينام حتى يقرأ : ﴿ الَمْ تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ
الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ (٢) .

(١) هذا ما قاله الكلبي ومقاتل وابن عباس . وقال غيرهم : إلا خمس آيات ، من قوله
تبارك وتعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله : ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ
بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وآيات هذه السورة ثلاثون آية ، وقيل : تسع وعشرون .
(٢) قال القرطبي : « وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه
وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿ السَّمَّ تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَى
عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ، « . وقد روى البخاري ذلك في صحيحه في كتاب
الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه مسلم أيضاً .

قوله عز وجل :

﴿الْم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ
 افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ
 ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
 الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ ۗ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تُنذَرُونَ ﴿٣﴾﴾

[تَنْزِيلٌ] يصح أن يرتفع بالابتداء والخبر [لَا رَيْبَ] ، ويصح أن يرتفع على أنه خبر ابتداء ، وهو : إِمَّا الحروف المشار إليها على بعض الأقوال في أوائل السور ، وإِمَّا : «ذلك تنزيل» ، أو نحو هذا من التقدير بحسب القول في الحروف .

وقوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ، أي : هو هكذا في نفسه ، ولا يراعى ترتيب الكفرة ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بـ [تَنْزِيلٍ] ، ففي الكلام تقديم وتأخير . ويجوز أن يتعلق بقوله : [لَا رَيْبَ] ، أي : لا شك فيه من جهة الله تعالى ، وإن وقع شك للكفرة فذلك لا يُرَاعَى (١).

= أما حديث جابر رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عبيد في فضائله ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والدارمي ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه . ذكر ذلك الشوكاني في (فتح القدير) ، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) .

(١) قال مكِّي : أحسن الوجوه في الإعراب أن تكون ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع الحال ، و ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الخبر .

وَالرَّيْبُ : الشَّكُّ ، وكذلك هو في كل القرآن إِلَّا قوله : ﴿ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴾ (١) .
 وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ إضرابٌ ، وتقديره أنه قال : بَلْ
 أَيْقُولُونَ ، و [أَفْتَرَاهُ] : اختلقه ، ثم ردَّ تعالى على مقالتهم هذه ،
 وأخبر أنه الحق من عند الله تعالى ، واللام في قوله : [لِتُنذِرَ] يجوز
 أن تتعلق بفعل مضمر تقديره : أَنْزَلَهُ لِتُنذِرَ ، فيوقف حينئذ على
 قوله : ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أي : لم
 يباشرهم ولا رأوه هم ولا آباؤهم العرب ، أمَّا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ
 أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢) فَيَعُمُّ من بوشر من النذر ومن يُسمع به ،
 فَإِنَّ العرب من الأُمم التي خَلَّتْ فيها النُّذُرُ على هذا الوجه ، لأنها
 علمت بإبراهيم وبنبيه عليهم السلام ودعوتهم ، وهم ممن لم يأتهم
 نذيرٌ مباشر لهم سوى محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس
 رضي الله عنهما ، ومقاتل : المعنى : لم يأتهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى
 ومحمد عليهما الصلاة والسلام (٣) .

(١) من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (الطور) : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ
 بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴾ :

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (فاطر) .

(٣) يقول أبو حيان في معرض الردِّ على رأي للزمخشري حاول فيه التوفيق بين آية فاطر

وآية السجدة هذه : « لقد فهم المفسرون أن (مَا) في قوله تعالى : ﴿ مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ =

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ يقضي بأن يوماً من أيام الجمعة بقي لم يُخلق فيه شيء ، وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتداءً يوم الأحد ، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء ، فهذا مستقيم مع هذه الآية ، ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتداءً يوم السبت ، فهذا يخالف الآية ، اللهمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ فِي الْآيَةِ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ ، غير آدم عليه السلام ، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يُخلق فيه شيءٌ مما بين السماء والأرض ؛ لأنَّ آدم لم يكن حينئذٍ مما بينهما . وقد تقدم القول في قوله تعالى : ﴿ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ بما فيه كفاية ، و [ثُمَّ] في هذا الموضع لترتيب الجمل ، لا لأنَّ الاستواء كان بعد أن لم يكن ، وهذا على المعنى المختار في معنى [أَسْتَوَىٰ] .

= نافية ، وعندني أنها موصولة ، والمعنى : لِيُنذِرَ قَوْمًا الْعِقَابَ الَّذِي أَنَاهُمْ ، و ﴿ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ متعلق بـ (أَنَاهُمْ) ، أي أَنَاهُمْ عَلَى لِسَانِ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، وكذلك المعنى في قوله : ﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْذَرَ آبَاؤَهُمْ ﴾ ، إذ تقديره : لِيُنذِرَ قَوْمًا الْعِقَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُ آبَاؤُهُمْ ، ف [مَا] مفعولة في الموضعين ، و (أَنْذَرَ) تتعدى إلى اثنين ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَدْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ ، وهذا القول جارٍ على ظواهر القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ . و ﴿ إِنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ ، ونال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رَسُولًا ﴾ .

ونفِي الشفاعة محمولٌ على أحد وجهين : إمَّا نفِي عن الكفرة ،
وإمَّا نفِي الشفاعة من ذاتهم على حدّ شفاعاة الدنيا ؛ لأنّ شفاعاة الآخرة
إنما هي بعد إذن الله تعالى .

قوله عز وجل :

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

[الأمر] اسم جنس لجميع الأُمور ، والمعنى : ينفذ الله تعالى
قضاءه لجميع ما يشاؤه ، ثم يرجع إليه خبر ذلك في يوم من أيام
الدنيا مقداره - إن لو سير فيه السير المعروف من البشر - ألف سنة ؛
لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة ، هذا أحد الأقوال ، وهو
قول مجاهد ، وابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة ، والضحاك . وقال
مجاهد أيضاً : إن المعنى أن الضمير في [مِقْدَارُهُ] عائد على التدبير ،
أي : كأن التدبير المنقضي في يوم القيامة ألف سنة لو دبره البشر .
وقال مجاهد أيضاً : المعنى أن الله تعالى يُدَبِّرُ وَيُلْقِي إلى الملائكة أُمور
ألف سنة من عدنا ، وهو اليوم عنده ، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها ،
فالمعنى أن الأُمور تُنَفَّذُ عنده لهذه المدة ، ثم تصير إليه آخراً ؛

لأن عاقبة الأمور إليه . وقيل : المعنى : يُدبّر الأمر من السماء إلى الأرض في مدة الدنيا ، ثم يرجع إليه في يوم القيامة ، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من عدنا ، وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة لهولِهِ وشُنْعته حسب ما في سورة «سَأَلَ سَائِلٌ» (١) . وسنذكر هناك ما فيه من التأويل والأقوال إن شاء الله تعالى .

وحكى الطبري في هذه الآية عن بعضهم أنه قال : «قوله : ﴿ في يَوْمٍ ﴾ إلى آخر الآية متعلق بقوله قبل هذا : ﴿ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ومُتَّصِلٌ به ، أي أن تلك السِّتَّة كل واحد منها من ألف سنة (٢) » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيفٌ مكرهٌ ألفاظ هذه الآية عليه ، رادّة له الأحاديثُ التي تُثبِت أيام خلق الله تعالى المخلوقات ، وحكى (٣) أيضاً عن ابن زيد ، عن بعض أهل العلم أن الضمير في [مِقْدَارُهُ] عائد على «العروج» ، والعروج : الصعود ، والمعارج : الأدراج التي يصعد عليها .

وقالت فرقة : معنى الآية : يُدبّر أمر الشمس في أنها تصعد وتنزل في يوم ، وذلك قدر ألف سنة .

(١) أي سورة المعارج ، وقد ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، الآية رقم (٤) .
(٢) أي : مُكوّنٌ من ألف سنة . (٣) أي : الطبري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أيضاً ضعيف ، وظاهرٌ عودُ الضمير في [إِلَيْهِ] على اسم الله تعالى ، كما قال : ﴿ ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ (١) ، وكما قال : ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ (٢) ، وهذا كله بريءٌ من التَّحِيْزِ . وقيل : إن الضمير يعود على [السَّمَاءِ] لأنها قد تُذَكَّرُ .

وقرأ جمهور الناس : [تَعُدُّونَ] بالناء ، وقرأ الأعمش ، والحسن - بخلاف عنه - : [يَعُدُّونَ] بالياء من تحت .

قوله عز وجل :

﴿ ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿١٠﴾ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٢﴾ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٣﴾ * قُلْ يَتَوَقَّعُ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِنَّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾ *

(١) من الآية (٩٩) من سورة (الصفات) ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

(٢) من الآية (٢٦) من سورة (العنكبوت) ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قالت فرقة : أراد بالغيب الآخرة وبالشهادة الدنيا ، وقيل : أراد بالغيب ما غاب عن المخلوقين ، وبالشهادة ما شوهد من الأشياء ، فكأنه حصر بهذه الألفاظ جميع الأشياء .

وقرأ جمهور الناس : [خَلَقَهُ] بفتح اللام على أنه فعل ماضٍ ، ومعنى [أَحْسَنَ] : أَتَقَنَّ وَأَحْكَم ، فهو حسنٌ من جهة ما هو لِمَقَاصِدِهِ التي أُريد لها ، ومن هذا المعنى قال ابن عباس ، وعكرمة : ليست استُ القرد بحسنة ولكنها متقنة محكمة . والجملة في [خَلَقَهُ] يحتمل أن تكون في موضع نصب صفة لـ [كُلَّ] ، أو في موضع خفض صفة لـ [شَيْءٍ] . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [خَلَقَهُ] بسكون اللام ، وذلك منصوب على المصدر ، والضمير فيه إمَّا عائد على الله تعالى ، وإمَّا على المفعول ، ويصح أن يكون بدلاً من [كُلَّ] ، وذهب بعض الناس - على هذه القراءة - إلى أن [أَحْسَنَ] معناها : أَلْهَمَ ، وأن هذه الآية بمعنى قوله : ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (١) ، أي أَلْهَمَ الرجل إلى المرأة ، والجَمَلُ إلى النَّاقَةِ ، وهذا قولٌ فيه بُعْدٌ ، ورجَّحه الطبري .

(١) من الآية (٥٠) من سورة (طه) ، وهي قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

وقرأ جمهور الناس : [وَبَدَأَ] ، وقرأ الزهري : ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ﴾ بألف دون همز ، وبنصب القاف ، قال أبو الفتح :
ذلك على البدل لا على التخفيف. (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كانه أبدل الألف من الهمزة ، وبدي (٢) لغة الأنصار ، قال
ابن رواحة :

باسم الإله وبه بديننا ولو عبدنا غيره شقيناً (٣)

و [الإنسان] : آدم ، عدد أمره على بنيه ؛ إذ خلقه خلق لهم ؛
من حيث هو مُنسل لهم . و «النسل» : ما يكون عن الحيوان من الولد ،
كانه مأخوذاً من : «نسل الشيء» إذا خرج من موضعه ، ومنه قوله
تبارك وتعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٤) ، ومنه : «نسل

(١) قال أبو الفتح ابن جني : «ومثله بيت الكتاب :

رَاحَتٌ بِمَسْلَمَةِ الْبِغَالِ عَشِيَّةً فَارَعِي فَرَازَةَ لَا هَنَّاكَ الْمَرْتَعُ
ولو كان تخفيفاً قياسياً لجعل الهمزة بين بين ، ولو أسندت الفعل إلى نفسك على التخفيف القياسي
قلت : بدأت بألف لاهمز في لفظها ، وعلى البدل قلت : بديت ، كما حكى عنهم : قرئت
وأخطيت» .

(٢) بكسر عين الكلمة وياء بعدها ، وهي لغة طيء ، قال ذلك أبو حيان في البحر .

(٣) الشاهد فيه قوله : (بديننا) بكسر الدال وبعدها ياء ، وهي لغة الأنصار في (بدأ) .

(٤) من الآية (٩٦) من سورة (الأنبياء) .

ريشُ الطائر» إذا تساقط . و «السَّلَاةُ» من : سُلَّ يُسَلُّ ؛ فكَانَ الْمَاءُ يُسَلُّ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

فَجَاءَتْ بِهِ عَضْبَ الْأَدِيمِ غَضَنْفَرًا سُلَاةَ فَرَجٍ كَانَ غَيْرَ حَصِينٍ (١)

و «الْمَهِينُ» : الضعيف ، يقال : «مَهْنُ الْإِنْسَانِ» إذا ضعف وذل (٢) .

وقوله تعالى : [نَفَخَ] عبارة عن إفاضة الروح في جسد ابن آدم ، والضمير في [رُوحِهِ] لله تعالى ، وهي إضافة مَلِكٍ إِلَى مَالِكٍ ، وَخَلَقَ

(١) البيت لحسان بن ثابت ، وهو في ديوانه - تحقيق سيّد حنفي حسنين . د - أثبتته تحت رقم (٦٨) في صفحة ٣٩٦ ضمن (إضافات لأبيات ومقطعات لم ترد في النسخة الأم) ، وهو أيضاً في (اللسان - سلك) ، قال : «سُلَاةُ الشَّيْءِ» : ما استُئِلَّ منه ، والنُّطْفَةُ سُلَاةُ الْإِنْسَانِ ، قال حسان : البيت . ويروى البيت : (حَمَلَتْ بِهِ) بدلا من (فَجَاءَتْ) ، (وقال محقق اللسان - طبعة دار المعارف - القاهرة) في الهامش : عَضْبٌ بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ ، هَكَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّهُ بِالضَّادِ الْمَهْمَلَةِ ، وَلَعَلَّ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى اللَّغْوِيَّةَ الْمَعْرُوفَةَ لِكَلِمَةِ (عَضْبٌ) لَا تَنَاسِبُ الْمَعْنَى هُنَا اللَّهْمُ إِلَّا أَنْ يَرَادَ بِهِ غَلِظُ الْجِلْدِ وَمَتَانَتُهُ . وَالغَضَنْفَرُ : هُوَ الرَّجُلُ الْغَلِيظُ الْجُنَّةُ مِثْلُ الْغَضَافِرِ ، يُقَالُ : غَضَنْفَرُ الشَّيْءِ إِذَا ثَقُلَ . وَالسُّلَاةُ : الْوَلَدُ يُخْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، فَهُوَ سَلِيلٌ وَسُلَاةٌ ، وَفِي الْلسَانِ : «قَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ : السُّلَاةُ : مَا سُئِلَ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ ، وَالْمَوْئَلَفُ يَسْتَشْهَدُ بِالْبَيْتِ عَلَى أَنَّ السُّلَاةَ هُوَ الْوَلَدُ حِينَ يُسَلُّ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَمِثْلُ هَذَا الْبَيْتِ قَوْلُ هِنْدَ بِنْتِ النُّعْمَانَ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَزُ بِنَفْسِهَا ، وَتَتَزَوَّجُ رَجُلًا لَا تَطِيقُهُ فَقَالَتْ :

وَهَلْ كُنْتُ إِلَّا مُهْرَةً عَرَبِيَّةً سُلَاةَ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلْتَهُمَا بَغْلٌ؟

(٢) يُقَالُ : مَهْنُ الرَّجُلِ بَضْمُ الْمَاءِ بِمَعْنَى : ضَعْفٌ وَذَلٌّ ، أَمَا مَهْنٌ بِفَتْحِ الْمَاءِ فَمَعْنَاهَا :

صَارَتْ لَهُ مَهْنَةٌ ، وَمَصْدَرُ الْأُولَى : مَهَانَةٌ ، وَمَصْدَرُ الثَّانِيَةِ : مَهْنًا وَمَهْنَةً وَمِهْنَةً .

إلى خالق . ثم أظهر تعديد النعم عليهم في أن خصهم في قوله : [لَكُمْ] [بضمير] (١) السمع والأبصار والأفئدة ، وهي لمن تقدم ذكره أيضاً (٢) . كما خص آدم بالتسوية ونفخ الروح ، وهو لجميع ذريته ، وهذا كله تجاوز واقتضاب وترك لما يدل عليه المنطوق به . ويحتمل أن يكون [الإنسان] في هذه الآية اسم جنس . وقوله تعالى : [قَلِيلًا] صفة لمصدر محذوف ، وهو في موضع الحال حين يحذف الموصوف به . والضمير في [قَالُوا] للكفار الجاحدين البعث من القبور ، المستبعدين لذلك دون حجة ولا دليل ، وموضع [أئذا] نصب بما في قوله : ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؛ لأن معناه : لنعاد . واختلف القراء في [أئذا] ، وقد تقدم استيعاب ذكره في غير هذا الموضع .

وقرأ جمهور القراء : [ضَلَلْنَا] بفتح اللام ، وقرأ ابن عامر ، وأبو رجاء ، وطلحة ، وابن وثاب : [ضَلِلْنَا] بكسر اللام ، والمعنى : تَلِفْنَا وتَقَطَّعتْ أَوْصَالُنَا فذهبنا حيث لم نوجد ، ومنه قول الأخطل : كُنْتَ الْقَدَى فِي مَوْجٍ أَكْدَرَ مُزِيدٍ قَذَفَ الْآتِيُّ بِهِ فَضَلَ ضَلَالًا (٣)

(١) هكذا في الأصول ، ولو حذف لاستقام المعنى .

(٢) يريد بمن تقدم آدم عليه السلام حيث تقدم في قوله : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ .

(٣) قال الأخطل هذا البيت مخاطباً جرير فيما كان بينهما من هجاء ، وقبل هذا البيت يقول :

وَإِذَا سَمَا لِلْمَجْدِ فَرَعًا وَائِيسِلِ وَأَسْتَجْمَعِ الْوَادِي عَلَيْكَ فَسَالَا =

ومنه قول النابغة :

فَابَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنِ جَلِيَّةٍ وَغُودِرَ بِالْجُولَانِ حَزْمٌ وَنَائِلٌ (١)

أَي : مُتْلَفُوهُ دَفْنًا ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُشْنَى وَمُرْسَلٍ (٢)

= وَفَرَعًا وَائِلٌ هُمَا بَكَرٌ وَتَغْلِبُ . وَالْقَدَى : مَا يَصِيبُ الْعَيْنَ بِالْأَذَى حِينَ يَقَعُ فِيهَا مَا يَحْمِلُهُ الْهَوَاءُ مِنَ التُّرَابِ ، وَالْأَكْدَرُ : غَيْرُ الصَّافِي ، وَالْمُزْبَدُ : الَّذِي عَلَاهُ الزَّبْدُ ، وَالزَّبْدُ هُوَ مَا يعلو الْمَاءَ مِنْ رَغْوَةٍ فِيهَا مَا يَحْمِلُهُ الْمَاءُ مِنْ أَعْشَابٍ أَوْ عِيدَانٍ . وَالْأَيْشِيُّ : الَّذِي يَأْتِي مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ مَنَدْفَعًا فِي قُوَّةٍ . يَقُولُ الْأَخْطَلُ لِحَرِيرٍ : إِذَا اجْتَمَعَ فَرَعًا وَائِلٌ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْفَخَّارِ مَعَ الْقَبَائِلِ ، وَكَانُوا كَالسَّيْلِ الْقَوِيِّ الْمَنَدْفَعِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ كُنْتَ أَنْتَ يَا جَرِيرُ كَالْقَدَى الَّذِي يَتَوَهَّ وَسَطُ هَذَا السَّيْلِ الْقَوِيِّ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ أَثَرٌ ، وَهُوَ بِهَذَا يُعَرَّضُ بِجَرِيرٍ وَأَبِيهِ ، فَهُوَ الْحَقِيرُ الضَّئِيلُ بَيْنَ عِلْيَةِ الْقَوْمِ مِنْ بَكَرٍ وَتَغْلِبُ . وَالشَّاهِدُ فِي الْبَيْتِ أَنَّ الضَّلَالَ هُنَا بِمَعْنَى الْفَنَاءِ وَالضِّيَاعِ وَسَطُ الْأَشْيَاءِ .

(١) الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةِ قَالِهَا النَّابِغَةُ يَرْتِي النُّعْمَانَ بْنِ الْحَارِثِ الْغَسَّانِي . وَمُضِلُّوهُ : الَّذِينَ دَفَنُوهُ وَأَخْفَوْهُ فِي التُّرَابِ ، وَهَذَا هُوَ الشَّاهِدُ هُنَا ، وَيُرْوَى : مُصَلُّوهُ بِالصَّادِ الْمَهْمَلَةِ ، وَهِيَ الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ ، وَالْمَعْنَى : الَّذِينَ صَلُّوا عَلَيْهِ مِنَ الرِّهْبَانِ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا حَوْلَهُ يَدْعُونَ لَهُ ؛ لِأَنَّ النُّعْمَانَ ابْنَ الْحَارِثِ كَانَ مِنَ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَرَوَاهَا أَيْضًا أَبُو عُبَيْدَةَ : مُطِيلُوهُمْ بِالطَّاءِ الْمُهْمَلَةِ وَبِضْمِيرِ الْجَمْعِ ، يَرِيدُ الْمُطِيلِينَ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ ، يُقَالُ : أَطَّلَّ عَلَى فُلَانٍ فِي دِينِهِ إِذَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلٌ ، هَكَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعَ أَنَّ مَعَاجِمَ اللُّغَةِ لَمْ تُورِدْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : (بِعَيْنِ جَلِيَّةٍ) أَنَّهُمْ رَجَعُوا بَعْدَ أَنْ شَاهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ مَوْتَهُ وَدَفَنَهُ ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَرَوْا ذَلِكَ يَكَادُونَ لَا يَصْدَقُونَ خَبَرَ مَوْتِهِ بِجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَعَظَمِ مَنَزَلَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَابْجُولَانَ : اسْمُ الْمَكَانِ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ ، وَهُوَ بِالشَّامِ جَنُوبِي دِمَشْقَ ، وَعَلَى الْخُلُودِ الْفَاصِلَةَ بَيْنَ سُورِيَا وَفِلَسْطِينَ .

(٢) هَذَا عَجَزُ بَيْتٍ مِنْ مَعْلَقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالْبَيْتُ بِتَمَامِهِ :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْرِزَاتٌ إِلَى الْعُضَلَا تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُشْنَى وَمُرْسَلٍ =

وقرأ الحسن البصري : [صَلَّلْنَا] بالصاد غير منقوطة وفتح اللام ، قال الفراء : ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعناه : صِرْنَا من الصَّلَّة ، وهي الأرض اليابسة الصلبة ، ويجوز أن يراد به : من التَّغْيِير ، كما يقال : «صَلَّ اللَّحْمُ» (١) ، ورويت هذه القراءة

= والغدائر : جمع الغديرة وهي الخصلة من الشعر ، ومُسْتَشْرِرَاتٌ - من الاستشِرَارِ وهو الارتفاعُ والرفْعُ جميعاً ، وبهذا يكون الفعل منه لازماً أو متعدياً ، فمن رواه مُسْتَشْرِرَاتٌ - بكسر الزاي - جعله من الفعل اللازم ، ومن رواه بفتح الزاي جعله من المتعدي ، والمداري : جمع مدراة وهي الآلة التي يُسَوَّى بها الشعرُ ويُرَجَّلُ ، أي المشطُ ، ويروى بدلا من المداري : العِقَاصُ : وهو خَيْطٌ يُشَدُّ به الشعرُ مما يُسَمَّى بالعِصص ، يقال : عَقَصت المرأة شعرها عَقْصاً إذا أخذت كل خصلة منه فلكوتها ثم عقدتها حتى يبقى فيها التواء ثم أرسلتها . والمثنى : الذي تُثني بعضه على بعض ، والمرسل : الذي ترك دون عَقْصٍ أو ثني ، والشاهد فيه أن يَتَضِلُّ بمعنى يغيب ويختفي بين الشعر ما تُثني منه وما أرسل . يقول : ذوايب شعرها مرتفعة أو مرفوعة إلى فوق ، وشعرها لكثرت وطوله منه المثنى ومنه المرسل ، وفيه تغيب المداري .

(١) في (اللسان - صل) : « الصَّلَّة : الأرض اليابسة ، وقيل : هي الأرض التي لم تُمَطَّر بين أرضين مَمَطُورَتَيْن ، والجمع : صِلَال ، وقال أبو عبيدة : قَبْرَهُ في الصَّلَّة وهي الأرض » ، وعلى هذا يمكن تخريج المعنى في الآية على هذه القراءة ، كذلك يمكن فهم الآية على المعنى المشهور الذي ذكره أبو الفتح ابن جني ، وذكره أيضاً ابن عطية ، وهو من : صلَّ اللَّحْمُ يَصِلُّ صلولا وأصلٌ : أَنْتَنَ مطبوخاً كان أو نَيْثاً ، قال الحطيئة :

ذَاكَ فَتَى يَبْدُلُ ذَا قِيدِرِهِ لَا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولُ

وقال زهير :

تَلَجَلَجُ مُضْعَعَةً فِيهَا أَنْيِضُ* أَصَلَّتْ فَهِيَ تَحْتَ الكَشْحِ دَاءُ

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبان بن سعيد بن العاص ، وقرأ
الحسن أيضاً : [صَلَّلْنَا] بالصاد غير منقوطة وكسر اللام ، وقرأ
علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأبو حيوة : [صَلَّلْنَا] . بالصاد
غير منقوطة وكسر اللام وشدها .

وقولهم : ﴿ أَتِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، أي : أَتِنَّا لَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ
نُعَادُ وَيَجِدُّ خَلْقَنَا . وقوله تعالى : [بَلْ] اضْرَابٌ عَنْ مَعْنَى اسْتَفْهَامِهِمْ ،
كَأَنَّهُ قَالَ : لَيْسُوا مُسْتَفْهِمِينَ ، بَلْ هُمْ كَافِرُونَ جَاحِدُونَ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بجملة الحال
غير مفصلة ، فبدأ بالإخبار من وقت تفقد روح الإنسان إلى الوقت
الذي يعود فيه إلى ربه ، فجمع الغائبين الأولى والآخرة ، و [يَتَوَفَّأَكُمُ]
معناه : يَسْتَوْفِيكُمْ ، ومنه قول الشاعر :

إِنَّ بَنِي الْأَدْرَمِ لَيَسُؤُوا مِنْ أَحَدٍ وَلَا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَدَدِ (١)

(١) البيتان في (اللسان - وقى) ، ونسبهما لمنظور الوبري ، والرواية فيه (الأدرد)
بدلاً من (الأدرم) وفي (التاج) أن الشاعر هو منظور العبدي . ومعنى (لَيَسُؤُوا مِنْ أَحَدٍ) :
لَا تَجْعَلُهُمْ قُرَيْشٍ مِنْهَا ، ومعنى (وَلَا تَوَفَّاهُمْ فِي الْعَدَدِ) أنها لَا تَسْتَوْفِي بِهِمْ عِدْدَهَا ، فهم غير
معدودين ولا محسوبين بين الناس . وقد استشهد أبو عبيدة بالبيتين في مجاز القرآن ، وعنه أخذ
صاحب اللسان .

و ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ اسمه عزرائيل ، وتصرفه كله بأمر الله تعالى
 وخلقِه واختراعِه ، ورُوي في الحديث أن البهائم كلها يتوفى الله
 أرواحها دون ملك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنه يعدم حياتها (١) ، وكذلك الأمر في بني آدم ؛ إلا أنه نوع
 شُرّف بتصرف ملك وملائكة معه في قبض أرواحهم ، وكذلك أيضاً
 غلظ العذاب على الكافرين في ذلك . ورُوي عن مجاهد أن الدنيا بين
 يدي ملك الموت كالطست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث أمر .

(١) نقل القرطبي عن ابن عطية هذا الحديث وتعليقه عليه بقوله : « كأنه يعدم حياتها » ،
 ثم قال : « وقد رُوي خلافه ، وأن ملك الموت يتوفى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة » ،
 ثم ذكر الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد ، ولفظه : سمعت
 أبي يقول : (نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ،
 فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال ملك الموت :
 يا محمد ، طيب نفساً وقرّ عيناً ، فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر
 ولا شعر في برٍّ ولا بحرٍ إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات ، حتى إنني أعرف بصغيرهم
 وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أنني أردت أن أقبض رُوح بعوضة ما قدرت على ذلك
 حتى يكون الله هو الأمر بقبضها) . وقد ذكر ابن كثير الحديث بنفس السند ، وعقب عليه بكلام
 بلعقر بن محمد راوي الحديث .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا
الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ تعجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته من حال الكفرة ومما حلَّ بهم . وجواب [لَوْ] محذوف ؛ لأن حذفه أهول ؛ إذ يُترك الإنسان فيه مع أقصى تخيله . و [الْمُجْرِمُونَ] هم الكافرون ؛ بدليل قولهم : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ، أي أنهم كانوا في الدنيا غير موقنين . و «تَنَكِّيسُ الرُّؤُوسِ» هو من الهول والذل والهَمُّ بحلول العذاب وتعلُّق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا ، وفي القول محذوف تقديره : يقولون ربَّنَا ، وقولهم : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي : ما كنا نُخْبِرُ به في الدنيا فكنا مكذابين به ، ثم طلبوا الرجعة حين لا ينفع ذلك . ثم أخبر تبارك وتعالى عن نفسه أنه لو شاء لهدى الناس أجمعين ، أي : يُلطف بهم لطفاً يؤمنون به ويخترع الإيمان في قلوبهم . هذا

مذهب أهل السنة . وقال بعض المفسرين : لَعَرَضَ عَلَيْهِمْ آيَةٌ يَضْطَرُّهُمْ
بِهَا إِلَى الْإِيمَانِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول بعض المعتزلة ، إِلَّا أَنْ مِنْ أَشْرَانَا إِلَيْهِ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ
لَمْ يَدْرِ قَدْرَ الْقَوْلِ وَلَا مَغْزَاهُ وَلِذَلِكَ حَكَاهُ ، وَالَّذِي يَقُودُ الْمُعْتَزِلَةَ
إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى اللَّطْفِ بِإِنْسَانٍ حَتَّى يُؤْمِنَ
وَلَا يَفْعَلُ فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا مِنَ الْأَمْرِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالْكَلَامُ
عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَطُولُ وَلَهُ تَوَالِيْفُهُ . وَ [الْجِنَّةُ] : الشَّيَاطِينُ .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ بمعنى : يقال لهم : ذُوقُوا ، وَ [نَسِيتُمْ]
معناه : تركتم ، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره ، وفي
الكلام حذف مضاف تقديره : عمل ، أو عدة ونحوه . وقوله :
﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ سَمِّيَ الْعُقُوبَةَ بِاسْمِ الذَّنْبِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : بِتَكْسِبِكُمْ الْآثَامَ .

ثم أثنى عزَّ وجلَّ على القوم الذين يؤمنون بآياته ، ووصفهم
بالصفة الحسنة ، من سجودهم عند التذكير وتسبيحهم وعدم استكبارهم ،
بخلاف ما يصنع الكفرة من الإعراض عند التذكير ، وقول الهجر ،
وإظهار التكبر ، وهذه السجدة من عزائم السجود في القرآن ، وقال

ابن عباس رضي الله عنهما : السجود هنا بمعنى الركوع ، وقد روي عن ابن جريج ، ومجاهد أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أُقيمت الصلاة خرجوا من المسجد ، فكان الركوع يقصد من هذا ، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية ، وأيضاً فمن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما أن القارئ للسجدة يركع ، واستدل بقوله :
(وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) (١) .

قوله عز وجل :

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِء تَكذِبُونَ ﴿٢٠﴾

جَفَا الرَّجْلُ الْمَوْضِعُ : إذا تركه ، وتَجَافَى الْجَنْبُ عَنْ مَضْجَعِهِ : إذا تركه ، وجافى الرجل جنبه عن مضجعه ، وفي الحديث : (يجافى

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص) .

بعضديه عن جَنْبَيْهِ) (١) أي يبعدهما عن بدنه ، فقوله تعالى : (تَجَافَى جُنُوبُهُمْ) أي تبتعد وتزول ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :
 نَبِيٌّ تَجَافَى جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثَقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ (٢)
 ويروى : «يَبِيتُ يُجَافِي» ، قال الزَّجَّاجُ ، والرُّمَّانِيُّ : التَّجَافَى : التَّنَحَّى إلى جهة فوق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول حسن ، وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سب ونحوه . و «الْجُنُوبُ» : جمع جَنْبٍ ، و «الْمَضَاجِعُ» : موضع الاضطجاع للنوم . وقال أنس بن مالك : أراد بهذه الآية الصلاة بين المغرب والعشاء ، وقال عطاء ، وأبو سلمة : أراد صلاة العشاء الآخرة .

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد ، ونلفظه كما أخرجه البخاري في الصلاة من عبد الله بن مالك بن بُحَيِّسَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا صَلَّى فَرَجَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى يَبْدُو بِيَاضَ إِبْطِيهِ .

(٢) هذا بيت من الشعر ضمن ثلاثة أبيات رواها الإمام أحمد عن أبي هريرة ٣-٤٥١ ، قال أبو هريرة : إن أخواكم كان لا يقول الرفث - يعني ابن رواحة ، قال :

وَقَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ اللَّيْلِ سَاطِعٌ
 بَيْتٌ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثَقَلَتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ
 أَرَأَيْتَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَفَلُوبْنَا بِهِ مَوْقِنَاتٌ أَنْ مَا قَالَ وَاقِعُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وكانت الجاهلية ينامون في أول الغروب ، ومن أي وقت شاء
الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء الآخرة غريباً شاقاً ، وقال انس
ابن مالك أيضاً : أراد انتظار صلاة العشاء الآخرة ؛ لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل ، وفي ذلك أحاديث
كثيرة (١) . قال الضحاك : «تجافي الجنب هو أن يصلي الرجل العشاء
والصبح في جماعة» . وهذا قول حسن ، يبعده لفظ الآية (٢) ، وقال
الجمهور من المفسرين : أراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا التأويل أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح ، وفيه
حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يذكر قيام الليل ثم يستشهد

(١) من ذلك ما رواه الترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ،
ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في انتظار
الصلاة التي تدعى العتمة ، وكذلك ما أخرجه البخاري في تاريخه ، وابن مردويه عن أنس رضي الله
عنه ، قال : نزلت ﴿ تَسْجَأَتِي جُئُوبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ ﴾ في صلاة العشاء . وكذلك ما أخرجه
ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ تَسْجَأَتِي
جُئُوبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ ﴾ ، قال : هم الذين لا ينامون قبل العشاء ، فأثني عليهم ، فلما
ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه ، فوقتها قبل أن ينام الصغار ويكسل الكبير .
(٢) هكذا في جميع الأصول .

بالآية . ذكره الطبري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه (١) . ورجح الزجاج هذا القول بأنهم جوزوا بإجفائه ، فدل ذلك على أن العمل إجفاءً أيضاً هو قيام الليل .

(١) حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده ، والقاضي إسماعيل بن إسحق ، وأبو عيسى الترمذي ، وقال فيه : حديث حسن صحيح ، ولمنظفه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ : الصَّوْمِ جُنَّةً ، وَالصَّدَقَةِ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ، وَصَلَاةِ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ) ، قال : ثم تلا : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ : [يَعْْمَلُونَ] ، وفي (الدر المنثور) قال السيوطي : « أخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن نصر في كتاب الصلاة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان — عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ، قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ : الصَّوْمِ جُنَّةً ، وَالصَّدَقَةِ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَصَلَاةِ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثم قرأ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ [يَعْْمَلُونَ] ، ثم قال : أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ فقلتُ : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ فقلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه فقال : كُفَّ عَنْكَ هَذَا ، قلت : يا رسول الله ، وَإِنَّا لَمُؤْخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فقال : تَكَلَّمْتَ أَمَّا يَا مَعَاذَ ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » وهذا الحديث هو الحديث التاسع والعشرون من الأربعين النَّوَوِيَّةِ ، وقد علق الحافظ ابن رجب الحنبلي على تصحيح الترمذي لهذا الحديث في أثناء شرحه لهذا الحديث في كتابه : (جامع العلوم والحكم) بما يفيد أنه لا يوافق على ما قاله الترمذي من أنه حديث حسن صحيح لاعتبارات ذكرها هناك . والله أعلم .

وقوله : [يَدْعُونَ] يحتمل أن يكون في موضع الحال من الموصوفين ، أي وقت التجافي ، ويحتمل أن يكون صفة مستأنفة ، أي : تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل أحوالهم يدعون في ليالهم ونهارهم ، و «الْخَوْفُ» من عذاب الله ، و «الطَّمَعُ» في ثواب الله . و [يُنْفِقُونَ] قيل : معناه : الزكاة المفروضة ، وقيل : النوافل والصدقات غير المفروضة ، وهذا القول أمدح .

ثم ذكر تعالى ما وعدهم من النعيم مما لم تعلمه نفس ولا بشر ولا ملك .

وقرأ حمزة وحده : [أُخْفِي] بسكون الياء ، كأنه قال : «أُخْفِي أَنَا» ، وهي قراءة الأعمش ، وروى عنه : «ما أخفيت لهم من قرأت أعين» ، وقرأ عبد الله : «مَا نُخْفِي لَهُمْ» بالنون المضمومة ، وروى المفضل عن الأعمش : «ما يُخْفِي لَهُمْ» بالياء المضمومة وفتح الفاء ، وقرأ محمد بن كعب : «ما أَخْفَى» بفتح الهمزة ، أي : ما أخفي الله لهم ، وقرأ جمهور الناس بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول . و [مَا] يحتمل أن تكون بمعنى الذي ، فعلى القراءة الأولى فثم ضمير محذوف تقديره : أخفيه ، وعلى قراءة الجمهور فالضمير الذي لم يُسم فاعله يجري في العود على (الذي) ، ويحتمل أن تكون استفهاماً ، فعلى

القراءة الأولى فهي في موضع نصبٍ بـ [أَخْفِي] ، وعلى القراءة الثانية هي في موضع رفع بالابتداء .

و «قُرَّةَ الْعَيْنِ» : ما تلذُّه وتشتهيه ، وهي مأخوذة من القُرَّة (١) ، كما أن «سخنة العين» مأخوذة من السَّخَّانة ، وأصل هذا - فيما يزعمون - أن دمع الفرح بارد ، ودمع الحزن سخن .

وفي معنى هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 (قال الله عزَّ وجلَّ : أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَاقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٢) . وقال ابن مسعود رضي الله عنه :
 «في التوراة مكتوبٌ : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» . وقرأ ابن مسعود ، وأبو هريرة ، وأبو الدرداء رضي الله عنهم : «قُرَاتٍ» على الجمع . وقوله : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، أي : بِتَكْسِبِهِمْ .

(١) القُرَّة: البرد ، أوجبوا الفتح مع الحرِّ للمشكلة ، والقُرَّة: البردُ ، (عن اللسان) .

(٢) رواه الشيخان: البخاري ، ومسلم ، ورواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن جرير الطبري في التفسير ، وذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور) ، وزاد نسبه لابن أبي شيبة ، وأحمد ، وهناد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ﴾ الآية . روى عطاء بن يسارٍ أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والوليد بن عقبة ابن أبي معيط ، وذلك أنهما تلاحنا ، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : اسكت فإنك فاسق ، فنزلت الآية (١) . وذكر الزجاج ، والنحاس ، وغيرهما أنها نزلت في علي وعقبة بن أبي معيط ، وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكّية ، لأن عقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل في طريق مكة منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ، ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد ، وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه ، أو لما روي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٢) ، ويحتمل أيضاً أن تطلق الشريعة ذلك عليه لأنه كان على طرف مما ينبغي ، وهو الذي شرب الخمر في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وصلى الصُّبْحَ بالناس أربعاً ،

(١) ذكره الشوكاني في فتح القدير ، ونسب إخراجَه إلى أبي الفرج الأصبهاني في الأغاني ، والواحدي ، وابن عدي ، وابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر ، من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه : قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنا أحدٌ منك سناناً ، وأنشط منك لساناً ، وأملاً للكتيبة منك ، فقال له علي رضي الله عنه : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت الآية .

(٢) من الآية (٦) من سورة (الحجرات) .

ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ؟ ونحوه مما يطول ذكره .
ثم قسم الله تعالى المؤمنين والفاستقين الذين فسقهم بالكفر ؛
لأن التكذيب الذي في آخر الآية يقتضي ذلك ، وقرأ طلحة : « جنة »
بالإفراد ، وقرأ أبو حيوة : [نُزلاً] بإسكان الزاي ، والجمهور على
ضمها ، وسائر ما في الآية بين .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [لَنُذِيقَنَّهُم] لكفار قريش ، أعلم الله تعالى
أنه يصيبهم بعذاب دون عذاب الآخرة لعلهم يتوبون ويتعظون ،
ولا خلاف أن العذاب الأكبر هو عذاب الآخرة ، واختلف المتأولون
في تعيين العذاب الأدنى - فقال إبراهيم النخعي ، ومقاتل : هو السنون
التي أجاجهم الله فيها ، وقال ابن عباس ، وأبي بن كعب : هي مصائب
الدنيا من الأمراض ونحوها ، وقاله ابن زيد ، وقال ابن مسعود ،
والحسن بن علي : هو القتل بالسيف كبدر وغيرها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيكون - على هذا التأويل - «الراجع» غير «الذي يذوق» ، بل الذي يبقى بعده (١) ، وتختلف رتبنا ضمير الذوق مع ضمير لعل . وقال أبي بن كعب - رضي الله عنه - أيضاً : هي البطشة والزام والدخان ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً : عنى بذلك الحدود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتجه - على هذا التأويل - أن يكون في فسقة المؤمنين . وقال مجاهد : عنى بذلك عذاب القبر .

ثم قال تعالى - على جهة التعجب والتقرير - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ، أي : لا أحد أظلم من هذه صفته ، وهي بخلاف ما تقدم في صفة المؤمنين من أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم خرّوا سُجّداً ، ثم توعّد

(١) وقد قيل : إن معنى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ : لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ ، وسُميت إرادة الرجوع رجوعاً كما سُميت إرادة القيام قياماً في قوله سبحانه : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ ، ويدلُّ على ذلك قراءة من قرأ : [يَرْجِعُونَ] على البناء للمفعول .

تبارك وتعالى المجرمين ، وهم الذين يتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالقوة ، وظاهر الإجماع هنا أنه الكفر .

وحكى الطبري عن يزيد بن ربيع أنه قال : إن قول الله في القرآن : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ إنما هو في أهل القدر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد القائلين بأن أفعال العبد من قبله ، قال : ثم قرأ يزيد بن ربيع : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا المنزاع من البعد مالا يخفاء به . وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقَد لواءً في غير حقٍّ ، أو عَقَّ والدَيْهَ ، أو مَشَى مع ظالم ينصره) (٢) .

(١) الآيات (٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩) من سورة (القمر) .

(٢) قال الإمام السيوطي في (الدر المنثور) : « أخرجه ابن منيع ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رضي الله عنه » ، وقال ابن كثير بعد إخراجها : « هذا حديث غريب » .

قوله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ^ط وَجَعَلْنَاهُ هُدًى
لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا^ط وَكَانُوا بِعَايَتِنَا
يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قرأ الناس : ﴿ في مِرْيَةٍ ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الحسن بضمها .
واختلف المتأولون في الضمير الذي في [لِقَائِهِ] على من يعود ؟ فقال
أبو العالية الرياحي ، وقتادة : يعود على [مُوسَى] ، والمعنى : لا تك
في شك من أنك تلقى موسى ، أي : في ليلة الإسراء ، وهذا قول جماعة
من السلف ، وقاله المبرد حين امتحن أبا إسحق الزجاج بهذه المسألة .
وقالت فرقة : الضمير عائد على [الْكِتَابِ] ، أي أنه لقي موسى حين
لقيه موسى عليه السلام ، والمصدر في هذا التأويل يصح أن يكون
مضافاً إلى الفاعل ، بمعنى : لقي الكتاب موسى ، ويصح أن يكون
مضافاً إلى المفعول ، بمعنى : لقي الكتاب - بالنصب - موسى عليه السلام .
وقال الحسن : الضمير عائد على ما يتضمنه القول من المِحْنَةِ والشِدَّةِ
التي في إخباره بأنه أتى موسى الكتاب ، كأنه قال : ولقد آتينا
موسى هذا العِبءَ الذي أنت بسبيله ، فلا تَمْتَرَنَّ أنك تلقى ما لقي

هو من المِحْنَةِ بالناس ، وَكَانَ الْآيَةَ تَسْلِيَةً لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وقالت فرقة : معناه : فلا تك في شكٍّ من لقائه في الآخرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيفٌ .

وقالت فرقة : الضمير عائد على مَلِكِ الْمَوْتِ الذي تقدم ذكره ،
وقوله : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أيضاً ضعيفٌ .

والمِرْيَةُ : الشَّكُّ . والضمير في [جَعَلْنَاهُ] عائد على [مُوسَى] ،
وهو قول قتادة ، ويحتمل أن يعود على [الْكِتَابِ] .

و [أئمة] : جمع إمام ، وهو الذي يُقْتَدَى به ، وَأَصْلُهُ
خَيْطُ الْبِنَاءِ ، وجمهور النحويين على [أَيْمَةٌ] بياءٍ وتخفيف الهمزة ،
إلا ابن أبي إسحق فإنه جوز اجتماع الهمزتين وقرأ : [أئمة] .
وقرأ جمهور القراء : ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ بفتح اللام وشد الميم ، وقرأ
حمزة والكسائي : ﴿ لِمَا صَبَرُوا ﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم ،
وهي قراءة ابن مسعود ، وطلحة ، والأعمش ، والأولى في معنى الظرف ،

والثانية كأنه قال : لأجل صبرهم ، ف [مَا] مصدرية ، وفي القراءتين معنى المجازاة ، أي : جعلهم أئمةً جزاءً على صبرهم على الدنيا ، وكونهم موقنين بآيات الله تبارك وتعالى وأوامره وجميع ما تُورده الشريعة .
وقرأ ابن مسعود : «بِمَا صَبَرُوا» .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الآية حُكْمٌ يعم جميع الخلق ، وذهب بعض المتأولين إلى تخصيص الضمير ، وذلك ضعيف .

قوله عز وجل :

﴿ أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَرَّ اهْلَاكِكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٦) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (٢٩) فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا لَهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ (٣٠) ﴿

[يَهْدِي] معناه : يُبَيِّنُ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأ جمهور الناس : [يَهْدِي] بالياء ، فالفاعلُ اللهُ في قول فرقة ، والرسولُ في قول فرقة ، والمصدرُ في قول فرقة ، كأنه قال : أو لم يُبَيِّنْ لَهُمْ

الهُدَى . وجوز الكوفيون أن يكون الفاعل [كَمْ] ، ولا يجوز ذلك عند البصريين ؛ لأنها في الخبر على حكمها في الاستفهام في أنها لا يعمل فيها ما قبلها . وقرأ أبو عبد الرحمن : ﴿ نَهْدِ لَهُمْ ﴾ بالنون ، وهي قراءة الحسن وقتادة . فالفاعلُ اللهُ تعالى ، و [كَمْ] في موضع نصب : فعند الكوفيين ب [نَهْدِ] ، وعند البصريين ب [أَهْلَكْنَا] على القراءتين جميعاً . وقرأ جمهور الناس : [يَمْشُونَ] بفتح الياء وتخفيف الشين ، وقرأ ابن السميع اليماني : [يُمْشُونَ] بضم الياء وفتح الميم وشد الشين ، وقرأ عيسى بن عمر : [يُمْشُونَ] بضم الياء وسكون الميم وشين مضمومة مخففة ، والضمير في [يَمْشُونَ] يحتمل أن يكون للمُخَاطَبِينَ بالبينة المُحْتَجِّ عليهم ، ويحتمل أن يكون للمُهْلَكِينَ ، ف [يَمْشُونَ] في موضع الحال ، أي : أهلكوا وهم ماشون في مساكنهم . والضمير في [يَسْمَعُونَ] لِلْمَنْهِيَّينَ . ومعنى الآية إقامة الحجة على الكفرة بالأئمة السالفة الذين كفروا فأهلكوا .

ثم أقام عز وجل الحجة عليهم في معنى الإيمان بالقدرة وبالبعث بأن نبههم على إحياء الأرض الموات بالماء ، و «السُّوقُ» هو بالسحاب ، و «الجُرُزُ» : الأَرْضُ العاطِشَةُ التي قد أكلت نباتها من العطش والقيظ ،

ومنه قيل للأكول : جرُوزٌ ، قال الشاعر :

* خَبٌّ جَرُوزٌ وَإِذَا جَاعَ بَكَى * (١)

وَمَنْ عَبَّرَ عَنْهَا بِأَنَّهَا الْأَرْضُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ فَإِنَّهَا عِبَارَةٌ غَيْرُ مُخْلِصَةٌ .
وَعَمَّ تَعَالَى كُلُّ أَرْضٍ هِيَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ فِيهَا وَالْعِبْرَةَ بَيْنَهُ .
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ أَيْضاً : الْأَرْضُ الْجُرُوزُ
هِيَ أَرْضُ (أَبِينِ) (٢) مِنَ الْيَمَنِ ، وَهِيَ أَرْضٌ تَشْرَبُ بِسَيُولٍ لَا يَمُطِرُ .
وَجَمْهُورُ النَّاسِ عَلَى ضَمِّ الرَّاءِ ، قَالَ الزَّجَّاجُ : وَتُقْرَأُ : [الْجُرُوزُ] بِسُكُونِ
الرَّاءِ (٣) .

(١) هذا بيت من مشطور الرجز ، أورده القرطبي ، والشوكاني في (فتح القدير) ، وذكر الطبري جزءاً منه ، وبعده يقول الراجز :

* وَيَأْكُلُ التَّمَرَ وَلَا يُلْقِي النَّوَى *

ويقال : رجلٌ خَبٌّ وخَبٌّ بالفتح والكسر ، أي : خداعٌ خبيثٌ مُنْكَرٌ ، والجُرُوزُ : الذي يأكل ما أمامه ولا يبتغي على شيءٍ منه ، يصفه بالحيث والشراسة . وهو الشاهد هنا .

(٢) أَبِينٌ يُفْتَحُ أُولَاهُ وَيَكْسَرُ ، وَهُوَ بوزن أحمر ، ويقال (يَبِينُ) ، وهو متخالفٌ باليمن ، منه عدن ، يقال : إنه سُمِّيَ بأبِينِ بنِ زهيرِ بنِ أيمن ، من سبأ ، وقال الطبري :
عَدَنَ وَأَبِينَ ابْنَا عَدْنَانَ بنِ أَدَدَ ، وَأُنْشِدَ الْقِرَاءُ :

مَا مِنْ أَنَاسٍ بَيْنَ مِصْرَ وَعَالِيجٍ وَأَبِينَ إِلَّا قَدَّ تَرَكَنَا لَهُمْ وَتَرَا
وَنَحْنُ قَتَانَا الْأَزْدَ أَزْدَ شَتُوَّةٍ فَمَا شَرَبُوا بَعْدَ عَلِيٍّ لَذَّةٍ خَمْرًا

(٣) في الجُرُوزِ أربع لغات : جُرُوزٌ وَجُرُوزٌ ، مثلُ عُسْرٍ وَعُسْرٍ ، وَجَرَزٌ وَجَرَزٌ ، مثلُ نَهْرٍ وَنَهْرٍ ، وَجَمْعُ الْجُرُوزِ جِرَزَةٌ ، مثلُ جُحْرٍ وَجِحْرَةٍ ، وَجَمْعُ الْجَرَزِ أَجْرَازٌ ، مثلُ سَبَبٍ وَأَسْبَابٍ . (عن اللسان - جرز) .

ثم خصَّ الله تعالى الزرع بالذكر تشريفاً له ؛ ولأنَّه عَظُم ما يقصد بالنبات ، وإِلَّا فَعرفَ أَكلَ الأَنعامِ إِنما هو من غير الزرع ، لكنه أوقع الزرع موقع النبات ، ثم فصل ذلك بأكل الأَنعامِ وبني آدم .
 وقرأ أبو بكر بن عياش ، وأبو حيوة : [يَأْكُلُ] بالياء من تحت ،
 وقرأ ابن مسعود : [تُبْصِرُونَ] بالتاء من فوق ، وقرأ جمهور الناس :
 [يُبْصِرُونَ] بالياء .

ثم حكى عن الكفرة أَنهم يستفتحون ويستعجلون فصل القضاء بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، على معنى الهُزءِ والتكذيب .
 وَ [أَلْفَتْحٌ] : الحُكْم ، هذا قول جماعة المفسرين ، وهو أقوى الأقوال ،
 وقالت فرقة : الإِشارة إلى فتح مكة

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، يردُّه الإِخبارُ بأنَّ الكفرة لا ينفعهم الإِيمان ، فلم يبق أن يكون الفتح إِلاَّ إِما حُكْم الآخرة ، وهو قول مجاهد ،
 وَإِما [فَصُلٌ] (١) الدنيا كبدر ونحوه . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾
 إِشارة إلى الفتح الأول حسب محتملاته . فالألف واللام في [أَلْفَتْحٌ]
 الثاني للعهد ، و [يَوْمٌ] ظرف ، والعامل فيه [يَنْفَعُ] ، و [يُنْظَرُونَ]
 معناه : يُؤَخَّرُونَ .

(١) أي الفَصْل الذي يستعجلونه بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم أمره تبارك وتعالى بالإعراض عن الكفار دون انتظار الفرج ،
وهذا مما نسخته آية السيف (١) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾
أي العذاب ، بمعنى أن هذا حكمهم وإن كانوا لا يشعرون . وقرأ محمد
ابن السميع : [مُنْتَظِرُونَ] أي : لِلْعَذَابِ النَّازِلِ بِهِمْ (٢) ، والله أعلم .

كامل تفسير سورة السجدة والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) في قوله تعالى في الآية (٥) من سورة (براءة) : ﴿ فَافْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْضِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ . قال القرطبي :
« وقيل : الآية غير منسوخة ، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهتدنة وغيرها » .
(٢) ورويت هذه القراءة عن مجاهد ، وابن مُحَيِّصٍ ، قال الفراء : « ولا يصح هذا
إلا بإضمار ، مجازة : إنهم مُنْتَظِرُونَ بهم » ، وقال أبو حاتم : « الصحيح الكسر ، أي :
انتظر عذابهم إنهم مُنْتَظِرُونَ هلاكك » . وقد وضح بعضهم المعنى على قراءة الفتح فقال :
« معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقَاءُ بأن يُنْتَظَرَ هلاكهم ، يعني أنهم هالكون لا محالة ،
وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه » ، ذكر ذلك الزمخشري ، وهو معنى قول ابن عطية ،
وقد أخذه عن الفراء ، والله أعلم .

انتهى الجزء الحادي عشر بعون الله وتوفيقه ،
والحمد لله رب العالمين . ويليه الجزء الثاني
عشر بمشيئة الله تبارك وتعالى ، ويبدأ بقوله
تبارك وتعالى في أول سورة الأحزاب :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

حقوق الطبع لهذا التفسير محفوظة
للمحققين
الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم

فهرست آیات الجزء الحادي عشر

الصفحة

الآية

تفسير سورة الفرقان

- قوله عزَّ وجلَّ : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)
 ٢ ... إلى آخر الآية ٣
- قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) إلى آخر الآية ٦
 ٤ ...
- قوله عزَّ وجلَّ : (وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)
 ٦ ... إلى آخر الآية ١٠
- قوله عزَّ وجلَّ : (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً)
 ١٠ ... إلى آخر الآية ١٤
- قوله عزَّ وجلَّ : (قل أذلك خيراً أم الجنة الخلد التي وعد المتقون)
 ١٣ ... إلى آخر الآية ١٦
- قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) إلى آخر
 ١٦ ... الآية ١٩
- قوله عزَّ وجلَّ : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام)
 ٢١ ... إلى آخر الآية ٢١
- قوله عزَّ وجلَّ : (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين)
 ٢٤ ... إلى آخر الآية ٢٦
- قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يعص الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع
 ٣٢ ... الرسول سبيلاً) إلى آخر الآية ٣١

- قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانُ جَمَلَةٌ وَاحِدَةٌ)
 ٣٦ ... إلى آخر الآية ٣٤
- قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً)
 ٣٨ ... إلى آخر الآية ٣٩
- قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء) إلى آخر
 ٤٢ ... الآية ٤٤
- قوله عزَّ وجلَّ : (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً)
 ٤٤ ... إلى آخر الآية ٤٧
- قوله عزَّ وجلَّ : (وهو الذي أرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته)
 ٤٦ ... إلى آخر الآية ٥٢
- قوله عزَّ وجلَّ : (وهو الذي مرَّج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح
 ٥٠ ... أجاج) إلى آخر الآية ٥٧
- قوله عزَّ وجلَّ : (وقوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده)
 ٥٧ ... إلى آخر الآية ٦٠
- قوله عزَّ وجلَّ : (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً
 ٦١ ... وقمرأ منيراً) إلى آخر الآية ٦٣
- قوله عزَّ وجلَّ : (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) إلى آخر
 ٦٨ ... الآية ٦٦
- قوله عزَّ وجلَّ : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك
 ٧٠ ... قواماً) إلى آخر الآية ٧٠
- قوله عزَّ وجلَّ : (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) إلى آخر
 ٧٨ ... الآية ٧٤

الصفحة	الآية
٨١	قوله عز وجل : (أولئك يُجزَوْنَ العُرْفَةَ بما صبروا ويُلَقَّوْنَ فيها نَجِيَّةً وسلاماً) إلى آخر الآية ٧٧
تفسير سورة الشعراء	
٨٦	قوله عز وجل : (طسّم ، تلك آيات الكتاب المبين) إلى آخر الآية ٩
٩٣	قوله عز وجل : (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) إلى آخر الآية ١٩
٩٨	قوله عز وجل : (قال فععلتُها إذا وأنا من الضالين) إلى آخر الآية ٢٨
١٠٣	قوله عز وجل : (قال إن اتَّخَذتِ إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) إلى آخر الآية ٣٧
١٠٦	قوله عز وجل : (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) إلى آخر الآية ٤٤
١٠٧	قوله عز وجل : (فألقي موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون) إلى آخر الآية ٥١
١١٠	قوله عز وجل : (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون) إلى آخر الآية ٦٢
١١٧	قوله عز وجل : (فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق) إلى آخر الآية ٦٨
١١٩	قوله عز وجل : (واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) إلى آخر الآية ٧٧
١٢٢	قوله عز وجل : (الذي خلقتي فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين) إلى آخر الآية ٨٧

الصفحة	الآية
١٢٦	قوله عز وجل : (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) إلى آخر الآية ٩٥
١٢٨	قوله عز وجل : (قالوا وهم فيها يخْتَصِمون ، تالله إن كنا لَنفِي ضلال مبين) إلى آخر الآية ١٠٤
١٣٠	قوله عز وجل : (كذّبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) إلى آخر الآية ١٢٢
١٣٤	قوله عز وجل : (كذّبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود " ألا تتقون) إلى آخر الآية ١٤٠
١٣٨	قوله عز وجل : (كذّبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح " ألا تتقون) إلى آخر الآية ١٥٩
١٤٢	قوله عز وجل : (كذّبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط " ألا تتقون) إلى آخر الآية ١٧٥
١٤٤	قوله عز وجل : (كذّبت أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب " ألا تتقون) إلى آخر الآية ١٩١
١٤٧	قوله عز وجل : (وإنه لتنزِيلُ ربِّ العالمين ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) إلى آخر الآية ١٩٩
١٥٢	قوله عز وجل : (كذلك سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) إلى آخر الآية ٢٠٩
١٥٤	قوله عز وجل : (وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ، وما يَنبَغِي لَهُمْ وما يَسْتَطِيعُونَ) إلى آخر الآية ٢١٦
١٥٨	قوله عز وجل : (وتوكل على العزيز الرحيم ، الذي يراك حين تقوم) إلى آخر الآية ٢٢٦

الصفحة	الآية
١٦٣	قوله عزَّ وجلَّ : (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) إلى آخر الآية ٢٢٧
تفسير سورة النمل	
١٦٥	قوله عزَّ وجلَّ : (اطس~ تلك آيات القرآن وكتاب مبين) إلى آخر الآية ٥ ...
١٦٧	قوله عزَّ وجلَّ : (وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) إلى آخر الآية ٩ ...
١٧٤	قوله عزَّ وجلَّ : (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تهتز كأنها جان وليّ مُدْبِرًا ولم يُعَمِّقْ) إلى آخر الآية ١٢ ...
١٧٨	قوله عزَّ وجلَّ : (فلما جاءتهم آياتنا مُبْصِرَةً قالوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ) إلى آخر الآية ١٤ ...
١٨١	قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد آتينا داود وسليمان عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ) إلى آخر الآية ١٧ ...
١٨٤	قوله عزَّ وجلَّ : (حتى إذا أتوا على وادٍ النمل قالت نملةٌ يَا أَيُّهَا النمل ادْخُلُوا مساكنكم) إلى آخر الآية ١٩ ...
١٨٨	قوله عزَّ وجلَّ : (وتنفقَد الطير فقال مالي لا أرى ألهدهد أم كان من الغائبين) إلى آخر الآية ٢٣ ...
١٩٣	قوله عزَّ وجلَّ : (وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) إلى آخر الآية ٢٨ ...
٢٠٠	قوله عزَّ وجلَّ : (قالت يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) إلى آخر الآية ٣٤ ...
٢٠٣	قوله عزَّ وجلَّ : (وإني مُرسلة إليهم بهدية فناظرة بِمِمْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) إلى آخر الآية ٣٧ ...

الصفحة	الآية
٢٠٥	قوله عزَّ وجلَّ : (قال يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) إلى آخر الآية ٤٠
٢١١	قوله عزَّ وجلَّ : (قال نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونِ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ) إلى آخر الآية ٤٤
٢١٦	قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن أعبدوا الله) إلى آخر الآية ٤٧
٢١٨	قوله عزَّ وجلَّ : (وكان في المدينة تسعة رهطٍ يُفسدون في الأرض ولا يصلحون) إلى آخر الآية ٥١
٢٢١	قوله عزَّ وجلَّ : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون) إلى آخر الآية ٥٨
٢٢٤	قوله عزَّ وجلَّ : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) إلى آخر الآية ٦١
٢٢٩	قوله عزَّ وجلَّ : (أمن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) إلى آخر الآية ٦٦
٢٣٦	قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الذين كفروا أءذا كُنَّا تراباً وأبائنا أئنتنا لمُخرجون) إلى آخر الآية ٧٤
٢٣٨	قوله عزَّ وجلَّ : (وما من غائبةٍ في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) إلى آخر الآية ٨٢
٢٤٦	قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم نحشر من كل أمةً فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون) إلى آخر الآية ٨٧
٢٥١	قوله عزَّ وجلَّ : (وترى ألبهال تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب) إلى آخر الآية ٩٣

الصفحة	الآية
	تفسير سورة القصص
٢٥٨	قوله عزَّ وجلَّ : (اطمسّم ، تلك آيات الكتاب المبين) إلى آخر الآية ٤
	قوله عزَّ وجلَّ : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم
٢٦١	أئمة) إلى آخر الآية ٧
	قوله عزَّ وجلَّ : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) إلى آخر
٢٦٤	الآية ١١
	قوله عزَّ وجلَّ : (وحرّمنا عليه الأمراض من قبل فقالت هل أدلكم على
٢٧١	أهل بيت يكفلونه) إلى آخر الآية ١٥
	قوله عزَّ وجلَّ : (قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فعفّر له) إلى آخر
٢٧٦	الآية ١٨
	قوله عزَّ وجلَّ : (فلما أن أراد أن يبسطش بالذي هو عدو لهما) إلى آخر
٢٧٨	الآية ٢١
	قوله عزَّ وجلَّ : (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل)
٢٨٣	إلى آخر الآية ٢٤
	قوله عزَّ وجلَّ : (فجاءته إحداهما تمشي على آستحياء) إلى آخر الآية ٢٧
	قوله عزَّ وجلَّ : (قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ)
٢٩١	إلى آخر الآية ٣٢
	قوله عزَّ وجلَّ : (قال ربّ إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون) إلى آخر
٢٩٩	الآية ٣٩
	قوله عزَّ وجلَّ : (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) إلى آخر الآية ٤٣
٣٠٢	

- قوله عزَّ وجلَّ : (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) إلى آخر الآية ٤٦ ٣٠٤
- قوله عزَّ وجلَّ : (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) إلى آخر الآية ٥٠ ٣٠٧
- قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) إلى آخر الآية ٥٥ ٣٠٩
- قوله عزَّ وجلَّ : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) إلى آخر الآية ٥٨ ٣١٣
- قوله عزَّ وجلَّ : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا) إلى آخر الآية ٦١ ٣١٦
- قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) إلى آخر الآية ٦٤ ٣١٩
- قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) إلى آخر الآية ٦٨ ٣٢١
- قوله عزَّ وجلَّ : (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) إلى آخر الآية ٧٣ ٣٢٦
- قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) إلى آخر الآية ٧٥ ٣٢٧
- قوله عزَّ وجلَّ : (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر الآية ٧٧ ٣٢٩
- قوله عزَّ وجلَّ : (قال إنما أويئته على علمٍ عندي) إلى آخر الآية ٧٩ ٣٣٧

الصفحة	الآية
٣٤٠	قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلْتَمِسُونَ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٨٢
٣٤٥	قوله عزَّ وجلَّ : (تِلْكَ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٨٦
٣٤٩	قوله عزَّ وجلَّ : (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٨٨
تفسير سورة العنكبوت	
٣٥٢	قوله عزَّ وجلَّ : (الِّمَّ ، أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٣
٣٥٧	قوله عزَّ وجلَّ : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٧
٣٦٠	قوله عزَّ وجلَّ : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١١
٣٦٥	قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٥
٣٧١	قوله عزَّ وجلَّ : (وإبراهيم إذ قال لقومه أعبدوا الله واتقوه ذلكم خيرٌ لكم) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٧
٣٧٣	قوله عزَّ وجلَّ : (وَإِنْ تَكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٠
٣٧٥	قوله عزَّ وجلَّ : (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٣
٣٧٧	قوله عزَّ وجلَّ : (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أقتلوه أو حرقوه) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٥

الصفحة	الآية
٣٨١	قوله عز وجل : (فَأَمِّنْ لَهُ لوطاً وقال إني مُهاجرٌ إلى ربي) إلى آخر الآية ٢٨ ٤٠٠
٣٨٣	قوله عز وجل : (أَتَيْنَكُمْ لِنَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ) إلى آخر الآية ٣١
٣٨٦	قوله عز وجل : (قال إنَّ فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها) إلى آخر الآية ٣٥
٣٨٨	قوله عز وجل : (وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم أعبدوا الله) إلى آخر الآية ٣٨ ٤٠٠
٣٩١	قوله عز وجل : (وقارونَ وفرعونَ وهامانَ ولقد جاءهم موسى بالبينات) إلى آخر الآية ٤٠
٣٩٣	قوله عز وجل : (مثلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ) إلى آخر الآية ٤٣
٣٩٦	قوله عز وجل : (خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآيةً للمؤمنين) إلى آخر الآية ٤٥
٤٠١	قوله عز وجل : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) إلى آخر الآية ٤٦
٤٠٤	قوله عز وجل : (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) إلى آخر الآية ٤٩
٤٠٧	قوله عز وجل : (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) إلى آخر الآية ٥٢
٤٠٩	قوله عز وجل : (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجلٌ مسمى لجاءهم العذاب) إلى آخر الآية ٥٥

الصفحة	الآية
٤١١	قوله عزَّ وجلَّ : (يا عبادي آمنوا إنَّ أرضي واسعةٌ فإيبأي فاعبدون) إلى آخر الآية ٥٩
٤١٤	قوله عزَّ وجلَّ : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإيناكم وهو السميع العليم) إلى آخر الآية ٦٣
٤١٦	قوله عزَّ وجلَّ : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ) إلى آخر الآية ٦٧
٤١٨	قوله عزَّ وجلَّ : (ومن أظلم ممن آفترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه) إلى آخر الآية ٦٩
تفسير سورة الروم	
٤٢١	قوله عزَّ وجلَّ : (التسم - ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) إلى آخر الآية ٦
٤٢٩	قوله عزَّ وجلَّ : (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) إلى آخر الآية ٨
٤٣٢	قوله عزَّ وجلَّ : (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) إلى آخر الآية ٩
٤٣٣	قوله عزَّ وجلَّ : (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون) إلى آخر الآية ١٣
٤٣٦	قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم تقوم الساعة يومئذ ينفرقون) إلى آخر الآية ١٨
٤٤٠	قوله عزَّ وجلَّ : (يُخرج الحي من ألبت ويخرج الميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها) إلى آخر الآية ٢٢
٤٤٢	قوله عزَّ وجلَّ : (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وأبتغاؤكم من فضله) إلى آخر الآية ٢٥

- قوله عز وجل : (وله من في السموات والأرض كل له قانتون) إلى آخر
 الآية ٢٨ ٤٤٦
- قوله عز وجل : (بل اتَّبِع الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) إلى آخر
 الآية ٣٢ ٤٥٢
- قوله عز وجل : (وإذا مَسَّ النَّاسُ ضُرًّا دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيئِينَ إِلَيْهِ) إلى آخر
 الآية ٣٥ ٤٥٦
- قوله عز وجل : (وإذا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيبُهُمُ سَيِّئَةٌ)
 إلى آخر الآية ٣٨ ٤٥٨
- قوله عز وجل : (وما آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ)
 إلى آخر الآية ٤١ ٤٦٠
- قوله عز وجل : (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الَّذِينَ مِن قَبْلِ)
 إلى آخر الآية ٤٤ ٤٦٦
- قوله عز وجل : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ) إلى آخر
 الآية ٤٧ ٤٦٧
- قوله عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فِيبَسُّطُهُ فِي السَّمَاءِ)
 إلى آخر الآية ٥٠ ٤٦٩
- قوله عز وجل : (وَلَمَّا أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ
 يَكْفُرُونَ) إلى آخر الآية ٥٣ ٤٧٢
- قوله عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً)
 إلى آخر الآية ٥٦ ٤٧٤
- قوله عز وجل : (فيومئذٍ لا ينفع الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعاندَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)
 إلى آخر الآية ٦٠ ٤٧٧

الصفحة	الآية
	تفسير سورة لقمان
٤٨١	قوله عز وجل : (السم - ، تلك آيات الكتاب الحكيم) إلى آخر الآية ٦
٤٨٦	قوله عز وجل : (وإذا تئلى عليه آياتنا ولئى مُستكبراً كأن لم يسمعها) إلى آخر الآية ١١
٤٨٩	قوله عز وجل : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله) إلى آخر الآية ١٣
٤٩٣	قوله عز وجل : (ووصينا الإنسان بوالديه حمّله أمه وهناً على وهن) إلى آخر الآية ١٥
٤٩٨	قوله عز وجل : (يا بُنَيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردلٍ) إلى آخر الآية ١٩
٥٠٥	قوله عز وجل : (ألم ترؤا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض) إلى آخر الآية ٢١
٥٠٨	قوله عز وجل : (ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) إلى آخر الآية ٢٦
٥١١	قوله عز وجل : (ولو أنّما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ) إلى آخر الآية ٢٨
٥١٤	قوله عز وجل : (ألم تر أنّ الله يولّج الليل في النهار ويولّج النهار في الليل) إلى آخر الآية ٣٠
٥١٦	قوله عز وجل : (ألم تر أنّ الفُلُك تجرى في البحر بينعمة الله) إلى آخر الآية ٣٢

قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ
 ٥١٩ إلى آخر الآية ٣٤) عن وكده

تفسير سورة السجدة

قوله عز وجل : (التَّسْمِ - ، تَنْزِيلِ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
 ٥٢٤ إلى آخر الآية ٤

قوله عز وجل : (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) إلى آخر الآية ٥ ...

قوله عز وجل : (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) إلى آخر
 ٥٢٩ الآية ١١

قوله عز وجل : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمِينَ نَاكَسُوا رُؤُوسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)
 ٥٣٨ إلى آخر الآية ١٥

قوله عز وجل : (تَنْجَافِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
 ٥٤٠ إلى آخر الآية ٢٠) خَوْفًا وَطَمَعًا

قوله عز وجل : (وَلَسُنَدِيقَتُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)
 ٥٤٧ إلى آخر الآية ٢٢

قوله عز وجل : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)
 ٥٥٠ إلى آخر الآية ٢٥

قوله عز وجل : (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ)
 ٥٥٢ إلى آخر الآية ٣٠

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٦ لسنة ١٩٨٦ م

مؤتمنة الأرز العسائونع

للصناعة والعشروالتوزيع

ص ٠ ب ١٦٧١ - الدوحة - قطر

